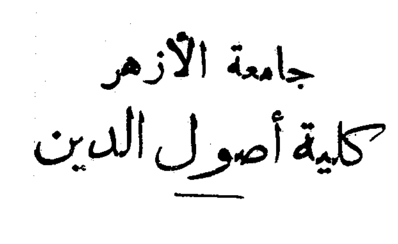




جامعة الأزهر
كلية أصول الدين

٨

الحسن البصرى

من عمالقة الفكر والزهد والدعوة فى الاسلام

رسالة مقدمة إلى كلية أصول الدين
لنيــل درجة العالمية (الدكتوراه)
فى قسم الدعوة والارشاد

إشراف
فضيلة الأستاذ الدكتور
مصطفى أمين التازى
رئيس قسم الحديث
بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر

إعداد
مصلح سيد بيومى
المدرس المساعد
بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر

١٣٩٢ هـ — ١٩٧٣ م



١

بسم الله الرحمن الرحيم

" ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله
وعمل صالحا وقال انني من المسلمين "

(صدق الله العظيم)

" فهم الحسن البصري للآية الكريمة "

لما تلا الحسن البصري تلك الآية الكريمة قال : هذا حبيب الله ، هذا ولى الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض الى الله ، أجاب الله فى دعوته ودعا الناس الى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحا فى اجابته ، وقال انني من المسلمين هذا خليفة الله .

عند سلطان جائر ... لذلك نرى هذه الأمة لم تعدم فى عصر من عصورها مجددين فى الدين ، وأئمة فى العلم ، وعماليق فى الفكر ، وأبطالا فى الجهاد ، وروادا فى الاصلاح ، لا يوجد نظيرهم — لا فى الكمية ولا فى الكيفية — فى أمة من الأمم .. وما هذا الا ليحقق الله وعده " انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون "(١) .
وكذلك مصداقا لقول النبى صلى الله عليه وسلم : " ان الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها ". (٢)

والأمة الاسلامية التى حملت الراية المحمدية فى العالم أجمع وللانسانية كلها مدينة بالفضل والعرفان لرجال " صدقوا ما عاهدوا الله عليه "(٣) ، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله "(٤) ، " قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل "(٥) ، لرجال " كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم "(٦) .

بايمان هؤلاء الرجال العمالقة استحقت الأمة الاسلامية أن تكون كما وصفها البارى تبارك وتعالى " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله "(٧) . وخير هؤلاء الرجال من كانوا فى القرون الأولى من الرسالة المحمدية " خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .. "(٨) .

مع هذه الرسالة عشت مدة من الزمن ، أفكر فى عظمتها وصمودها أمام الأحداث . وحول هؤلاء الرجال المخلصين ، تفاعلت مع الكثير منهم .

ولكن واحدا منهم جذبنى اليه بعلمه وعمله . فقد جمع بين الكتاب والسنة ، وآثار السلف الصالح رضى الله عنهم ، وكان صاحب خبرات طويلة فى عصره الذى عاش فيه .. وكان لخطورته فى مجتمعه أن حاولت كل جماعة وفرقة أن يكون سيدا واماما لها . ولا نكاد نجد كتابا أو بحثا فى الدراسات الاسلامية الأصيلة الا وله

---

(١) رجال الفكر والدعوة فى الاسلام لأبى الحسن الندوى ص ٩ — ١٠ دار الفتح بدمشق ط٢ ، والآية الكريمة من سورة الحجر رقم ٩ .
(٢) هذا الحديث أخرجه أبو داود فى الملاحم من سننه والطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة به مرفوعا وسنده صحيح رجالهم كلهم ثقات وكذا صححه الحاكم — تميز الطيب من الخبيث للشيبانى الشافعى .
(٣) الأحزاب آية ٢٣ (٤) النور آية ٣٧ (٥) سورة آل عمران الآية ١٧٣
(٦) سورة الذاريات الآيات ١٧ — ١٩ (٧) سورة آل عمران الآية ١١٠
(٨) [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون . وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله . القدوة الصالحة لكل زمان ومكان . بلغ الرسالة وأدى الأمانة . وربى الأمة ولحق بالرفيق الأعلى بعد أن أكمل الله على يديه رسالات السماء ، وأعلنها مشهدا عليها فى حجة الوداع : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا " (١) . صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد : فان العالم قبل الاسلام كان فى حاجة الى رسالة تنقذه من الهوة السحيقة التى تردى فيها . وقد أثبت التاريخ والواقع أن الاسلام هو هذه الرسالة وأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو المرسل للبشرية بهذه الدعوة الخالصة التى أخرجت العالم من الظلمات الى النور . " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم " (٢) . ولما كانت رسالة الاسلام هى الرسالة الخالدة الباقية الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، والأمة التى حملت هذه الرسالة هى الأمة الأخيرة التى لا أمة بعدها . " انه لا نبى بعدى " (٣) . فكان لابد لهذه الرسالة ولهذه الأمة التى تحملها من عقبات تقف فى طريقها . شأن كل دعوة الى الاصلاح لخير البشرية . واستطاعت الأمة الاسلامية بفضل القوة الذاتية للرسالة نفسها من جهة ، ومن جهة أخرى " أن الله قد تكفل بأن يمنح هذه الأمة التى قضى ببقائها وخلودها رجالا أحياء أقوياء فى كل عصر ، ينقلون هذه التعاليم الاسلامية الى الحياة ويعيدون الى الأمة الشباب والنشاط ، وأن هذا الدين نفسه من أقوى العوامل فى وجود الأشخاص فى كل عصر ومصر ، لأنه يثير فى أتباعه ودارسيه كوامن القوة ، ويبعث فيهم الشجاعة لمواجهة الأوضاع الفاسدة فى المجتمع . ويفرض عليهم انكار المنكر وكلمة حق

---

(١) المائدة الاية رقم ٣

(٢) المائدة الآية رقم ١٥ ، ١٦ .

(٣) لفظ الحديث عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال " كانت بنوا سرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلفه نبى وأنه لا نبى بعدى " . رواه البخارى . كتاب الأنبياء - باب ما ذكر عن بنى اسرائيل .

وما زاد من همتى فى معالجة هذه الشخصية الفذة • حينما التحقت بكلية أصول الدين أن أعلن المجلس الأعلى للشئون الاسلامية عدة سنوات عن أبحاث فى موضوعات شتى • وقد كان لى شرف المشاركة فيها وحصلت على جائزة المجلس فى سنوات متتالية • ومنها جائزة البحث عن " الحسن البصرى " (١) •

ومع ذلك فان الكتابة عن هذا العملاق ليست بالشئ الهين بخلاف الكثير من العلماء الأفاضل الذين تناولهم الباحثون والمفكرون بالبحث والدراسة ، والسر فى هذا أن الحسن البصرى وجد فى عصر لم يكن التدوين قد أخذ دوره الكامل بعد ، كما أنه من الشخصيات التى تنازع عليها كثير من الجماعات والفرق المختلفة كما أشرنا آنفا • كل منها تنتسب باتجاهاتها اليه • تجعل لمذهبها قيمة بين المذاهب المتعددة •

وأيضا الحسن لم يترك مؤلفات مستقلة كغيره من المتأخرين • اللهم الا الآراء والأفكار المتناثرة فى بطون الكتب والأبحاث والرسائل المختلفة فى معظم العلوم والفنون المعروفة فى عصره •

من كل ما سبق يجعلنا نعتقد تماما بأن الطريق الى معالجة هذه الشخصية النادرة صعب مملوء بالأشواك • مما أدى الى نصيحتى من بعض أساتذتى بكلية أصول الدين بالعدول عن هذا الموضوع اشفاقا علىّ • وعلى حد تعبير أحدهم : ان اختيارك لهذا الموضوع يقتضيك أن تقرأ التراث الاسلامى كله وهذا صعب المنال •

وفى الواقع نظرت الى نصيحة أساتذتى المخلصين بجدّ • وكدت أن أعدل عن هذا الطريق الذى فكرت فيه • لولا أن الله عز وجل شرح صدرى لهذا الموضوع بعد استخارة علمنا اياها المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فعقدت العزم للسير فى هذا الطريق ، ونظرت الى نصيحة أساتذتى على أنها تصوير لأهمية هذه الخطوة التى سأقدم عليها حتى أعد للأمر عدته • خاصة ومن يوم أن كنت طالبا فى السنوات الأولى بالأزهر الشريف والمولى تبارك وتعالى وفقنى للعمل فى حقل الدعوة الاسلامية • فكنت دائما أتمثل بالكثير من كلام الحسن البصرى الذى كان له تأثير فى القلوب مما أدى هذا التأثير الى نتائج طيبة وثمرات مباركة •

ومن كلامه هذا الذى لا ينسى قوله : " الواعظ من وعظ الناس بعمله لا بقوله " وقوله : " لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه • الموت والمرض والفقر ، وأنه

(١) مجلة منبر الاسلام ، العدد ١٢ السنة ٢٣ ص ٢٦١ •

بعد ذلك لوثاب " ، وقوله : " ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من يقيننا بالموت وعملنا لغيره " ... الخ ، على هذا فصلتي بالحسن قديمة ، لها تأثير في نفسي لا يمحى على مدى الأيام ، حينئذ أخذت أتجول هنا وهناك في بطون المراجع والمصادر المختلفة ما بين قديم وحديث ، ومطبوع ومخطوط بالقدر المستطاع الذى وهبنى الله اياه .

ومما شجعنى على ذلك بعض الأضواء التى ألقيت على هذه الشخصية حديثا ومنها : بحث عن الحسن البصرى للدكتور احسان عباس ، وقد أفدت منه اذ فتح لى أبوابا مغلقة فى جوانب هذه الشخصية الفريدة ، وشاركت بهذه الافادة فى القاء بعض الضوء عليه ببرنامج (من قاعة المطالعة) باذاعة (مع الشعب) فى شهر رمضان سنة ١٣٩١ هـ ، ومنها ما كتبه الدكتور على سامى النشار عن مدرسة الحسن البصرى فى كتابه (نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام) ، وما كتبه الداعية الاسلامى أبو الحسن الندوى عن الحسن البصرى فى كتابه (رجال الفكر والدعوة فى الاسلام) وما كتبه فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة فى بحثه عن تاريخ الجدل ، الى غير ذلك من الكتابات المتعددة عن بعض جوانب الحسن البصرى التى لا أنكر فضلها .

وبعد جولات طويلة فى المكتبة الاسلامية تجمع لدى محصول ليس بقليل من آثاره القيمة ، هذا المحصول الكبير عن الحسن البصرى وأفكاره ، لا نأتى به فى الرسالة لأول وهلة بدون تمحيص ولكن أخذنا نميز الأقوال التى لا شك فى نسبتها للحسن من غيرها — على قدر المستطاع — لأن بعض هذه الأقوال كان يبدو عليها الاضطراب بسبب التيارات المختلفة التى كانت موجودة فى عصره ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان الحسن البصرى كان دائرة للمعارف فى عصره وكان دائما يميل الى اصلاح الفرد والمجتمع كما يشارك فى الحفاظ على كيان هذا المجتمع الذى يعيش فيه مع حبه فيه الجميع ، هذا التمييز بين أقوال الحسن البصرى واستخلاص الآراء المتعددة من المراجع والمصادر التى كانت تحت أيدينا ، لنصل بذلك الى ابراز هذه الشخصية النادرة ، كان طريقنا الذى سلكناه للتعرف على فقيه عصره الحسن البصرى ، وبعد هذا بدأت آراؤه المتعددة تتضح وتتجلى فاستعنت الله عز وجل ، ورتبت دراستى فيه على مقدمة ، وثلاثة أبواب وخاتمة ، الباب الأول منها لدراسة عصره الذى عاش فيه ، والباب الثانى لحياته وتكوين شخصيته ، أما الباب الثالث والأخير فقد جعلته لمعالجة فكره ، وزهده ، ودعوته الى الله تعالى ، كما أنها تنتهى بخاتمة تبين النتائج التى انتهت اليها الرسالة مع بيان تأثيره فى عصره والعصور التالية وامكان الانتفاع بأفكاره وآرائه

فالمقدمة تشرح فكرة الرسالة والخطة التى سارت عليها . ثم يجىء بعد ذلك :
الباب الأول ، وهو دراسة لعصره تشتمل على ثلاثة فصول : الفصل الأول : بيان للأحوال الاجتماعية فى هذا العصر ، وتشمل عهد الخلفاء الراشدين ، وجزءا كبيرا من الدولة الأموية . وبينت فيه بوضوح أن الاسلام عنى عناية كبيرة بالفرد ، والأسرة والمجتمع . ثم ألقيت نظرة على الرقيق فى ضوء الأسلام وأنه حالة عمل الاسلام من أول يوم جاء فيه على الحد منها والتضييق عليها . وبعد هذا جاء دور السلوك الاجتماعى .. مبينا أن الاسلام أعطى له من الأهمية ما لم ينلها فى أى دين من الأديان الأخرى أو مذهب من المذاهب المختلفة . ثم كان هذا الوضع الاجتماعى المثالى أيام الخلفاء الراشدين .

ولكن بعد أن جاء عهد بنى أمية ، وكثرت الفتوحات الاسلامية ودخل الكثير من الموالى فى دين الله أفواجا ، وأقبلت الدنيا على المسلمين .

بدأ أصحاب الجاه والسلطان والأموال يتطلعون الى المزيد من نعيم الدنيا وزخرفها فى كل مرافق الحياة . بعكس الوضع فى عهد الراشدين القائم على الأخذ من الدنيا بقدر الحياة فيها . وقد أدى اقبال بنى أمية على الحياة الدنيا بهذا القدر الكبير الى سقوط دولتهم لتقوم على أنقاضها الدولة العباسية .

والفصل الثانى : كان دراسة للحالة السياسية . بينت فيه موضوع الخلافة الاسلامية وأنه كان سببا فى خلاف شديد بين أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم عقب موته ، ومع هذا سرعان ما وصلوا الى الحل الحاسم بتولية أبى بكر الصديق . ثم جاء عمر بن الخطاب وكان مثالا للقيادة الاسلامية الرشيدة مما أعجز غيره أن ينسج على منواله . ثم جاء عثمان بن عفان ذو النورين ، وسير المجتمع الاسلامى بطريقة خاصة أدت فى النهاية الى استشهاده بهذه الصورة الأليمة التى لا يرضى عنها أى انسان لديه وازع من ضمير فضلا عن المسلم الذى سعد بصحبة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وفى ختام الراشدين جاء الامام على كرم الله وجهه . وبينت الظروف العصيبة التى قام فى وسطها هذا الامام . والتى أدت الى استشهاده عليه رضوان الله تعالى .

ثم ألقيت الضوء على حكام بنى أمية الذين عاصروا الحسن البصرى مع توضيح للأسباب التى أدت الى ظهورها • ولم أنس أبدا أن أقف طويلا مع خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز فى ادارته للأمة وصلته بالحسن البصرى الداعية الى الله تعالى •

والفصل الثالث والأخير ، كان لدراسة الحياة الفكرية فى عصر الحسن • بينت فى هذا الفصل الحياة الفكرية فى عهد الراشدين وأنها كانت قائمة على الكتاب والسنة ثم وضحت بعد هذا الأسباب التى أدت الى ظهور الأحزاب والفرق الدينية التى كانت سببا فى ضعف الجهود المبذولة لنشر الدعوة الاسلامية والتى انحصرت فى الأمور الآتيـــة :

١ ـ سياسة الدولة وحكمها • ونتج عن هذا ظهور الشيعة والخوارج •
٢ ـ كثرة الاسرائيليات التى سرت عدواها الى تفسير القرآن ، والسنة والاهتمام بالرد عليها •
٣ ـ الشبهات التى تثار حول الاسلام خصوصا بعد الفتوحات ودخول الكثير فى دين الله أفواجا والرد عليها •

ثم تكلمت بشىء من التفصيل عن هذه الفرق مثل : الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلـــة •

وبينت أن الصبغة العامة لهذا العصر الفكرى هى : الجدل •

وبعد دراسة عصر الحسن من الناحية الاجتماعية ، والسياسية ، والفكريـــة يجىء بعد هذا الباب الثانى ، ويختص بترجمة للحسن ، ويشتمل على تمهيـــد وفصلين • تحدثت فى التمهيد عن المدينة المنورة التى نشأ فيها الحسن بايجـــاز ، وكذلك البصرة التى عاش فيها الحسن بقية حياته مع أسرته ••

وفى الفصل الأول تحدثت فيه عن حياته • مبينا أشهر الأسماء التى كان ينادى بها ، كما أشرت الى رأى بعض الباحثين وهو أنه من أسرة عربية وحققته • ثم بينت بيئته التى تربى فيها فى مبدأ حياته وهى البيئة النبوية الكريمة حتى قالوا أن فصاحته جاءت من تناول ثدى أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم فى وقت غيـــاب أمــه لبعض حاجتها فربما درعليه بعض اللبن • وقد شاهد وهو بالمدينة الحيـــاة الاسلامية الصحيحة الذى يمثلها أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والذى قال فى حقهم

عليه السلام " لا تسبوا أحدا من أصحابى فان أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبــــــا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه "(1) ، كما شاهد أيضا فى أواخر أيامه فيها الفـتن المثيرة التى أعقبت مصرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، هذه الفتن المثـــــيرة انطبعت صورتها الدامية فى نفس الحسن مما جعله دائما ينفر من الفتن مدة حياته .

ومن يدرى لعل هذه الصورة البشعة هى التى غرزت فيه عاملى الخوف والحـزن اللذين لازماه طوال عمــــره .

ثم بعد ذلك اتجه مع أسرته الى البصرة . وفيها ــ أى البصرة ــ وضحـت كيف كانت حياة الحسن البصرى ، وكيف كافح الحسن بكل ما يملك فى سبيـــل اعــــلاء كلمة الله تعالى . وكانت حياته الى حد كبير تشبه حياة أصحاب النبى صلى اللـــه عليه وسلم . سواء كان ذلك بينه وبين أسرته أو بينه وبين مجتمعه . ففى مجـــال أسرته كان الحسن رحمه الله فى صراع عنيف معها لأنه كان يحمل أسرته دائما علـى الجادة وعلى التأسى بالسلف الصالح رضى الله عنهم أجمعين . فنراه بسبب ذلـك يعيش عيش من ينتظر النعيم الدائم يوم القيامة . واذا أخذ العطاء من الدولة الذى لا يفهم منه معنى الأجر حجز لأسرته ما يسد الرمق الضرورى ، ويستر العورة ويوزع الباقى على الفقراء والمحتاجين .

وكان منزله وما يحتويه يـقى فقط من برد الشتاء وحر الصيف ــ غالبا ــ وفـى منتهى البساطة من حيث المبنى وما فيه من الأدوات التى تذكرنا بما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم . ومن أجل هذا كان يختار الزوج لابنته من هو على هذا الطريق . قال حميد الطويل تلميذ الحسن : " خطب رجل الى الحسن ابنته ، وكنت السـفير بينهما فرضيه ، وأراد أن يزوجه فأثنيت عليه ذات يوم وقلت : وأزيدك يا أبا سعيد أن له خمسين ألفا ، قال : أقلت : له خمسون ألفا .. ما اجتمعت من حـلال -- قلت : يا أبا سعيد ، انه والله ما علمت لورع مسلم ، فقال : ان كان جمعها من حلال لقد ضـن بها على حق .. لا يجرى بينى وبينه صهر أبدا .

وكان رحمه الله بعد أن زوج ابنته ممن يسير على هذا الطريق السوى يـقابلـه عند زيارته فى بيته قائلا : " مرحبا بمن كفى المؤنـه وسـتر العورة ــ ثم يتنحى لـه عن مكانه تكريما له .

ومع هذه الحياة القاسية فى أسرته فقد أجبر الحسن رحمه الله دولة بنى أمية على احترامه ومخاطبة وده •

وفى البصرة التقى الحسن بالكثير من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذلك فى الفتوحات الشرقية التى ساهم فيها لرفع راية الدين وبينت فى هذا المجال موقف الحسن البصرى من ولاة الأمر • خاصة الحجاج بن يوسف الثقفى الذى اشتهر بالقسوة والجبروت ومع هذا فقد عرفنا كيف أن الحسن لم يخف سطوته وبأسه فقط بل نصحه ووعظه أيضا • ووصل الأمر بالحجاج هذا أن كان يقف على حلقته بالمسجد ليستمع الى مواعظه دون أن يحدد اقامته ، أو يعلن محاكمته •

ثم بينت علاقة الحسن بخامس الراشدين عمر بن عبد العزيز وكيف تعاون معه على بناء دولة الايمان الصادق ، والعلم النافع • كما أوردت بعض الرسائل من الحسن الى عمر الدالة على ذلك •

ولم ننس رحلته الى بيت الله الحرام • وأيضا أشرت الى موقفه من ثورتى يزيد ابن المهلب ، وابن الأشعث مبينا رأيه فى هاتين الثورتين والثورات عموما • وكيف أن الطريق الحق — فى نظره — لاصلاح المجتمع هو تربية الفرد والأسرة وبالتالى المجتمع على أساس من الدين • وفى نهاية هذا الفصل يعيش الحسن أيامه الأخيرة ، معتمدا على الله تعالى فى جميع أحواله حتى لقى ربه •

وقد بينت فى هذه النهاية الدليل الواضح على شقة أفراد الأمة بفقيههم ومعلمهم • حينما لقى الحسن ربه حزن عليه الناس حزنا شديدا • بلغ من أمره أن صلاة العصر لم تقم يومئذ فى جامع البصرة الكبير • لأن الناس كلهم تبعوا جنازته ، وذلك أمر لم يحدث قبل منذ أن جاء الاسلام الى هذا المكان •

أما عن الفصل الثانى والأخير من هذا الباب • فقد عقد لدراسة مؤهلاته وتكوين شخصيته • وتناولت هذه الدراسة الصفات الظاهرية للحسن ، وكذلك الصفات المعنوية التى اتصف بها وكانت سببا من أسباب تكوين شخصيته كالزهد ، والتسامح والعلم ، والشجاعة ، والفصاحة •• الخ • كما ألقيت ضوءا على بعض شيوخ الحسن الذين أخذ عنهم واستفاد بعلمهم ومواعظهم •

مثل : أنس بن مالك ، وعبد الله بن عباس ، وعامر بن عبد القيس ، وصلة بن أشيم ، وحطان الرقاشى ، أبو العالية ... كذلك لم أنس أقرانه الذين تعامل معهم وعاش بجوارهم وذلك كابن سيرين ، وعامر الشعبى وغيرهما .

وفى نهاية الفصل ذكرت بايجاز هذه المؤهلات للحسن التى كونت شخصيته وجعلت منه الداعية المخلص الصادق فى دعوته . ألا وهى :

أ — صفاته الظاهرية .

ب — صفاته المعنوية .

جـ — شيوخه الذين أخذ عنهم وانتفع بعلمهم .

د — عصره الذى عاش فيه حيث التقى فيه علمان . علم النبوة الذى حمله أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعض العلوم الأخرى التى جاءت بسبب الفتوحات الاسلامية والذى حملها بعض الداخلين فى الاسلام من أهل الملل الأخرى .

هـ — ثقافته الواسعة من الاسلام .

و — مساهمته فى الفتوحات الشرقية التى أكسبته الخبرة النافعة .

ز — الظروف الطيبة التى ساعدته بسبب المولد والنشأة مع اخلاصه التام لله رب العالمين .

وفى الباب الثالث والأخير من هذه الرسالة تحدثت عن فكر الحسن البصرى وزهده ، ودعوته الى الله تعالى . ويشتمل هذا الباب على تمهيد وثلاثة فصول . ذكرت فى التمهيد أهمية هذا الباب . ثم ذكرت الفصل الأول وكان يتعرض لفكر الحسن : بينت فيه : معنى الفكر وأنه شىء أصيل فى رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وبعد هذا تحدثت عن مدرسة الحسن أو تلاميذه الذين حملوا أفكاره الى الأمة الاسلامية . وأتيت ببعض التراجم المختلفة التى تمثل اتجاهات تلاميذ هذه المدرسة . كواصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، وقتادة ، وفرقد السبخى ، وشعبة بن الحجاج وغير ذلك من تلاميذه النجباء .

ثم ذكرت بعد هذا أنماطا من الفكر عند الحسن مبينا فكره فى القراءات وأثبت أن قراءة الحسن البصرى من الممكن أن تكون من مثيلات السبعة المتفق عليها اذا عنى بدراستها وبحثها ، خاصة وأن هناك من العلماء الأجلاء من هم ساروا فى هذا الطريق مثل ما كتبه الشيخ عبد الفتاح القاضى ، والشيخ عامر السيد عثمان ، والدكتور عبد العال سالم على والدكتور عبد الصبور شاهين الى آخر هؤلاء العلماء .

ودعوت بهذه المناسبة الى انشاء دراسات عليا للقراءات القرآنية مع وضع كل الامكانيات التى تكون سببا فى نجاح هذه الدراسات . حتى لا ندع فرصة للمستشرقين والمبشرين وأعداء الاسلام يهدمون فيه باسم المنهج العلمى فى نظرهم .

كذلك بينت فكره فى تفسير القرآن الكريم وبينت أن الحسن له تفسير برواية عمرو بن عبيد ولكن لم يصل الى أيدينا بعد .

ومع هذا فهناك الكثير من آرائه المتعددة حول آيات القرآن الكريم امتلأت بها كتب التفسير من الممكن أن تكون رسالة مستقلة حول هذا الموضوع مثل : تفسير الطبرى ، وابن كثير ، والقرطبى ، والكشاف ، والألوسى ، والتفسير الكبير للفخر الرازى ، والبحر المحيط لأبى حيان .. الخ . وذكرت نماذج لتفسير الحسن تبين اتجاهاته ومنهجه فى هذا السبيل .

وبينت فكره فى السنة النبوية الشريفة مبينا ما أخذ على الحسن من هذه الناحية وهو الارسال ، والتدليس وأدى هذا الى بيان معنى الحديث المرسل وهل يحتج به وبالتالى هل يحتج بمرسلات الحسن . وكذلك المدلس موضحا موقف الحسن منه وهل يحميه ذلك ؟ وخرجت من كل هذا بنتيجة .

هى أن الحسن البصرى له ضلع كبير فى رواية السنة النبوية الشريفة وما ثبت عنه من الارسال والتدليس لا يؤثر فى روايته للأحاديث ، لأن الحسن رحمه الله انما أرسل فى بعض الأحاديث اعتمادا على ثقته فى نفسه وثقافته الواسعة بدليل أنه قال : اذا اجتمع لى أربعة من الصحابة على حديث أرسلته [1] .

وبينت فكره فى الفقه أو التشريع الاسلامى ذاكرا لبعض الأمثلة تبرز منهجه الدال على عقله النير واتجاهه السليم ، والتى تبين مع غيرها من الأمثلة الأخرى أن الحسن البصرى بلا منازع أحد الفقهاء المشهورين الذين تركوا أثرا كبيرا فى الفقه الاسلامى حتى أن بعض العلماء رووا عن محمد بن مفرج القاضى القرطبى أن له كتابا تحت عنوان " فقه الحسن البصرى " فى سبع مجلدات . ولكن للأسف لم نعثر عليه . ومع هذا فان آراءه فى هذه الناحية امتلأت بها أمهات كتب الفقه الاسلامى مثل : المغنى لابن قدامه والأم للشافعى ، والمحلى لابن حزم ، واختلاف الفقهاء للطبرى وحاشية ابن عابدين .. الخ كما أن الشيرازى وضعه بين الفقهاء .

---

(1) تهذيب التهذيب لابن حجر ج ٢ ص ٢٦٣ — ٢٧٠ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ .

وأخيرا وضحت فكره فى العقيدة . تحدثت فى هذا المقام عن أهم الأمور التى كان يكثر فيها الحديث حينئذ وهى القدر ، والايمان ، ومرتكب الكبيرة .. ورأى الحسن فى كل منها أمام التيارات المختلفة بالبصرة . لا سيما القدر لذا عرضت فى هذا الموضع رسالة الحسن كاملة الى عبد الملك بن مروان والتى اتهم بسببها أنه تحدث فى القدر . وأثبت نسبة الرسالة اليه مع بعده عن اتهام بعض العلماء والباحثين له بالقدر . وأثبت بأن ما قاله الدكتور أحمد كمال زكى فى كتابه " الجاحظ " عن كون الحسن البصرى أول من تكلم فى القدر ليس بصحيح لأن الذى ثبت عنه ذلك هو معبد الجهنى الذى قال قولته المشهورة " لا قدر والأمر أنف " فنبذه الصحابة والتابعون ووصل به الأمر الى أن قتله الحجاج بن يوسف الثقفى لما خرج مع ابن الأشعث . والقارئ لرسالة الحسن البصرى الى عبد الملك بن مروان يجدها لا تخرج عن كلام السلف الصالح كما أنها مدعمة بالآيات القرآنية وكمثال على ذلك ما قاله فى رسالته : .. وقد أدركنا ، يا أمير المؤمنين السلف الذين عملوا بأمر الله ، ورووا حكمته واستنوا بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا لا ينكرون حقا ولا يحقون باطلا ، ولا يلحقون بالرب ، تبارك وتعالى الا ما ألحق بنفسه ولا يحتجون الا بما احتج الله به على خلقه فى كتابه فان الله تبارك وتعالى يقول : ، وقوله الحق : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) . فأمرهم الله بعبادته التى لها خلقهم ، ولم يكن ليخلقهم لأمر ثم يحول بينهم وبينه ، لأنه تعالى ليس " بظلام للعبيد " .

ولم يكن أحد ممن مضى من السلف ينكر هذا القول ، ولا يحاول عنه ، لأنهم كانوا على أمر واحد متفقين ، ولم يأمروا بشئ منكر كما قال تبارك وتعالى : " قل ان الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله مالا تعلمون قل أمر ربى بالقسط " .. الى آخر ما قال فى رسالته الى عبد الملك .

وبعد تحقيقى لهذه الرسالة والتعليق عليها بالتفصيل خرجت بنتائج تتلخص فى أن بعض القوم الذين عاش فيهم الحسن البصرى أرادوا أن يرتكبوا المعاصى محتجين بالقضاء والقدر معتذرين عن أعمالهم هذه دون أن يعقدوا العزم على التوبة الصادقة والعمل الصالح مما حدا بالحسن البصرى أن يرد عليهم فى هذه الرسالة وغيرها من الأفكار والآراء ، الموجودة فى أمهات المراجع والمصادر .

وبالكلام عن العقيدة كما يصورها الحسن ينتهى الحديث عن الفصل الأول ويجئ الحديث عن الفصل الثانى : ليتناول زهد الحسن بشئ من التفصيل وهو

الشئ الذى يبرز غالبا حينما يذكر الحسن البصرى . ذكرت فى هذا الفصل معنى الزهد وعلاماته . ثم عرجت على الزهد عند الحسن ومظاهره . مبينا أن الزهد عند الحسن ليس تركا للدنيا وزينتها وانما يكون فى ضوء قوله تعالى : " لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم " . وذكرنا الحديث عن الزهد بالحديث عن التصوف الذى كان كأساس له مظهرا فى هذا المعنى التصوف وعلاقته بالزهد . كل هذا بايجاز حتى نصل الى هذا السؤال القائل : هل كان الحسن متصوفا ؟ وكان الجواب بنعم . مثبتا ذلك بالأدلة المختلفة التى توصلت اليها .

وقد جرنا الحديث بسبب ذلك عن صلة الحسن بالسيدة رابعة العدوية وأثبت عدم وجود هذه الصلة بما استطعت من الدليل ورددت على من زعم وجود صلة بينهما .

ثم ختمت هذا الفصل بكلمة عن : التصوف والصوفية فى الميزان . مبينا بأننى لست مع المتغالين من المؤيدين للصوفية على علاتها ولست مع المعارضين لها قولا واحدا دون نظر واستقصاء .

ولكننى اتخذت طريقا وسطا به نصل على جمع الكلمة وتوحيد الصفوف والأخذ بالمجتمع الى ما فيه النجاح والفلاح وهو ما أخذ به الحسن البصرى رحمه الله .

بعد هذا أجدنى وجها لوجه أمام الحسن كداعية بالمفهوم المحدد للدعوة فى مصطلحنا الحديث لكن قبل أن أتكلم عن هذا المفهوم المحدد أحب أن أوضح أن جهود الحسن كمفسر وكمحدث وكفقيه وكمتكلم .. الخ كل هذه الميادين كان يعمل فيها الحسن بفكر وهدف ومفهوم الدعوة فى عصره فكلها كانت ميادين للدعوة بيانا وتوضيحا ورد شبه . وهذا المفهوم للدعوة فى حينه لا يمنع أن نخصص فصلا للحسن كداعية بالمفهوم الاصطلاحى فى عصرنا الحديث تتميما للبحث المنهجي فيه .

لهذا يجئ الفصل الثالث والأخير من الباب الثالث ليبرز لنا جهود الحسن فى الدعوة الى الله تعالى . بينت فى هذا الفصل معنى الدعوة لغة واصطلاحا . وبينت بأن الدعوة فى الاصطلاح لمختلف العلماء فى تعريفها . وأشمل تعريف فيما ذكر فى نظرى ما ذكره الشيخ الخضر حسين فى قوله : " هى انقاذ الناس من ضلالة أو شر واقع . وتحذيرهم من أمر يخشى عليهم الوقوع فى بأسه " وقد أثبت ذلك بالأدلة كما ورد فى الرسالة .

ثم ذكرت أهمية الدعوة الى الله تعالى وأنها أمر ضروري لا غنى عنه للناس جميعا مهما وصلوا الى الذروة فى التقدم العلمى والحضارى . ووضحت بأن الناس الذين ينكرون فضلها مخطئون فى تفكيرهم ، وبينت بأن تفكيرهم هذا ليس جديدا بل هناك من قديم من قال بهذا القول البعيد عن الصواب ورددت على كل هذا بالدليل من الكتاب والسنة والواقع .

ثم تحدثت عن أصول الدعوة وقسمت هذه الأصول الى أربعة : الأصل الأول : موضوع الدعوة وهو الاسلام . وبينت بأن هذا الاسلام يشتمل على ما يحتاج اليه الانسان فى حياته من عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وأخلاق كريمة وغير ذلك .

والأصل الثانى : الداعى الى الله تعالى وبينت فى هذا الأصل الأمور التى يجب أن تتوافر فى هذا الداعى حتى يؤدى رسالته كما ينبغى .

والأصل الثالث : اختلاف أسلوب الداعى باختلاف المدعو .

والأصل الرابع : وسائل الدعوة الى الله تعالى .

ثم بينت بعد ذلك أهداف الدعوة وأنها تنحصر فى هدفين :

الأول : دعوة غير المسلمين الى الدخول فى الاسلام .

والثانى : دعوة المسلمين بعضهم بعضا الى الخير .

ثم بينت بعد هذا السبب فى اهتمام الحسن البصرى بالدعوة الى الله عز وجل ويتلخص هذا فى فهمه العميق لقيمة الدعوة ، ومنزلة الداعية وهذا يوافق قوله تعالى : " ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين " .

وفى ضوء هذا ذكرت منهج الحسن البصرى فى الدعوة الى الله تعالى . وأنه كان بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، والقدوة الطيبة والمقارنة بين عهد الرسول والصحابة وما آل اليه أمر المسلمين فى عهده ، وتقوية الوازع الدينى فى الفرد ، والعمل على تجنب الفتن حفظا لوحدة المسلمين .. الخ .

وبعد هذا بينت أسلوب الحسن أثناء عرضه لهذه الدعوة المباركة .

ثم أشرت الى بعض الموضوعات التى تناولها الحسن البصرى فى دعوته الى الله تعالى مثل : عدم الاغترار بالدنيا والتزود للآخرة ، وتربية الوازع الدينى للفرد ، ومكارم الأخلاق والحث على تلاوة القرآن الكريم وتدبره والعمل به .. الى غير ذلك من الموضوعات المتعددة التى يطول المقام عن ذكرها .

وفى نهاية الرسالة تجىء الخاتمة وتبرز النتائج التى انتهت اليها مع ذكـــر تأثيره فى عصره والعصور التالية وامكان الانتفاع بأفكاره وآرائه فى نهضتنا الحديثـــة. وذكرت على سبيل المثال ما يلى :

أولا : كثيرا ما نشكو من كثرة الجرائم المختلفة أيا كان نوعها ، واذا بحثنا عـــن السبب الأصيل لحدوثها نجده فقدان الوازع الدينى أو الضمير كما يسمونــه . لهذا نجد الحسن البصرى دائما يركز على تربية هذا الوازع الدينى ليقيـــم الانسان من نفسه رقيبـــا يحاسب نفسه بنفسه .

ثانيا : يتردد على كثير من الألسنة أن الناس على دين ملوكهم يصلحون بصلاحـــه ويفسدون بفساده . لهذا نجد الحسن البصرى دائما يوجه النصح ، والارشاد الى أى مسئول عن أى أمر من أمور المسلمين .

ثالثا : بسبب زينة الحياة الدنيا وزخرفها ينسون الناس أنفسهم حتى يصل اعتقادهم الى انكار اليوم الآخر . لذا نجد الحسن باستمرار يوضح ضرورة التذكـــير ويثير فى النفوس ذكرى اليوم الآخر وأنه آت لا ريب فيه .

رابعا : بينما المجتمع يسير لغايته التى رسمها له المخلصون من عباد الله تعالـــى . واذا بفئة تعمل فى الخفاء على انحراف هذا المجتمع عن الطـــريق الســـوىّ ، يطلق على هذه الفئة المنافقون أو الطابور الخامس فى عصرنا الحاضر .

لذا نرى الحسن البصرى يهتم بأمر هؤلاء ويوضح أساليبهم ليفهمها الناس جميعا فيكونون على بصيرة من أمرهم .

خامسا : فى بعض الأحيان نشكو من عدم تماسك المجتمع بأسباب متعددة منها : وجود الطائفية التى تعمل على بلبلة الأفكار وتخلخل المجتمع ، ومنها : ظهـــور الشائعات المغرضة التى يراد منها لفت أنظار الأمـــة الى غير مصلحتهـــا ، .. الخ . لذا نجد أن الحسن البصرى كثيرا ما يدعو الى تماسك الأمـــة ووحدة كلمتها كما بينا فى الرسالة ، وبعد هذا تجىء خاتمة الرسالة الـــتى توضح النتائج التى وصلت اليها . والله الموفق لكل خير .

وانني لأرجو أن تكون هذه الرسالة على مستوى ما كابدته في سبيلها من مشقة وعناء ، وأن تكون محققة للهدف الذي نرجوه منها وهو المساهمة الحقيقية في ابراز أعلام الاسلام الذين حملوا رايته ليقتدي بهديهم جميع أفراد الأمة المحمدية وكشف الغطاء عن حياة داعية من دعاة الاسلام وهو " الحسن البصري " الذي اختلف في أمره الكثير من الباحثين بسبب تنازع الفرق والأحزاب في جذبه اليهم لخطورته وأهميته في المجتمع الاسلامي .

وبالطبع لم أصل بهذه الرسالة الى منتهاها وابرازها على هذه الصورة الا بعد المعونة الصادقة من أساتذتي الفضلاء ، خاصة الذين أشرفوا على هذه الرسالة ، لذلك فانني أتقدم اليهم بجزيل الشكر وخالص الدعاء وهم المرحوم الدكتور محمد بن فتح الله بدران ، والمرحوم الدكتور طاهر عبد المجيد .

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لفضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى أمين التازي الذي فتح لي بيته ومكتبته ، سائلا المولى عز وجل أن يمد في عمره ويبارك فيه .

كما أشكر الاخوة الفضلاء الذين قدموا الي خالص جهدهم وأخص بالذكر الأستاذ حسن عيسى عبد الظاهر والأستاذ محمود حبيب .

كما أقدم خالص الشكر الى ادارة البعثات بوزارة التعليم العالي ، وجامعة الأزهر ، والادارة الثقافية بسفارة العراق بالقاهرة ، وأسرة مكتبة كلية أصول الدين ، ودار الكتب ، ومعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية والى كل من مد الي يد المعونة سائلا المولى عز وجل أن يجزيهم عني أحسن الجزاء .

وصلى الله على سيدنا محمد الداعية الأول وعلى آله وصحبه وسلم .

البـــــــاب الأول

عصـــــــر الحســـــن البصـــــــرى

الفصل الأول : الأحوال الاجتماعيـــة ..

الفصل الثانى : الحالة السياســـية ..

الفصل الثالث : الأحـــوال الفكـــرية ..

الباب الأول

عصر الحسن البصري

تمهيد :

لكى نتعرف على شخصية من الشخصيات يقتضينا ذلك أن نلقى الضوء على عصر هذه الشخصية وبخاصة اذا كانت شخصية المفكر والزاهد والداعية الذى نحن بصدده - الحسن البصرى - فلا مفر من القاء الضوء على هذا العصر وابراز معالمه الأساسية . حتى نصل الى هدفنا وهو أسباب تألق هذا العملاق فى سماء المعرفة من أجل أن يعرف الناس جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها أن الاسلام ربى أتباعه المخلصين على العلم النافع والايمان الصادق .

كما أنه جعلهم يعيشون للمبدأ الحق . واستحقوا بذلك قول الله تبارك وتعالى : " أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم "(١) . وهذا فرق كبير بين تربية أهل الايمان ، وتربية أهل الكفر . وصدق الله اذ يقول : " ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم "(٢) . وعصر الحسن هذا يحتاج الى التأنى فى النظر ، والتفكير ، والتدبر لأنه عصر تحول حضارى بدا على سطحه كثير من المتناقضات .

فهؤلاء هم الصحابة عليهم رضوان الله تعالى يحاولون التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا وطبع المجتمع بهذا الطابع . قال تعالى : " لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا "(٣) .

وقد ذاقوا ثمرة جهادهم النفسى والمادى مما نتج عنه انتشار راية الاسلام فى جميع بقاع الأرض .

---

(١) سورة الأنفال آية ٤
(٢) سورة محمد -صلى الله عليه وسلم- آية ١٢
(٣) سورة الأحزاب آية ٢١

ولو بقى الحال على ذلك لرأينا العدل يأخذ مجراه فى كل ناحية من النواحى ، والحرية الصحيحة تسير فى طريقها ، والسعادة الحقة للبشرية تؤتى أكلها ." وما ربك بظلام للعبيد " (١)

ولكن واجهت الأمة فى سيرها عقبات . نتاج هذا التحول ولم يكن ذلك سوى خدر المادية البارقة ، والانحطاط الخلقى والروحى الذى بدا يظهر بسبب رواسب الجاهلية الأولى التى أخذت تطل برأسها مرة أخرى . هذا الى تراث حضارات الأمم التى تقوض بنيانها تحت قوة الاسلام المؤثرة .

وما أصبحت أمة بمثل هذا الا كانت فريسة للاداء الخلقية والاجتماعية ، وتعرضت لنهب الأعداء ، وخواء الروح ، وفساد الظاهر ، وافلاس الباطن ، وعبادة الشهوات والتنافس القاتل فى الحياة . وما أصبحت بذلك أمة الا غاعت ، وانتكست ، وطويت مع الأمم الغابرة .

وقد أنبأ بهذا الخطر المصطفى صلى الله عليه وسلم حينما قال : " فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم " (٢) .

ولقد بدا الخطر الذى تخوفه الرسول صلوات الله وسلامه عليه على هذه الأمة وبلغ أوجه فى عهد بنى أمية . ولكن الله تعالى لطف بهذه الأمة اذا كانت شجرة الايمان قد استوت على سوقها فلم يكن نبتا غريبا . وكانت التربة صالحة لأن تمد المجتمع بنجدة من الدعاة المؤمنين المخلصين الذين نظروا فى هذه الأمة بجد ، للأخذ بيدها الى ما فيه عزها وسعادتها .

وفى مقدمة هؤلاء الدعاة الداعية المخلص " الحسن البصرى " وللتعرف على هذا العصر وتقدير الجهود التى بذلها امامنا يقتضى ذلك تقسيمه الى ثلاثة فصول :

الفصل الاول : الاحوال الاجتماعية

الفصل الثانى : الحالة السياسية

الفصل الثالث : الاحوال الفكرية

---

(١) سورة فصلت آية ٤٦

(٢) رواه مسلم عن عمرو بن عوف .

الفصل الأول

الأحوال الاجتماعية

الحديث عن الأحوال الاجتماعية لعصر من عصور التاريخ ولأمة من الأمم ، يقصد به عادة التحدث عن حالة الفرد ، والأسرة ، والمعاملات بين الناس ، والعادات والتقاليد الأصلية والدخيلة ، وما يتصل بالمرأة والجنس واللون ، والطعام والشراب والثياب والسكنى الخ ...

فاذا أردنا الحديث عن عصر الحسن من الناحية الاجتماعية فمعنى هذا أننا نتحدث عن جزء كبير من الأحوال الاجتماعية فى عهد الخلفاء الراشدين . وفى عهد بنى أمية لأن الحسن البصرى عاش فيما بين ٢١ ، ١١٠ هـ ، أى أدرك جزءاً من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعاش حتى وافته المنية فى خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ ، ٧٢٤ — ٧٤٣ م) .

فى عهد الخلفاء الراشدين :

ظل العالم بعامة ، والعرب بخاصة ردحا من الزمن قبل رسالة الاسلام فى قلق واضطراب يتطلع الى من يأخذ بيده الى الرشاد حتى سعدت البشرية برسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام .

قال عز من قائل : " .. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم " (١) .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : " مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب — فى رواية اخاذات — أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا — فى رواية ورعوا — وأصاب منها طائفة أخرى انما هى قيعان

---

(١) سورة المائدة آية رقم ١٥ ورقم ١٦

لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه ما بعثنى الله له ، فعلمه وعلمه ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به " (١) .

كما قد صور هذا المعنى الأستاذ " ج . هـ . دينسون " اذ يقول : " ففى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى لأن العقائد التى كانت تعين على اقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية الى ما كانت عليه من الهمجية ، اذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام . أما النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام ، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها الى العالم كله واقفة تترنح وقد تسرب اليها العطب حتى اللباب .. وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه " (٢) .

وقد أثبتت الأدلة القطعية أن محمدا كان صاحب هذه الرسالة مأمورا بها من الله سبحانه . " يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس .. " (٣) .

ولم تكن رسالته عليه الصلاة والسلام محلية وانما كانت عامة وشاملة . قال تعالى : " وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (٤) ، وقال تعالى : " وما أرسلناك الا رحمة للعالمين " (٥) .

كما أن السنة النبوية أيدت ذلك بدليل كتبه صلى الله عليه وسلم الى الملوك يدعوهم فيها الى الاسلام . يقول أنس بن مالك رضى الله عنه : " ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الى كسرى والى قيصر والى النجاشى يدعوهم الى الله تعالى وليس بالنجاشى

---

(١) رواه البخارى فى كتاب العلم ومسلم والنسائى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ...

(٢) " العواطف كأساس للحضارة " عن كتاب : الاسلام والنظام العالمى الجديد — تأليف مولاى محمد على وترجمة أحمد جوده السحار .

(٣) سورة المائدة آية ٦٧ (٤) سورة سبأ آية ٢٨ (٥) سورة الأنبياء آية ١٠٧

الذى صلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم " (١) .

ولم يلحق الرسول عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى حتى أتم تبليغ الرسالة . قال تعالى : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا " (٢) .

غادر الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الحياة والرسالة كاملة حمل أمانتها بعده الرجال الذين آمنوا به وصدقوه وصدقوا الله ما عاهدوه عليه . وهكذا حتى انتشرت دعوته فى الداخل والخارج فسمى هؤلاء الذين استجابوا لله وللرسول وسعدوا بلقائه بالصحابة . هؤلاء الرجال ظلوا يقتدون بالنبى صلى الله عليه وسلم فى جميع شئونهم حتى كونوا مجتمعا مثاليا أصبح أنموذجا ومثلا لكل أمة تريد أن تقيم مجتمعا سعيدا ناجحا الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

اهتمام الاسلام بالفرد :

اهتم الاسلام بالفرد كثيرا . ومن أهم مظاهر هذا الاهتمام ما يلى :

أ — قبل أن يوجد فى هذه الحياة أوصى الاسلام باختيار كل من الزوجين على أساس سليم . حتى يخرج الفرد الى الدنيا صحيحا معافى .

قال صلى الله عليه وسلم : " تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء " (٣) .

ب — وبعد أن يخرج الى الوجود نرى الاسلام قد عنى بتربيته بدنيا : وذلك بالحرص على نظافة جسمه ، وثوبه ، ومكانه . وتعويده على الأكل من الطيبات وعدم الاسراف .. قال تعالى : " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا " (٤) . كذلك تشجيعه على ممارسة الألعاب الرياضية أسوة بالنبى صلى الله عليه وسلم . وتربيته عقليا : وذلك بالقراءة ، والكتابة ، والتعلم ، والتأمل ، والتفكر ، والسياحة فى الأرض قال تعالى : اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم " (٥) وقال تعالى : " ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب " (٦) .. وروحيا :

---

(١) صحيح مسلم جـ ٥ ص ١٦٦ كتاب الجهاد . باب كتب النبى الى ملوك الكفار يدعوهم الى الاسلام . (٢) سورة المائدة آية رقم ٣

(٣) رواه ابن ماجه والدارقطنى عن عائشة مرفوعا به ومداره على أناس ضعفاء رووه عن هشام وكل طرقه ضعيفة . (تمييز الطيب من الخبيث .. للشيبانى الشافعى الأثرى) .

(٤) سورة الأعراف آية ٣١ (٥) سورة العلق الآيات ١ — ٥

(٦) سورة آل عمران آية ١٩٠

وذلك بابراز الفضائل ، والقدوة الصالحة ، وتلقينه المبادئ الصحيحة ،وتمرينه على العبادات قال صلى الله عليه وسلم : " مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع "(١) والمعاملة الطيبة على أساس الملاطفة وخفض الجناح •

كما اهتم الاسلام بالفرد في جميع مراحل حياته ، كذلك اهتم به أيضا بعد مماته •

واذا كان الاسلام اهتم هكذا بالفرد وأعطى له من الحقوق ما يهيئه لأداء رسالته في الحياة فقد ألزمه بواجبات في مقدمتها : طاعة الله ورسوله والتزام حدود الدين وأداء الفرائض " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون "(٢)

والجهاد لاعلاء كلمة الله تعالى ، والحفاظ على الوطن ،والعرض ، والمال ، والتعاون على البر والتقوى ، وترك كل ما يؤدى الى معصية الله ورسوله • ولعظم هذه الواجبات لم يتركه الله سدى " أيحسب الانسان أن يترك سدى "(٣) بل خلق فيه عقلا يرشده الى الطريق السوى وأرسل اليه الرسل والكتب لتزيد من رشاد هذا العقل حتى يحسن خلافة الله في أرضه • وكما ذكرنا هذه الواجبات التى ألزم الله بها الفرد ،فقد ذكرنا أنه قابلها حقوق متعددة مثل : حق الحياة ،والحرية ،والمساواة ، والتعليم ،والتمتع بثمار كفاحه ، وحق الكرامة ،والتملك الى غير ذلك مما هو مدون في التراث الاسلامى • هذه النظرة للفرد من جانب الاسلام طبقها الصحابة الذين نهلوا من المنبع الصافي لهذه الدعوة ،وتربوا على يدى الرسول صلى الله عليه وسلم، وايتدوا بالنفس والمال • وكان الحب والاخاء والتعاون والايثار شعار مجتمعهم حتى أدهشوا العالم أجمع • رضى الله عنهم ورضوا عنه •

الأسرة في ضوء الاسلام :

بعد أن تحدثنا عن اهتمام الاسلام بالفرد — وأنه اللبنة الأولى لبناء الأسرة — يجئ الحديث عن الأسرة وأنها اللبنة الأولى لبناء المجتمع اذا صلحت صلح المجتمع كله واذا فسدت فسد المجتمع • هذه الأسرة اهتم بها الاسلام كما اهتم بالفرد وحدد لها القوانين التى يجب أن تسير عليها من أسس لقيام الزواج على نمط ، وحقوق وواجبات بالنسبة للزوجين ،وبالنسبة للوالدين • كما بين الاسلام نظام الميراث الذى يكفل السعادة للمجتمع •

---

(١) أخرجه أبو داود والحاكم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وهو ضعيف •
(٢) سورة الذاريات آية رقم ٥٦ (٣) سورة القيامة آية رقم ٣٦

واذا كانت الأسرة تتعرض لأدواء مختلفة فقد وضع الاسلام العلاج الناجح الذى لو استعملته الأسرة لصلح حالها وعاشت فى أمن واستقرار كما رد الاسلام على كل المفتريات التى تتعرض لها الأسرة مثل : تعدد الزوجات ، والطلاق والحضانة ، ونفقات الأولاد .. مما هو مبسوط فى كتب الفقه الاسلامى ..

نظرة الاسلام الى الرقيــق :

جاء الاسلام فوجد نظاما راسخا رأى من الحكمة التدرج فى علاجه ألا وهو نظـام الرق اذ كان من حق السيد الذى يملك رقيقا أو أكثر أن يتصرف معه بما يريد ، ولكـن الاسلام أخذ يضيق هذه الدائرة حتى انحصرت فى أسرى الحرب فقط بل عمل على حريته بشتى الطرق والوسائل . فاننا نجد كثيرا من الأخطاء والذنوب التى يرتكبها الانسان التكفير عنها لابد وأن يكون بتحرير رقبة ان وجدت مثل : قتل الخطأ قال تعالى : " وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا فان كان من قوم عدوكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وان كان مـن قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمـة الى أهلـه وتحـرير رقبة مؤمنـة فمـن لم يجـد فصـيام شـهرين متتابعـين توبة من الله وكان الله عليما حكيما "[1] وكذلك الظهار الوارد فى سورة المجادلة ، قال تعالى : " .. والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبـة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير "[1] ، ومن قال لمملوكه " أنت حر أو عبدى حر أو عتيق أو ما أشبه ذلك من كل ما يؤدى هذا المعنى " فانه يعتق ، يحفزه الى ذلك ويرغبه فيه ما ورد من النصوص فى فضل العتق وجزيل الثواب عليه اذ يقول تعالى : " فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة "[3] . وعن البراء ابن عازب قال : " جاء أعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : علمنى عملا يدخلنى الجنة ، قال : اعتق النسمة وفك الرقبة . قال : أوليسا واحدا ؟ قال : لا عتق النسمة أن تنفرد بعتقها . وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها .. "[4] . وروى عن النبى صلـى الله عليه وسلم أنه قال : " من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائـه من النار حتى فرجه بفرجه "[5] . وهناك الكثير من الأخطاء والذنوب التى يتسبب عنها تحرير رقبة يطول ذكرها مثل جريمة الوطء فى نهار رمضان عمدا ، والحنـث

(١) سورة النساء آية رقم ٩٢
(٢) سورة المجادلة آية رقم ٣
(٣) سورة البلد آية رقم ١١ — ١٣
(٤) مصابيح السنة للامام النبوى ، ج ٢ ، ص ٤٩٦
(٥) صحيح مسلم ، ج ٩ ، ص ١٥١

فى اليمين المنعقدة ، وزواج الحرة بالرقيق ... كما أن هناك ما يدخل ضمن العتق ولو كان معلقا مثل : التدبير ، والنذر ، والعتق على صفة ، والمكاتبة ...

لم يقتصر الاسلام على ذلك بل شرع للرقيق من الحقوق ما هو باعث لرحمته والحفاظ على كرامته . قال تعالى : " واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا "(١) . فلهم من الطعام ، والشراب ، والثياب والسكنى .. ما للسيد والا كان آثما ولربه عاصيا .

وعن المعرور بن سويد قال : " رأيت أبا ذر الغفارى رضى الله عنه وعليه حلة ، وعلى غلامه حلة ، فسألته عن ذلك ، فقال : سابيت رجلا فشكانى الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أعيرته بأمه ، انك امرؤ فيك جاهلية ، ثم قال : ان اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم ما يغلبهم ، فأعينوهم "(٢) ... الى آخر الآيات والأحاديث الدالة على ذلك مما يضيق المقام عن ذكره .

تهذيب الاسلام للسلوك الاجتماعى :

اهتم الاسلام بالسلوك الاجتماعى فدعا الى تطهير المجتمع من كل ما يشين الكرامة الانسانية ونعى على الذين يشجعون على الفاحشة " ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون "(٣) . وأقام أخلاق الناس على أسس انسانية رفيعة صالحة لكل زمان ومكان . قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب "(٤) . وقال أيضا : " واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها .. "(٥) . وقال كذلك : " يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم

---

(١) سورة النساء آية ٣٦ — (٢) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما
(٣) سورة النور آية ١٩ — (٤) سورة الحجرات آية ١١
(٥) سورة النساء آية ٨٦

حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ..."(١) وقال صلى الله عليه وسلم : " مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه "(٢) .

وفي خطبة الوداع لخص النبي صلى الله عليه وسلم الكثير من الآداب المطلوبة للسلوك الاجتماعي في قوله : " .. كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله ، وعرضه "(٣) من هذا يتبين لنا أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم التزموا بالاسلام كله ايمانا وعملا وتطبيقا ، سواء كانوا في مكة أو المدينة أو الشام أو العراق .. وما حدث بين بعض أصحاب النبي صلى الله عليه مما هو من مقتضيات الطبع البشري وما يوهم الميل عن الرسالة الحقة ، فهو لا يخلو عن أن يكون هذا ما نسب اليهم بينهم مدسوسا عليهم لأجل أن يشوه تاريخهم أو عدم فهم للأحداث التي كانت موجودة في هذا العصر أو هو كان محاولات للاجتهاد في الرأي مع سلامة الهدف وهو الحفاظ على هذه الرسالة.

وقد نظم أعداء الاسلام حملتهم للقضاء عليه في القديم والحديث بأسلوب منسق، وتتضح هذه الحملة في أسس أربعة أشار اليها الدكتور ابراهيم شموط وهي :

١ — التشكيك في مصدر الاسلام نفسه وهو القرآن الكريم ..
٢ — الحط من مقام صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ..
٣ — تشويه سير الأبطال والقواد ..
٤ — استغلال الخلافات المذهبية في رمي الفريقين بالكفر .. (٤) .

التحول الحضاري في المجتمع الاسلامي بعد عصر الراشدين :

كان عصر المجتمع الاسلامي في عهد الخلفاء الراشدين من أحسن العصور وأعظمها أثرا في تاريخ البشرية ، وقد رأينا كيف أنهم كانوا يحاولون تطبيق الاسلام تطبيقا كاملا في أحوالهم الاجتماعية ، ولولا الأحداث الأخيرة في أواخر هذا العهد الزاهر من قتل للخليفتين الثالث والرابع وحروب دامية بين المسلمين .. لكان الأثر أعظم والنتيجة أفضل ، ومع ذلك لم تتوقف قافلة الاسلام عن المضي الى غايتها ، واذا بحثنا عن السر في حدوث هذا التغيير في المجتمع العربي والاسلامي لوجدنا أن من أهم الأسباب هو بعض ما ترتب على الفتوحات الاسلامية في الشرق والغرب .. لأن الأحوال

---

(١) سورة النور آية ٢٧
(٢) البخاري كتاب الأدب ، ومسلم كتاب البر والصلة .
(٣) صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ للدكتور شموط — الطبعة الثالثة .

الاجتماعية التى كانت سائدة فى البلاد المفتوحة كالفرس ، والروم ، والشام ، و مصر لم يسبق للمسلمين العرب أن تأثروا بها لأنهم كانوا فى شبه عزلة عن العالم المملوء بالعادات والتقاليد التى لا تلائم الدين الجديد . حتى أنهم لما فتحوا هذه الأمصار عاشوا أيضا فى معسكراتهم بالبصرة والكوفة والفسطاط فى شبه عزلة عن المجتمع الجديد الذى فتحوه لاعلاء كلمة الله تعالى . ولكن بمجرد أن جاء العهد الأموى لم يلبث العرب أن اختلطوا بالمجتمع المفتوح واندمجوا فيه تدريجيا . تارة عن طريق المصاهرة وتارة أخرى عن طريق المشاركة فى الأعمال المختلفة مثل : الزراعة والتجارة وبخاصة بعد أن أقبل أهل الفتح على هذا الدين الجديد وأخذوا ينهلون منه ما حببهم فيه وفى أصحابه .

ونتج عن هذا الاختلاط والاندماج تلقى العرب لبعض عادات وتقاليد هذا المجتمع وما ساعدهم على أخذ هذه العادات .. اقتداء بعض خلفاء بنى أمية بحكام الفرس والروم من حيث الأخذ بمظاهر الحضارة الأجنبية والتمتع بمباهج الحياة والاقبال على ألوان اللهو والترف الى غير ذلك من زينة الدنيا . ويظهر هذا بجلاء ووضوح لكل من يلقى نظرة سريعة على المجتمع العربى قبل أن يتشرف برسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام . وما أحدثه الاسلام فيه من تحول حضارى . ويصور هذا المعنى الأستاذ أحمد حسن الزيات فيقول : " كانت قافلة الحياة أيام الجاهلية حائرة الحزيمة ، والعالم يتأبر فى هيكله المنحل عوامل البلى من وثنية توبق الروح ، وجاهلية توثق العقل ، ومادية ترهق الجسد ، وكانت الولاية على الدنيا فى ذلك الحين لأعقاب من الروم سفههم الفسوق والترف ، وأخلاف من الفرس هدهم الغلول والطمع ، والناس عدا هؤلاء أوزاع وهمج "(1) . فبعد أن كانت الطبقة من سادة وعبيد ، واقبال الكثيرين على أسباب الانهيار من شهوات طاحنة وترفه قاتل فى شتى المظاهر . أصبحنا نرى — بعد مجئ الاسلام — الأخوة الصادقة ، والتعاون والتسامح ، والمساواة الحقة ، والعدالة الاجتماعية ، وتحرير الشعوب من ربقة العبودية ، واعطاء المرأة حقوقها كاملة مما رفع من شأنها واسترد كرامتها .. وساد التواضع والبساطة وعم الأمن والسلام بفضل رسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام .

بعض مظاهر الحياة الاجتماعية :

من مظاهر الحياة الاجتماعية فى عصر الحسن البصرى ما يتصل بالمسكن ، والملبس والطعام ، والشراب .. الذى لا يخلو منها — عادة — مجتمع من المجتمعات

---

(1) وحى الرسالة للأستاذ أحمد حسن الزيات ، جـ ١ ، ص ٣٠

ولا أمة من الأمــم غاية ما في الأمر نجدها تختلف باختلاف الاقبال على الدنيــا والتقلل منها على قدر الحاجة وكما نسمع دائما " الناس على دين ملوكهم ".

ففي عهد الخلفاء الراشدين كانت هذه المظاهر — من مسكن وثياب وطعام وشراب — على حد البساطة وعدم التعقيد ولم يكن هذا عن فقر وشدة فقط وانما كان عن زهد وتقشف عملا بكتاب الله تعالى : " .. لكيلا تأسوا على ما فاتكــم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا يحب كل مختال فخور .. " (١) واقتداء برســـول الله صلى الله عليــه وسلم .

ويصور لنا صاحب الفخري هذه المظاهر بالنسبة لعصر الراشدين فيقول :
" اعلم أنها دولة لم تكن من طراز دول الدنيا ، وهى بالأمور النبوية والأحـــوال الأخروية أشبه . والحق في هذا أن زيها قد كان زى الأنبياء ، وهديها هـــدى الأولياء ، وفتوحها فتوح الملوك الكبار . فأما زيها الخشونة في العيش والتقلـــل في المطعم والملبس . كان أحدهم يمشي في الأسواق راجلا وعليه القميص الخلــق المرقـــــوع الى نصـــف ســـاقه . وكـــان طعامهـــم من أدنـــى أطعمـــة فقرائهـــم . ضـــرب أمير المؤمنين المثل بالعسل والخبز النقي فقال في بعض كلامه ولو شئت لاهتديت الى مصفى هذا العسل بلباب هذا البر . واعلم أنهم يتقللوا في أطعمتهم وملبوسهم فقرا ولا عجزا عن أفضل لباس وأشهى مطعم ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مواساة لفقراء رعيتهم وكسرا للنفس عن شهواتها ، ورياضة لها لتعتاد أفضل حالاتها . والا فكل واحد منهم كان صاحب ثروة ضخمة ونخل وحدائق وغير ذلك من الأسباب (٢) .

ليس هذا فقط بل كانوا يراعون دائما الأمور التي تحفظ عليهم حياتهم عاملين بقوله تعالى " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا .. " (٣) . وقوله عليه الصلاة والسلام : " ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كـــان لا محالة فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه " (٤) .

---

(١) سورة الحديد آية رقم ٢٣
(٢) الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن طباطبا ص ٧٠ — ٧١
(٣) سورة الأعراف آية ٣١
(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه عن المقداد بن معد يكرب .

فكان يحوطهم من وراء هذه المظاهر كلها اطار من الآداب والرقي الحضاري كان شعار سلوكهم فيه طهارة الظاهر والباطن . كما كانوا يستعملون امكانيات عصرهم لا يتخلفون عنه . وذلك ما روى الامام أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعمل السكين في قطع اللحم . وعلى سنته سار المسلمون . وحينما يريدون الطعام يبسطون سماطا على الأرض ثم جلسوا صفين من حوله . وكان من أفضل أطعمتهم "الشريد" فوقه اللحم وأنواع أخرى من الطعام ..(١) .

أما ملابسهم فقد كانت هي الأخرى يحكمها اطار البساطة ، خالية من التأنق ، والتطريز والخيلاء . وكان الشائع في الاستعمال في هذا الوقت العمامة ، والجبة ، والعباءة . كما استخدموا قطعة كبيرة من القماش ، تتدلى على الكتفين لحماية الرأس ومؤخرتها من ضربة الشمس . هذا الى خشونة الملابس التي كانت تغزل من صوف الأغنام أو وبر الجمال . وقد انتعلوا نعالا خفيفة تقي أقدامهم من الرمضاء .

واذا عرجنا على مساكنهم نجدها منازل تبنى من اللبن وتسقف بجذوع النخل وهكذا حتى أن العرب الأوائل حينما فتحوا البلاد وشيدوا البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان كانت هي الأخرى بهذه البساطة الى أن اتخذ الأمويون دمشق عاصمة لهم(٢) .

هذا الأسلوب في الحياة تأثروا فيه بالنبي عليه الصلاة والسلام . قال الحسن البصري : "كنت اذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت بيدي الى السقف"(٣) . وقال عبد الله بن عمر : مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا ، فقال : ما هذا ؟ قلنا : خص لنا قد وهى ، فقال : أرى الأمر أعجل من ذلك ..(٤) .

تطور هذه المظاهر في العهد الأموي :

عرفنا مما سبق كيف كانت حياة الصحابة في عهد الخلفاء الراشدين . والآن

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي والثقافي والاجتماعي للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ، ص ٦٥٠ — ٦٥١ ، وفي هذا الكتاب تفصيل لأنواع الطعام والشراب . في عصر الحسن . وكتاب زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم ج٤ ص ٢٠٨

(٢) تاريخ الاسلام السياسي والثقافي .. للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٦٤٨ وما بعدها وكتاب : الشرق الأوسط في موكب الحضارة للأستاذ محمد منصور أحمد ج ٣ ، ص ١٩٧

(٣) احياء علوم الدين للغزالي ج ٤ ص ٢٣٦ .

(٤) رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وصححه .

لنعرف كيف تطورت هذه المظاهر فى العهد الأموى حتى شمّ الجميع ريح الجاهلية الضالة . بدأ التطور كما ذكرنا بسبب الفتوحات الاسلامية ، وتأثر المسلمين بالأجانب وأنواع الحضارات الأخرى ...

ذلك لأن الفتوحات الاسلامية لم تكن غزوا للشعوب بالقوة ، ولا استعمارا للاستغلال الاقتصادى على نسق الاستعمار فى القرون الأخيرة . انما كانت ازالة للقوة المادية للدولة التى تحول دون الشعوب ودون الدين الجديد ، الذى أنزله الله تعالى على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات الى النور . هذا اللون من طبيعة الدعوة الاسلامية التى خرجت على المجتمعات لتعلن سماحتها وهدفها . جعل حكام المسلمين يقرون كثيرا من الموظفين فى بلاد هم المفتوحة على وظائفهم التى هى دون الولاية ، ما بقوا على دينهم ولم يسلموا ، وأخلصوا فى العمل للصالح العام . كذلك نجد أن عمر بن الخطاب حينما فتحت فارس استبقى الأرض لأهلها وفرض عليها الخراج — ولو أنهم قاتلوا المسلمين — لأجل مصلحة أهل البلاد المفتوحة ، والأجيال القادمة من المسلمين ... هذا الى المعاملة الانسانية الكريمة للبلاد المفتوحة دون النظر الى اختلاف اللون ، أو الجنس أو الدين ، أو اللغة ... وهذه هى الوحدة الوطنية النظيفة بأجلى معانيها بأدلة من التاريخ مشهورة وواضحة بأدنى نظر أو تفكير . ثم أخذت موارد المسلمين تتسع باتساع رقعة الاسلام وتوالى الفتوح ، فأخذ الرخاء يشمل شيئا فشيئا جموع المسلمين على السواء لمشاركتهم جميعا فى موارد بيت المال ..[1] واستمرت هذه السياسة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وعهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه فقد كان أيضا يسوى بين الناس فى العطاء . جاءه بعض المسلمين فقالوا : ياخليفة رسول الله : انك قسمت هذا المال فسويت بين الناس ، ومن الناس من لهم فضل ، وسوابق ، وقدم ، فلو فضلتهم ؟ . قال : وأما ما ذكرتم من السوابق والفضل ، فما أعرفنى بذلك ، وانما ذلك شئ ثوابه على الله . وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة . فلما جاء عمر قال : ان أبا بكر رأى فى هذا المال رأيا ، ولى فيه رأى آخر . لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه .. ففضل أهل السوابق والمشاهد فى الفرائض[2] .

---

(١) العدالة الاجتماعية فى الاسلام للأستاذ سيد قطب ص ١٧٢ — ٢٠٦ .

(٢) الخراج لأبى يوسف ص ٤١ — ٤٣ ، والأحكام السلطانية للماوردى ص ١٩٠ .

وعلى كل فلهذين الرأيين — رأى أبى بكر وعمر — أصل فى الاسلام ومع هـذا فان رأى أمير المؤمنين أدى الى تضخم الأموال عند بعض المسلمين مما جعله يقـول قولته المشهورة فى آخر أيام حياته : " لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء " ، هذا التضخم أدى الى وجـود طبقة أرستقراطية يأتيها المال دون تعب أو مشقة . وهذا هو الترف الذى حاربه دعاة الاسلام .

ويصور هذا المعنى الدكتور طه حسين فيقول : " ففريق من كبار الصحابـة كانوا يملكون كثيرا من المال السائل والجامـد فى الحجاز ، فما أسرع ما أنفقوا مالهم هذا ، سائله وجامده ، فى شراء الأرض فى الأقاليم ، لأنهم كانوا يعلمون أن أرض الأقاليم أخصب تربة ، وأكثر ثمرة ، وأيسر استغلالا من أرض الحجاز . فطلحة بن عبد اللـه كان قد جد واجتهد ودأب حتى اشترى عامة أسهم خيبر من الذين شهدوا فتحها مع النبى — صلى الله عليه وسلم — أو من ورثتهم . فلما فتح عثمان هذا الباب باع طلحة كل ما كان يملك من أسهم خيبر لأهل الحجاز ممن شهد فتح العراق ، بما كانوا يملكون هناك . ثم كان له مال آخر كثير ، فاشترى به من بعض أهل الحجـاز أرضهم فى العراق ، واشترى من عثمان نفسه أرضا كان يملكها فى العراق بأرض كـان هو يملكها فى الحجاز . وفعل الناس فعله فكل من كره الهجرة من الحجاز ليقيم بأرضه فى الأقاليم باع أرضه تلك واشترى مكانها أرضا فيما يليه . ونشأ عن ذلك أولا أن ظهرت الملكيات الضخمة فى العراق وغيره من الأقاليم ، فالذين استطاعوا أن ينتفعوا بهذا الانفتاح انما هم أصحاب الأموال الضخمة الذين كانوا يستطيعون أن يشتروا من أصحاب الملكيات الصغيرة ما يملكون ، فاشترى طلحة ، واشترى الزبير ، واشترى مروان بن الحكم ، وكثر النشاط المالى فى ذلك العام من بيع وشراء واقتراض واستبدال ومضاربة ، ثم لم يقتصر ذلك على الحجاز والعراق ، وجدت الاقطاعات الكبيرة الضخمة والضياع الواسعة العريضة من جهة ، وقام فيها العاملون من الرقيق والموالى من جهة أخـرى وظهرت فى المسلمين طبقة جديدة من الناس هى طبقة " البلوتقراطية " التى تمتـاز الى أرستقراطيتها التى تأتيها من المولد بكثرة وضخامة الثراء وكثرة الأتباع أيضا ...

وقال كذلك : " ونشأ عن هذا بعد ذلك أن جلبت الحضارة جلبا الى الحجاز وغيره من بلاد العرب ، فكان الترف والتبطل ، وكانت الفنون التى تنشأ عن الترف والتبطل ، فكان الغناء والايقاع والرقص والشعر الذى لا يصور جدا ولا نشاطا ، وانما يصور بطالة وفراغا وتهالكا . والى جانب هذه الطبقة الارستقراطية الفارغة عاش الرقيق الذين كانـوا

يملكون سادتهم ويدبرون حياتهم . ثم الى جانب السادة والأرقاء ، عاشت طبقة أخرى من العرب البادية المحرومين لم تملك قطأرضا فى الحجاز لتبيعها بأرض فى العراق ، ولم تملك قطأرضا فى العراق لتشترى بها أرضا فى الحجاز[1].

من هذا نعلم أن العرب المسلمين أصبحوا يقلدون الحضارة البيزنطية وحكام الروم تارة والحضارة الفارسية تارة أخرى . وعنوا مثلهم عناية كبيرة بالانشاء والتعمير وأصبحوا يهتمون خاصة — الخلفاء والحكام — باقامة القصور وتشييدها واهتموا كذلك بفخامة المساجد وتزيينها . وأخذ التخطيط يفصل فصله لاقامة الحياة الناعمة والتى تبعث على البهجة والسرور . وكان من مظاهر هذا الترف احاطة القصور بالحدائق الغناء المملوءة بالفواكه والنباتات الجميلة ونافورات المياه التى تلطف الجو فى الصيف بجانب مظهرها الجمالى . هذا عدا المفروشات الوثيرة والسجاجيد الفاخرة والمصنوعات اليدوية الجميلة . وكان التقليد فى الثياب أيضا فنرى الخلفاء والحكام ومن على شاكلتهم من القادرين يرفلون فى الثياب المزركشة بينما كان العامة يلبسون الجلباب والسراويل والقلنسوة والعمامة . اللهم الا البدو فقد ظلوا على حالتهم داخل شبه الجزيرة بزيهم المعتاد الذى ألفوه وكان عبارة عن الثياب الفضفاض هذا الى تمنطقهم بحزام فى الوسط . واذا ذكرنا أسلوبهم فى فن اعداد الطعام والشراب فحدث ولا حرج . الى آخر هذا الترف الذى تمكن من النفوس الضعيفة وأثر فى مظهر الايمان الصادق . ومن الأدلة على ذلك ما حكى عن يزيد بن عبد الملك أنه حج فى خلافة سليمان بن عبد الملك ، فاشترى جارية — وكان اسمها العالية — بأربعة آلاف دينار فقال سليمان : هممت أن أحجز على يزيد ، فرد يزيد " حبابة " فاشتراها رجل من أهل مصر . فلما ولى يزيد الخلافة قالت له زوجته سعده : يا أمير المؤمنين : هل بقى من الدنيا شئ تتمناه بعد ؟ قال : نعم : حبابه . فأرسلت سعده رجلا فاشتراها بأربعة آلاف دينار . فأراحتها حتى ذهب عنها كلال السفر ، ثم أتت بها يزيد ، فأجلستها من وراء الستر وقالت : يا أمير المؤمنين : أبقى شئ من الدنيا تتمناه؟ قال : ألم تسأليني عن هذا مرة فأعلمتك ؟ فرفعت الستر وقالت : هذه حبابه . فحظيت سعده عند يزيد وأكرمها وحباها[2] ...

ورغم كل ما حدث فان هناك فى العصر الأموى ما كان تاجا فى جبهته ألا وهو عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذى أعاد عهد جده الأعلى عمر بن الخطاب .

---

(١) الفتنة الكبرى — عثمان للدكتور طه حسين ص ١٠٤ — ١٠٦ ، طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ م .

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ٨ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

كذلك وجدنا الغيورين على الدين — أمام هذا التيار الجارف من المادية — لم يسكتوا عن هذه الأفعال المشينة للمجتمع الاسلامى • بل تصدوا لهذا التيار فى قوة وشجاعة لا يخافون فى الحق لومة لائم عاملين بقوله تعالى : ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن •• (١)

الفصـــــل الثانـــى

الحالة الســـــــــياسية

ذكرنا فى الفصل الأول أن الحسن عاش فى عهدين متباينين (١) . عهـــد الخلفاء الراشدين المثالى وعهد بنى أمية الذى بدأ يتطور من حالة المثالية الـــى حالة دونها . واذا كان هذا فى الحالة الاجتماعية واضحا فهو هنا فى الحالـــة السياسية أوضح وقد أدرك الحسن بهذا نوعين من الحكم . نوع الدين فيه قائم والأمر شورى بين المسلمين " وأمرهم شورى بينهم " (١) . والخليفة فيه يعلنها صريحة مدوية : " .. أيها الناس من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه فيجيبه الرجل من عامـــة الناس : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا : فلم تأخذه العزة بالاثـــم ولم يؤخذ بكلمته . بل اعلنها أمير المؤمنين الحاكم المسلم : الحمد لله الذى جعـل فى أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — من يقوم اعوجاج عمر بسيفه (عصر الخلفـــاء الراشدين للدكتور فياض ص ١٧٦) . كما أدرك الحسن حكم الغلب والقوة والملـــك العضوض وقد اشتد واحتد وخطيبهم يعلنها قائلا : " قال تعالى " فاتقـــوا الله ما استطعتم " فهذه لله وفيها مثنوية (٣) ، وقال : " واسمعوا وأطيعـــوا " وهذه لعبد الله وخليفة الله ونجيب الله ولعبد الملك ، أما والله لو أمرت الناس أن يدخلوا فى هذا الشعب فدخلوا فى غيره لكانت دماؤهم لى حلالا .. (٤) .

وسنتناول — باذن الله — فى هذا الفصل الحديث عن معنى السياســـة ، والخلافة ، وأسس الحكم فى الاسلام وعصر الخلفاء الراشدين ، وما حدث من الفتنة فى آخر عهدهم ، كما نتناول بيان نظام الحكم فى عهد خلفاء بنى أمية خاصة العشرة الذيـــن عاصروا الحسن رضى الله عنه ...

معنى الســـياسة :

المراد بالسياسة لغة (٥) عبارة عن ولاية شئون الرعية ، والتدبير والاضطلاع بأمرها وفى الحديث الشريف : " كانت بنوا اسرائيل تسوسهم الأنبياء " (٦) ، أى تتولى

---

(١) يرى الشيخ محمد أبو زهرة فى مذكرته عن الحسن البصرى أن العهدين متناقضان وهذا — فى رأيى — بعيد .

(٢) سورة الشورى آية ٣٨ . (٣) مثنوية : أى استثناء .

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦هـ — جـ٣ ص١٥١ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٤٨ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد .

(٥) لسان العرب — مادة سوس . ومنها : السوس الرياسة يقال : ساسهم أى رأسهم . وساس الأمر سياسة قام به والجمع ساسة وسواس ..

(٦) رواه البخارى .

أموورهم ، كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية . والسياسة القيام على الشئ بما يصلحه . ومعناها فى صدر الاسلام كما عرفها العالم المسلم الماوردى بقوله : " الامامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا " (١) .

سياسة الحكم فى الاسلام :

تقوم سياسة الحكم فى الاسلام على أسس ثلاثة .

الأساس الأول : العدل من الحكام : وهذا العدل أمر به البارى عز وجل فقال : " ان الله يأمر بالعدل " (٢) ، وأوصانا بالعدل مهما كان بغضنا للمحكوم عليه قال تعالى : " ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى " (٣) والرسول عليه الصلاة والسلام حملنا جميعا المسئولية فقال : " كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته . فكلكم راع ومسئول عن رعيته " (٤) وقال أيضا : " ان أحب الناس الى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا : امام اعدل ، وان أبغض الناس الى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا : امام جائر " (٥) .

الأساس الثانى : الطاعة بين المحكومين : قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم " (٦) وقال صلى الله عليه وسلم : " على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، الا أن يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " (٧) . وقال أيضا : " اسمعوا وأطيعوا — وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله تعالى " (٨) .

الأساس الثالث : الشورى : قال تعالى : " وشاورهم فى الأمر " (٩) . وقال كذلك : " وأمرهم شورى بينهم " (١٠) .

والمهم فى هذه الأسس الثلاثة أنها لم تكن نظريات مجردة . بل أخذت

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٣ (٢) سورة النحل آية ٩٠
(٣) سورة المائدة آية ٨ (٤) رواه البخارى ومسلم والترمذى عن عبد الله بن عمر
(٥) رواه البخارى ومسلم والترمذى (٦) سورة النساء آية ٥٩
(٧) رواه البخارى ومسلم (٨) رواه البخارى
(٩) سورة آل عمران آية ١٥٩ (١٠) سورة الشورى آية ٣٨

طريقها الى واقع الحياة . فحفظ "الواقع التاريخى" أمثلة متواترة (١) . سيظهر بعضها فى الحديث عن الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين .

نشأة الخلافة الاسلامية :

استطاع النبى صلى الله عليه وسلم — بتوفيق الله تعالى — أن يكون دولة عظيمة فى بلاد العرب التى كانت بعيدة عن الأنظار فى يوم من الأيام وازدادت هذه الدولة بعده حتى وصلت حدودها الى أطراف آسيا وأوربا وافريقية فى مدة وجيزة . وكان الأساس لهذه الدولة — كما ذكرنا — العدل من الحكام ، وطاعة المحكومين ، والشورى التى ظهرت جليا فى أعقاب غزوة بدر الكبرى فى شأن الأسرى .. فلما انتقل المصطفى عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الأعلى كان لموته صدمة عنيفة علما بأنهم تلوا قوله تعالى : "انك ميت وانهم ميتون" (٢) . ولكنه الحب لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، والحرص على بقائه لزيادة الخير للبشرية وازدادت حيرتهم ودهشتهم خاصة لما أرادوا سياسة الدولة واختيار القائد والزعيم لها وكادت الفتنة تطل رأسها لولا أن الله عز وجل وفق المسلمين فى سقيفة بنى ساعدة لاختيار أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

واستمر أبو بكر الصديق على النهج الذى سنه الرسول عليه الصلاة والسلام . ومن هنا سمى أبو بكر "خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم" .

وصل أبو بكر الصديق الى هذه الخلافة بعد خلاف شديد بين المهاجرين والأنصار وجدال عنيف لأن كل فريق يرى نفسه أنه أحق بالخلافة — بالطبع لينفذ أوامر الله تعالى — حتى وقف أبو بكر وأخذ يعرض عليهم وجهة نظره والخطورة التى تنشأ عن هذا الجدال وأنه يخاف عليهم الرجوع الى عهد الجاهلية . وما اقترحه عليهم أن يولوا عمر أو أبا عبيدة (٣) . ولكن عمر رضى الله عنه يقطع بعبقريته واخلاصه لدينه هذا الخلاف الحاد ويخاف فوات الفرصة فيقوم الى أبى بكر الصديق ويبايعه فيتابعه الناس وكانت هذه هى البيعة الخاصة حتى كان الغد وفى المسجد تقدم الناس الى مبايعة أبى بكر وكانت هذه هى البيعة الكبرى ومعناها لغويا ابرام عقد البيع بايجاب وقبول يعقبهما صفق الكفين وانتقل هذا المعنى الى تقديم الطاعة .

---

(١) العدالة الاجتماعية فى الاسلام ص ٩٦ — ٩٩

(٢) سورة الزمر آية ٣٠

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٣ ، ص ٢٠٨ .

وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ج ١ ص ٢٩٤ .

وطريقها أن يبسط الخليفة يده فيضع الناس يدهم فيها علامة الطاعة والخضوع ، أى أنهم جعلوا فى يد "أبى بكر" تأكيدا للعهد كفعل البائع والمشترى كما يذكر ابن خلدون فى مقدمته [1] . معنى هذا أن أبا بكر أصبح خليفة عن رسول الله أى نائبه فى حراسة الدين وسياسة الدنيا . وهكذا نشأت الخلافة .

الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين :

بعد أن استقر الوضع باختيار أبى بكر خليفة عن رسول الله للمسلمين بدأ جهاز الدولة يأتمر بأمر الخليفة ويسير على نظامه حتى لقى الخليفة ربه دون أن يورث الحكم لأحد أولاده ولكن كل ما فعله لأجل أن يبقى المسلمين جدالا عنيفا وشقة خلاف رشح للمسلمين — حسن وجهة نظره — عمر بن الخطاب وأوصى المسلمين بذلك وبالطبع كان هذا بعد استشارة كبار الصحابة وقد تمت له بيعة كاملة بعد ترشيح أبى بكر له . ولا شك أن أبا بكر فعل هذا الفعل لحرصه الشديد على بقاء وحدة المسلمين متماسكة خاصة وأنهم فى حرب مع دولتى فارس والروم . هذا علما بأن أمير المؤمنين عمر يستحق هذه الثقة الغالية من قادة المسلمين لاعتبارات منها :

أ — فرق الله به بين عهدين فى الاسلام . عهد السرية ، وعهد الجهر بالدعوة والنضال فى سبيلها . يقول الحافظ بن كثير : "ان عبد الله بن مسعود قال : ما عبد الله جهرة حتى أسلم عمر " [2] .

ب — كان موضع شورى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر والحوادث فى ذلك كثيرة .

ج — زهده وورعه وتعففه عن أموال الناس وقصة المجاعة دليل على ذلك [3] .

د — عدالته وشدته فى ذلك [4] .

هـ — نسبه القرشى .

و — حسن معاملته .

ز — سهره لخدمة الرعية [5] .

ح — محاسبته للرعية فى ضوء "من أين لك هذا " .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٣٤ ، والاصابة لابن حجر ج ٤ ص ١٧٩ .

(٣) البداية والنهاية ج ٧ ص ٩٠ ، وسيرة عمر لابن الجوزى ص ٤٤ .

(٤) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٣٤ .

(٥) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٩٢ .

واستمر أمير المؤمنين عمر مؤديا لرسالته عاملا فى رعيته بمقتضى نظام صاحبيه الرسول عليه الصلاة والسلام وأبى بكر الصديق • حتى أدهش العالم كله من جراء حكمته فى ادارة البلاد وكان عمله مطابقا لكلامه •

ولكنه رغم كل ذلك لم يسلم من الحاقدين والحاسدين ففى سنة ٢٣ هـ — سنة ٦٤٤ م قتل الخليفة العظيم عمر بطعنات من خنجر لسفاك أثيم ، هو أبو لؤلؤة المجوسى الذى ما لبث أن قتل نفسه فذهب الخليفة ضحية مؤامرة حاقدة على الاسلام وأهله[1].

بعد أن طعن عمر — رضى الله عنه — بهذه اليد الآثمة أخذ يفكر جديا فى أمر الخلافة والى من ستؤول حفاظا على وحدة المسلمين ولم يفعل كأبى بكر أن يوصى بانسان معين بل رشح لهذا الأمر ستة من كبار الصحابة الأكفاء • وعلل أمير المؤمنين عمر سبب اختياره لهؤلاء الستة وترشيحه لهم بالخلافة فقال : " ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وهو راض عن هؤلاء الستة من قريش : على ، وعثمان ، وسعد ، والزبير ، وطلحة ، وعبد الرحمن • وقد رأيت أن أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم واحدا منهم " وهناك روايا كثيرة لا داعى لذكرها حول هذا المعنى ، وقد ذكرنا الأهم منها وأقيم الاستفتاء الشرعى حول الخليفة الجديد حتى اتفق الجميع على عثمان بن عفان رضى الله عنه[2].

جاء سيدنا عثمان رضى الله عنه الى الحكم بعد أن كبرت سنه وقد جاوز السبعين من عمره وكبر السن له حكمه فى دنيا الناس • وعثمان هذا من خيار السابقين الأولين الذين شهد الرسول لهم بالجنة • هذا علاوة على كونه سيدا من سادات قريش وزعيم بنى أمية • وخلاصة القول فيه ما قاله الحافظ بن حجر العسقلانى : " كان عثمان كثير الحياء لين العريكة حتى انه لم يوقظ نائما من أهل بيته الا أن يجده يقظان فيدعوه فيناوله وضوء ، "[3] • ، وما قاله ابن قتيبه : " ان عثمان استمر ست سنين من ولايته وهو أحب الى الناس من عمر بن الخطاب الذى كان شديدا قد ضيق على قريش أنفاسها لم ينل أحد معه من الدنيا شيئا اعظاما له واجلالا وتأسيا به واقتداء فلما

---

(١) يرى الدكتور نظير حسان سعداوى فى كتابه " الدولة العربية الاسلامية " ص ١٣٩ طبعة دار النهضة العربية • ان الخليفة عمر بن الخطاب ذهب ضحية ثأر شخصى بحت • وهذا — فى نظرى — غير صحيح لأنه لم يكن بين أمير المؤمنين عمر وبين هذا المجوسى ما يوجب هذا الانتقام ، ولكنه مخطط للقضاء على الاسلام من أعدائه •

(٢) سيرة عمر لابن الجوزى ص ١٧٤ — ١٩٧ ، والخلفاء للسيوطى ص ٩٠ — ٩٨

(٣) الاصابة لابن حجر ج ٤ ص ٢٢٣

ولهم عثمان ولى رجل لين "(١)..

وأخذ الحكم فى عهد عثمان يتأرجح بسبب لينه تارة وتركه الحرية للصحابة يسيرون هنا وهناك تارة أخرى ، والدس والوقيعة بين صفوف المسلمين من أعداء الاسلام الذين أسلموا فى الظاهر ولكنهم يكفرون بالله فى الباطن ويطلق عليهم " المنافقون " تارة ثالثة . وهكذا حتى عم الفساد وبدأ زمام الأمور يفلت من أيدى أصحابه وقصارى القول كما قال الدكتور محمود فياض : " ان الخليفة وأعوانه يتحملون بعض التبعة لاهمالهم وضعف سياستهم فى وقت لم يكن يجدى فيه غير الشدة وعلى كتلة الصحابة بقوة التبعة لأنهم كانوا تقريبا مثل عدد الثوار — لأنه قامت ثورة على سيدنا عثمان — الذين لا يجاوزون فى بعض الروايات تسعمائة حاقد مفسد ، ولا يبلغون الألفين عند الكثيرين ولو أنهم جمعوا كلمتهم وتناسوا ما بينهم وانضموا الى بنى أمية وأنصارهم يوم الدار لما أفلت ثائر واحد من حد سيوفهم ولكن هكذا أراد الله ، وانتهت الثورة بقتل الخليفة الثالث عثمان (٢).

وكانت أعظم عظة لسيدنا عثمان قبل مصرعه حينما نظر الى المحاصرين له قائلا كما رواه الطبرى : " والله ان قتلتمونى فقد وضعتم السيف على رقابكم الى يوم القيامة ، لا تقتلونى فانكم ان قتلتمونى لم تصلوا من بعدى جميعا أبدا ، ولم تقتسموا من بعدى فيئا أبدا ، ولن يرفع الله عنكم الاختلاف أبدا "(٣). وصدق ما قاله سيدنا عثمان فقد ظلوا فى اختلاف دائم وكانت الفتنة التى تحدث عنها الكثير من الباحثين ، والتى أثرت فى الحركة الاسلامية الى اليوم . وفى هذا الوقت الذى قتل فيه عثمان رضى الله عنه كان شيخنا الحسن البصرى قد كبر وترعرع . حافظا لكتاب الله تعالى . مقبلا على العلم . ملازما لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . وكان عمره وصل الى أربع عشرة سنة . مما أثر فى نفسه من الأحداث الجارية التى كانت تحوطه (٤)..

انتهت حياة الخليفة الثالث عثمان بن عفان بالصورة الأليمة التى لا يرضى عنها مطلقا أى انسان لديه وازع من ضمير فضلا عن المسلم الذى سعد برسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم . وكان لابد من اختيار خليفة آخر ليمثل المجتمع

---

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص ٢٥ — ٢٦ .
(٢) عصر الخلفاء الراشدين للدكتور محمد فياض ص ٣٣٧ — ٣٣٨ .
(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٣ ص ٤٢٥ .
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٥٧ ، وتذكرة الحفاظ للذهبى ج ١ ص ٧١

الاسلامى فى جميع الأمور الدينية والدنيوية .. والظروف التى أحاطت بمقتل عثمان — رضى الله عنه — جعلت اختيار الخليفة الرابع فيه شيء من الحساسية والصعوبة بمكان .

ولكن رغم كل هذا وبعد أخذ ورد وقع الاختيار على الامام على بن أبى طالب ، والامام على كرم الله وجهه غنى عن التعريف فكفاه فخرا أنه زوج فاطمة الزهراء وابن عم رسول الله ووالد الحسن والحسين والفدائى لرسول الله ليلة الهجرة والمستشار لمن سبقه من الخلفاء غاية ما فى الأمر أنه بالنسبة لسيدنا عثمان نجد الاستشارة أقل بالنسبة لأبى بكر وعمر . بسبب استيطان عثمان لذوى قرباه (١) ..

ولما تولى على بن أبى طالب خلافة المسلمين وأراد تنفيذ تعاليم الاسلام بحذافيرها وقفت فى طريقه عقبات وعقبات . ولظروف ليس هنا مجالها حدثت الحروب المتعددة ، التى تمثلت فى موقعة الجمل وصفين .. والتى انتهت بعملية التحكيم مما تسبب عنه ظهور فرقة الخوارج التى نشأ عنها أيضا فرق أخرى .

ومع هذا فان الامام عليا كرم الله وجهه ظل واقفا كالطود الشامخ يدافع عن الحق ، لأن الحق لابد له من قوة تحميه وتدافع عنه . شجاعا لا يخاف فى الله لومة لائم حتى وافاه أجله المحتوم فى ١٧ رمضان سنة ٤٠ هجرية على يد أحد الخوارج وهو : عبد الرحمن بن ملجم حيث طعنه بسيف مسموم بعد مؤامرة دنيئة ضد على ومعاوية وعمرو بن العاص فنفذت بالنسبة لعلى وانكشف أمرها بالنسبة لزميليه وبمقتل هذا الخليفة الرابع انتهى عهد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين (٢) .

نماذج من الحكم فى عهد الراشدين :

كنا نتمنى أن تظل الفترة المثالية فى عهد الراشدين الى يومنا هذا والى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولكن للأسف الشديد لم تعمر طويلا . لا لعلة كامنة فى النظام الاسلامى ولكنها المصادفات السيئة التى أحاطت بهذا الحكم .

ورغم كل هذا فاننا نرى فى هذه الفترة المثالية الضئيلة نورا يهتدى به من يريد السعادة الحقيقية فى الدارين الدنيا والآخرة . وحتى يتبين لنا هذا النور

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٣ ص ٢٠٤ ، شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، ج ٣ ص ١٩٢ .

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٣ ص ٢٠٤ .

الذى نستضىء به نلقى الضوء على بعض النماذج الحية ، والأمثلة الطيبة التى كانت فى هذه الفترة بسبب سياسة الحكم فى عهد الراشدين :

أ — لما ولى أبو بكر الخلافة خرج الى الناس بهذا الخطاب الجامع الذى قال فيه : " أيها الناس انى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فسددونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم [١] . وهذه بعض الأمثلة من سياسته :

١ — وقوفه بصمود من حركة الردة والقضاء عليها [٢] .

٢ — انفاذه جيش أسامه بن زيد تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] .

٣ — استشارته للصحابة فى جميع الأحكام التى يصدرها .

٤ — خدمته للأمة بمعنى الكلمة ..

ب — لما توفى أبو بكر الصديق وولى الخلافة بعده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب خرج الى الناس بخطابات متعددة حسبما يقتضى المقام نختار منها هذا النموذج : قال رضى الله عنه : " ان الله عز وجل قد ولانى أمركم ، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم ، وان لى أسأل الله أن يعيننى عليه ، وأن يحرسنى عنده ، كما حرسنى عند غيره ، وانى امرؤ مسلم وعبد ضعيف ، الا ما أعان الله عز وجل . فلا يقولن أحد منكم ان عمر تغير منذ ولى . أعقل الحق من نفسى وأتقدم وأبين لكم أمرى . فانما أنا رجل منكم [٤] " . وهذه بعض الأمثلة لسياسة الحكم فى عهد عمر بن الخطاب .

١ — حينما يصدر أمرا الى الأمة نجده أول من يلتزم به — بخلاف كثير من الحكام تراهم فى واد والرعية فى واد آخر — ولا يكتفى بذلك بل يلزم قرابته وأهله جاء أحد قرابته (هو صهره) مرة يسأله شيئا من مال المسلمين ، فأغلظ له القول وطرده ، فتوسط لقريبه بعض المسلمين فغضب وقال : " انه سألنى من مال الله فما معذرتى ان لقيته ملكا خائنا [٥] .

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٣

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٢ فى حركة الردة .

(٣) المصدران السابقان : الطبرى ج ٣ ، وابن الأثير ج ٢ ص ٢٢٦

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ٣ ص ١٢٤ .

(٥) الخلفاء للسيوطى ص ٨٨ ، وتاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٣ ص ٢٧٣ — ٢٧٥ .

٢ — كان يتفقد أحوال الرعية ليلة بالمدينة فأخبره رجل بأمر عياض بن غنم وتنعمه من مال المسلمين حينئذ أرسل عمر محمد بن مسلمة الى العراق ليتثبت من الخبر فلما وجد صدق الخبر قال عمر لعياض بعد أن أمره بخلع ملابسه اللينة وأعطاه قطعة من الغنم قال: "اذهب بهذه الغنم وأحسن رعيها فان أباك كان راعيا . ونفذ عياض الأمر ولما صلح حاله رده الى عمله بعد أن أخذ عليه العهد والمواثيق حتى قال عياض: والله لا يبلغك عني بعدها ما تكره يا أمير المؤمنين [1] ..

٣ — وكان رضى الله عنه يحرص على وحدة المسلمين يتبين هذا من منعه لاعلام قريش وغيرهم من عدم الخروج الى الشام أو العراق .. حتى غضبوا وتحدثوا به الى الناس فرد عليهم عمر فى خطبة الجمعة ومنها قوله: " .. ألا وان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا .. وأما وابن الخطاب حى فلا . ألا وانى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش أن يتهافتوا فى النار" [2] .

جـ — جاء سيدنا عثمان رضى الله عنه الى الحكم بعد أن كبرت سنه ولا شك أن هذا كان له أثره فى سياسة الحكم . وقد عرفنا فيما سبق بعض الصفات الطيبة التى اشتهر بها . ومن أهمها أنه كان شديد الحياء . يقول الحافظ السيوطى "ان عثمان كان رجلا يهاب الحديث وانه كان يقوم فى جوف بيته والباب عليه مغلق فيخلع ثوبه للاغتسال ويستحى أن يرفع صلبه" [3] .

كما كان ذا عاطفة جياشة يقول الدكتور فياض: "ويجمع العلماء على أنه "كان رجلا هينا لينا سريع التأثر" بالعواطف والقرابة والرحمة ، وأنه لم تكن فيه شدة عمر ولا بطشه وحسن مواجهته لمشاكل الحكم ، كذلك لا يفوتنا أن نذكر أن عثمان كان من بيت نعمة وترفه تعود النعيم منذ نعومة أظفاره بوصفه من أثرياء قريش فلما ولى الحكم لم يستطع التخلص مما تعوده من جودة فى المطعم ، والملبس ، والمركب . فنظر القوم اليه على أنه متجوز فاقتدوا به فى التنعم .. كذلك حكمه بعد عمر بن الخطاب القوى الشديد .. [4] .

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٩٢ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ٣ ص ٤٢٦ .
(٣) الخلفاء للسيوطى ص ١٠١ — ١٠٣ .
(٤) عصر الخلفاء الراشدين للدكتور محمد فياض ص ٢٨٩ .

بهذه الأمور وغيرها من الممكن أن نحذر عثمان رضى الله عنه فيما حدث
والأمر لله وحده • والى القارئ الكريم بعض النماذج لسياسته فى الحكم :

١ — عمل رضى الله عنه حركة تغيير فى المسئولين عن الدولة فى هذا الوقت وكان جلهم من أقاربه مما أثار غضب الكثير من الرعية فى المجتمع •

٢ — اطلاق الحرية للصحابة — بخلاف عمر — فى السياحة فى الأمصار حتى أنه لم تمض سنة من امارة عثمان الا وقد اتخذ فيها رجال من قريش أموالا فى الأمصار واضطربوا فى البلاد وانقطع اليهم الناس وثبتوا سبع سنين كل قوم يحبون أن يلى صاحبهم (١) •

٣ — وقوع الاضطرابات فى كثير من الأمصار بسبب حركة التغيير مثل ما حدث فى البصرة من تغيير الشيخ الأشعرى سنة ٢٩ هـ دون تحقيق واحلال الشاب الطائش عبد الله بن عامر (ابن خال عثمان) مكانه مما جعل بعض اللصوص كحليم بن جبلة العبدى يقوم بشغب فى البصرة نتج عنه فقدان الأمن والاستقرار (٢) •

٤ — وليس معنى هذا أن عثمان كان كل عصره اضطرابات ولم يحدث منه فائدة تعود على المسلمين بالطبع لا بل هناك من الأعمال الجليلة التى خلفها عثمان لا تنسى الى اليوم مثل : جمع المسلمين على مصحف واحد الى غير ذلك من الأعمال الطيبة • ولكن الاضطرابات والفتن كانت أقوى فانتهت بقيام ثورة مسلحة بقيادة بعض الحاقدين راح ضحيتها عثمان بن عفان •

د — لقى عثمان ربه وجاء الامام على كرم الله وجهه فلم يكن من اليسير أن يرد الأمر الى ما كان عليه فى عهد أبى بكر وعمر • وكان من الطبيعى أن يتحرك الأفراد الذين نالوا ما يشتهون فى عهد عثمان • ويعملوا على تعويق الامام على لأنهم اعتقدوا تماما أنه لن يسكت عنهم وكان من جراء ذلك أن انحازوا الى معاوية بن أبى سفيان بل ويشجعوه على الوقوف فى طريقه ••

ورغم كل هذا فان عليا قد مضى فى طريقه لينجز مهمته مهما كانت الظروف وأبرز شئ بالنسبة له فى سياسة الحكم ما يلى :

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٩١ ، والخلفاء للسيوطى ص ١٠٦
(٢) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٤٩ ، وتاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٣ ص ٣١٩ — ٣٢١

١ — اتجاهه الى عزل جميع أمراء عثمان ومنهم معاوية بن أبى سفيان ورغم النصح له من بعض العقلاء على عدم الاقبال على هذا الفعل لكنه صمم وعزم عليه مما كان له أثره السيء فى سير الأحداث (١) .

٢ — تجمع المنشقون على الامام على عاملين على سلب الخلافة منه تحت شعار " الثأر لقتلة عثمان " وهكذا طالبوه بنقل مقر الخلافة من المدينة الى العراق ولحوا عليه فى ذلك . ولكن ابن عباس أخذ ينهاه عن السماع لهم كعادته دائما دائبا فى النصح والارشاد له حتى قال ابن كثير فى ذلك " .. فأبى عليه ذلك كله وطاوع أمر أولئك الأمراء الخوارج من أهل الأمصار " (٢) مما فقد المدينة سلطانها الدنيوى الى الأبد .

٣ — نتج عن الاضطرابات التى حدثت بسبب ما سبق حرب الجمل بالبصرة وصفين بشمال الشام الى غير ذلك من المعارك .

٤ — حاول الامام على كما ذكرنا أن يرد الأمر الى ما كان عليه قبل عثمان رضى الله عنه وهذه صورة من صور تعامله فى الحكم : وجد — رضى الله عنه — درعه عند رجل نصرانى ، فأقبل به الى شريح قاضيه ، يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه ، وقال : انها درعى ولم أبع ، ولم أهب . فسأل شريح النصرانى : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال النصرانى : ما الدرع الا درعى ، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب : فالتفت شريح الى على يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك على وقال : أصاب شريح ما لى بينة . فقضى بالدرع للنصرانى ، فأخذها ومشى ، و " أمير المؤمنين " ينظر اليه .. الا أن النصرانى لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء ... أمير المؤمنين يدينني الى قاضيه فيقضى عليه : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين . اتبعت الجيش وأنت منطلق الى صفين فخرجت من بعيرك الأورق فقال على : أما اذا أسلمت فهى لك (٣) " ..

فترة الفتنة الكبرى :

قبل أن يجرنا الحديث الى سياسة الحكم فى عهد بنى أمية لننتهى من الحالة السياسية لعصر الحسن البصرى نقف قليلا عند هذه الفترة — الفتنة الكبرى — لنهط

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ١٠١ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٧ ص ٢٢٨ .
(٣) عبقرية الامام للأستاذ العقاد .

المهديين بعضهما وبهذا يتكون العصر السياسي للحسن .

الظاهر في أمر تولية رئيس الدولة في عهد الخلافة الراشدة ، أن الذي أسس عليه بنيان هذا التصرف هو سكوت النبي صلى الله عليه وسلم في باب الخلافة وقوله تعالى " وأمرهم شورى بينهم " الشامل لجميع شئون المسلمين الجماعية . والذي يثبت من هذه السابقة الدستورية ثبوتا قاطعا هو أن انتخاب الرئيس في الدولة الاسلامية متوقف على رضاء عامة المسلمين ولا يحق لأحد أن يسلط نفسه على رؤوسهم بالقسر والاكراه ، ولا اختصاص بهذا المنصب لأسرة أو طبقة خاصة . وينبغي أن يجري الانتخاب برضا المسلمين من غير ما عنف ولا تدليس (١) . .

أما عن أهلية المنتخبين لرئاسة الدولة أو الامارة . . فمن الممكن أن تنحصر في مقاييس أربعة :

١ ـ الاسلام : " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " (٢) . وعن عبادة بن الصامت قال : " بايعنا رسول الله على أن لا ننازع الأمر أهله الا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان " (٣) .

٢ ـ الرجولة : " الرجال قوامون على النساء " (٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " (٥) .

٣ ـ العقل والبلوغ : " ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما " (٦) .

٤ ـ سكنى دار الاسلام : " والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا " (٧) .

ويحق لكثير من الناس أن يسأل ما هو نوع الحكم في الاسلام ؟ والجواب ما قاله الدكتور طه حسين : " . . لم يكن ملكا ، ولم يكن يؤذي النبي وصاحبيه شيء كما كان يؤذيهم أن يظن بهم الملك . وهو لم يكن جمهوريا ، فلم نعرف في نظم الجمهورية نظاما يتيح للرئيس المنتخب أن يرقى الى الحكم فلا ينزله عنه الا الموت . ولم يكن قيصريا بالمعنى الذي عرفه الرومان ، فلم يكن الجيش هو الذي يختار الخلفاء فهو اذن نظام عربي اسلامي خالص لم يسبق العرب اليه ثم لم يقلدوا بعد ذلك فيه (٨) .

---

(١) تدوين الدستور الاسلامي لأبي الأعلى المودودي ص ٥ ، ٦٤ ـ ٦٦ .
(٢) سورة النساء آية ٥٩ .
(٣) رواه البخاري ومسلم .
(٤) سورة النساء آية ٣٤
(٥) رواه البخاري
(٦) سورة النساء آية ٥
(٧) سورة الأنفال آية ٧٢
(٨) الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين ـ عثمان ص ٣٢ .

نستطيع بعد هذا كله أن نخرج من أمر الفتنة الكبرى بالأمور الآتية :

أولا — أن الخليفة عثمان رضي الله عنه جاء بالطريق المشروع في ضوء الكتاب والسنة

ثانيا — لا يمكن أبدا أن نتهم سيدنا عثمان في اختياره لعماله لأنه يعلم تماما قوله تعالى : " ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها " (٩) ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " انا والله لا نولي على عملنا هذا أحدا سأله أو حرص عليه " (١) .

ثالثا — للأسف حينما ننظر في مراجع التاريخ نجد الفترة التي قتل فيها الخليفة الثالث فيها الكثير من اضطراب الروايات . وهذا راجع الى أن تدوين العلوم الاسلامية كان — غالبا — في الدولة العباسية . ونحن نعلم أن الدولة العباسية قامت على أنقاض دولة بني أمية . خاصة وأن السياسة تغلبت في نفوس الناس على الدين . كما كان بغض الأمويين للعباسيين واضحا ومن أجل ذلك نجد أن قول ابن تيمية وابن كثير في هذا الصدد أقرب الى النفس . " ان بعض المروي في ذلك (عن حكم عثمان) كذب أو غير وبدل من غير وجه " (٢) وعلى هذا فلا يصح لنا أن نأخذ ما قيل عن الفتنة دون بحث ودراسة ..

رابعا — التطور العام للمجتمع الاسلامي ، والسآمة من الحكم والميل لغيره ..

خامسا — استغل ابن سبأ عوامل الضعف في الدولة وأخذ ينسج خيوط الأكاذيب بدون وجه حق . ولا شك أن كل كلام يجد له أنصارا مما أدى الى بلبلة الأفكار بين المسلمين .

سادسا — هذه الفتنة ساعدت على قيام دولة بني أمية وتقويض الخلافة الراشدة . ذلك لأن آل أمية أخذوا يطالبون بدم قريبهم ويثيرون حمية كثير من الصحابة حتى أننا نجد طلحة والزبير رغبا الى أم المؤمنين عائشة في أن تصحبهم الى البصرة . فقالت لهما : أتأمرانني بالقتال ؟ قالا : لا . ولكن تعظين الناس وتحريضهم على الطلب بدم عثمان . فقبلت في غير تردد .. وكان القتال مع علي (٣) .. واستمر الامام علي في معارك مستمرة سواء كانت على سبيل المواجهة أو معارك جانبية حتى انتهت بقتله وخلا الجو لهذا الملك العضود لدولة بني أمية .

---

(١) متفق عليه .
(٢) منهاج السنة لابن تيمية جـ ٢ ص ١٨٦ ، والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٧ ص ١٨٠ — ١٩٦ .
(٣) الفتنة الكبرى — علي وبنوه للدكتور طه حسين ص ٢٨ — ٢٩

سابعـــا - الأمراء الذين عزلهم الخليفة عثمان كسعد بن أبي وقاص ، والمغـــيرة ابن شعبة ،وعمرو بن العاص وغيرهم كانوا يرسلون الى الخليفة نقدهـم للحكم الذى يتولاه الخليفة فينتشر بين الناس مما كان سببا فـــى تحريك الرأى العام على الخليفة .

ثامنـــا - ضعف الوازع الدينى بالنسبة لأيام عمر وما قبله وانهماك كثير من المسلمين فى طلب الدنيا وعرضها الزائل حتى أعطوا فرصة لأهل الحقد والضغينة يعيثون فى الدولة بالفســاد (١) ..

تاســـعا - فى موضوع الفتنة الكبرى انقسم المسلمون الى عدة فرق :

١ - فمنهم العثمانى الذى لا يعدل بعثمان أحدا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بعد الشيخين .

٢ - ومنهم الشيعى الذى لا يفضل أحدا على على بن أبى طالــــب ولو كان أبو بكر أو عمر بن الخطاب .

٣ - ومنهم من يتردد بين هذا وذلك فيقف من الطرفين موقف التقدير والاجـــلال ، ويرى أن جميع من كانوا فى صف عثمان وجميـع من كانوا فى صف على قد اجتهدوا ، ونصحوا لله ورسوله وللاسلام والمسلمين ، فأخطأ منهم من أخطأ وأصاب منهم من أصـــاب ، ولأولئك وهؤلاء أجرهم لأنهم لم يتعمدوا خطيئة ، ولم يقصـدوا الى اساءة (٢) .

عاشـــرا - استغل أعداء الاسلام الفتنة ورأوا أن فيها مادة دسمة تصلح للتشنيـع على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ،والتهوين من شأن هـــذه الرسالة الخالدة . واظهار أن ما جاء به رسول الله وما أجهد نفسه فى تبليغه ، قد صار بعد وفاته كلمات على طرف اللسان ،وشـعارات يختفى وراءها أصحاب الأطماع فى الجاه والسلطان ، وجعلوا الأخـلاق الفاضلة والايمان بالدعوة المحمدية حطام هذه المعركة وفى ضوء هـذا المعنى أخذ كل من الفريقين يصور الآخر بما لا يليق (٣) .

حادى عشر - فى نهاية الحديث عن الفتنة الكبرى التى لا يكفى الحديث عنها فى هذه الاشارات يجىء هذا السؤال : كيف يحدث هذا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

---

(١) عصر الخلفاء الراشدين للدكتور محمد على قفاعى ص ٣٢٩ - الطبعة الثانيـــة ، سنة ١٩٥٥ م - مطبعة عطايا . (٢) الفتنة الكبرى - عثمان للدكتور طه حسين

(٣) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ للدكتور ابراهيم شعوط ص ٨٤ .

والجواب على ذلك :

أولا - بالنسبة لسيدنا عثمان فان المصادفات السيئة قد ساقت اليه الخلافة متأخرة فكانت العصبية الأموية حوله وهو يدلف الى الثمانين ، واهن القوى ضعيف الشيخوخة فكان موقفه كما وصفه صاحبه على بن أبى طالب : " انى ان قعدت فى بيتى قال : تركتنى وقرابتى وحقى ، وان تكلمت فجاء ما يريد ، يلعب به مروان ، فسار سوقه له يسوقه حيث شاء ، بعد كبر السن وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم [1].

كذلك بالنسبة لسيدنا على فان الظروف السيئة هى التى جاءت به فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الحكم الاسلامى وجرته الى أمور مازلنا نتوجع منها الى اليوم .

ثانيا - بالنسبة لكل من كان فى هذه الفتنة من المسلمين ، التى نتج عنها سفك الدماء واباحة الأموال فى غير ما أحل الله ، هو أن ظروف الحياة كانت أقوى منهم جميعا وأن الله قد كتب عليهم أن يفتنهم فى دينهم ودنياهم هذه الفتنة الكبرى التى فسرها على لأهل الكوفة أحسن تفسير حين قال : أستأثر عثمان فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع " [2] . والله سبحانه قبل وبعد كل هذا بيده الأمر كله واليه المصير .

أسباب قيام دولة بنى أمية :

فيما سبق عرفنا أن الظروف أتيحت لتظهر دولة بنى أمية . ومن الممكن أن نحصرها - غالبا - فى هذه الأمور الآتية :

١ - ظهور العصبيات العربية : يظهر من الشعر العربى قبل الاسلام - وهو يترجم للحياة العربية - مبلغ التعصب الذى كان بين القبائل واشتعال الحروب بينهم لأدنى الأسباب . وعلى سبيل المثال يقول شاعرهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا .. [3]

---

(١) العدالة الاجتماعية فى الاسلام ص١٩٣ .

(٢) الفتنة الكبرى - عثمان للدكتور طه حسين ص٢٢٢ .

(٣) ديوان الحماسة لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى ج ١ ص ٤ .

فلما تشرفوا برسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم أخذت هذه العصبية تنكمش رويدا رويدا لأن تعاليم الاسلام هذبتها • قال تعالى : "يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم "[1] وقال أيضا : "واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا "[2] •

ولكن ليس معنى هذا أنها أزيلت تماما فان الفتوحات الاسلامية المتعددة وبعض الداخلين فى الاسلام ظاهرا كان من أسباب احياء هذه العصبية الجاهلية •

٢ — السياسة بين على ومعاوية : يختلف أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى سياستهم للمجتمع وان كانوا ينهلون من معين واحد •

ذكر بعض المؤرخين بأن معاوية بن أبى سفيان كان متزن العقل داهية جهد السياسة •• ويروون عنه قوله : " لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت " •

وبهذه الحكمة استطاع أن يلى أمور المسلمين بعد قتل الامام على بن أبى طالب كما استطاع أيضا أن يصل الى تنازل الحسن بن على عن الخلافة[3] • حتى أصبحت خالصة لمعاوية لا ينازعه فيها منازع الا سرعان ما ينهار أمام حيلته ودهائه وسياسته • ولذلك أطلق بعض المؤرخين على العام الذى تولى فيه معاوية وتنازل الحسن بعام الجماعة •••

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ • (٢) سورة آل عمران آية ١٠٣ •

(٣) عن الامام الحسن البصرى قال : استقبل — والله — الحسن بن على معاوية بكتائب أمثال الجبال فقال عمرو بن العاص : انى لأرى كتائب لا تولى حين تقتل أقرانها • فقال له معاوية : أى عمرو ، ان قتل هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء من لى بأمور الناس ، من لى بنسائهم ، من لى بضيعتهم ؟ فبعث اليه رجلين من قريش من بنى عبد شمس — عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عامر بن كريز — فقال : " اذهبا الى هذا الرجل (أى الحسن بن على) فأعرضا عليه (أى ما تريان فيه المصلحة فأنتما مفوضان) • فأتياه ، فدخلا عليه ، فتكلما ، وقالا له ، وطلبا اليه ، فقال لهما الحسن بن على : انا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال وان هذه الأمة قد عاثت فى دمائها : قالا : فانه يعرض عليك كذا وكذا ، ويطلب اليك ، ويسألك • قال فمن لى بهذا ؟ قالا : نحن لك به • فما سألهما شيئا الا قالا : نحن لك به • فصالحه (صحيح البخارى — كتاب الصلح ج ٣ ص ١٦٩) وهذا التنازل من الحسن جاء مصداقا لبشرى الرسول " ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين (رواه البخارى مع الحديث السابق عن الحسن البصرى أنه سمعه من أبى بكرة • وأن أبا بكرة رأى النبى صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر والحسن بن على الى جنبه فقال ذلك• والبداية والنهاية ج ٨ ص ١٧ — ١٩) •

٣ ـ أصحاب على ومعاوية :

اختلاف أصحاب على عن أصحاب معاوية . ذلك أن الجيش الذى تألف منه جيش معاوية كان من القبائل اليمنية من قضاعة ، وحمير سكان الشام الذين نزحوا اليها قديما من اليمن بسبب انهيار سد مأرب ثم من ربيعة ومضر الذين نزحوا الى الشام كذلك وسكنوها ولكن قليل ماهم . أما جيش على فقد كان مكونا من عناصر مختلفة وهى : سكان العراق الذين نزحوا اليها والى البصرة والكوفة فى كثرة بعد الفتح ومن الجهات الشمالية والجنوبية التى تجاور العراق .

كذلك كان من أصحابه وفى جيشه من سكان نجد ثم من اليمنيين الذين نزحوا الى العراق بعد الفتح . ومن ربيعة ومضر ، وقريش وقليل ما هم لأن قريشا لو كانت كلها مع على لحدث غير هذا .

ومما ساعد أيضا على تصدع جيش على ظهور فرقة السبئية والخوارج مما أدى الى انشغال على بهم وانتهاز معاوية الفرصة لتجميع جيشه .

وهناك عوامل أخرى يذكرها المؤرخون مثل :

أ ـ العمل على كسب ود أهل العراق أصحاب على وأعوان الحسن .

ب ـ ظهور معاوية لقادة الرأى الذين ناصروا عليا بمظهر التسامح والمبالغة فى اكرامهم .

جـ ـ اكتساب القلوب بالأموال والعطاء .

د ـ تخيير الولاة من أصحاب الثقاة .

هـ ـ استئناف حركة الفتوح ... مما أدى الى قيام دولة بنى أمية .. (١)

الحكم فى عهد بنى أمية :

عرفنا فيما سبق الأسباب التى أدت الى قيام دولة بنى أمية . والآن نسلط بعض الأضواء على سياسة الحكم فى هذا العهد الأموى .

(١) هذه الأسباب والعوامل لقيام الدولة الأموية خلاصة من كتب التاريخ نقلا عن دولة الأمويين فى الشرق ـ قيامها للدكتور بدوى عبد اللطيف ص ١١٧ ، ١٥٧ ، وكتاب : الخلافة والدولة فى العصر الأموى للدكتور محمد حلمى محمد أحمد ص ١٠٧ ـ ١١٠ ، والدولة الأموية للدكتور محمد زيادة ـ الطبعة الأولى ، ٢٦ رمضان سنة ١٣٨٥ هـ .

يبدأ العهد الأموى بالخليفة الأول " معاوية بن أبى سفيان *" الذى استولى على خلافة المسلمين بالقوة والحيلة . لا عن رضا ومشورة . ذلك أنه سخر أهل الشام لاعتقاده بميلهم اليه لاخضاع المخالفين من أهل العراق والحجاز . وسمى العام الذى تولى فيه الخلافة وتنازل الحسن له عام " الجماعة " وذلك لحقن دماء المسلمين فكانت الطريقة التى جاء بها الى الحكم تغاير طريقة الراشدين . حتى قيل : ان معاوية أخذ البيعة له ولابنه بعد ذلك بحد السيف . وقابل بنفسه فى المدينة بعض الصحابة كالحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ... لأخذ البيعة فعارضوه وأنكروا أن تكون الخلافة هرقلية " كلما مات هرقل قام هرقل ".(١) ولهذا أطلق الكثير من المؤرخين على حكمه بأنه ملك لا خلافة للفرق بين توليه وتولية الخلفاء الراشدين من جهة . ومن جهة أخرى استنادا الى حديث النبى صلى الله عليه وسلم المشهور " الخلافة ثلاثون سنة ، ثم تعود ملكا " ومما قالوا اثباتا لهذا الحديث . فاذا عددنا من ولاية أبى بكر الى تسليم الحسن كانت ثلاثين سنة لا تزيد ولا تنقص يوما . وان كان فى هذا الحديث مقال (٢) الا أن الذى لا ننكره هو : اختلاف تولية الخلافة فى العهد الأموى عنها فى عهد الخلفاء الراشدين ..

وقد أدخل معاوية — المؤسس للدولة الأموية — على الدولة أمورا لم تكن فى عهد سابقيه مما جعله — دائما — عرضة للمآخذ والتهم وذلك مثل :

---

* هو معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن قصى ، مؤسس الدولة الأموية التى عاشت ما بين ٤٠ هـ — ١٣٢ هـ ، ولد معاوية بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة ، وأسلم يوم فتح مكة هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند — بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن قصى — ، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة واستمر معاوية طول حياته مجاهدا حتى مات سنة ٦٠ هـ .

(١) الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير ج ٣ ص ٢١ .

(٢) هذا الحديث قال عنه أبو بكر بن العربى صاحب " العواصم من القواصم .." بعد أن أورده قال فى ص ٢٠١ : وهذا حديث لا يصح . ولو صح فهو معارض لهذا الصلح المتفق عليه فوجب الرجوع اليه . ثم علق الأستاذ المحقق محب الدين الخطيب على عدم صحة هذا الحديث بقوله : " لأن راويه عن سفينة سعيد ابن جهمان ، وقد اختلفوا فيه : قال بعضهم : لا بأس به ، ووثقه بعضهم . وقال فيه الامام أبو حاتم " شيخ لا يحتج به " وفى سنده حشرج بن نباته الواسطى وثقه بعضهم . وقال فيه النسائى : ليس بالقوى وعبد الله بن أحمد بن حنبل يروى [illegible]ذا الخبر عن سويد الطحان . قال فيه الحافظ بن حجر فى تقريب التهذيب [illegible] الحديث " الى آخر ما قال فى تخريجه لهذا الحديث .

١ - اقامة الحجاب على بابه . خوفا من الاغتيالات ، ومنعا للازدحام للتفرغ لمهام الدولة . والحاجب الذى يدخل الناس موظف كبير يشبه كبير الأمناء في أيامنا ..

ولقد وضع عبد الملك بن مروان المسموح لهم بالدخول فرأى وقت شاءوا ثلاثة المؤذن للصلاة فانه داعى الله ، وصاحب البريد فأمر ما جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد(1) وهذا بخلاف الخلفاء الراشدين فانهم تركوا الحرية للناس يدخلون عليهم حيثما أرادوا .

٢ - ولاة الأقاليم : معنى هذا أن الخليفة يعين من قبله واليا على كل اقليم وينوب عنه في حكم الولاية . وهو الرئيس للقضاة والصلاة والخراج والجند والشرطة .. وهذا ما يشبه عندنا تقريبا بالمحافظ . هذه الولاية من قبل الحاكم لم تكن فقط في عهد بنى أمية بل كانت من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وأخذ بها الخلفاء الراشدون واستمرت في عهد بنى أمية . الا أنه في عهد بنى أمية تطرق الى هذا النظام الادارى النقص لأنهم كانوا يسندون هذه الوظيفة الى أفراد البيت المالك والى كبار رجال البلاط ، فكانوا يبقون في دمشق ويعينون من قبلهم رجالا يقومون بالحكم نيابة عنهم بخلاف ما قبل العهد الأموى .(2)

٣ - كان القضاء في العهد الأموى يشبه الى كبير القضاء في عهد الراشدين في بساطته وعدم تعقيده وذلك راجع الى الوازع الدينى الذى كان موجودا في عصر الراشدين حتى يروى المسعودى : " أن أبا بكر لما استخلف قال له عمر : أنا أكفيك القضاء . فمكث عمر سنة لا يختلف اليه أحد "(3) .

وفى العهد الأموى استحدثوا ما يسمى " قاضى المظالم " لمحاكمة أصحاب النفوذ في الدولة وهو يشبه في بعض الاختصاصات بمجلس الدولة في أيامنا . كما كانت ترفع اليه الأحكام التى يرى بعض الخصوم أن القاضى لم ينصفه فيها وهو يشبه " محاكم الاستئناف " ولذلك كان من شروط الناظر فيها أن يكون جليل القدر ، نافذ الأمر عظيم الهيبة ، ظاهر العفة ، قليل الطمع . كثير الورع فهى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاة(4) .

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(2) تاريخ الاسلام السياسى والثقافى ، للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٥٧٤ .

(3) التنبيه والاشراف للمسعودى ص ٢٥٤ .

(4) تاريخ الحضارة الاسلامية للدكتور مصباح ص ١٣٨ - ١٣٩ .

٤ ــ الكتابـــة : كانت الكتابة قبل العهد الأموى قليلة جدا لقلة الكتاب ولاتصام الأمور فى منتهى البساطة . ولكن حينما جاء العهد الأموى وعظمت الأمـــور اشتدت الحاجة الى الكتاب وقسموا فى هذا العهد الى خمسة أنـــــــواع

النوع الأول : كتاب الرسائل : وهم الذين يكاتبون قواد الأجناد ، وأمـــراء الأقاليم وملوك ، وأمراء الدول المجاورة .

النوع الثانى : كتاب الخراج : لضبط الناحية المالية .

النوع الثالث : كتاب الأجنـاد : وهؤلاء لتقييد أسماء الجنود ومستلزماتهم .

النوع الرابع : كتاب الشرطة : وهؤلاء لكتابة تقرير تتصل بالأمن الداخلى .

النوع الخامس : كتاب القضاة : وهم الذين يدونون الأحكام ويحتفظون بصورة منها فى الســـجلات . ومن هؤلاء الكتاب الذين تألقوا فى العصر الأموى "عبد الحميد الكاتب" (١) .

٥ ــ الشرطة : الشرطة عبارة عن الجند المحافظين على النظام لاستتباب الأمـــن والقبض على الجناة . الى غير ذلك من الأعمال التى تكفل سلامة أفـــــراد المجتمع ، وطمأنينتهم . وأول من أدخل هذا النظام على المجتمع "عمر ابن الخطاب" وكان يتفقد أحوال الرعية بنفسه حتى اتخذ الامام علـــى صاحب الشرطة .

وفى عهد بنى أمية ازدادت أهميتها وأصبحت قيمتها لا تقل عن أى عمل من الأعمـــــال (٢) .

٦ ــ الحسـبة : الحسبة عبارة عن منصب دينى من قبل القضاء وهو ما يشبه فـــى أيامنا ــ تقريبا ــ مفتش التموين الا أنه يعتبر مفتشا عاما له السلطة فى أن يفتش على كثير من أمور الدولة التى تهم الأفراد والجماعات . فله سلطـــــة رجل الشرطة من ناحية ، وسلطة مهندس البلدية من ناحية أخرى وسلطة القاضى فى الجنايات والأمور المستعجلة كذلك . وهى سلطة واسعة جعلت لهذه الوظيفة قيمتها وخطرها (٣) .

---

(١) تاريخ الحضارة الاسلامية للدكتور صباح ص ١٠٠ ــ ١٠٤ ، والدولة الأمويـــة للدكتور محمود زيادة ، ص ١٣ .
(٢) الدولة الأموية للدكتور محمود زيادة . ص ١٠٠ .
(٣) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٢٢٧ ــ ٢٣٣ .

وهذا النظام كان يوجد فى عصر المصطفى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ما يشابهه .

٧ — بيت المال : لما قامت الدولة الأموية حدثت محاولات لتغيير القواعد التى كانت تؤخذ بها الضرائب فى عصر الراشدين . وكان ذلك بسبب حاجة الدولة الى الأموال الكثيرة فكتب معاوية بن أبى سفيان الى " وردان " عامله على مصر أن زد على كل امرئ من القبط قيراطا : فكتب اليه يقول : كيف أزيد عليهم وفى عهدهم أن لا أزيد عليهم ؟ .

ولكن لم يلبث العمال الأمويون أن نفذوا هذا الاقتراح الذى أشار به معاوية بن أبى سفيان .. وأشهر من فعل ذلك " عبيد الله بن الحبحاب " متولى الخراج من قبل " هشام بن عبد الملك " .

وكانوا يأخذون الجزية ممن أسلم مع أن القواعد الاسلامية تقضى برفع الجزية عمن أسلموا .. وذلك حتى لا تنقص موارد بيت المال بسبب كثرة الداخلين فى الاسلام . وقد أبطل عمر بن عبد العزيز هذه السنة السيئة ونفذ قواعد الاسلام فى دقة وأمانة وأرسل الى الولاة فى جميع الأمصار يأمرهم برفع الجزية عن كل من أسلم " فان الله لم يبعث محمدا — صلى الله عليه وسلم — جابيا وانما بعثه هاديا (١) .

* هذه بعض الأمور التى تحدثت عنها فى سياسة الحكم لدولة بنى أمية صدرتها بمعاوية بن أبى سفيان كمؤسس لهذه الدولة .

ولذلك نجد أن كل النظم والتخطيطات التى جاء بها فى عصره كانت سمة العصر كله غالبا اللهم الا اليسير من الزيادة أو النقصان بخلاف عهد خامس الراشدين — كما يسمى — عمر بن عبد العزيز فقد كان شاذا عن عهد بنى أمية لأنه — عليه رحمة الله — كان يسير على نمط أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهناك من الأعمال الجليلة التى لا ننساها أبد العهد بنى أمية مثل الفتوحات الاسلامية التى أحدثت دويا فى العالم كله فى هذا العصر والتى اشترك فى بعضها شيخنا الحسن البصرى رضى الله عنه .

واتماما للفائدة سأقدم فى نهاية هذا الفصل — أيها القارئ الكريم — تراجم قصيرة لخلفاء بنى أمية الذين عاصروا الحسن البصرى . والله الموفق لما فيه الخير .

(١) الدولة الأموية للدكتور محمد الطيب النجار ص ١٦٦ — ١٦٩ .

خلفاء بنى أمية الذين عاصروا الحسن البصرى :

(١) معاوية بن أبى سفيان : مؤسس دولة بنى أمية . تقدم ذكره .

(٢) يزيد بن معاوية بن أبى سفيان : (٦٠ — ٦٣ هـ ، ٦٨٠ — ٦٨٣ م)

ولد يزيد من امرأة بدوية ، تزوج بها معاوية قبل توليته الخلافة ، غير أنها لم تحتمل المعيشة فى دمشق فردها معاوية الى أهلها ، فنشأ يزيد على ما عودته عليه أمه من معيشة البدو وحب اللهو وعدم مراعاة القوانين . وكان فصيحا كريما وشاعرا مفلقا حتى قالوا : " بدئ الشعر بملك وختم بملك " يعنون امرأ القيس ويزيد ..

(٣) معاوية الثانى : (٦٣ هـ ، ٦٨٠ م)

كان معاوية صبيا ضعيفا ، ليس له من الأهمية ما يستحق الذكر اذ لم يزد عهده على أربعين يوما ، فلم يتمتع بالملك لمرضه . ولم يكن بد من انزوائه فى داره ومن محاسنه أنه ترك الأمر شورى للناس يولون أمرهم ما يشاءون ..

(٤) مروان بن الحكم : (٦٤ — ٦٥ هـ ، ٦٨٣ — ٦٨٥م)

كان مروان من ذوى الرأى والفصاحة والشجاعة وكان ساعد عثمان وكاتبه ومدبر أمره . وكان كثير التلاوة للقرآن الكريم .

ومما يؤخذ عنه اتهامه بالكتاب المكذوب على عثمان وان لم يقم الدليل بعد على ذلك . وقد اعتزل مروان السياسة بعد موقعة الجمل . ثم تولى ولاية المدينة لمعاوية مرتين وهكذا أخذ يتقلب فى المناصب حتى آلت اليه الخلافة .

(٥) عبد الملك بن مروان : (٦٥ — ٨٦ هـ ، ٦٨٥ — ٧٠٥ م)

بعد أن تولى عبد الملك أمر الخلافة وجه عنايته نحو العراق التى بايعت ابن الزبير بعد مقتل الحسين وبعد مناوشات عدة انتهت بفشله وعادت العراق الى ابن الزبير حتى سنة ٧٢ هـ [1] حين قدم الخليفة اليها بنفسه وفى أثناء الطريق من الشام الى العراق حدث لعبد الملك الآتى فى وقت واحد . جاء اليه البريد ليخبره بمقتل عبد الله بن زياد ، وانهزام جنده ، ومقتل القائد الذى أرسله لحرب ابن الزبير بالمدينة ، ونزول حملة بيزنطية فى ثغر المصيصة بين أنطاكية وحدود الروم فى طريقها الى الشام ، وقيام عبيد بدمشق وأوباشها

(١) تاريخ الاسلام السياسى والثقافى .. للدكتور حسن ابراهيم جـ١ ص ٤٣٥ وما بعدها

بثورة ضده ، واغارة خيل الأعراب على حمص وبعلبك الى غير ذلك مما يكون — عادة — سببا فى اليأس والقنوط ولكن عبد الملك نظر الى كل هذه المصائب بحكمة وعقل راجح وصبر أكيد (١) . وما هى الا فترة قصيرة حتى انكشفت الغمة وانتهت كل هذه العقبات ..

٦ — الوليد بن عبد الملك : (٨٦ — ٩٦ هـ ، ٧٠٥ — ٧١٥)

من حظ الوليد بن عبد الملك أن يتولى الخلافة فى هذا الوقت بالذات لأن عبد الملك كان قد مهد له الطريق لحياة أفضل من سابقه وأراح من بعده ويكفى أنه فى أخريات حياته تم طرد البيزنطيين نهائيا من افريقية — وهى أكثر الولايات البيزنطية الغربية — حضارة وتقدما . واختفت الكنيسة الافريقية اللاتينية من مسارح التاريخ وبذ موسى بن نصير عامل الخليفة ألوية العرب الى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) باستثناء مدينة (سبتة) فاللحظة كانت ملائمة لتقدم الوليد وقواده دون تردد (٢) .

وفى عهد الوليد نشطت الفتوحات الاسلامية مرة أخرى فتم فتح مدن فرغانة ، وبلاد الصغد عنوة ، ومدينة الفيل سمرقند ، والمنطقة المعروفة بخانات آسيا الوسطى (تركستان الصينية والروسية) . ويذكر البلاذرى أن فى صلح قتيبة مع ملك الصغد وملك الشاش كانت بيوت الأصنام والنيران ، فأخرجت الأصنام فسلبت حليها وأحرقت ، وكانت الأعاجم تقول : ان فيها أصناما من استخف بها هلك . فلما حركها قتيبة بيده أسلم منهم عدد كثير بسبب ما حدث (٣) .

٧ — سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ ، ٧١٥ — ٧١٧ م)

بعد وفاة الوليد بن عبد الملك تولى الخلافة بعده أخوه سليمان بن عبد الملك وكان شغوفا بالفتوحات فنظر الى من سبقه فوجد أنهم رغم كل ما فعلوه لم يستطيعوا أن يفتحوا القسطنطينية فأراد أن يحقق أمل أسلافه وهو فتح القسطنطينية حينئذ أرسل سليمان أخاه مسلمة لتنفيذ هذا المشروع

---

(١) مروج الذهب للمسعودى جـ ٢ ص ١١٣ وما بعدها .
(٢) الدولة العربية الاسلامية للدكتور نظير حسان ص ١٨٢ .
(٣) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤١١ وما بعدها .

الذى أعده الوليد من قبله لفتح هذه المدينة وكانت الفرصة مواتية لهـــذا العمل الكبير لولا ما حدث للخليفة من انشغاله بأمور تافهة ما كان يصح أن يقع فيها مثل تعنته مع موسى بن بصير وقتيبة بن مسلم وغيرهما مما أدى الى ضعف الصف العربى والاسلامى • ليس هذا فقط بل تراجع الاسطول العربى أمام نيران العدو ومات سليمان دون أن يحقق أمانيه •

وأكبر حسنة له • وصيته بتوليه عمر بن عبد العزيز خليفة بعده كما ذكر الطـــبرى (١) ••

٨ — عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ ، ٧١٧ — ٧٢٠ م)

وهذا الخليفة غنى عن التعرف فكانت الاصلاحات الداخلية والخارجية التى قام بها فى هذه المدة الوجيزة تحتاج وحدها الى رسالة كاملة وكفاه فضلا أن الحسن البصرى لم ينسجم من أى خليفة من خلفاء بنى أمية مثل انسجامه من عمر بن عبد العزيز وحبه له ••

٩ — يزيد (الثانى) بن عبد الملك : (١٠١ — ١٠٥ هـ ، ٧٢٠ — ٧٢٤ م)

لم يمهل القدر الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز حتى اختاره مع شـــدة الحاجة اليه وللأسف لم يمض يزيد هذا فى طريق سلفه القريب بل على العكس أخذ يهدم ما بناه عمر رضى الله عنه مثل : أخذ الجزية ممن أسلم ، وتقريب أهل الحظوة •• مما أدى الى ظهور الاضطرابات والفتن •• هذا بالاضافة الى شخصيته الضعيفة التى تتمثل فى عاطفته الشديدة التى لا تلائم موقفه كخليفة للمسلمين • وقد عرفنا سابقا فى الحالة الاجتماعية أن يزيد كان مغرما بحب جارية تدعى "حبابة" لدرجة كبيرة ، حتى أنه تأثر بموتها مما قيل : انه مات بسبب ذلك (٢) •

١٠ — هشام بن عبد الملك : (١٠٥ — ١٢٥ هـ ، ٧٢٤ — ٧٤٣ م) : جاء هشام بن عبد الملك ليخلف أخيه يزيد الى الحكم فى وقت عصيب تحتاج فيه الدولة الى من يأخذ بيدها الى بر الأمان • ومن محاسن الصدف أن هشاما بن عبد الملك لم يكن كأخيه فى استهتاره ••• ولكن هشاما كان يقظا لسياسة الدولة فكان كثير الاشراف على حسابات الدولة محافظا على مظهره الدينى الا أنه لم يستطع

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ٦ ص ١٢٩ •
(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ٨ ص ١٧٩ •

أن يسير بحكمة مع الشيعة مما سبب تقوية المعارضة ضد الأمويين ومهد السبيل لانتشار الدعوة العباسية فى الشرق ولم يوفق فى معاملة الموالى معاملة طيبة كعمر بن عبد العزيز ، واشتداد عماله فى جباية الأموال أدت الى قيام البربر بثورة عظيمة فى شمال افريقية مما اضطر هشاما لارسال جيش اليهم لمحاربتهم •

ورغم كل هذا فقد بلغت الدولة العربية فى عهده أوسع حدودها ودل نشاطه الحربى على أنه لم يرهب الحروب وظهر ذلك من تجهيزه للجيوش الكبيرة وبناء الحصون المنيعة لمواجهة الروم بعد فشل غزو القسطنطينية ٩٨ / ٩٩ هـ فكان يقوم فى كل صيف بغزوات كبيرة حتى أرهب الأعداء وأعطى للدولة هيبة (١) • وهذا الخليفة هو الذى مات الحسن البصرى فى عهده •

(١) الدولة العربية الاسلامية للدكتور نظير حسان ص ١٩٦ — ٢٠١ •

الفصـــــل الثالـــث

الحياة الفكريـــة

تمهيد :

كان العالم قبل الاسلام فى حاجة الى رسالة ، وقد أثبتت الدلائل كلها بما لا شك فيه أن محمدا صلى الله عليه وسلم صاحب تلك الرسالة . والرسالة التى جاء بها الى العالم لينقذه من الظلمات الى النور هى " الاسلام " .

وصدق الله العظيم اذ يقول : " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهـــدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم "(1) .

والاسلام الذى أنار الله به البشرية حمل الى العالم فكرا جديدا . ليـــس هذا فقط بل حث على التفكر والنظر والتدبر " ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب "(2) . و " أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا "(3) . واذا نظرنا الى أول ما نزل من القـــرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجدنا قولا يدعو الى التفكر والقراءة .. قـــال تعالى " اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكـــرم ، الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم "(4) . كما حث على العلم والتعلـــم : " وقل رب زدنى علما "(5) و " وما أوتيتم من العلم الا قليلا "(6) و " وفوق كل ذى علـــم عليم "(7) . على هذا أقبل الصحابة عليهم رضوان الله تعالى على العلـــم النافع والفكر الصحيح من منابعه الأصيلة فتفقهوا وفقهوا غيرهم . وأصبحوا قدوة طيبة للأجيـــال كلها . وعلى نهجهم سار التابعـــون وغيرهم .. وليس معنى هذا أنهـــم كانوا آلة صماء تلقى اليهم المعلومات دون مناقشة أو جدل بل كانوا يسألون النبى عليـــه الصلاة والسلام فى كثير من الأمور التى تعترضـــهم فنرى القرآن نفسه يذكر طرفا مـــن

---

(1) المائدة آية ١٥ ، ١٦ .
(2) آل عمران آية ١٩٠ .
(3) النساء آية ٨٢ .
(4) العلق الآيات ١ ــ ٥ .
(5) طـــه آية ١١٤ .
(6) الاسراء آية ٨٥ .
(7) يوسف آية ٧٦ .

هذه الأسئلة التى كانت توجه الى الرسول والاجابة عليها مثل قوله تعالى : " يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج "(١) و " ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض "(٢) .. الى آخر هذه الأسئلة والأجوبة الكثيرة فى القرآن والسنة مما لا يتسع ذكره ..

ومن أجل هذا يقول سبحانه جل ذكره : " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن "(٣) ، ويقول : " ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن "(٤) . وهذا هو ابن قيم الجوزية يبين لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت توجه اليه الاسئلة فى دقائق الأمور فيجيب عليها دون حرج منه ما دامت الأسئلة فى حدود المعرفة التى يستطيع العقل أن يدركها وبعد تقديم أنموذج منها يقول : وفيه دليل على أنهم كانوا يوردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشكل عليهم من الأسئلة فيجيبهم عنها بما يثلج صدورهم ، وقد أورد عليه صلى الله عليه وسلم الأسئلة أعداؤه وأصحابه .. أعداؤه للتعنت والمغالبة ، وأصحابه للفهم والبيان ، وزيادة الايمان . وهو يجيب كلا من سأله الا ما لا جواب عنه كسؤاله عن وقت الساعة .. "(٥) ...

من كل هذا نعلم بأن عصر الرسول .. كان يحتوى بذور التفكير فى مسائل العقيدة وأن جانبا من الممتنعين عن هذا النوع من التفكير انما كان امتناعهم راجعا الى رهبة الموقف الذى يجدون أنفسهم فيه .

ويخطئ من يظن أن البيئة الاسلامية كانت فى ذلك الوقت — خاصة — بعد أن دانت للرسول صلى الله عليه وسلم أجزاء الجزيرة العربية وأنحاؤها المختلفة — لا تزاول نشاطا فكريا حول العقيدة الاسلامية ..(٦) .

والدليل على هذا الخطأ ما حدث بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم من اختلاف حول الخلافة والنص الذى ورد فى ذلك

---

(١) البقرة آية ١٨٩ .
(٢) البقرة آية ٢٢٢ .
(٣) سورة النحل آية ١٢٥ .
(٤) سورة العنكبوت آية ٤٦ .
(٥) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزية جـ ٣ ص ٥٧ .
(٦) نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية للاستاذ يحيى هاشم فرغل ص ٤٣ .

وهو قوله : " الأئمـــة من قريش "(١) الى آخر هذه الأمور الدالة على حرية الفكر والنشاط العقلى بين الصحابة عليهم رضوان اللـــه •

فى ضوء ما ذكرناه نعلم أن الاطار الذى كان يدور حوله التفكير والنظر هو كتاب الله تعالى لأنه المصدر الأصلى لكل قول أو عمل يريدون أن ينفذوه • لدرجـــة أن المسلمين فى بادئ الأمر لم يكتبوا بعد القرآن الا القليل من أحاديث النـــبى صلى الله عليه وسلم لشدة حاجتهم اليها فى ما أشكل عليهم فهمه من القرآن الكريم • وكانوا اذا وقفت فى طريقهم مشكلة علمية رجعوا الى الخلفاء وفقهاء الصحابة ليتبينـوا حقيقة الأمر • والدليل على هذا ما قاله أبو هريرة رضى الله عنه : " لما فتحـــت مكة قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب فقام رجل من اليمن يقال له أبو شاة ، فقال: يا رسول الله اكتبوا لى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتبوا لأبى شـــاة وفى رواية أخرى قال : اكتبوا له (٢) ••

هذا التمهيد يعطى لمحة سريعة عن " الحياة الفكرية " كما عاشها النبي صلـى الله عليه وسلم والصحابة الأبرار • وحتى يتبين لنا بجلاء ووضوح عصر الحسن البصرى الفكرى لا بد من الحديث بالتفصيل عن الحياة الفكرية من حيث وصفها ومراكزها ، والحديث عن الحركـــة الدينية مفصلة كذلك من حيث الكلام عن القرآن وعلومه ، والحديث وعلومه ، والتشريع الاسلامى وتطوره ، وبالتالى عن الفرق الدينية المختلفة وما تشعبت عنه ••

اذا فعلنا ذلك نجد أن هذا العصر من هذه الناحية يحتاج الى رسالـــة كاملة ـ على الأقل ـ ولكن نبرز ـ باذن الله تعالى ـ الأفكار الرئيسية فى هـــذا العصر وما عدا ذلك يجىء الحديث عنه ضمنا بما يكون له اتصال بالحسن والله الموفق •

---

(١) فى البخارى ج ٨ ص ١٠٤ ـ ١٠٥ عن معاوية أنه سمع رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم يقول : " ان هذا الأمر فى قريش لا يعاديهم أحد الا كبه اللـه على وجهه ما أقاموا الدين " ، ورواه الامام أحمد فى مسنده ج ٣ ص ١٢٩ ، ص ١٨٣ عن أنس بن مالك •• وج ٤ ص ٤٢١ عن أبى برزة يرفعه الى النبى صلى اللـه عليه وسلم " ، الطبعة الأولى ، ومسند الطيالســى برقم ٩٢٦ عن أبـــى برزة وبرقم ٢١٣٣ منه عن أنس •• (تخريج المحقق محب الدين الخطيب فى تعليقه على كتاب " العواصم من القواصم •• لابن العربى رمضان ١٣٧١ هـ) •

(٢) مسند الامام أحمد بن حنبل ج ١٢ ص ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، وفتح البـــارى ج ١ ص ٢١٧ ، وجامع بيان العلم ج ١ ص ٧٠ •

الفتوحات ودخول الموالى فى الاسلام :

فتحت العراق وفارس ومصر ، وغير ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين . وظهر دعاة الى الله تعالى يبصرون الناس فى أمور دينهم ودنياهم مما كان له أثر كبير فى البلاد المفتوحة ، فكان طبيعيا أن يتحمس أصحاب تلك الديانات فيدافعون عن مللهم ونحلهم . حينئذ تكثر المناقشات ويلتحم الجدل فيها فى العصر الأموى بين المسلمين وغيرهم . وكان المركز الكبير لهذه التيارات المختلفة من المناقشات والجدل هو " العراق " . وبدخول الموالى فى الاسلام دخل مع الكثير منهم آراء ونحل مختلفة حتى اضطربت أفكارهم فظهرت منهم المجسمة والمشبهة ... فأصبح هذا وغيره مثار جدل كما أن الناحية السياسية وانقسام المسلمين الى شيعة وخوارج فمعتزلة وغيرهم تبعه هذا اختلاف فكرى شديد والتحام مذهبى عنيف (1) .

ويمكن أن ينجلى هذا بوضوح فى الحديث عن " نشأة الأحزاب والفرق الدينية وتعاليمها " . وقبل الحديث عنها يجدر بنا أن نتحدث عن الأسباب التى دعت اليها .

أسباب ظهور الأحزاب والفرق الدينية :

تنحصر هذه الأسباب — غالبا — فى الأمور الآتية :

أولا — سياسة الدولة وحكمها . ونتج عن ذلك ظهور الشيعة والخوارج .

ثانيا — الاهتمام بالرد على الاسرائيليات التى سرت عدواها الى تفسير القرآن الكريم وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم .

ثالثا — الرد على الشبهات التى تثار حول الاسلام خصوصا بعد الفتوحات ودخول الكثير فى دين الله تعالى ...

هذه الأسباب نتج عنها ظهور الأحزاب والفرق الدينية وغير ذلك مما تسبب عنه تعطيل الجهود وتوحيدها نحو مجتمع أفضل ، وحياة أسعد وأرغد .

نشأة الأحزاب والفرق الدينية :

جاء الاسلام الى البشرية ليخرجها من الظلمات الى النور . ولكن أعداء الاسلام وأعداء النور الذين يحبون أن يعيشوا فى الظلام كانوا يتحينون الفرصة فى كل وقت وحين لالقاء الشك فى نفوس المسلمين ليخرجوهم من النور الى الظلمات .

---

(1) من تاريخ الجدل حسن البصرى للشيخ محمد أبو زهرة ص ٨ ، ٩ منشورات معهد الدراسات الاسلامية بالقاهرة .

حدث هذا فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم فلم يفلحوا ، وبعد موته أيضا ولكن الله سلم فقد كان الخليفة الأول والثانى يقبضان على زمام الدولة الاسلامية بحزم وعزم لأجل أن لا تتفرع عن الطريق الذى رسمه المصطفى عليه الصلاة والسلام .

ولكن ما ان جاء عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان عليه رضوان الله ولعدة اعتبارات ذكرت فيما مضى رأى أعداء الاسلام أن الفرصة أصبحت سانحة لالقاء بذرة الخلاف بين المسلمين وأخذوا يغذونها حتى كبرت وترعرعت وأصبحت هذه البذرة فتنة كبيرة كانت سببا فى تصدع وحدة المسلمين . وتفرق كلمتهم خاصة بعد عهد الخلفاء الراشدين ووصل الأمر الى تكفير بعض أكابر الصحابة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ..

ومن أهم الأمور التى ساهمت فى ذلك ما عرف فى التاريخ الاسلامى — قديما وحديثا — بقصة عبد الله بن سبأ اليهودى الذى خرج على الأمة بقضية شغلت الرأى العام فى عهد عثمان ألا وهى : هل المال مال الله أو مال المسلمين ؟ .
وخلاصة هذا الموضوع كما روى فى المصادر الاسلامية أن عبد الله بن سبأ هذا — أصل السبئية — كان يهوديا من صنعاء اليمن . أظهر الاسلام فى عصر عثمان واندس بين المسلمين وأخذ يتنقل فى حواضرهم وعواصم بلادهم : الشام ، والكوفة ، والبصرة ومصر ، مبشرا بأن للنبى محمد صلى الله عليه وسلم وآله رجعة كما أن لعيسى بن مريم رجعة . وأن عليا هو وصى محمد صلوات الله وسلامه عليه . كما كان لكل نبى وصى وأن عليا خاتم الأوصياء كما كان محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء . وأن عثمان غاصب حق هذا الوصى وظالمه فيجب مناهضته لارجاع الحق الى أهله .

ولقب عبد الله بن سبأ بابن الأمة السوداء . وأخذ يبث دعايته هذه فى البلاد الاسلامية عن طريق دعاة له . آمرا اياهم أن يظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والطعن فى الأمراء فمال اليه وتبعه على ذلك جماعات من المسلمين منهم الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى رضى الله عنه[1] .. الذى قابله فى الشام فقال له : يا أبا ذر ، ألا تعجب الى معاوية يقول : " المال مال الله ، ألا ان كل

---

(١) أبو ذر جندب بن جنادة الغفارى ، كان رابع أربعة سبقوا الى الاسلام ، وكان من المتألهين فى الجاهلية والذين عبدوا الله وتركوا الأصنام . ولما أسلم جهر با[illegible] فى البيت الحرام بمكة فضربه رجال من قريش حتى أوشك على الموت ثم رجع الى بلا[illegible] بعد أن قال له الرسول : (ارجع الى أهلك حتى يأتيك خبرى) وأقام بها حت[illegible] مضت بدر وأحد فقدم الى النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة وبعد وفاة الر[illegible] سار الى الشام . ومكث هناك حتى شكاه معاوية الى الخليفة سيدنا عثمان فاس[illegible] وعنفه فنفاه الخليفة الى الربذة — بين مكة والمدينة — وتوفى بها سنة ٣٢ هجري[illegible]
([illegible] ج ٤ ص ١٦١ — ١٧١ ..)

شيء الله " كأنه يريد أن يحتجزه دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين .
فأتاه أبو ذر فقال : ما يدعوك الى أن تسمى مال المسلمين " مال الله " ؟
قال معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ؟ قال أبو ذر : فلا تقله . قال معاوية . فاني لا أقول انه ليس لله ، ولكن سأقول " مال المسلمين " وأتى ابن السوداء " عبد الله بن سبأ " أبا الدرداء ، فقال له : أبو الدرداء . من أنت أظنك والله يهوديا . فأتى (ابن سبأ) عبد الله بن الصامت ، فتعلق به ابن الصامت فأتى به معاوية فقال : هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر .

ليس هذا فقط بل ان السبئيين أخذوا يحرضون الناس على ولاتهم مما أدى الى قتل سيدنا عثمان رضى الله عنه ، وحينما تقاربت وجهات النظر بين قادة الجيشين — جيش على وجيش طلحة والزبير(١) .. — أسرع السبئية بافساد الخطة حتى وقعت الحرب الشهيرة بالجمل التى كانت فيها .

---

(١) طلحة هو : أبو محمد طلحة بن عبيد الله .. القرشى التيمى .. شهد أحدا فشلت أصبعه بها . وقد آخى النبى بينه وبين الزبير . وكان من أشد المؤلبين على عثمان . فلما قتل سبق الى بيعة على بن أبى طالب ثم خرج الى البصرة مطالبا بدم عثمان وراءه مروان بن الحكم فقال : لا أطلب بثأرى بعد اليوم فرماه بسهم قتل منه فى سنة ٣٦ هـ (طبقات ابن سعد ج ٣ ص ١٥٦ — ١٥٩ ، وأنساب الأشراف للبلاذرى ج ٥ ص ٤٤ — ٩٠) .
والزبير هو : أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد القرشى الأسدى أسلم بمكة وكان ممن خالفوا عثمان . ولما قتل عثمان بادر الى بيعة على ثم خرج الى البصرة مطالبا بثأر عثمان . ولما تقابل الجيشان ذكره على بقول الرسول : " ستقاتل عليا وأنت ظالم " فرجع حينئذ قتله أحد التميميين غيلة فى سنة ٣٦ هـ (طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٧٧ ، ونهج البلاغة شرح ابن أبى الحديد ج ١ ص ٧٥ — ٨٥) .

(الشـــــــــيعة)

الشيعة : لغة الأنصار والأتباع ، يقال : شيعة الرجل أتباعه وأنصاره . وتشيع الرجل أي أدى دعوى "الشيعة" . وفي اصطلاح المتكلمين والفقهاء : أنصار الامام علي كرم الله وجهه وبنيه المدافعون عنهم والعاملون على اسناد الخلافة اليهم .. وحول هذا المعنى يقول الشهرستاني : " الشيعة هم الذين شايعوا عليا — رضي الله عنه — علي الخصوص ، وقالوا بامامته وخلافته نصا ووصية ، اما جليــا ، واما خفيا ، واعتقدوا أن الامامة لا تخرج من أولاده ، وان خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده ؟

وقالوا : ليست الامامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الامام بنصبهــم بل هي قضية أصولية ، وهي ركن الدين لا يجوز للرسل عليهم الصلاة والسلام اغفاله واهماله ولا تفويضه الى العامة وارساله . يجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر ...[1]

نشأة الشيعة :

في صدر الاسلام أظهر جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وســـلم الحب الخالص لعلي بن أبي طالب . كعمار بن ياسر ، وسلمان الفارسي ، وأبي ذر الغفاري ، وجابر بن عبد الله وغيرهم .

وهذا الحب لعلي — رضي الله عنه — له مبرراته المتعددة . فهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأول من أسلم من الشباب ، وزوج فاطمة الزهــــراء ، والفدائي الذي افتدى الرسول ليلة الهجرة ، والفقيه الذي يستفتى في مهـــام الأمور ... الخ .

ومن أجل هذا كانوا يرون أنه — أي علي — أحق بالخلافة من غيره .
أخذ هذا العدد يزداد شيئا فشيئا خاصة بعد الظروف التي واجهت الخليفــة عثمان بن عفان رضــى الله عنه ، كما عرفنا في الحالة السياسية من الفصل الثاني .
وكذلك بعد أن تولى الامام على خلافة المسلمين .

---

(١) الملل والنحــل للشهرستاني — طبعة مصطفى الحلبي — جـ ١ ص ١٤٦

وقد أخذت هذه الفكرة الشيعية تتطور مع الزمن من البساطة الى التعقيد حتى وصل الأمر الى اعتبار على نبيا بل والى تأليهه .

حدث هذا بسبب تشيع فئة غير مخلصة انضمت الى المتشيعين المخلصين للامام على . وساعد على ذلك تركيز النفوذ والسلطان فى أيدى العرب . مما أدى الى تشيع الموالى من الفرس الذين تعودوا على تعظيم البيت المالك فى فارس ، فلما دخلوا الاسلام نظروا الى بيت النبى صلى الله عليه وسلم نظرتهم الى البيت المالك فى فارس معتقدين أن أفراد هذا البيت أحق بالخلافة من غيره .

كما اندس فى صفوف الشيعة بعض من يبغى الكيد للاسلام من أصحاب الديانات الأخرى الذين اعتنقوا هذا الدين الحنيف واتخذا من حب آل البيت ستارا يعملون وراءه .

وشبيه بهذا ما قاله الدكتور أحمد أمين : وقد ذهب الأستاذ " ولهوسن " الى أن العقيدة الشيعية نبعت من اليهودية أكثر مما نبعت من الفارسية مستدلا بأن مؤسسها " عبد الله ابن سبأ " وهو يهودى . ويميل الأستاذ " دوزى " الى أن أساسها فارس ، فالعرب تدين بالحرية والفرس يدينون بالملك ، وبالوراثة فى البيت المالك ، ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة . وقد مات " محمد — صلى الله عليه وسلم — ولم يترك ولدا فأولى الناس بعده ابن عمه " على بن أبى طالب " فمن أخذ الخلافة منه كأبى بكر وعمر والأمويين فقد اغتصبها من مستحقها ، وقد اعتاد الفرس أن ينظروا الى الملك نظرة فيها معنى الهى ، فنظروا هذا النظر نفسه الى " على " و " ذريته " وقالوا : ان طاعة الامام واجب ، وان اطاعته اطاعة الله " (١) .

على هذا فالشيعة من أقدم الأحزاب والفرق الدينية التى ظهرت فى صدر الاسلام وبالأخص فى أواخر عهد عثمان — رضى الله عنه — وأيام خلافة الامام على كرم الله وجهه .

ولما كان لعلى من المكانة بين الناس ، والمنزلة الممتازة فى الاسلام أخذ الشيعة ينشرون دعوتهم بين الناس حتى اذا كان العصر الأموى وقعت المظالم على العلويين ورأى الناس عليا وأولاده ضحايا هذا الظلم وانتشر المذهب الشيعى وكثر أنصاره .

---

(١) فجر الاسلام للدكتور أحمد أمين ص ٢٧٧ — الطبعة السابعة سنة ١٩٥٩ م .

أهم مركز لانتشار المذهب الشيعى وأسباب ذلك :

كان أكبر مركز لانتشار المذهب الشيعى هو العراق وفارس وهذا يرجع الى عدة اعتبارات أهمها ما يلى :

أ — اعتقادهم بأحقية على بن أبى طالب بالخلافة من معاوية ، واعجابهم بعلمه وتقواه وعطفه عليهم .

ب — تزوج الحسين بن على بشاهبانو احدى بنات يزجرد آخر أكاسرة الفرس فمالوا بذلك الى جنسهم .

وكان الفرس يرون فى ملوكهم روحانية عالية فهم كفراعنة مصر تحل فيهم روح الاله وبنات يزجرد فيهم هذه الصلة الالهية . فلما شجبها[1] الاسلام بقيت ظلال منها رواسب لهذه العقيدة المنهارة .

جـ — أكثر سكان هذه البلاد من أصل فارسى ، أسلموا واندمجوا بالعرب والعقيدة الشيعية ملائمة لعقولهم .

د — وكان شعور الموالى بتخلفهم عن العرب فى المكانة الاجتماعية والوضع السياسى من بواعث تشيعهم .

هـ — العداء القديم بين العراق والشام الذى تمثله الحيرة التى كانت تابعة للفرس ، وغسان التابعة للروم .

و — الصراع القديم بين العدنانيين بالعراق ، والقحطانيين بالشام واذا كان قد توارى فى صدر الاسلام فانه لم يلبث أن استيقظ فى عصر بنى أمية[2] .

الثورات الشيعية :

بايع أهل الكوفة الحسن بن على بعد قتل أبيه بيد أحد الخوارج ، ولكن الحسن بعد مدة قصيرة من الخلافة رأى أنه لا طاقة له بحرب معاوية فكان الصلح بينهما بالتنازل عن الخلافة وبذلك تم حقن الدماء (٤٠ هـ — ٦٦٠ م) لم ينته الأمر عند هذا التنازل — حتى سمى العام سنة ٤٠ هـ بعام الجماعة — بل أخذ التشيع لآل البيت ينمو ويزدهر خاصة بعد سب الامام علىّ على المنابر مما تسبب عنه ثورة بعض أفراد الشيعة وقسوة الخليفة الأموى عليهم[3] .

---

(١) شجبها : أى أهلكها (القاموس المحيط مادة شجب) .

(٢) الدعوة الى الاسلام لتوماس أرنولد ص ١٨١ — الطبعة الثانية ، أدب السياسة فى العصر الأموى للدكتور أحمد الحوفى ص ٣٤ — ٣٨ — الطبعة الثالثة .

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ٦ ص ١٤١ — ١٦١ .

وفى عهد يزيد بن معاوية قام مسلم بن عقيل بثورة مع أهل الكوفة ولكن انتهت بقتله وصلبه .

ثم كانت مذبحة كربلاء البشعة التى عومل فيها أهل البيت معاملة غير كريمة وعلى رأسهم " الحسين بن على " بعد قيامه بثورة ضد الحكم الأموى ، تسبب عن هذا انتشار التشيع بين الفرس أصهار الحسين فحاولوا أن يأخذوا بثأر الحسين رضى الله عنه .

وفى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ظهرت جماعة التوابين الذين ندموا على عدم وقوفهم بحزم بجانب الحسين بن على وقاموا بثورة ضد الحكم الأموى ، واشتبكوا مع جيش عبد الملك حتى انهزموا فى سنة ٦٥ هـ . (١).

ثم جاءت ثورة المختار بن أبى عبيد التى انتهت بقتله سنة ٦٧ هـ وثورة زيد بن على زين العابدين فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك الى غير ذلك من الثورات المتعددة التى انتهت بسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية .

أشهر فرق الشيعة :

لم تقف الشيعة عند فرقة واحدة بل تعددت فرقها . وسأكتفى فى هذا المقام بذكر أشهرها مع بيان المؤسس لها .

١ ـ السبئية : ومؤسسها رجل من يهود صنعاء يبغى فساد عقيدة المسلمين . فأعلن اسلامه واتخذ التشيع لآل البيت شعارا يعمل من خلفه ألا وهو " عبد الله بن سبأ " .. (١)

٢ ـ الكيسانية : ورئيس هذه الفرقة كيسان مولى أمير المؤمنين على وتلميذ محمد ابن الحنفية .. (٢)

٣ ـ الزيدية : أصحاب زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب المعدود فى الثقات من المحدثين (٣) .

٤ ـ الامامية : وهذه أهم فرق الشيعة على الاطلاق . وقد عرفوا بهذا الاسم لقولهم بامامة علىّ رضى الله عنه بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، نصا ظاهرا ، وتعيينا صادقا . وكذلك الامامة فى بنيه من فاطمة وحدها بطريق التعيين من رسول الله واحدا بعد واحد .

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٢٨٠ .
(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٣ .
(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٨ ص ٢٦٦ .

واستدلوا على مقالتهم هذه بأدلة كثيرة ليس هنا موضعها .

والامامية لم يكونوا فرقة واحدة بل انقسموا أيضا الى فرق متعددة أدت الى تمزيق الصف الاسلامي ..

هذه لمحة سريعة عن أشهر فرق الشيعة . ولكل فرقة من هذه الفرق آراء وأقوال يطول ذكرها . وسنورد فيما يلي أهم هذه الأفكار والآراء التي كانت تشغل أذهان الكثير منهم ...

المبادئ العامة لفرق الشيعة :

تنحصر المبادئ العامة لفرق الشيعة فيما يلي :

١ ـ الامامة : يرى الشيعة أن الامامة ركن من أركان الدين فلا يجوز للرسول ـ في نظرهم ـ أن يغفل عنها ويترك أمرها الى الأمة . فلابد من تعيين امام لها يكون معصوما من الكبائر والصغائر . وأول امام تنطبق عليه شروطهم هو الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه (١) .

٢ ـ عصمة الأئمة : من مبادئ الشيعة أن الأئمة معصومون من الخطأ . ويبدو أن هذا المبدأ لم يقل به أئمتهم المتقدمون وانما صدر عن غلاتهم مما جعل علماء التوحيد يتحدثون عن عصمة الأنبياء باسهاب كما سيجيء بعد (٢) .

٣ ـ نظرة الشيعة الى الامام علي : يختلف دعاة الشيعة في نظرتهم الى الامام علي ـ كرم الله وجهه ـ فمنهم من فضله على سائر الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما اعتقدوا في عدم جواز الصراط لأي انسان الا اذا جاء بجواز يدل على أنه من شيعة علي يمر به ، ومنهم من اعتقد في أن جزءا الهيا حل في علي واتحد بجسده وبه كان يعلم الغيب ..
وهكذا أخذ بعضهم يقول فيه ما هو منه براء (٣) .

---

(١) التبصير في الدين للأسفرايني ص ٢٤ وما بعدها .
والملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٦٢ ـ ١٦٥ .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٦٢ ـ ١٦٥ .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٤ ص ٥٢٠ .

٤ ـ التقيـــة : التقية معناها : أن يخاف الانسان على نفسه أو عرضه أو ماله عدوا فيظهر له بلسانه ما ليس في قلبه على جهة المداراة والكتمان .
ويستأنس لهذا بقول الله تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء الا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير) فقوله تعالى " تقاة " قرأها بعضهم " تقية " . وقد أجازها جماعة من العلماء منهم ابن عباس والضحاك والربيع بن أنس والحسن البصري ... واستندوا الى هذا بقول الله تعالى : " الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان .. " وهناك تفصيل في أحكامها في غير هذا الموضع.. (١) .

وقد اهتم الشيعة بهذا المبدأ حتى قالوا : " لا دين لمن لا تقية له " وبلغ من تغاليهم في هذا الأمر أن جعلوا للكلام ظاهرا وباطنا . الى آخر ما قالوا واعتقدوا بخلاف الخوارج الذين لا يجوزونها بأي حال من الأحوال مهما تعرضوا للأخطار ...

٥ ـ اعتقاد الشيعة في غزارة علم الأئمة : وقد بلغ من اعتقادهم في مكانة علم الأئمة وغزارته أن قال قائلهم في شأن الامام على كرم الله وجهه .

لو كان علمك بالاله مقسما ∴ في الناس ما بعث الاله رسولا

٦ ـ ايمانهم بالمهدى المنتظـــر : أشاع عبد الله بن سبأ اليهودي أن عليا ابن أبي طالب لم يقتل وأنه هو المهدى المنتظر ، وسينزل الى الدنيا وينتقم من أعدائه . وسرعان ما انتقلت هذه الفكرة من السبئية الى الكيسانية الذين جعلوا مهديهم محمد بن الحنفية مع أنه قد مات وصلى عليه والى المدنية ابان بن عثمان وقد دفن بالبقيع سنة ٨١ هـ(٢) . الى آخر ما قالوا في هذا وغيره من المبادئ المتعددة التي لا تتصل برسالة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٥٧ ، وتفسير القرطبي ج ٤ ص ٥٧ .

(٢) تاريخ الفرق الاسلامية للدكتور أحمد مجاهد مصباح ص ٣٠ .

(الخـــــوارج)

يقول الشهرستاني في تعريفه للخوارج : " ان كل من خرج على الامام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه يكون خارجيا " سواء كان الخروج فى أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين ، أو على الأئمة فى كل زمان ومكان [١] .

وهذا التعريف من الشهرستاني للخوارج نفهم منه أنه ذم لهم لخروجهم على جماعة المسلمين ومن الممكن أن يوجدوا فى كل زمان ومكان .

أما تعريف أبى الحسن الأشعرى القائل : " انهم سموا خوارج لخروجهم على على بن أبى طالب " [٢] . فيختص بفئة معينة .

وهناك من العلماء المحدثين من يرى أنهم سموا بهذا أخذا من قوله تعالى : " ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله " وعلى هذا تكون تلك التسمية (الخوارج) لقب مدح لا ذم وتكون منهم لا من مخاليفهم [٣] .

وعلى كل فان الذى يعنينا الآن هم الخوارج الذين عرفوا باسم " الحرورية " و " المحكمة " و " المارقة " الخ .. كما سنعرف .

نشـــأة الخوارج :

اتفقت كلمة المسلمين فى حياة أبى بكر وعمر . ثم جاء عثمان وقامت ثـــورة فى عهده أدت الى استشهاده . بعد هذا بايع الثوار الامام على بن أبى طالـــب بالخلافة على المسلمين .

ولكن الأمر لم ينته بقتل عثمان — رضى الله عنه — بل استمرت الأوضـــاع فى قلق مما اضطر الامام عليا أن يدخل مع الخارجين على الحكم فى معركتين شهيرتين موقعة الجمل ، ومعركة صفين التى انتهت بعملية التحكيم . معنى هذا أن أهـــل

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٨٥ .
(٢) مقالات الاسلاميين لأبى الحسن الأشعرى ج ١ ص ١٢٧ .
(٣) تاريخ الفرق الاسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين للدكتور على مصطفى الغرابى ص ٢٧٦ .

الشام رفعوا المصاحف على الرماح ونادوا " ما فيها حكم بيننا وبينكم " . فرضى الكثير من جيش على بهذا الحكم . ولكن الامام عليا فهم هذه الخديعة وحاول أن يفهمهم اياها فلم يستطع وقبل التحكيم . وكاد الأمر ينتهى عند هذا الحد . لولا أن فئة من أتباع على بن أبى طالب — رضى الله عنه — أعلنت رفضها لهذا التحكيم وقالوا كلمتهم المشهورة " لا حكم الا لله " .

ويريدون بهذا أن يرجع الامام على عن رأيه في هذا التحكيم ولما يئسوا من قبوله لدعوتهم خطب خطيبهم يوما فقال : " أما بعد ، ما ينبغى لقوم يؤمنون بالرحمن وينيبون الى حكم القرآن أن تكون هذه آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والقول الحق وان من وضر ، فانه يمن ويضر فى هذه الدنيا فان ثوابه يوم القيامة رضوان الله عز وجل ، والخلود فى جناته فأخرجوا بنا اخواننا ، من هذه القرية الظالم أهلها الى بعض كور الجبال أو الى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع الضالة "(١) . هذه الفئة أطلق عليها " الخوارج " لأنها خرجت على الامام على .

بين الامام على والخوارج :

نشأت الخوارج فى أول مهدها بسيطة دون تعقيد شأن أى فرقة من الفرق الاسلامية . ولكن بعض المتغالين انضموا معهم وأخذوا يشعلونها نارا حامية لا تنطفئ أبدا .

فلما انتهت عملية التحكيم بالطريقة التى لم يرض عنه الكثير من جيش على — كرم الله وجهه — أرسل الامام على الى الخوارج الذين انفصلوا عن جيشه متجهين الى النهروان (٢) حينئذ كتبوا اليه : " أما بعد ، فانك لم تغضب لربك وانما غضبت لنفسك فان شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك ، والا فقد نابذناك على سواء ان الله لا يحب الخائنين " . ومن هنا بدأ الخوارج يتغالون فى أمرهم خاصة وأنهم استباحوا قتل الأبرياء ، واتهام الكثير من عباد الله بالكفر والضلال مما جعل الامام عليا يستعد لحربهم والقضاء على هذه الفئة الضالة التى انحرفت عن سواء السبيل . وقبل أن يمضى في طريقه أراد أولا أن يلزمهم الحجة . فخرج اليهم فى أربعة آلاف من أصحابه وقابلهم وقال لهم " يا قوم

---

(١) فجر الاسلام للدكتور أحمد أمين ص ٢٥٦ — ٢٥٧ — الطبعة السابعة .
(٢) النهروان : جنوب شرقى بغداد بالعراق .

ماذا نقمتم منى حتى فارقتمونى لأجلـه ؟ ، قالوا : " أول ما نقمنا منك أنـا قاتلنا بين يديك يوم الجمل فلما انهزم أصحابه أبحت لنا أموالهم ولم تبح لنا نساءهم وذرياتهم وكيف تحل مال قوم وتحرم نساءهم وذراريهم ؟ وقد كان ينبغى أن تحرم الأمرين معا أو تبيحهما معا " . فقال على : " انما أبحت لكم أموالهم بدلا عما أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومى اليها والنساء والذرية لم يقاتلونا وكان لهم حكم الاسلام ولم يكن منهم ردة عنه ولا يجوز استرقاق من لم يكفر ، وبعد لو أبحت لكم النساء أيكم يأخذ عائشة فى سهمه ؟ فخجل القوم وانتقلوا الى موضوع آخر .

قالوا : نقمنا عليك يوم التحكيم جعلت فى كتاب الصلح أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومعاوية حكما فلانا فلما قال معاوية : " لو نعلم أنك أمير المؤمنين ما خالفناك " محوت امرة المؤمنين عن اسمك فان كانت امامتك حقا فلم رضيت به ؟ " .

فاعتذر أمير المؤمنين وقال : " انما فعلت كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم حين صالح سهيل بن عمرو . فقال له سهيل : " لو علمنا أنك رسول الله ما خالفناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ففعل النبى صلى الله عليه وسلم فكانت قصتى فى هـذا مع الأبناء قصـة الرسول مع الآباء .

انتقل الخوارج الى نقطة أخرى وقالوا : " لم قلت للحكمين ان كنت للخلافة أهلا فأثبتانى فان كنت فى شك فى خلافتك فغيرك فى الشك فيها أولى " فقال على : " انما أردت أن أنصف الخيم وأسكن الثائرة ولو قلت للحكمين احكما لى لم يـرض بذلك معاوية . وقد دعا الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — نصارى نجـران الى المباهلة وقال لهم : " تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسـنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين "[1] . وانما قال لهم ذلك على سبيل الانصاف لا على سبيل التشكيك قالوا : فلم حكمت الحكمين فى حق كان لـك ؟ فقال على : حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ فى بنى قريظة ولو شاء لم يفعل وأقمت أنا كذلك حكما لكن حكم رسول الله حكم بالعدل وحكمى خدع حـتى كان من الأمر ما كان [2] .

هذا الحوار بين على والخوارج كان له تأثير كبير مما جعل الكثير من الخـوارج

---

(١) آل عمران آية رقم ٦١ .

(٢) التبصير فى الدين للأسفرايينى ص ٢٧ ، والفرق بين الفرق للبغدادى ص ٥٨ .

ينضمون الى جيش علي رضي الله عنه • وما بقي من الخوارج دخل في معركة مع جيش أمير المؤمنين علي • وكانت هزيمتهم ساحقة ولم ينج منهم الا القليل (1) •

أهم فرق الخوارج :

لم ينته أمر الخوارج بهذه الهزيمة التي أوقعهم فيها جيش أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب • بل استمرت الفئة الباقية في دعواها • وكانوا دائما على اختلاف وانقسام مما كان سببا في كثرة فرقهم •

ويقسم العلماء الأفاضل الذين عنوا بالكتابة عن الفرق الاسلامية فرق الخوارج الى أصول وفروع • وتحدثوا عن هذا كله في بحوث مستفيضة لسنا في حاجة اليها • والذي يعنينا فقط هو الحديث اجمالا عن الأصول منها لأنها تشتمل ضمنا على الفروع •

وحينما نذكر هذه الفرق نجد أن أبا الحسن الأشعري (2) يذكر أن أصولها أربعة وهي : الأزارقة ، والنجدية ، والصفرية ، والاباضية •

بينما الشهرستاني (3) يزيد على هذه الأربعة — كأصول — فرقا أخرى مثل : البيهسية ، والعجاردة ، والثعالبة •••

وحتى لا يتشعب البحث فسنجمل القول في الأصول المتفق عليها •

أ — الأزارقة :

هذه الفرقة أتباع نافع بن الأزرق المكنى بأبي راشد • لقبوه الخوارج بأمير المؤمنين • وخرج بهم نافع الى الأهواز أيام عبد الله بن الزبير ، في نهاية شوال سنة ٦٤ هـ •

وتتلخص مقالتهم فيما يلي :

١ — تكفير بعض الصحابة الأبرار مثل : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة ، والزبير ، وابن عباس ، وعائشة ، وجميع من خالفهم من المسلمين •

٢ — تكفير القعدة عن القتال منهم • وكذلك من لم يهاجر اليها •

---

(1) التبصير في الدين للأسفراييني ص ٤٧ ، ٤٨ ، والفرق بين الفرق ص ٥٨ — ٦٠
(2) مقالات الاسلاميين للأشعري ج ١ ص ١٠١ •
(3) الملل والنحل للشهرستاني ج ١

٣ — اباحة قتل أطفال المخالفين ونسائهم .

٤ — اعتبارهم أن القرآن وحده مصدر للتشريع ولذا يقولون باسقاط الرجم عن الزانى المحصن حيث أن حده لم يذكر فى القرآن ..

٥ — كفر من ارتكب الكبيرة .

٦ — عدم جواز التقية مطلقا بخلاف الشيعة ..

والناظر لهذه الآراء الغريبة يجد أنهم لا يقبلون أمرا وسطا بين الايمان والكفر . فالانسان اما مؤمن واما كافر . وأن الايمان فى نظرهم لابد وأن يجمع بين القول والعمل . ومن عجيب أمرهم أنهم أصحاب حماس دينى ، وتعصب لآرائهم بصورة تجعلهم يخطئون رأى كل من خالفهم . (١)

ب — النجدات :

وهذه الفرقة أتباع نجدة بن عامر الحنفى .

وصل نجدة بأتباعه الى البحرين حيث استولى عليها ثم الى بعض الأقاليم فى الجزيرة العربية وذلك ما بين سنة ٦٧ هـ و سنة ٧٠ هـ .

أما عن مبادئ هذه الفرقة فتتلخص فيما يلى :

فهم يرون أن الدين عندهم أمران . :

الأول : معرفة الله ، ورسوله ، وتحريم دماء موافقيهم من المسلمين ، والاقرار بما جاء من عند الله جملة . وهذا القدر واجب على كل مسلم أن يعرفه ، ولا عذر لجاهله .

الثانى : هو ما سوى ذلك . والناس فى هذا معذورون حتى تقوم الحجة فى أصناف الحلال والحرام . . فمن أجتهد وأخطأ فهو معذور ولذا عرفوا بالعاذرية .

والخوارج ليسوا على أفكار واحدة ولهذا تعددت فرقهم .

والدليل على ذلك مثلا نجد أن فرقة " النجدات " تخالف فرقة " الأزارقة " السابقة فى أمور أهمها :

١ — لا يجيز الأزارقة التقية مطلقا بخلاف النجدات فانهم يبيحونها فى القول والعمل .

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٢١٠ — ٢١١
وتاريخ الفرق الاسلامية للدكتور الغرابى ص ٢٩١

٣ — يكفر الأزارقة من لم يهاجر اليهم بخلاف النجدات فلا يرون هذا .

٤ — الاجتهاد عند الأزارقة لا يعترفون به أما عند النجدات فيعتبرونه الطريق الموصل الى الدين .

٥ — يستبيح الأزارقة دماء ونساء وأطفال المخالفين من المسلمين بخلاف النجدات فانهم يمنعون هذا ولا يبيحونه .

واذا نظرنا الى هذه الفرقة " النجدات " نجدها تمتاز عن الأزارقة بأمرين : الأول : رفعهم من شأن المعرفة فى الدين . الثانى : استعمالهم الاجتهاد فى كثير من الأحكام الدينية الواجبة (١) .

جـ — الصفرية :

وهم أتباع زياد بن الأصفر . وجدوا فى عهد الحجاج بن يوسف الثقفى حدثت بينه وبينهم مناوشات أدت الى قتالهم . واستئصال شأفتهم وبهذا استراح الحكم فى بنى أمية من خطوهم .

مبادئ الصفرية :

١ — جعل الصفرية بصدر تشريعهم الحديث النبوى مع كتاب الله تعالى بينما يقتصر غيرهم على القرآن وحده .

٢ — فرقوا بين من يرتكب المنكر أو يترك المأمور به جاحدا لحكمه ، وبين من يفعل الأول ويترك الثانى غير جاحد وقد حكى عن زياد بن الأصفر رئيس هذه الفرقة أنه كان يقول : " نحن مؤمنون عند أنفسنا ولا ندرى لعلنا خرجنا من الايمان عند الله وان الشرك شركان شرك هو طاعة الشيطان وشرك هو عبادة الأوثان ، والكفر كفران كفر بالنعمة وكفر بانكار الربوبية ، والبراءة براءتان براءة من أهل الحدود سنة وبراءة من الجحود فريضة " .

٣ — لم يكفروا القعدة كما كفرهم غيرهم من الخوارج اذا وافقوهم فى دينهم واعتقادهم .

٤ — لم يحكموا بقتل أطفال المخالفين لهم من المشركين وتكفيرهم .

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٦٨ ، ومقالات الاسلاميين جـ ١ ص ٩٠ ، والملل والنحل جـ ١ ص ٢٠١٤ .

٥ — أجازوا التقيـــة .

٦ — مرتكب الكبيرة . يختلف باختلاف طوائفهم ..

من هذه المبادئ التى عرضناها للصفرية نجد أنهم أكثر تسامحا من غيرهم ويختلفون كثيرا مع الأزارقة فى مثل : جواز التقية ، وجعل الحديث النبوى من مصادر التشريع كالقرآن ، وعدم تكفير القعـدة الخ .. (١)

د — الاباضيـــة :

الاباضية هم أتباع عبد الله اباض التميمى . عاش فى النصف الثانى مـــن القرن الأول الهجرى . وأصحاب هذه الفرقة أكثر الخوارج تسامحا ولـــذا نجد زعيم هذه الفرقة أنكر على نافع بن الأزرق أمورا كثيرة مما كان سببا فـى الاختلاف معه .

وتتلخص مبادئ هذه الفرقة فيما يلى :

١ — قالوا بجواز شهادة مخالفيهم وحل مناكحتهم ، والتوارث معهـــم

٢ — مرتكب الكبيرة فى نظرهم كافر كفر نعمة لا كفر ايمان .

٣ — لا يحل من غنائم المخالفين الا الخيل والسلاح وما يشبه ذلك .

٤ — دماء مخالفيهم حرام فى السر لا فى العلانية . ودارهم دار توحيد الا معسكر السلطان ... (٢)

بين الشيعة والخوارج :

بعد هذا العرض الاجمالى لفرقتى " الشيعة والخوارج " يقتضينا المقـام أن نعقد مقارنة بينهما . وبعد هذه المقارنة نجد أمرين أساسيين يظهر فيهما الخلاف بين " الشيعة والخوارج " :

الأمر الأول : بينما يبالغ أن الشيعة فى تقديسهم عليا يكفره هؤلاء — ليس هـــذا فقط — بل ويمجدون قاتله ..

الأمر الثانى : بينما يتواصى الشيعة بالتقية ويجعلونها مبدأ أساسيا من مبادئهـم يأبى هؤلاء العمل بها . ويقررون الخروج على السلطان الجائر مهما كانـــت الظروف والمناسبات ..

---

(١) التبصير فى الدين ص ٣١ — ٣٦ ، والملل والنحل ج ١ ص ٢٥١

(٢) الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ١٣٤ — ١٣٥ ، تاريخ الفرق الاسلامية للدكتور أحمد مجاهد مصباح ص ٨٥ .

(المرجئـــــــــة)

قبل تعريفنا للمرجئة يحسن بنا أن نتعرف على معنى " الإرجاء " في بعض كتب اللغة العربية . قال صاحب القاموس [1] : " أرجأ الأمر أخره . وترك الهمـــزة لغة " وآخرون مُرجون لأمر الله " أي مؤخرون حتى ينزل الله ما يريـد ومنه سميت المرجئة لتقديمهم القول وإرجائهم العمل ..

فاذا ما عرجنا على كتب الفرق وجدنا الشهرستاني [2] يقول : " والارجـاء على معنيين أحدهما التأخير كما في قوله تعالى : " قالوا : أرجه وأخاه [3] " أي أخره وأمهله ، والثاني اعطاء الرجاء . أما اطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح لأنهم كانوا يؤخرون العمل على النية والعقد . وأما بالمعـــنى الثاني فظاهر ، فانهم كانوا يقولون : لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفــع مع الكفر طاعة . وقيل : الارجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة الى يوم القيامة فلا يقضى عليه بحكم ما من كونه من أهل الجنة أو أهل النار . فعلى هذا : المرجئــة ، والوعيدية — من الخوارج — فرقتان متقابلتان . وقيل : الارجاء تأخير على رضى الله عنه من الدرجة الأولى الى الدرجة الرابعة — أي بعد أبي بكر وعمر وعثمان — فعـلى هذا : الشيعة والمرجئة فرقتان متقابلتان .

نشأة المرجئة :

بعد الفتنة الكبرى التي ذهب ضحيتها عثمان بن عفان رضى الله عنـــه ظهر فريـــق من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرضوا أبدا أن يسيروا وراء على أو معاوية . واعتزلوا هذه الفتنة التي تسببت في ازهاق روح الكثـــير من الأبرياء . ولم يعنفوا أحدا منهم . وفي مقدمة هؤلاء الصحابة : سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وعمران بن الحصين ، وحسان بن ثابت ، وأبو بكرة . وتمسكوا بأحاديث للنبي صلى الله عليه وسلم : منها : " ستكـون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيهـــا خير من الساعي من تشرف لها تستشرفه ومن وجد فيها ملجأ أو معاذا فليعذ به " [4] ،

---

(١) القاموس المحيط ج ١ ص ١٦ — الطبعة الثانية — مصطفى الحلبي .
(٢) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٣٩ .
(٣) سورة الأعراف آية رقم ١١١
(٤) رواه البخاري ومسلم والامام أحمد في مسنده عن أبي هريرة وهو حديث صحيح
وتشرف معناها : تطلع ، تستشرفه : تجره لنفسها ، ملجأ : عاصما ، معاذا : محلا يعتصم به .

وقوله : " ستكون فتن يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسى كافرا الا من أحياه الله بالعلم "(١) ، وقوله : " ستكون فتنة صماء بكماء عمياء من أشرف لها استشرفت له واشراف اللسان فيها كوقوع السيف "(٢) .

فهذا الفريق من الصحابة لم يخض فى الحروب التى وقعت بين الطائفتين ، ولم يشغلوا أنفسهم بالبحث والتنقيب عن المصيب أو المخطئ فى الطائفتين المتقاتلتين . فأرجئوا الحكم فى كل هذا الى علام الغيوب خاصة وأن الفرق بدأت تجمع أمرها وتعلن عن نفسها وعن مبادئها التى تعمل من أجلها وتتعصب لها . وكما عرفنا سابقا مقالة الشيعة من تعصبهم الشديد لآل البيت حتى أدى ذلك الى تكفير بعض الصحابة .. ومقالة الخوارج التى تظهر فى قولهم بتكفير صاحب الذنب .

وكل من الشيعة والخوارج يكفر الأمويين ويلعنهم أعداؤهم من هؤلاء وهؤلاء والأمويون لا يسكتون بل يقاتلون ويرون أنهم مبطلون . وفى وسط هذه التيارات المختلفة ظهرت المرجئة كفرقة لها آراؤها وأفكارها . فكان ظهورها كأثر عكسى لآراء كل من الشيعة والخوارج التى عرفناها .

ويؤيد هذا ما قاله الامام النووى فى شأنهم : " ان القضايا كانت مشتبهة حتى ان جماعة من الصحابة تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا ، ولم يتيقنوا الصواب "(٣) .

مبادئ المرجئة :

١ — ارجاء أمر المخطئين الى الله تعالى .

٢ — ارجاء الامام على عن الدرجة الأولى الى الرابعة . فهم فى ذلك على نقيض الشيعة .

٣ — قولهم : " لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة " .

وهذا كلام عجيب وغريب ومن هذا أيضا ما قاله أبو البقاء " المرجئة : هم يحكمون بأن صاحب الكبيرة لا يعذب أصلا ، وانما العذاب للكفار "(٤)

٤ — الايمان فى نظرهم قول واعتقاد فقط . ولا دخل للعمل فى مفهوم الايمان .

وهذا الرأى مردود بقول الله تعالى : " أم حسب الذين اجترحوا

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير وابن ماجه عن أبى امامه . وهو حديث حسن .

(٢) رواه أبو داود عن أبى هريرة . وهو حديث صحيح . واشراف اللسان معناه : اطالة الكلام . (٣) صحيح الامام مسلم بشرح النووى ج ١٨ ص ١١

(٤) الكليات لأبى البقاء ص ٣٥٠ ط بولاق ، الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ١٤٠

السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات .. » (١) .

كما أن الايمان على هذا الرأى — فى نظرهم — لا يزيد ولا ينقص والحق أنه يقبل الزيادة والنقصان من نواح ثلاث :

الأولى : أن الاعتقاد ان كثرت أدلته كان أرسخ فى النفس وأكثر عمقا مما قلت أدلته وما لا دليل عليه .

الثانية : من ناحية ما يتعلق به من المعلومات ذلك أن التصديق كلما تعلقت به أمور معلومة تفصيلا كان أقوى من تصديق تتعلق به معلومات اجمالية .

الثالثة : من ناحية ثمرته التى هى العمل ذلك أن العقيدة اذا طبقت من الناحية العملية وخرجت الفكرة من حيز القول الى حيز العمل كان ذلك أمكن لها وأرسخ (٢) .

٥ — لا يخلف الله وعده ، ولكنه من فضله وكرمه قد يخلف وعيده ...

فرق المرجئة :

المرجئة كأى فرقة من الفرق الاسلامية لو وقف أمرها عند حد النشأة لما تشعب الخلاف طويلا بينهم . ولكن انضم اليها بعض المتغالين الذين يسمون فى كثرة الجدال والنقاش مما يكون سببا فى انحراف الأفكار والآراء عن وضعها الطبيعى . وتنحصر هذه الفرق فيما يلى مع ذكر أصحابها .

١ — اليونسية : أصحاب يونس بن عمرو النميرى .
٢ — العبيديه : أصحاب عبيد المكتئب .
٣ — الغسانية : أصحاب غسان الكوفى .
٤ — الثوبانية : أصحاب أبى ثوبان .
٥ — التومنية : أصحاب أبى معاذ التومنى .
٦ — الصالحية : أصحاب صالح بن عمر الصالحى ... (٣) .

---

(١) سورة الجاثية آية رقم ٢١
(٢) مقدمة " المختار من صحيح مسلم " شرح وتحقيق الأستاذ الدكتور مصطفى أمين التازى .
(٣) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٢٢ وما بعدها ، والملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ١٣٩ — ١٤٥ .

وبالطبع لا أستطيع أن أذكر مبادئ كل فرقة على حدة لأن هذا يخرجنا عن موضوع الرسالة . ومع هذا فقد أجملت القول فى مبادئهم وآرائهم التى تشغل أذهان الكثير منهم . ذلك لأن وجود فرق متعددة فى فرقة واحدة دليل على عدم اتفاقهم جميعا على هذه المبادئ والآراء المذكورة .

وقد نسب الى بعض كبار التابعين الارجاء مثل : سعيد بن جبير ومقاتل ابن سليمان ، وحماد بن سليمان ، والحسن بن محمد بن الحنفية ، .. وهؤلاء الائمة الأعلام لم يكفروا أصحاب الكبائر ولم يحكموا بتخليدهم فى النار خلافا للخوارج وغيرهم (١) .

كما نسب الارجاء — أيضا — الى مالك بن أنس صاحب المذهب ، وسفيان الثورى ، ومحمد بن ادريس الشافعى وغيرهم من الأئمة الأفاضل الذين كانوا يعرفون باعتدال الآراء (٢) .

كلمة أخيرة عن المرجئة :

ان الحديث عن المرجئة يطول ويطول . ولهذا اختلف الكثير من العلماء فى أمرها هل هى حزب من الأحزاب أم فرقة من الفرق أم لا هذا ولا ذاك ؟ .

فى الواقع الرد على هذا كله — فى نظرى — كلمة أعجبتنى لفضيلة الامام الدكتور عبد الحليم محمود عن المرجئة وهى قوله " .. إنها نزعة الى السلامة ، ان المرجئ لا يريد أن يتورط فى حزب ، ولا يريد أن يبذل مجهودا فى تأييد ، أو فى معارضة ما انه لا يريد أن يمتشق السيف مؤيدا أو مناهضا ، انه يحب السلامة ، وهو منصرف عن كل ما يتطلب منه مجهودا ، سواء أكان هذا المجهود علميا نظريا ، أم كان عمليا حربيا " (٣) . والله الهادى الى سواء السبيل .

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ١٤٦ .
(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٦ وما بعدها .
(٣) التفكير الفلسفى فى الاسلام للدكتور عبد الحليم محمود ج ١ ص ١١٤

(المعتزلـــــة)

تمهيد : كلمة " المعتزلة " مشتقة من الاعتزال ، والاعتزال لفظ يدل فـــى مضمونه على أكثر من معنى • وبالبحث فى كتب اللغة والأدب والتاريخ وجد أن هذه الكلمة تدل على تجنب الشئ يقال : عزلته واعتزلته وتعزلته فاعتزل ، قال تعالى : " وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله — فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم — وأعتزلكـــم وما تدعون من دون الله — فاعتزلوا النساء فى المحيض " • والأعزل هو الـــذى لا رمح معه ، ويقال له أيضا : الرجل المنفرد المنقطع (١) •

ويطلق لفظ المعتزلة على قوم اعتزلوا الحرب التى قامت بين على وأصحاب الجمـل وبين على ومعاوية وآثروا البعد عن الفريقين تجنبا لاثارة الفتن واشعالها بين المسلمين حرصا على توحيد كلمتهم وجمع شملهم • ثم لما تنازل الحسن بن علـى عن الخلافة لمعاوية — حرصا منه على جمع الكلمة وتوحيد الصفوف — اعتزلوا الناس ولزموا مساجدهم ومنازلهم ، وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة • وهؤلاء سمـــوا أنفسهم معتزلة (٢) •

ومن هؤلاء الذين اعتزلوا كثيرا من الفتن والأحداث الشاعر أيمن بن خريم ، وصاحبه ابن كوز •

ولما حدث نزاع بين عبد العزيز بن مروان وعمرو بن سعيد لم يتدخل أحـد منهما بين هذين ، حينئذ عاتب المتنازعان الشاعر أيمن فقال أيمن :

انى للفتنة ميطا عاجـــلا ∴ فرويدا لميط منها تعـــتزل (٣)

فاذا كان عطاء فانتهـــز ∴ واذا كان قتال فاعــــتزل

وقال أيضا : فانى تارك لهما جميعا ∴ ومعتزل كما اعتزل ابن كـــوز (٤)

والطبرى فى تاريخه أورد كلمة " اعتزل " ، و " معتزلة " كثـــيرا دالة على الحياد فى الخصومة الناشبة بين على وخصومه • وهذه بعض الأمثلة :

أ — كان زياد بن أبى سفيان ممن اعتزل ولم يشهد معركة الجمـــل •

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى ص ٣٤٣ ، والقاموس المحيط ج ٤ ص ١٥
(٢) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٢٨ ، والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى جـ ٢١ ص ٧
(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ١١٠ — الميط : الجور والشدة •
(٤) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ج ٢١ ص ٥ ، ٦ •

ب — كتب قيس بن سعد والى على على مصر ، يقول له بعد موقعة الجمل ان قبلى رجالا معتزلين قد سألونى أن أكف عنهم ، وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس ، فنرى ويرى رأيهم ، فقد رأيت أن أكف عنهم وألا تعجل حربهم وأن أتألفهم فيما بين ذلك لعل الله أن يقبل بقلوبهم ، ويفرقهم عن ضلالتهم إن شاء الله .

ج — وقوله فى حوادث سنة ٣٧ هـ ان جماعة المسلمين شكوا فى أمر القتال الدائر بين على ومعاوية ، فرأوا أن يستأنسوا ويتثبتوا حتى تجتمع الأمة فاعتزلوا .. (١)

وعلى ذلك فتسمية هؤلاء معتزلة لا تخرج عن المعنى اللغوى أما عن المعتزلة بالمعنى الاصطلاحى عند علماء العقيدة فلابد من كلمة بين يدى هذا المعنى حتى نعرف حقيقته .

كان العراق مجمعا لعناصر كثيرة من الأمم صاحبة الديانات المختلفة وكانت البصرة على وجه الخصوص ميدانا فسيحا لظهور مختلف الآراء وتعدد الملل والنحل .

وكان معبد الجهنى ممن يجالسون الحسن البصرى فسمع معبد أولئك الذين يتعللون بالقدر ويحتجون به فقام بالرد عليهم نافيا أن يكون القدر سالبا للاختيار ، وتطرف فى دفاعه حتى قال قولته المشهورة " لا قدر والأمر أنف " . ولما بلغ ذلك القول ابن عمر رضى الله عنهما تبرأ منه ومن أصحابه . وقد قيل : ان أول من تكلم بهذا رجل نصرانى أسلم وأخذ عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقى . وسمى أصحاب هذا الرأى بالقدرية .

وأساس هذا المذهب هو : انكار قدر الله والمغالاة فى اثبات القدرة للانسان وأنه حر الارادة فى أعماله ، كما كان من مبادئهم ، القول بخلق القرآن الكريم .. (٢) فى مقابل هؤلاء فرقة تسمى " الجبرية " وزعيمهم " جهم ابن صفوان " . ومن أقوالهم : أن الانسان مجبور وليس له اختيار ولا قدرة .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٥ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٢) التبصير فى الدين للأسفرايينى ص ١٣ — ١٤ ،
الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٣ وما بعدها .

وجهم بن صفوان هذا من خراسان ، ومن الموالى الذين أقاموا بالكوفة ، ولقد تكونت منه ومن أتباعه فرقة الجبرية .

وتتلخص مبادئ الجبرية فيما يلى :

١ — القول بنفى الصفات لله تعالى حتى لا يشبه الناس .

٢ — القول بخلق القرآن الكريم .

٣ — انكار رؤية الله تعالى فى الآخرة .

٤ — فناء الجنة والنار بعد نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار .

ولقد نهض كثير من العلماء يردون على هؤلاء الجبرية لسببين هما :

أولا : لأن مسألة الجبر تدعو الى التعطيل وترك العمل والركون الى القدر .

ثانيا : ولأن مسألة المغالاة فى تأويل الآيات التى تثبت الصفات لله تؤدى الى تحريف الكلم عن مواضعه ، فهذه المغالاة فى التأويل خطر على القرآن الكريم وتفهم معانيه (١) . والذى دعاهم جميعا الى القول بهذه الآراء والمبادئ حينما قرءوا القرآن الكريم وقفوا عند آيات منه تدل — فى نظرهم — على مدلولات خاصة .

فالفريق الذى قرأ قوله تعالى : " ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم " (٢) — " ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون " (٣) — " أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار " (٤) — " ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة " (٥) .

فهذه الآيات الكريمة تشعر عند قراءتها — فى نظرها — بالجبر لذلك سموا بالجبرية .

والفريق الثانى قرأ هذه الآيات الكريمة مثل : " انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا " (٦) . " وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون " (٧) — " ومن يعمل سوءا أو يظلم

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٩٧ وما بعدها ، وتاريخ الفرق الاسلامية للدكتور الغرابى ص ٢٠ — ٢٢

(٢) سورة البقرة آية ٧
(٣) سورة هود آية ٣٤
(٤) سورة الزمر آية ٣
(٥) سورة النحل آية ٣٦
(٦) سورة الانسان آية ٣
(٧) سورة الأنعام آية ١٥٣

نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما "(١) .

وبعد أن قرأ هذه الآيات الفريق الآخر رأى عند قراءتها — في نظره — أنها تشعر بالاختيار وأن الانسان مسئول عن عمله . كذلك هناك أيضا من الاحاديث الشريفة التى دارت حول هذه المعانى مثل : حديث جبريل المشهور الذى رواه مسلم فى صحيحه وفيه " .. قال : فأخبرنى عن الايمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال : صدقت" . وحديث ابن عباس الذى رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح يقول فيه : " كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم يوما فقال : ياغلام : انى أعلمك كلمات . احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك الا بشئ قد كتبه الله لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك الا بشئ قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف " .

وحديث الامام على كرم الله وجهه قال : " كنا فى جنازة ببقيع الفرقد فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله وبيده مخصرة فجعل ينكت بها الأرض ثم قال : ما منكم من أحد الا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة فقالوا يا رسول الله : أفلا نتكل على كتابنا ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسيصير الى عمل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسيصير الى عمل الشقاوة ثم قرأ قول الله تعالى : " فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى .. (٢) .

حول هذه الأحاديث الشريفة وتلك الآيات القرآنية أخذ كل من الفريقين — الجبرية والقدرية — يدلى برأيه وفكره نحو المعانى التى استنبطوها بثاقب فكرهم وقوة عقيدتهم .. والسؤال الآن : أين الحسن البصرى من هذا التفكير ؟ . والجواب على هذا سيأتى بالتفصيل فى مكانه . ولكن سنذكر هنا لمحة تزيد المقام وضوحا ان شاء الله .

كان عطاء بن يسار قاصا ، ويرى " القدر " وكان لسانه يلحن فكان يأتى الحسن البصرى هو ومعبد الجهنى فيسألانه ويقولان : يا أبا سعيد ، ان

---

(١) سورة النساء آية ١١٠ — ١١١ .

(٢) فجر الاسلام للدكتور أحمد أمين ص ٢٨٤ — الطبعة السابعة .

هؤلاء الملوك ، يسفكون دماء المسلمين ، ويأخذون الأموال ، ويفعلون ويقولون انما تجرى أعمالنا على قدر الله . فقال : كذب أعداء الله .

وهكذا يفهم معبد من كلمة الحسن هذه . ميله الى القدر (١) . وبعد الأخذ والرد على مر الزمن ذابت القدرية والجبرية فى غيرها من المذاهب ، ولم يعد لهما وجود مستقل . وفى خضم هذا الجدل ، وتلك المناقشات ظهرت المعتزلة على سطح العصر الفكرى ، وأخذت تلقى بأفكارها وآرائها شأن أى فرقة فى هذا العصر . على هذا فما هى المعتزلة التى نحن بصددها ؟ .

تسمية المعتزلة والسبب فيها :

يكاد المؤرخون للفرق الاسلامية يجمعون على أن المكان الذى ظهر فيه هذا الاسم — وبهذا الاصطلاح عند علماء الكلام — هو مسجد البصرة ، ولكنهم يختلفون فى أول من أطلقه ، وفيما يلى نذكر أشهر الروايات فى ذلك .

ذكر الشهرستانى أن واحدا دخل على الحسن البصرى فقال : يا امام الدين لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر هم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الايمان بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الايمان . ولا يضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادا ؟ .

فتفكر الحسن فى ذلك ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا أقول : ان صاحب الكبيرة لا مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر . ثم قام واعتزل الى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن : اعتزل عنا واصل فسمى هو وأصحابه " معتزلة " (٢) .

ويوافق الشهرستانى فى روايته هذه — مع اختلاف بسيط — بعض المؤرخين ، والباحثين فى الفرق الاسلامية كالأسفراييني ، والبغدادى ، والمرتضى ، وابن قتيبة ،

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص ٤٤٠ ط دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٠ م

(٢) الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ٤٨ .

وابن خلكان ... (١) . ومن هذا الاختلاف — مثلا — رواية ابن خلكان التى تقول :
" ان قتادة دخل مسجد البصرة فاذا بعمرو بن عبيد ونفر معه قد اعتزلوا من حلقة الحسن البصرى ، وحلقوا وارتفعت أصواتهم وهو يظن أنها حلقة الحسن فلما صار معهم عرف أنها ليست هى فقال : انما هؤلاء المعتزلة فمنذ يومئذ سموا المعتزلة (٢) .

وهناك من يقول فى سبب هذه التسمية أن المعتزلة سميت كذلك " لاعتزالهم كل الأقوال المحدثة " (٣) معنى هذا أنهم يخالفون الأقوال المتعددة فى مرتكب الكبيرة . كقول الخوارج والمرجئة ، والحسن البصرى ..

كذلك هنا رواية للمسعودى (٤) تقول : سموا بالمعتزلة لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين . فالمعتزلة على رأيهم هم القائلون باعتزال صاحب الكبيرة . وعلى كل فان هذه الروايات المتعددة مهما اختلفت نستطيع أن نفهم منها — كما يقول الدكتور أحمد أمين فى كتابة فجر الاسلام — حقيقتين :
الأولى : أن الاعتزال تكون حول الحسن البصرى وتلميذيه واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد .
والثانية : أن الاعتزال كان يدور حول مسائل عقائدية بحتة .

أشهر مبادئ المعتزلة :

حينما نشأت المعتزلة — كغيرها من الفرق الاسلامية — لم تتبلور مبادئها وتعاليمها مرة واحدة . بل أخذت تتكون وتتجمع على مر السنين والأعوام ، حتى وجدت حظها فى بعض الخلفاء العباسيين الذين وقفوا بجوارها وأرادوا أن يلزموا الناس بآرائها حتى وقعت المحنة لكبار العلماء والمحدثين كالامام أحمد بن حنبل رحمه الله فى محنة خلق القرآن . وهذه المبادئ تتلخص فى أصولهم الخمسة الآتية :

١ — القول بالتوحيد ، وفيه أن الله وحده لا شريك له فى أى ناحية من النواحى .
ولهذا نفوا صفات الله تعالى القديمة حتى لا يشبه المخلوقين . دعاهم الى هذا قيام جماعة تجسم الاله وتشبهه بالحوادث .
٢ — القول بالعدل ، وفيه أن الله جل وعز لا يحب الشر والفساد .

---

(١) التبصير فى الدين للاسفراييني ص ٤٠ ، والمعارف لابن قتيبة ص ٢١٢ ، وأمالى المرتضى ج ١ ص ١٤ ، والفرق بين الفرق للبغدادى ..
(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ص ٢٤٣ ، ولسان العرب لابن منظور مادة "عزل" .
(٣) المنية والأمل للمرتضى .
(٤) مروج الذهب للمسعودى ، والتراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية — ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ص ١٨٢ — ١٨٣ .

٣ — القول بالوعد والوعيد ، وفيه أن الله جلت حكمته صادق في وعده ووعيده .

٤ — القول بالمنزلة بين المنزلتين وفيه أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ولكنه فاسق . وهو مخلد فى النار ويطلق عليه اسم المسلم تمييزا له عن الذمى .

٥ — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفيه تكليف المؤمنين باقامة حكم الله تعالى .

وحول هذه الأصول الخمسة يقول أبو الحسين الخياط — أحد زعماء المعتزلة فى القرن الثالث الهجرى فى كتابه الانتصار ما نصه : " وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد ، والعدل والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فاذا كملت فى الانسان هذه الصفات فهو معتزلى .. [1] وأهم أصل قالت به المعتزلة هو القول بالمنزلة بين المنزلتين لأنه كان سببا فى ظهورها . بل ان كثيرا من العلماء يذهب بأنهم ما سموا بهذه التسمية الا لقولهم باعتزال مرتكب الكبيرة المؤمنين والكافرين فى منزلة وسط يجىء أصل التوحيد ويكثر فيه الكلام بقصد تنزيه الله سبحانه وتعالى فيصلوا الى القول بخلق القرآن ونفى الصفات وغيرهما ثم يلى ذلك بقية الأصول .

---

(١) الانتصار لأبى الحسين الخياط — تحقيق الدكتور نيبرج — طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٥ ص ٥٠ وما بعدها .

(الصبغة العامة لعصر الحسن الفكـــــرى)

من هذا العرض الاجمالى للأحوال الفكرية فى عصر الحسن البصرى يتبين لنـــا أن هذا العصر كانت الصبغة العامة التى يشتهر بها من هذه الناحية هى : "الجدل" وقد امتلأت كتب التاريخ والأدب ، والملل والنحل ، وغير ذلك بالأخبار الكثيرة الـــتى تشير اليه وقد كثر الجدل بسبب ما كان يدور بينهم من حوار شديد سواء كان ذلك بينهم خاصة أو بينهم وبين أعدائهم للدفاع عن العقيدة . وعلى السبيل المثال — بالاضافة الى ما ذكر فى هذا الفصل — نذكر نموذجا من هذا الحوار الحاد بين جماعـــة من السمنية وهم قوم من عبدة الأصنام يقولون بتناسخ الأرواح . ومن مبادئهم أن النظر الصحيح لا يفيد العلم مطلقا لا فى الالهيات ولا فى غيرها .

وهذا هو الحوار بين السمنية وبين جهم بن صفوان زعيم الجبرية قالوا لجهـــم : تكلم فان ظهرت حجتنا عليك دخلت فى ديننا وان ظهرت حجتك علينا دخلنا فى دينك .

فقالوا له : ألست تزعم أن لك الها ؟

قال : نعم

فقالوا له : فهل رأيت عين الهك ؟

قال : لا .

قالوا : فوجدت له حسا ؟

قال : لا .

قالوا : فوجدت له مجســـا ؟

قال : لا .

قالوا فما يدريك أنه الـــه ؟

فقال لهم جهم بن صفوان : ألستم تزعمون أن فيكم روحـــا ؟

قالوا : نعم

فقال لهم : فهل رأيتم روحكم ؟

قالوا : لا .

فقال لهم : أسمعتم كلامه ؟

قالوا : لا .

قال لهم : فهل وجدتم له حسا أو مجســـا ؟

قالوا : لا .

قال : فكذلك اللـــه .

لا يرى له وجه ، ولا يسمع له صوت ، ولا يشم له رائحة ما وهو غائب عن الأبصار ولا يكون فى مكان دون مكان . (١) هذا الحوار بين السمنية وبين جهم بن صفوان زعيم الجهمية يدل دلالة قاطعة على مدى ما امتاز به جهم من قوته فى الجدل وإفحامه لهؤلاء الذين جادلوه . كما يدل على أن الغلبة كانت له حيث احتج عليهم بما يسلمون به ، وهو وجود الروح . فألزمهم بمثل ما احتجوا به عليه فى الاعتقاد بوجود الله وكذلك يدلنا على اختلاط المسلمين بالأمم الأخرى ، وقيام الجدل الدينى بين المسلمين وأصحاب الديانات مما كان له الأثر العظيم فى نشأة علم الكلام كما يقول الدكتور الغرابى .

وهكذا أصبح للمسلمين جيشان . جيش يحارب بالسيوف والرماح ، وجيش آخر يحارب بالحجج العقلية والأدلة المنطقية (٢) .

---

(١) شرح مطالع الأنظار لأبى عبد الرحمن الأصفهانى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ على متن طوالع الأنوار للبيضاوى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية سنة ١٣٢٣ هـ ص ٣٩ .

وكتاب : الرد على الجهمية والزنادقة للامام أحمد بن حنبل ص ١١

(٢) تاريخ الفرق الاسلامية للدكتور على مصطفى الغرابى ص ١٧

الباب الثاني

الحسن البصري ـ حياته .. تكوين شخصيته

تمهيد : أضواء على المدينة المنورة .. والبصرة

الفصل الأول : حياته ..

الفصل الثاني : مؤهلات الحسن البصري وتكوين شخصيته

البــــاب الثانــــــى

الحسن البصرى .. حياته .. وتكوين شخصيته

بعد أن تعرفنا على عصر الحسن البصرى من الناحية الاجتماعية والسياسية ، والفكرية ، نجد أنفسنا الآن فى شوق الى معرفة حياة هذا الانسان المثال المقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، كذلك الى التعرف على الأمور التى كانت سببا فى تكوين شخصــيته وبالطبع اذا كنا نتحدث عن هذه الشخصية الفذة فلا بـــد من القاء الضوء على المكان الذى ولد فيه الحســن وعاش حياته المملوءة بالعظـــة والاعتبـــار .

لذا كان هذا الباب يشتمل على ما يلى :

تمهيد : يعطى فكرة مجملة عن " المدينة المنورة " التى ولد فيها الحســــن البصـــرى وعاش حتى بلغ من العمر الرابعة عشـــرة وعن البصرة المكان الـــذى بقى فيه الحســــن الى أن لقى ربـــه بعد هجرته من المدينة اليهـــا مع أســـرته .

ثم بعد هذا نعقد فصلين :

الفصل الأول : منهما يبين لنا حياة الحسن البصرى فى جميع شئونه وأحوالـــه
والفصل الثانى : يبرز مؤهلاته ، ويكشف عن أسباب تكوين شخصيته .

تمهيـــــد :

أضـــواء على المدينة المنورة :

المدينة المنورة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم اليها كانت تسمى "يثرب" يقول سبحانه وتعالى : "واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ..."(١) وهذا الاسم أيضا ورد فى النقوش السبئية وعند الجغرافيين القدماء كبطليموس (٢) .

وتقع — هذه المدينة — فى واحة خصيبة وتبعد عن ساحل البحر الأحمر بحوالى ١٦٠ كيلومترا وعن مكة المكرمة نحو ٣٢٥ كيلومترا . ويحدها شرقا : حرة راقم ، وغربا : حرة الوبرة ، وشمالا : جبل أحد ومن ورائه جبل ثور ، وجنوبا : جبل "عير" . كما أنها تقع كذلك على نفـس الطريق التجارى بين اليمن والشام .
وتاريخ هذه المدينة — قديما — يصعب تحديده . ولكن من المؤكد أن قبائل عربية قديمة سكنتها . اذ لا يمكن أن تترك القبائل مثل هذه الواحة الخصيبة ذات العيون والوديان دون أن تسكنها وتستقربها ، ويروى الأخباريون أن قبائل "المماليق" "وهـى قبائل تنتمى الى العرب البائدة" قد أقامت فيها وعمرتها ثم طرأت عليهـــا هجرات يهودية تغلبت على هؤلاء المماليق واحتلت "يثرب" . وكان هذا أيام موسى عليه السـلام . ثم توالت الهجرات اليهودية وكونوا قبائل مختلفة أهمهـا : بنو قينقاع ، وبنو النضـير ، وبنو قريظة ...(٣) واستمر وضع اليهود هكذا بالمدينـة وضواحيها حتى تصدع سد مأرب فهاجرت بسببه عدة قبائل عربية الى أماكن متفرقة . منها قبيلتا الأوس والخزرج التى اتجهت نحو "يثرب" التى كان يسكنها الكثير من اليهود . ولكن سرعان أن نمت هاتان القبيلتان بهذا المهجر الجديد . واستطاعوا بفضل جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم أن يتغلبوا على اليهود فملكوا بعـض الأراضى الزراعية وبنوا مساكنهم وأقاموا بعض الحصون تشبها باليهود ، وهكـــذا أصبح للعرب فى هذا المكان السيادة على اليهود . وليس معنى هذا أن الاستقرار دام فى هذه المنطقة بل ان العداء بين العرب واليهود لم ينته حينئذ . ممـا تسبب عنه تجدد النزاع بـين آونة وأخرى . وهذا يرجع دائما الى طبيعة اليهـود فانهم يريدون أن يعيش جيرانهم فى قلق واضطراب .

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ١٣ .
(٢) تاريخ العرب لفيليب حتى . ترجمة مبروك نافع ص ١٢ ٧ العالم العربى بالقاهرة
(٣) وكان اليهود يشتغلون فى المدينة بالصياغة والمرابا ة ، وبعضهم يشتغل بالزراعة .

وهكذا استمر النزاع — فى يثرب — بين العرب واليهود تارة ، وبين العرب أنفسهم — بفعل اليهود — تارة أخرى ، بل وبين اليهود أنفسهم تارة ثالثة مما جعل المدينة فى حروب ، وتطاحن ، ومنازعات (١) .

واستمر الوضع هكذا الى أن أكرم الله البشرية بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وما أن بعث المصطفى عليه الصلاة والسلام حتى عم الخير الكثير من البلاد ومنها " يثرب " التى بلغت فيها الدعوة الاسلامية ما لم تبلغه فى مكة وكانت توفيقا لم تنله من قبل .. وهذا يرجع الى أن اليهود فى المدينة كانوا قد هيأوا الناس لهذه الرسالة السماوية دون أن يقصدوا نجاحها أو اتباع الناس لها . حتى أنهم كانوا يفاخرون الأوس والخزرج بدينهم وكتابهم ويحقرونهم بوثنيتهم ، ويهددونهم بقرب ظهور نبى جديد يحطم الأصنام فينضمون اليه ويقتلونهم قتل " عاد وإرم " من أجل هذا نجد أن الأوس والخزرج حينما دعيا الى الاسلام كانوا أسرع الى هذا النبى الذى كثيرا ما كانت تهددهم به يهود وأحرص على ألا يسبقوا اليه (٢) .

وفى مدة قليلة أخذ الاسلام يزحف نحو هذه المدينة الجديدة وأصبح الجو مهيئا لاستقبال الرسول عليه الصلاة والسلام الذى كون — بعد الهجرة اليها — أول دولة اسلامية نموذجية لم يكن لها مثيل من قبل ولا من بعد .

ولأهمية المدينة أخذ النبى صلى الله عليه وسلم يذكر فضلها فى أحاديث متعددة منها : قوله عليه السلام : " المدينة حرام ما بين عير الى ثور " (٣) ، وقوله : " المدينة حرم آمن " (٤) . وقوله : " المدينة قبة الاسلام ودار الايمان وأرض الهجرة ومبوأ الحلال والحرام " (٥) . الى غير ذلك من الأحاديث المتعددة التى حث فيها النبى عليه السلام على سكنى المدينة وعمارتها وبسبب تشجيع النبى صلى الله عليه وسلم هذا . أضحت قلب الاسلام النابض ، ومركز الدعوة الاسلامية ،

---

(١) الدولة الاسلامية الأولى للدكتور أحمد ابراهيم الشريف ص ٦٢ وما بعدها . طبعة دار القلم ، وبحث الدكتور عبد العزيز كامل تحت عنوان " طريق الهجرة " . ومعجم البلدان لياقوت مادة " مدينة يثرب " جـ ٥ ص ٨٤ — ٨٦ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٨ ، وامتاع الأسماع للمقريزى جـ ١ ص ٣١ .

(٣) تيسير الوصول للشيبانى جـ ٣ ص ٢٣٠ طبعة الحلبى .

(٤) رواه أبو عوانه عن سهل بن حنيف (صح) (الجامع الصغير للسيوطى) .

(٥) عن أبى هريرة (ح) (الجامع الصغير للسيوطى .

ففيها استقر الرسول بعد الهجرة ، والخلفاء الراشدون من بعده ، فما أشد الحاجة الى أن يبقى فيها السابقون الأولون من المهاجرين من قريش التي تدين لها العرب كلها ، ومن ثم حرم على المهاجرين الأولين الاقامة بمكة بعد الفتح ولو أبيح لهم الرجوع لربما نزع الكثيرون منهم الى الرجوع اليها ، فان النفوس البشرية مجبولة على حب الوطن والرجوع اليه اذا سنحت الفرصة ، لذا اقتضت حكمة الله سبحانه — ولله الحكمة البالغة — أن يحرم ذلك ليبقى المهاجرين مع النبى فى البلد الطيب " طيبة " الذى آوى الاسلام .

ومنه انتشرت دعوة الاسلام وعم نورها الخافقين وهو من أسمى أنواع الوفاء(1) .

وبسبب بقاء الكثير من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة نجد أنه تكونت مدرسة علمية شهيرة تضارع أى مدرسة أخرى ذلك أن مدرسة المدينة كانت أغزر علما وأبعد شهرة ، تخرج فيها أكثر علماء ذلك العصر فى التفسير والحديث والفقه والتاريخ ولذا نرى — مثلا — أن عبد العزيز بن مروان بعث ابنه " عمر " الى المدينة للتأدب بها ، وكتب الى صالح بن كيسان أن يتعاهده فأبطأ عمر يوما عن الصلاة ، فقال : ما حبسك ؟ فقال : كانت مرجلتى تصلح شعرى ، فكتب الى أبيه بذلك ، فأرسل أبوه رسولا ، فلم يزل به حتى حلق شعره .

وليس بعجيب أن يخرج من هذه المدرسة أشهر كتاب السيرة ابن اسحاق الواقدى كما اشتهر فى مدرسة المدينة كثير من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله ابن عمر ... ويكفى أن رجلا كسليمان بن يسار يقول عن أحد أساتذة هذه المدرسة وهو زيد بن ثابت رضى الله عنه : " ما كان عمر ولا عثمان يقدمان على زيد بن ثابت أحدا فى القضاء والفتوى والفرائض والقراءة " وكان ابن عباس رضى الله عنهما يأخذ بركاب زيد ويقول : " هكذا يفعل بالعلماء والكبراء " .

على هؤلاء العلماء — وغيرهم — من الصحابة فى المدينة تخرج كثير من علماء التابعين ، من أشهرهم سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير وعن هذه الطبقة أخذ ابن شهاب الزهرى القرشى الذى حفظ فقه علماء المدينة وحديثهم ، وكان من أسبق العلماء الى تدوين العلم ، وكان موضع احترام خلفاء بنى أمية قال عنه عمر بن عبد العزيز : " انكم لا تجدون أعلم بالسنة الماضية منه " وأخيرا أنجبت هذه

---

(1) السيرة النبوية فى ضوء الكتاب والسنة للدكتور محمد أبو شهبة ص ٢٧ — ٢٨ ، طبعة دار الأنوار .

مالك بن أنس إمام دار الهجرة (١) .

في هذه البقعة الطاهرة قضى الحسن البصري معظم صباه في حفظ كتاب الله تعالى وتلقى سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم وآثار السلف الصالح — رضوان الله عنهم أجمعين ، وذلك قبل أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، كما أنه عاش فترة قتل سيدنا عثمان وسمع دعوة الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري إلى توزيع أموال الأغنياء على الفقراء وأثر ذلك فيه خصوصا حينما ذهب إلى البصرة .(٢)

وهناك رواية تقول بأن الحسن البصري سمع وهو صغير بالمدينة المنورة صوتا يقول : " ألا إن نبيكم قد برئ ممن فرق دينه واحتزب ... فقيل : إنه صوت أم المؤمنين ... (٣) .

وهكذا أثرت المدينة المنورة في الحسن البصري تأثيرا كبيرا مما جعله لا ينسى هذه الأيام بعد ذلك أبدا .

البصـــــرة :

تضارب الباحثون — قديما وحديثا — في معنى كلمة " البصرة " وما تؤدى اليه . حتى أننا نرى أحد الباحثين المحدثين وهو الدكتور أحمد كمال زكي يقول : " وهنا أسرع فأقول : ان أمامنا ثلاث زمر من الروايات التى تلقى الضوء على حركة تأسيس المدينة — بمعنى البصرة — الأولى ما أورده أصحاب الاخبار القديمة ، والثانية ما رواه أصحاب المعاجم ، والثالثة ما قدمه غير العرب ممن اشتغل بتخطيط المدن الاسلامية وممن سجل لماضى هذه المدن ان كان لها ماض .. (٤) .

ونحن بالطبع فى هذا العرض الاجمالى عن " البصرة " لا يهمنا — كثيرا — التعرض لكل هذه الآراء ومناقشتها والوصول الى الرأى الصحيح منها ، لأن هـــذا ليس من صلب بحثنا . وانما سنتعرض — فقط — لأشهر الآراء من المراجع اللغويـــة والعربية .

---

(١) فجر الاسلام للدكتور أحمد أمين ص ١٧٣ وما بعدها — الطبعة السابعة .
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٢٢٨ ، تاريخ الاسلام للذهبى ج٢ ص ١٤٩ .
(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى ج٥ ص ٤ ، وتاريخ الاسلام للذهبى ج٢ ص ١١٤ .
(٤) الحياة الأدبية فى البصرة الى نهاية القرن الثانى الهجرى للدكتور أحمد كمال زكى ص ٢٠ — طبعة دمشق .

وهذه الآراء على قسمين . قسم يقول : انها سميت البصرة لصلابة حجارتها وغلظ أرضها . كقول ابن الانباري : البصرة في كلام العرب " الأرض الغليظة " .

ويقول قطرب : " البصرة الأرض الغليظة التي فيها حجارة تقلع وتقطع حوافر الدواب " .

ويقول ابن الأعرابي : " البصرة حجارة صلاب " . قال : وإنما سميت بصرة لغلظها وشدتها .

وقالوا : انما سميت البصرة لأن فيها حجارة سوداء صلبة ...(1) .

وقسم يقول : انها سميت " البصرة " لرخاوة حجارتها .

يقول صاحب المفردات : " والبصرة حجارة رخوة تلمع كأنها تبصر أو سميت بذلك لأن لها ضوءاً تبصر من بعده " .

ووافق صاحب القاموس المحيط على الرأي القائل على أنها سميت البصرة لرخاوة حجارتها وكذلك صاحب " مختار الصحاح " يقول : البصرة : حجارة رخوة الى البياض ...(2) .

وهكذا نرى أن هذه الآراء متعارضة في معنى البصرة ونستطيع أن نخرج من هذا الخلاف بأن كلا من القسمين تحدث عن رأيه . ففيها الصلبة والرخوة . " ولكل وجهة هو موليها " .

وأما النسب اليها فالجمهور على أنه " بَصري " — بفتح البـاء — ولكن بعض أهل اللغة قالوا : " انما قيل في النسب اليها — أي الى البصرة — بِصري — بكسر الباء — لاسقاطها الهاء ، فوجوب كسر الباء في البصرى مع غير في النسب .

وصلة البصرة بالمسلمين وثيقة . فحينما تحول المسلمون عن المدائن أرادوا اختيار مكان آخر يناسب جو صحتهم وأحوال ابلهم . فسار فريق من المسلمين ومعهم عتبة بن غزوان يبحثون عن ذلك المكان المنشود فنزل في المكان الذى قامت فيه " البصرة " فيما بعد ، فأعجب به عقبة فنزل في أخبية وقباب .

---

(1) معجم البلدان لياقوت الحموى الرومى البغدادى — المجلد الأول بيروت سنة ١٩٥٥ م ، ولسان العرب مادة " بصر " .

(2) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص ٥٠ ، والقاموس المحيط جـ١ ص ٣٨٧ ومختار الصحاح ص ٥٤ .

ورأى عتبة أن يكون هذا المكان " الخريبة " المدينة ، فكتب الى عمر بن الخطاب يعلمه بنزوله اياها وأنه لابد للمسلمين من منزل يشتون به اذا شتوا ، ويكفون فيه اذا انصرفوا عن غزوهم ..

فكتب اليه عمر أن اجمع أصحابك فى موضع واحد ليكون قريبا من المرعى واكتب الى بصفته فكتب اليه : انى وجدت أرضا كثيرة القصبة فى طرف البر الى الريف ودونها مناقع ماء فيها قصباء . فلما قرأ الكتاب قال : هذه أرض نضرة قريبة من المشارب والمراعى والمحتطب وكتب اليه أن انزلها الناس فأنزلهم اياها .(١)

وكان الموقع الذى اختاره عتبة على شط العرب على مقربة من ثغر الابلة عند دلتا نهرى دجلة والفرات ولذا فهى متصلة بالخليج الفارسى . ويرجع حسن موقعها الى أنها " مدينة بين فارس وديار العرب وحد العراق على بحر الصين .(٢)

وفى دائرة المعارف الاسلامية تعليل آخر لاختيار هذا المكان وهو أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قصد ببناء البصرة فى ذلك الموضع أن تكون مركزا للجيش العربى لأنه وجدها بقعة قريبا من النهر ، تشرف على السهوب والوادى الخصيب وتقرب من المشارف والمرعى .(٣)

والبصرة بمجرد أن جاءها العرب المسلمون بدأت الحياة تدب فيها وظلت تنمو وتزدهر حتى وصلت الى حضارة عالية تغبطها عليها مدن العالم الاسلامى الأخرى .

وهذا يرجع الى الهجرات المتعددة من العرب اليها مع تخطيطها وتنسيقها .

فقد بنى المسلمون سبعة دساكر ، اثنتان بالخريبة . وفيها — أى الخريبة — كان نزول عتبة . فبنى المسجد من قصب . ودار امارتها دون المسجد فى الرحبة التى يقال لها رحبة بنى هاشم . واثنتان بالزابوقة ، وثلاث فى موضع دار الأزد وفرق عتبة المسلمين عليها .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٥٤ ، ودائرة المعارف للبستانى — المجلد الخامس ص ٤٥٣ .

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١١٧ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية — هارتمان ، المجلد الثالث ص ٦٦٩ وما بعدها .

وبعد تقسيم المسلمين للبصرة من الناحية القبلية اتجهوا بعد ذلك الى تخطيط الشوارع والأمكنة المتعددة التى يستعملونها • وعلى سبيل المثال فقد جعلوا عرض الشارع عشرين ذراعا ، والزقاق سبعة أذرع وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة يربطون فيها خيولهم ويدفنون موتاهم • وجعلوا منازلهم متلاصقة (١) •

وكان أكثر من قدم البصرة من أنصار المدينة وعرب الشمال " مضر وربيعة " ولما كثر المهاجرون الى البصرة أمر عمر بالاهتمام بها • وعين عليها أبا موسى الأشعرى • ولما كثرت بعض القبائل على بعض أراد عمر أن يحفظ التوازن فيها فبعث الى البصرة جماعة من تنوخ مع القبائل التى وصلت اليها مثل قريش وكنانة وخثعم وقيس •• وكان لكل قبيلة حى ومقبرة ومسجد •• (٢) •

وكان أعظم بناء فى البصرة هو المسجد — كما هى عادة الفتوحات الاسلامية دائما — مما جعل معظم الأمراء على البصرة يحاولون التجديد فيه حسبما تتاح الظروف فى ذلك • وعلى سبيل المثال لما عين زياد بن أبى سفيان واليا على البصرة فى سنة ٤٥ هـ سنة ٦٦٥ م من قبل أخيه معاوية أمر بهدم الجامع وبنائه مجددا فى موضعه وبنى فى داخله مقصورة وهو أول من عمل المقصورة •

وأحضر سواريه من الرخام من جبل — قيقمان — الواقع بالأحواز • وصرف عليه أموالا كثيرة • وبعد الانتهاء من بنائه أقام حفلة افتتاح كبيرة دعا اليها جمعا غفيرا من وجوه أهل البصرة ، وعلمائها وأعيانها وهو أول حفلة افتتاح لمشروع كبير يعرفه العرب بالمعنى الذى نعرفه اليوم وأخذ يطوف بهم الجامع وهم مأخوذون من روعته وسعة بنائه • والمسجد لم يزد فيه أحد شيئا بعد ابن زياد غير دار أضيفت اليه فيما بعد هى دار نافع بن الحارث سنة ٥٥ هـ سنة ٦٧٤ م عندما كان واليا على البصرة بعد والده عبد الله بن زياد ، هذا المسجد يعتبر ثالث مسجد بنى فى الاسلام وأول مسجد بنى فى العراق فى أول الفتح الاسلامى وما خلده من النهضة العلمية والدينية فى التاريخ الاسلامى المشهور اليوم بين العامة بمسجد الامام على عليه السلام •

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ، ودائرة المعارف للبستانى جـ ٥ ص ٤٥٣ وما بعدها •

(٢) تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى •• للدكتور على حسنى الخربوطلى ص ٢٩٠ •

ولا زالت بعض أنقاضه المتداعية باقية فى أرض البصرة القديمة فالداخل الى قضاء الزبير يشاهد على مقربة من ضريح سيدنا طلحة رضى الله عنه زاوية المسجد الشمالية مائلة للعيان كأنها ـ جوجو ـ سفينة بالية ...

والمسجد كان أكبر جامعة اسلامية فى مختلف الأدوار

وكانت تعقد الدروس والافتاء والتعليم ، بحلقات بعض الصحابة والتابعين وأول حلقة اتخذت فى المسجد الجامع حلقة " جعفر بن أبى سليمان وتعتبر هى الحلقة الأولى .. وتبعتها فيما بعد حلقات كثيرة وكانت كل ـ اسطوانة ـ فى الجامع يجلس حولها عالم من فحول علماء المسلمين ويلتف حوله الطلاب لأخذ الدرس مثل سيدنا " الحسن البصرى " وغيره (١) . والبصرة تولى امرتها عدد ليس بقليل من الولاة (٢) وكان أولهم : قطبة بن قتادة السدوسى ، ثم عتبة بن غزوان ووصاه عمر وعلى بالوصية ، ثم المغيرة بن شعبة وبعد سنتين من ولايته جاء أبو موسى الأشعرى ... وفى سنة ٣٥ هـ فى خلافة عثمان بن عفان عين على البصرة عبد الله بن كريز وكان فى الخامسة والعشرين من عمره وكانت البصرة فى هذا الوقت فى أول عنفوان عمرها .. وفى سنة ٣٦ هـ عين عثمان بن حنيف من قبل على بن أبى طالب وفى ابان ولايته وقعت حرب الجمل المشهورة وكانت هذه الوقعة فى ربيع الآخر سنة ٣٦ هـ .

ولما انتهت هذه الحرب ولى على بن أبى طالب عبد الله بن عباس على البصرة . وفى عهد ابن عباس يتأكد لنا مجئ الحسن البصرى مع

---

(١) كتاب مسجد جامع البصرة الكبير ـ تأليف الشيخ عبد القادر باش أعيان العباسى الذى كتب تاريخا للبصرة فى اثنى عشر مجلدا وهذا التاريخ لا يزال مخطوطا .. دار منشورات البصرة سنة ١٩٦٨ م . واستعرت هذا الكتاب من السفارة العراقية بالقاهرة .

(٢) يهمنا فى هذا المقام أن نذكر بايجاز الولاة الذين عاصروا الحسن البصرى غالبا .

أسرته الى البصرة ، بعد أن مكث فى المدينة مدة صباه . وهذا كان سنة ٣٦ هـ .

وهناك من يذكر أنه جاء فى ولاية عثمان بن حنيف من قبل على بن أبى طالب . وعلى هذا الرأى يكون الحسن قد حضر معركة الجمل . ولكن البيهقى فى كتابه " المحاسن والمساوئ " يرى أن هذا خطأ لأن الحسن — فى رأيه — كان أيام معركة الجمل فى المدينة المنورة .

ثم أرسل معاوية من قبله فى سنة ٣٨ هـ عبد الله بن الحضرمى . فلم يمكنه الحصول على شىء من أمر الولاية وثاروا عليه فأحرقوه فى قصر سبيولى هو ومن معه . وفى سنة ٤٠ هـ سعى أبو الأسود الدؤلى بعبد الله بن عباس الى على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان قاضيا فى البصرة فحصلت المباينة بينهما فترك ابن عباس البصرة وذهب الى مكة المكرمة وفى سنة ٤١ حصل الاتفاق بين الحسن بن على وبين معاوية بن أبى سفيان . فلما ترك الحسن أمر الخلافة لمعاوية ثار حران بن ابان فاستولى على البصرة . فلما استقر الأمر لمعاوية أرسل له يسر بن أبى أرطاة بعسكر جرار فانتزعوها منه وتولى ولاية البصرة عن معاوية ثم عزل يسر فى أواخر السنة وتولى مكانه عتبة بن أبى سفيان وألحقت ولاية خراسان وسجستان .

وفى سنة ٤٤ هـ تولى الحارث بن عبد الله الأزدى ثم عبد الله بن الأزدى .

وفى سنة ٤٥ هـ تولى زياد بن أبيه .

وفى سنة ٥٠ هـ ألحقة ولاية البصرة فى الكوفة فتولى عليها سمره بن جندب عن زياد . وأما زياد فكان يقيم فى الكوفة ستة شهور وفى البصرة كذلك ثم توفى زياد بن أبيه سنة ٥٣ هـ فتولى عليها سمره بن جندب .

وفى سنة ٥٤ هـ تولى عليها عبد الله بن غيلان ٠

وفى سنة ٥٥ هـ تولى عليها عبيد الله بن زيا د ٠

وفى سنة ٦٤ هـ تولى يزيد بن معاوية ... ولما بويع لعبد الله بن الزبير
بالخلافة أرسل من قبله عمر بن عبد الله بن عمر التميمى ٠

وفى سنة ٦٥ هـ أرسل بدله الحارث بن أبى ربيعة ٠ وفى عهده خرج
رجل يقال له نافع بن الأزرق فاستولى على البلاد من أصفهان الى الأهواز ٠ والى
هذا تنسب الأزارقة ٠

وثم بعد ولى على البصرة المهلب بن أبى صفرة بعد حرب بينهما وبعد ذلك ولى
على البصرة عبيد الله بن معمر وفى عهده وقع الطاعون فى البصرة فقتل ٦٥٠٠٠ نسمة
ومنهم الوالى ٠

وقال بعض المؤرخين امتد الطاعون أربعين يوما وقتل ١٠٠٠٠٠ نسمة

وفى سنة ٦٦ هـ ولى البصرة الحارث بن أبى ربيعة القباع ٠

وفى سنة ٦٨ هـ ولى عليها مصعب بن الزبير مرتين ٠

وفى سنة ٧١ هـ ولى عليها خالد بن عبد الله ٠

وفى سنة ٧٣ هـ البشر أخو عبد الملك ٠ وفى هذه السنة اشتدت
شوكة الخوارج وعاثوا فى البلاد بالفساد وهجموا على أطراف البصرة وسلبوا وقتلوا
واشتدت الأزمة على الناس من بلائهم ٠

وفى سنة ٧٥ هـ ولى على البصرة الحجاج بن يوسف الثقفى ٠

وفى سنة ٩٥ هـ هلك الحجاج بعد حياة حافلة بالأخذ والعطاء والشدة فولى بدله ابان ثم حبارة البشرى ثم صرف عنها فولى في سنة ١١٠ هـ بلال بن بكرة وأحيل أمر القضاء اليه • وفى هذه السنة حدث بالبصرة مطر شديد لم ير مثلـــه هدم قرابة ١٥٠٠ دار • وفيها توفى " الحسن البصرى " •• وقبره يزار ويتبرك به الآن وهو محل يبعد عن قسبة الزبير قدر نصف ساعة •• (١)

وأهل البصرة غالبا يميلون الى " الثورة " خاصة بعد أن قتل الامام علـى أصبحت الفوضى عامة والفتنة قائمة ، والأمن مفقودا ،واللصوص يسطون على الدور • وبيوت الفحش قائمة • وليس من أهلها ناصح ينصح بالقضاء على هذه الآفات •

ويصور حالة أهلها ما قاله زياد بن أبيه فى خطبته البتراء التى منها :
" أما بعد : فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ،والغى الموفى بأهلـه على النار ،ما فيه سفهاؤكم ،ويشتمل عليه حلماؤكم ،من الأمور العظام ، ينبـت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير •••

أيها الناس • انا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم زادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا الى آخر ما قال •• (٢)

ومن أجل هذا كان وجود الحسن فى البصرة ضروريا لينقل هذا المجتمـع من ماديته وضلاله الى هداية الله تبارك وتعالى •

كما أن أهل البصرة كانوا معتزين بعد ينتهم لدرجة أننا نرى الرجل يقـول للآخر : غضب الله عليك كما غضب أمير المؤمنين على المغيرة فعزله عن البصرة واستعمله على الكوفة •• (٣)

---

(١) كتاب ولاة البصرة ومتسلموها لابن الغملاس ٤٦ ، ١٤ — ٣٣ هـ الناشر : دار المنشورات البصرى سنة ١٩٦٢ — واستعرته من السفارة العراقية بالقاهرة •

وقد نزل البصرة عدد كبير من الصحابة .. من أشهرهم في العلم أبو موسى الأشعري ، وانس بن مالك فأما أبو موسى فيمني ، قدم مكة وأسلم وهاجر الى الحبشة مع من هاجر ، وكان يعد من أعلم الصحابة ، وقد قدم البصرة وعلم بها ، سأل عمر بن الخطاب أنس بن مالك : كيف تركت الأشعري ؟ فقال : تركته يعلم الناس القرآن ، فقال : انه كبير ولا تسمعها اياه .

أما أنس بن مالك فكان أنصاريا وكان صبيا لما قدم النبي المدينة ، وخدمه نحو عشر سنين ، وقد نزل البصرة وعمر فيها طويلا ، وكان آخر من توفي بالبصرة من الصحابة ، وتوفي سنة ٩٢ هـ .

ومن أشهر التابعين الذين تخرجوا من مدرسة البصرى الحسن البصري وابن سيرين .(١)

هذه لمحة سريعة عن البصرة التي عاش فيها الحسن البصري معظم عمره يتفقه في دينه ويعلم الناس ويدعو الى الله تعالى كما سنعرف فيما بعد ان شاء الله .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ٨٠ وما بعدها .
وفجر الاسلام للدكتور أحمد أمين ص ٨٤ — ١٨٥ .

(الفصل الأول)

(حياته)

نسبه ومولده : هو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار شيخ الاسلام البصرى . ويلاحظ فى هذا التعريف بأنه كان يلقب بشيخ الاسلام ويكنى بأبى سعيد . هذا ما رواه الحافظ الذهبى [1] . أما غيره فمنهم من كان يقصره على اسم " الحسن البصرى " [2] ، ومنهم كان يوافق الذهبى على الاسم والكنية ويترك اللقب مثل : الحسن بن أبى الحسن أبو سعيد البصرى [3] . ومنهم من كان يلقبه بامام أهل البصرة [4] .

بل قال بعض العلماء : اذا ذكرت كلمة "الحسن" فى كتب التفسير ، والحديث ، والفقه ، والرقائق .. فانه تنصرف ـ غالبا ـ الى " الحسن البصرى " الذى نحن بصدده .

والذى اضطرنى الى ذكر هذه التعريفات عن " الحسن " ما يحدث من التشابه بينه وبين آخرين يشابهونه فى اسمه . ومن الأدلة على ذلك أننى تناولت الحديث يوما مع أحد الباحثين حول آثار الحسن البصرى العلمية وأنه لم يترك كتبا كغيره من العلماء والمفكرين .. واذا به يذكر كتبا مطبوعة له : فلما سألته عنها قال : أدب الدنيا والدين ، والأحكام السلطانية وغير ذلك . فقيلت له : انما هذه الكتب لأبى الحسن البصرى الماوردى . ولكنه أصر على أنها لصاحب هذه الشخصية التى نعنى بها . علما بأن الأول ولد فى سنة ٢١ هـ أما الثانى وهو الماوردى فقد ولد فى سنة ٤٥٠ هـ كذلك هناك من يعتقد بأن الحسن البصرى هو المذكور فى " ألف ليلة وليلة " وهذا ليس بصحيح فان الموجود فى " ألف ليلة وليلة " هو : حسن الصائغ البصرى . وقصته مشهورة فى هذه الحكايات الشعبية [5] . أما بالنسبة لوالده فتكاد كلمة الباحثين تجمع على أن اسمه " يسار " ، ويسار هذا ـ كما قال بعضهم ـ كان ينادى قبل الاسلام بـ " فيروز " [6] . وكان " يسار

(١) تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبى ج ١ ـ الطبعة الثالثة .

(٢) الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية للمناوى ج ١ ص ٩٦ .

(٣) كتاب التاريخ الكبير للامام البخارى ج١ ص ٣٥٤ .

(٤) كذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى ج ١ ص ١٣٦ .

(٥) ألف ليلة وليلة ـ طبعة خاصة بدار الهلال ج ٤ ص ١١٥ ـ ٢٤٨ .

(٦) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٥٢ .

من سبى " ميسان " (١) ، سباه الأمير المغيرة ابن شعبة مع سوريه أبى محمد بن سوريه حينما افتتحها فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه •

وقد صار بعد السبى مولى للصحابى الجليل " زيد بن ثابت " • وأمه كانت تسمى " خيرة " وهى من السبايا أيضا صارت بعد ذلك مولاة لأم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم • ثم تزوج " يسار " من " خيرة " • وفى هذا البيت النبوى الكريم ولد " الحسن " فى سنة ٢١ هـ الموافق سنة ٦٤١ م •

هذا ما عليه الكثير من أصحاب التراجم ، والطبقات •• ولكن يخالف ما سبق فيذكر أن أباه " يسار " كان مولى لجميل بن قطبة أو لامرأة من الأنصار أو لرجل من بنى النجار •• (٢)

ولانكاد نجد رأيين متفقين على ذلك • اللهم الا على " زيد بن ثابت " ومجئ " الحسن " من أبوين من " ميسان " يدل على أنه كان ينتمى الى أسرة غير عربية • وهذا واضح من جميع المراجع التى وقعت تحت يدى • ومع هذا نجد أحد الباحثين من المحدثين يذكر أن الحسن البصرى — هذا — يتحدر من أسرة عربية (٣) •
ولم يذكر أى دليل على ذلك وبالتالى لم يشر الى أى مرجع وعلى كل فاذا كان هذا الرأى فيه شئ من الصحة نستطيع أن نقول : لعل أسرة " الحسن " التى انحدرت الى المدينة مع السبى كانت أصلا موجودة فى هذه المنطقة العربية ، ثم هاجرت الى العراق مع المهاجرين أيام انهيار " سد مأرب " وغير ذلك خاصة وأن الهجرات العربية عبر التاريخ كانت متعددة الى أماكن مختلفة •

ويستأنس لهذا أن أبوى الحسن لم يـ علماه شيئا مما كانا عليه قبل الاسلام ومع هذا التعليل فاننا نرجح الرأى القائل بعدم عربية أسرته • وعلى كل فان ما يعنى به الاسلام ليس هو اللون أو الجنس وانما هو : تقوى الله سبحانه وتعالى • والأدلة على ذلك كثيرة • منها : ماروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن (٤) فى يده فما وجد لها مناخا فى المسجد حتى نزل صلى الله عليه وسلم على أيدى الرجال فخرج بها الى بطن المسيل فأنيخت ثم ان رسول الله صلى ا لله عليه وسلم خطبهم على راحلته

---

(١) ميسان : بليدة بأسفل البصرة بالعراق وهى : كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط قصبتها ميسان (ابن خلكان جـ ١ ص ١٨٩) ، (معجم البلدان لياقوت جـ ٥ ص ٢٤٢) • وقال آخرون : يسار من أهل نهر " المرآة " وهو عبارة عن نهر بالبصرة حفرة أردشير الأصفر •
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص ١٥٦ ، والمعارف لابن قتيبة ص ٤٤٠ ، وابن خلكان جـ ١ ص ٣٥٤ •
(٣) [illegible]

فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : يا أيها الناس ان الله تعالى قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بآبائها فالناس رجلان ، رجل بر تقي كريم على الله . ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى ، ان الله عز وجل يقول : يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير . - ثم قال صلى الله عليه وسلم - أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .[1] وبالتالي فان الحسن البصري رحمه الله أصبح عربيا خالصا بنشأته ، ولسانه ، وعلمه ..

ولد الحسن في بيت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم - كما ذكرنا - بالمدينة المنورة سنة احدى وعشرين للهجرة النبوية لسنتين بقيتا من خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه[2] . وهذا ما عليه جميع المؤرخين له تقريبا . وهنا رأى لأحد العلماء المحدثين وهو الشيخ محمد الصادق عرجون يقول بأنه ولد سنة احدى وثلاثين للهجرة[3] ولم يذكر مرجعا في هذا . وبالتالي لم اجده في أى مرجع رأيته .

وروى أن الحسن بعد ولادته أتى به الى عمر بن الخطاب فدعا له وحنكه[4].

بيئتـــه :

المقصود بالبيئة كما يقول علماء النفس : جميع العوامل الخارجية التي تؤثر في الشخص من بدء نموه ، كما أن المقصود من الوراثة جميع العوامل الموجودة في الكائن الحي من اللحظة التي تتم فيها عملية اللقاء بين الذكر والأنثى كما يذكر علماء الوراثة .

وبالتجارب الحديدة وجد أن البيئة المثالية للفرد هي البيئة التي تهيئ للوصول الى أحسن نمو ممكن في الحدود التي وضعتها العوامل الوراثية ..[5]

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢١٨ .
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٣٥٤ ، والمعارف لابن قتيبة ص ٤٤٠ .
(٣) مجلة الوعي الاسلامي العدد الثاني والتسعون ص ٢٧ من السنة الثامنة موضوع : نموذج من دعاة الصدر الأول " الحسن البصري " .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ٢٧٤ - مطبعة السعادة بمصر .
(٥) أسس الصحة النفسية للدكتور عبد العزيز القوصي ص ٢٦ - ٢٧ . الطبعة الثالثة .

والحسن البصري رحمه الله جمع بين هاتين الميزتين بالاضافة الى الفيض الالهي الذي أكرمه الله به ٠

فمن ناحية الوراثة نجد أن الله تعالى خلق الحسن في أحسن تقويم ولهذا يقول ابن سعد في الطبقات يصف الحسن من الناحية الخلقية " وكان الحسن ٠٠ فصيحا ٠ جميلا ٠ وسيما " ٠٠

وابن قتيبة في المعارف يقول : " وحدثني عبد الرحمن عن الأصمعي عن أبيه قال : ما رأيت أعرض زندا من الحسن كان عرضه شبرا " الى آخر ما قيل في ذلك ٠

أما عن البيئة فحدث عنها ولا حرج ٠ طفل ينشأ في أطهر أمكنة مع أرقى أناس من البشر بين أنظف ثقافة ظهرت وتظهر الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ٠ لا ريب أن هذه النشأة تكون لها قيمتها وخطورتها في المجتمع ٠ وهكذا نشأ الحسن البصري — حرا طليقا — في أطهر أمكنة على الأرض وهي المدينة المنورة مثوى المصطفى عليه الصلاة والسلام ٠ وذلك بعد أن مكث مدة من الزمن بعد ولادته في وادى القرى ينعم بهوائها الطلق ، وبعربيتها الخالصة ، وجوها الهادئ النقي ٠ مع أرقى أناس وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن على شاكلتهم بين أنظف ثقافته وهي المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ٠

وبيئة الحسن التي نتحدث عنها لها معنيان ٠ خاص ، وعام وسنوضح فيما يلي كلا من هذين المعنيين مع ذكر تأثر الحسن ببيئته ٠

بيئته الخاصة وتأثيرها فيه :

عاش الحسن البصري مع والده " يسار " الذي كان يعمل في الشئون الزراعية ٠ وهذا ما يدعو الانسان الى الاعتقاد بأنه قد تربى من مصدر حلال وهو سبب من أسباب البركة التي حلت فيه كذلك مع والدته " خيرة " التي كانت مولاة لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ٠ وتحكي بعض المراجع أن أمه ربما غابت في حاجة فيبكي الحسن الطفل ٠ حينئذ تعطيه أم سلمة رضي الله عنها ثديها تعلله به الى أن تجيء أمه وربما در عليه ثديها فشربه فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك ٠ (١)

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٣٥٢ والكواكب الدرية ص ٢١١ ٠

وكان أمه بسبب اتصالها بأزواج النبى صلى الله عليه وسلم على جانب من المعرفة وذلك لاتصالها بالبيئة العربية الخالصة فى ذلك الوقت وميلها الى ذكر القصص والوعظ حتى بعد أن رحلت الى البصرة . ولذلك أثرت فيه كثيرا حتى كان يروى الحسن عن أمه عن أم سلمة .. (١)

ولذا كان الحسن رحمه الله يعرف منها الكثير من شئون الدين ولا شك أن الأم لها تأثير كبير فى حياة ولدها . خاصة اذا ما أحسنت تنشئته . وصدق من قال :

الأم مدرسة اذا أعددتها ∴ أعددت شعبا طيب الأعراق

....

هذه هى البيئة الخاصة للحسن التى تنحصر فى والديه . وبسببهما تأثر الى حد كبير برسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم . لأن الحسن بالطبع حينما فتح عينيه على الحياة وجد والدين يؤديان الصلاة وشعائر الاسلام الأخرى فلاشك أبدا أن هذا الصغير يقلد أبويه فى كل ما يفعلانه . ينغرس فى قلبه حب الاسلام وتعاليم المصطفى عليه الصلاة والسلام وقد كان . وليس معنى هذا أن الحسن أخذ يتلقى تعاليم الاسلام من والديه فقط .. بل كان يعرف تعاليم السماء من خارج أسرته أيضا ولذا نتحدث فيما يلى عن بيئته العامة .

بيئته العامة وتأثيرها فيه :

واذا ذكرنا بيئته بالمعنى العام نجد أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على قمتها ، كيف لا وهم الذين رفعوا راية الاسلام ، وبذلوا فى سبيلها أعز ما يملكون من نفس ، ومال وأولاد ، وجاه .. والذين قال الله فى حقهم " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا .. " (٢)

وقال الرسول عليه السلام فيهم : " لا تسبوا أحدا من أصحابى فان أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه " (٣) .

قضى الحسن البصرى مرحلة الطفولة والصبا فى المدينة المنورة بين أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام . وأخذ يتردد على المسجد النبوى وفيه كان يرى ويسمع بعض الصحابة عليهم رضوان الله تعالى (٤) . ونتيجة لذلك . حفظ القرآن الكريم

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص ١١٤ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٢٢٨

(٢) سورة الفتح آية ٢٩ . (٣) رواه مسلم فى صحيحه جـ ٤ عن أبى سعيد الخدرى

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٢٢٨ .

والكثير من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم مع بعض أقوال الصحابة • وكان قد بلغ وهو بالمدينة الرابعة عشرة من عمره ساعده على ذلك المدة التى قضاها فى وادى القرى بين العرب الخلص • كما تعلم الكتابة وضبط الحساب مما أهله بعد ذلك أن يكون كاتبا للربيع بن زياد الحارثى والى خراسان وأحد فاتحيها لعمر بن الخطاب كما سنعرف ان شاء الله •

ولم يقتصر تردده على بيت الله تعالى لأخذ العلوم والمعارف المختلفة عن أصحاب النبى عليه السلام وهو فى شبابه • بل كان يتردد أيضا مع أمه فى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم • فكان يكتسب من هذا الفقه فى الدين كالمسجد ••

وفى المدينة المنورة شهد الحسن البصرى ما تواقع فيه المسلمون من فتن مثيرة أدت الى سفك الدماء • وذلك يتمثل فى قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان •

انطبعت هذه الصورة الدامية التى شهدها الحسن لمصرع الخليفة المقتول مما جعله ينفر دائما من الفتن مدة حياته • ومن يدرى لعل هذه الصورة البشعة هى التى غرزت فيه عاملى الخوف والحزن اللذين لازماه طوال عمره •

ومما يدل على شهوده مصرع الخليفة وهو بالمدينة ما رواه صاحب المنية والأمل وغيره : قال الحسن : كنت بالمدينة يوم قتل عثمان وكنت ابن أربع عشرة سنة •

كذلك سمع دعوة أبى ذر الغفارى رضى الله عنه الى توزيع أموال الأغنياء على الفقراء مما كان له الأثر الكبير فى تكوين شخصيته خاصة بعد أن انتقل من المدينة الى البصرة • (1)

وفى المدينة رأى — الحسن — وسمع الكثير من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مثل : الخليفة عثمان بن عفان ، وطلحة ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله ابن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وابن عباس •••

---

(1) المنية والأمل للمرتضى •
، تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام جـ ٤ ص٩٨ — ٩٩ •
، كتاب دول الاسلام جـ ١ ص٥٣ •
، تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٧١ للحافظ الذهبى •
، الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص ١٥٧ •

يقول الحافظ الذهبي : " وقد سمع من عثمان وهو يخطب وشهد يوم الدار ، ورأى طلحة وعليا ، وروى عن ابن عباس ، وابن عمر ، وجابر بن عبد الله وخلق كثير من الصحابة .. (١) .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما رواه الأشعث عن الحسن قال : ما خطب عثمان خطبة الى أمر بقتل الكلاب وذبح الحمام . وعن الحسن — أيضا — قال : سمعت عثمان بن عفان يقول : " اقتلوا الكلاب واذبحوا الحمام " (٢) .

كما يروى الحسن عن ابن عمر قوله : " لا تقتلوا الخفاش ، فانه استأذن فى البحر أن يأخذ من مائه فيطفى نار بيت المقدس حيث حرق ، ولا تقتلوا الضفادع فان نقيقها تسبيح " (٣) .

وهكذا ظل الحسن البصري يتلقى من المعرفة الاسلامية فى المدينة على قدر ما وهبه الله من الفهم فى هذه السن المبكرة . كما أنه قد وعى ما وقعت عليه عيناه من الأحداث الجسام مما أثر فى نفسه ، ولم ينساه قلبه .

---

(١) تاريخ الاسلام للذهبي ج ٤ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ .
(٢) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٢٩٣ .
(٣) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٥٣٨ .

(انتقال الحسن وأسرته الى البصرة)

انتقل الحسن مع أسرته الى البصرة سنة ٣٦ هـ في ولاية عثمان بن حنيف من قبل علي بن أبي طالب كاملة عن الحياة في المدينة . وهذا الانتقال كان لاعتبارات متعددة كالحنين الى الوطن . لأن أسرته — كما عرفنا — جاءت من البصرة مع السبي . وخروج الامام علي من المدينة ، والتكسب الى غير ذلك ... ومنطقة العراق في هذا الوقت كانت مركزا للجدل والمناقشات ، كما كانت موطنا لمدنيات قديمة . كان السريان قد انتشروا فيها ، وأنشئوا لهم مدارس قبل الاسلام ، وكانوا يدرسون فيها الآداب اليونانية ، وكان في العراق قبل الاسلام مذاهب نصرانية تتجادل في كثير من العقائد .. وكان في الحيرة يونان مثقفون ، كما كان العراق في الاسلام ميدانا للفتن والحروب والتناحر المذهبي بين الشيعة والخوارج ...

في ذلك المزدحم من الأفكار ، والمضطرب الفسيح من الآراء ، وفي ذلك المزيج من النحل والأهواء اكتملت للحسن رجولته . والنفس القوية تستخلص غذاءها الروحي من كل الأفكار ، كالرجل القوي يستخلص من حسك السعدان ومن وسط القتاد غذاء المادي ، فلا عجب اذا تغذت نفس الحسن من هذه الأفكار — المتضاربة والآراء المتناحرة ، واستخلصت من بينها ما ينميها ويقويها . والنفس القوية تستفيد من باطل الآراء كما تستفيد من صحيحها اذا عرفت ما في الباطل من دخل وما في ثناياه من خطل ، فيكون ادراكها للحق على بينة ويقين ، وليس قويا في نفسه ذلك الذي يتحير في وسط الشبهات ومتنازع الأهواء والأفكار ، ولكن القوي في نفسه هو الذي يتخير مذهبه الحق وسط أعاصير الأهواء ، فلا يتطرق الشك الى قلبه ، ولا يرد الاضطراب الى نفسه بل لا يزيده اضطراب الآراء الا يقينا ولا اتساع الافكار الا تثبيتا .

خصوصا وأن المناهج العلمية في عهده أخذت تتميز ، فكان فقه العراق وعلى رأسه عبد الله بن مسعود ، ثم علقمة وابراهيم النخعي ، وحماد بن أبي سليمان ، وعلى مائدة هؤلاء تربى أبو حنيفة النعمان . وفي المدينة كان الفقه الحجازي وعلى رأسه عبد الله بن عمر ، وسعيد بن المسيب ، ونافع مولى عبد الله بن عمر وابن شهاب الزهري . ومن مائدتهم تغذى الامام مالك رضي الله عنهم جميعا وهكذا أخذت المدارس الفقهية تتبين مناهجها في عصر الحسن وكلها يلتمس ينبوعه من علم الرسول عليه الصلاة والسلام وما نقله صحابته والاختلاف انما هو في المنهج والتخريج .

معنى هذا أن صاحب النفس القوية الحسن كان كالشجر الثابت يأخذ من الريح العاصف غذاءه ولا يصاب بدائه ..

واستطاع الحسن — رحمه الله — فى معتلج الآراء ، ومضطرب المذاهب أن يتخذ له مذهبا يدين به فى الدين آمن به حق الايمان وأذعن له حق الاذعان ، وكان كالطود الأشم تصطدم به الرياح ، فتتبدد حوله ، وهو جاثم فى مكانه ، يستخلص من تلك الفتن ما يدعم حجته وينير محجته ، ويقوى به دعوته ويثبت ما رآه فى الدين حقا ، وفى أخلاق الناس منارا [1] . وقد عرفنا فيما سبق الحياة عامة فى البصرة كما رآها الحسن البصرى .

وفيما يلى نتعرف على حياته فى البصرة وكيف عاشها حتى نعرف قيمة الرجل ، وأنه لم يكن منساقا فى تيارات البصرة المختلفة . بل صمد أمامها واستطاع بفضل الله تعالى أن يحدث أثرا كبيرا فى عصره وبيئته .

---

(١) من تاريخ الجدل حسن البصرى للشيخ محمد أبو زهرة .
وهذا الكتاب عبارة عن محاضرات ألقاها فضيلته بمعهد الدراسات الاسلامية بالقاهرة سنة ١٩٦٩ .

حياته الأسرية واليوميـــة :

ان أخلاق الانسان دائما تظهر أجلى ما تكون على حقيقتها فى بيته وأهله . فكثيرا ما يمثل فى مجتمعه ما لا يعتقده ولا يفعله . ومن أجل هذا يوصى المصطفى صلى الله عليه وسلم أصحابه وأمته فيقول : "خياركم خياركم لنسائكم" كما رواه ابن ماجه مرفوعا عن عبد الله بن عمرو ، والحسن كان من هذا الطراز الرفيع الذى أحسن العشرة مع أهلـــه .

تزوج الحسن من أصل غير عربى كما هو متبع فى هذا الوقت من عدم تزويـــج العربية من غير العربى . وقد حدث لابن عون تلميذ الحسن البصرى أذى من قاضى البصرة بلال بن أبى بردة حينما أراد أن يشذ عن هذه القاعدة المتفق عليها .

حتى أننا نجد الحسن حينما كان يحدث بينه وبين زوجته عراك يقول لها : يا علجة . ومعناها نفى كونها عربية . ويظهر من ذلك أن زوجته هذه لم تكن على مستوى الزوجية للحسن لأنها كثيرا ما كانت تصطدم به فى منهاج حياته .(١)

ورزق الحسن بولدين سعيد وبه كان يكنى وعبد الله كما رزق بنتا . وتقـــول بعض المصادر تصف معاملة الحسن لزوج ابنته حينما يزوره قائلا : "مرحبا بمن كفى المؤنة وستر العورة — ثم يتنحى له عن مكانه تكريما له . (٢)

وولد للحسن غلام فقال له بعض جلسائه : بارك الله لك فى هبته ، وزادك من أحسن نعمته ، فقال الحسن : الحمد لله على كل حسنة ، ونسأل الله الزيـــادة فى كل نعمة ، ولا مرحبا بمن ان كنت عائلا أنصبنى ، وان كنت غنيا أذهلنى ، لا أرضا بسعى له سعيا ، ولا بكدى له فى الحياة كدا ، حتى أشفق له من الفاقـــة بعـــد وفاتى وأنا فى حال لا يصل الى من غمه حزن ولا من فرحه سرور .. (٣)

فى الرد السابق للحسن على الذين هنـــؤه بمولـــوده الجديد نلمح ما يأتى :

أولا : أنه حمد الله سبحانه وتعالى على كل حسنة . ولا شك أن الولد حســـنة من الحسنات . يقول تعالى : "ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار" (٤) . ولو أن الحسن — رحمه الله — فسر حسنة الدنيا هنـــا

---

(١) ، (٢) لسان العرب لابن منظور مادة "طبع" ، وتهذيب ابن عســـاكر ج ٣ ص ٣١٩ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ج٧ ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة الجزء السابع ص ٩٨ . مطبوعات النجاح بالقاهرة ، والبيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ١٤٧ . (٤) سورة البقرة آية ٢٠١ .

بالعلم والعبادة . الا أن القرطبى قال : " والذى عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين نعم الدنيا والآخرة . وهذا هو الصحيح ، فان اللفظ يقتضى هذا كله ، فان " حسنة " نكرة فى سياق الدعاء " ، فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البدل . وحسنة الآخرة الجنة باجماع . وقيل : لم يرد حسنة واحدة ، بل أراد : أعطنا فى الدنيا عطية حسنة ، فحذف الاسم "(١) .

كذلك سأله الزيادة فى كل نعمة . يقول تعالى : " وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها .. "(٢) .

وهذا شأن المؤمن الصادق لا يطلب الا من ربه عز وجل . فبيده مقاليد الأمور .

وكأن الحسن — أعزه الله — يريد أن يقول لهم : اذا كنتم تهنئوننى على هبة هذا الغلام وتسألون الله البركة فيه فأنا أحمد الله على كل حسنة . لأنها عند الله تعالى فشكرا له على ما أعطى . وقد عرفنا معنى الحسنة سابقا .

واذا كنتم تسألون المزيد من أحسن نعمته فنسأل الله لزيادة فى كل نعمة لا نعمة الولد فقط كما قال تعالى — سابقا — وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها .

ثانيا : بين الحسن كيف يرحب بانسان يكون دائما مصدر انشغاله عن الله تعالى . ففى حالة الفقر يجهد نفسه ليهيئ له سبل الحياة كما يريد فيتسبب هذا فى تعبه ومشقته وفى حالة الغنى يكون الذهول بالمتاع الفانى عن المتاع الباقى الذى لا ينفد أبدا .

كما يبين الحسن — رحمه الله — أن انشغال الانسان بولده يجعل السعى كله وكذلك الكد لهذا الولد لأنه يخشى عليه الفاقة بعد الوفاة . ثم يبين أنه فى حال استراحت فيها نفسه وتفرغت لله تعالى لأنه لا يصل اليه من غمه حزن ولا من فرحه سرور .

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .
(٢) سورة النحل آية ١٨

ثالثا : لا يصح أن نفهم من كلام الحسن هذا أنه يكره الأولاد والا لما تزوج وأنجب ولكن مركزه فى المجتمع الذى عاش فيه ، وهدفه السامى الكبير وهو تحويل سير مجرى الأمة الى الله تعالى جعله يريد التفرغ كلية لهذا العمل الضخم . ويرى فى الأولاد — أو بمعنى أدق الغلو فى حب الأولاد والانشغال بهم — سببا فى اعاقة هذا العمل المطلوب .

وقريب من هذا قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله .. "(١) ، " يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم .. الى قوله : انما أموالكم وأولادكم فتنة .. "(٢) والواقع الذى نعيش فيه يؤيد ما ذكرناه الا من عصم الله تعالى .

وكان الحسن — رحمه الله — فى حياته المعيشية كثير الشبه بأصحاب المصطفى صلى الله عليه وسلم . فكان يعيش مع أسرته عيش من ينتظر النعيم الدائم يوم القيامة . واذا أخذ العطاء من الدولة الذى لا يفهم منه معنى الأجر حجز لأسرته ما يسد الرمق الضرورى ، ويستر العورة ويوزع الباقى على الفقراء والمحتاجين (٣) .

وكان منزله ومايحتويه يقى فقط من برد الشتاء وحر الصيف — غالبا — وفى منتهى البساطة من حيث المبنى وما فيه من الأدوات التى تذكرك بما كان عليه المصطفى عليه الصلاة والسلام . فقد قال عبد الله بن عمر : مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا ، فقال : ما هذا ؟ قلنا خص لنا قد وهى فقال : أرى الأمر أعجل من ذلك . (٤)

حتى نجد الحسن نفسه يقول : كنت اذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت بيدى الى السقف . (٥)

ولا عجب فى ذلك فقد أجبر الحسن دولة بنى أمية على احترامه ومخاطبة وده ، وأصبح الى يومنا هذا الانسان الذى يتطلع اليه كل من أراد عز الدارين .

---

(١) سورة المنافقون آية ٩ .
(٢) سورة التغابن آية ١٤ — ١٥ .
(٣) تاريخ الاسلام للذهبى ج ٤ ص ١٠٠ ، وأمالى المرتضى ج ١ ص ١١٠ وما بعدها ، والطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٢٥ .
(٤) رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى وصححه .
(٥) الاحياء للغزالى ج ٤ ص ٢٣٦ .

وقد بلغ من عظمة الحسن أنه كان يلتزم أسرته بهذا الخلق الرفيع ويحطهم عليه بحكمة يندر وجودها أسوة بمن سبقه — خاصة عمر بن الخطاب — متمثلا قول الله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة "(١) . يذكر حميد الطويل عنه قال : خطب رجل الى الحسن ابنته ، وكنت السفير بينهما فرضيه ، وأراد أن يزوجه فأثنيت عليه ذات يوم وقلت : وأزيدك يا أبا سعيد أن له خمسين ألفا ، قال : أقلت له خمسون ألفا .. ما اجتمعت من حلال — قلت : أأبا سعيد ، انه والله ما علمت لورع مسلم ، فقال : ان كان جمعها من حلال ، لقد ضن بها على حق .. لا يجرى بيني وبينه صهر أبدا .(٢)

وقضى الحسن — رحمه الله — معظم حياته بين بيته المتواضع — كما عرفنا — الذى وصفه تلميذه مطر : " دخلنا على الحسن نعوده فما كان فى البيت شئ ، لا فراش ولا بساط ولا حصير الا سرير مرموك عليه "(٣) .

وكان كثير التردد على المسجد يؤدى ما عليه نحو الله تعالى من عبادات وتقرب اليه سبحانه ونحو نفسه من تعليم وتهذيب على يدى أصحاب رسول الله ، ونحو الناس الذين كان يعيش بينهم خاصة وأن المنطقة التى كان يعيش فيها ليست بالمستوى العالى كما يحب بعض الناس أن يسكن وانما كانت منطقة الفقراء والمحتاجين وكثيرا ما يطلبون منه الضروريات فلا يتقاعس أبدا ولا يحتقرهم بل كان يعمل على قضاء حوائجهم . كما كان يعلمهم ويهذبهم .

وكان — رضى الله عنه — يفهم معنى الجوار ويعمل به ولو كان هذا الجار على غير الاسلام وبالفعل كان له جار يهودى كثيرا ما يحسن صلته .(٤)

ولم يقتصر اشرافه على أسرته بل فى معظم الأحوال نراه مشرفا ومساعدا لأسرة أخيه سعيد الذى مات قبله(٥) .

ومن عاداته فى حياته اليومية أنه كان يستريح وقت القيلولة ليستعين بهذه الراحة على القيام بالليل(٦) مقتديا بقول النبى صلى الله عليه وسلم " قيلوا فان الشياطين لا تقيل "(٧) .

---

(١) سورة التحريم آية رقم ٦

(٢) أمالى المرتضى القسم الأول ص ١٦٢ ومحاضرات الراغب الأصفهانى ج ١ ص ١٥٤ .

(٣) تاريخ الاسلام للذهبى ج ٤ ص ١٠٤ .

(٤) أمالى المرتضى ج ١ ص ١١١ ، وتاريخ الاسلام للذهبى ج ٤ ص ١٠٣ .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٢٨ .

(٦) محاضرات الراغب الاصفهانى ج ١ ص ١٥٤ . (٧) أخرجه الطبرانى عن أنس مرفوعا .

وكان للحسن — رحمه الله — مجلسان أحدهما فى المسجد عاما لكل من يريد التفقه فى دينه فاسحا صدره لجميع الأسئلة التى توجه اليه . ولم يكن فى مجلسه هذا مستبدا برأيه لا يدع الكلام لغيره بل على العكس كان متواضعا فى ذلك مما جعل تلميذه واصل بن عطاء يرد على سؤال مرتكب الكبيرة الذى وجه الى الحسن قبل أن يجيب الحسن مما حمله أن يقول : اعتزلنا واصل (١) .

وتطور مجلس الحسن هذا فى المسجد لدرجة أنه كان عبارة عن المقياس الذى توزن به درجة الثقافة الاسلامية فى هذا الوقت . وخير تعبير له — فى نظرى — ما قاله الدكتور حموده غرابه : بعد أن تحدث عن الفرق المختلفة التى ظهرت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من خوارج وشيعة على مختلف أنواعها : قدرية وجهمية ... قال : فزاد ذلك من حدة الجدال بين المسلمين ثم كان أن التقت هذه التيارات جميعا عند رجل له مكانة فى تاريخ الاسلام العقلى وهو الحسن البصرى (٢) . وثانى المجلسين فى بيته مع بعض أصفيائه من أهل الزهد والورع وكان يعنى بهم عناية خاصة حتى أن أهله كانوا يملون منهم لطول ما يجلسون معه . ولكن سرعان ما يبين لأهله أهميتهم وحبه لهم فيصرفون النظر عنهم ..

هذا المجلس بالمنزل كان جل الحديث فيه عن الرقاق (٣) .

وان سأله أحد من الناس عن هذه الجلسة المنزلية التى يتحدث فيها عن الزهد والنسك مع اخوانه قال : "انما خلونا مع اخواننا نتذاكر" . كما كان دائما عليه رحمة الله يختتم مجلسه بهذا الدعاء : "اللهم برئ قلوبنا من الشرك والكبر والنفاق والرياء والسمعة والريبة والشك فى دينك يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك واجعل ديننا الاسلام القيم" (٤)

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٤٨ .
(٢) الأشعرى أبو الحسن للدكتور حمودة غرابة ص ٣٧ — الطبعة الأولى .
(٣) الطبقات لابن سعد المجلد السابع . والمراد بالرقاق يبينه ما قاله ابن الجوزى فى صيد الخاطر "رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث . لا يكاد يكفى فى صلاح القلب ، الا أن يمزج بالرقاق . والنظر فى سير السلف الصالحين . فأما مجرد العلم بالحلال والحرام ، فليس له كبير عمل . فى رقة القلب وانما ترق القلوب بذكر رقائق الأحاديث وأخبار السلف الصالحين .
(٤) تاريخ الاسلام للذهبى ج ٤ ص ١٠٥ وما بعدها .
والطبقات لابن سعد ج ٧ . ، وتفسير الطبرى ج ١ ص ١٧٦ — ١٧٧ .

اشتراكه فى الفتوحات ورجوعه الى البصرة :

لم تكن كل حياة الحسن فى البصرة فقط بل كان يرتحل عنها كلما سنحت له الفرصة لأداء واجب من الواجبات كتأدية فريضة الحج والمساهمة فى الفتوحات الاسلامية .. فقد ثبت اشتراكه فى الفتوحات الشرقية مع الأحنف بن قيس أيام معاوية بن أبى سفيان .

وقد مكث الحسن مع عبد الرحمن بن سمرة فى غزو كابل والاندقان والأندغان وزابلستان قرابة ثلاث سنين . وقد ولى عبد الرحمن سجستان سنة ٤٣ هـ كما خرج معه أشراف الناس مثل : عبد الله بن خازم وقطرى بن الفجاءة والمهلب وغيرهم . وشهد الحسن معه حصار كابل وفتحها وأعجب بشجاعة عباد بن الحصين حتى كان يقول : ما ظننت رجلا له مقام ألف حتى رأيت عباد بن الحصين ، وذكر الحسن أنهم فى احدى هذه الغزوات كانوا يأكلون لحوم الخيل (١) .

وفى سنة ٥١ هـ استعمل الربيع بن زياد على خراسان فذهب الحسن البصرى معه كاتبا له كما ذكرنا سابقا (٢) .

واشتراكه فى هذه الغزوات أتاح له فرصة طيبة أبرزها أنه تعرف على حياة الحرب كما عرف حياة السلم . والمراجع لم تذكر لنا بالتفصيل ما هو دور الحسن البصرى فى تلك الحروب ؟ وغالب الظن أن الحسن كان اماما للكتائب المسلمة يؤمهم فى الصلاة ، ويحثهم على الجهاد ... وهذا ما يشبه فى أيامنا هذه بالتوجيه المعنوى . ولا شك أبدا أنه لو أحسن سير التوجيه المعنوى الى ما يرضى الله تعالى لتحركت كتائب الايمان فى قوة وشجاعة وثقة فى النصر باذن الله .

وفى هذه الغزوات أيضا قابل الكثير من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والفقهاء والشعراء .. أمثال : عبد الرحمن بن سمرة ، والأحنف بن قيس ، وقطرى ابن الفجاءة الخ ... وكان شجاعا فى هذه الحروب كما ذكر تلامذته كذلك استفاد من هذه الفتوحات معرفته الأكيدة بقيمة العلم فى المجتمع خاصة الأجناس غير العربية التى كانت تجد من بعض العرب احتقارا .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥ ، والمعارف لابن قتيبة ص ١٨٢ ، وسنن البيهقى ج ٩ ص ٣٢٧ وما بعدها ، والحسن البصرى للدكتور احسان عباس .

(٢) تاريخ الاسلام للذهبى ج ٣ ص ٩٩ .

قال الأحنف بن قيس — رحمه الله — : " كاد العلماء أن يكونوا أربابا وكل عز لم يوطد بعلم فالى ذل مصيره " ، وقال سالم بن أبى الجعد : اشترانى مولاى بثلاثمائة درهم وأعتقنى ، فقلت بأى شىء أحترف ؟ فاحترفت بالعلم فما تمت لى سنة حتى أتانى أمير المدينة زائرا فلم آذن له " ، وقال بعض الحكماء : اذا مات العالم بكاه الحوت فى الماء والطير فى الهواء ، ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره واذا كان مقتل عثمان قد أثر فيه قبل ذلك فمساهمته فى الفتوحات أثرت فيه أيضا (١) .

وبعد هذه الفترة التى قضاها الحسن فى الفتوحات رجع الى البصرة وقد عزم فى نفسه على تخليص المجتمع مما لحق به من فساد ينخر فيه ، وانهماك فى الدنيا كاد يؤدى الى كارثة فى الدين . ولكن هل وجد الطريق أمامه مفروشا بالزهور والرياحين أم بالأشواك ؟ هذا ما نود أن نعرفه فيما يلى والله المستعان .

موقف الحسن من اشتراكه فى الفتوحات والعودة الى حلقة المسجد :

عرفنا فيما سبق أن الحسن استفاد من اشتراكه فى الفتوحات وعاد منها الى مسجد البصرة بنفس جديدة وهمة عالية للوصول الى الهدف المنشود الذى رسمه لنفسه .

ويبدأ عمله هذا بحلقات مسجد البصرة الجامع حيث التزود بالثقافات الدينية المختلفة التى اتجهت اليها نفسه وكانت من أهم الأسباب القوية المكونة لشخصيته .

ويحاول الدكتور احسان النص تعليل هذا الاقبال من الحسن بعد رجوعه من الفتوحات بقوله : " ولعل الحسن قد أصيب بخيبة أمل فى هذه الغزوات حين لمس الاجحاف الذى كان يلقاه الموالى أمثاله من جانب العرب أصحاب السيادة ، فأدرك أن مكانه الصحيح ليس فى هذه الفتوح وانما هناك فى حلقات مسجد البصرة ، وقد صح عزمه على أن يسلك الاتجاه الوحيد الذى تطمئن اليه نفسه ويرضى مزاجه الدينى

---

(١) احياء علوم الدين للغزالى ج ١ ص ٨ ، ، ،
وتاريخ الاسلام للذهبى ج ٣ ص ٩٩ .

والذى سلكه كثير من الموالى أملا فى أن يعوضوا به عن الضعة التى لحقتهم من جراء انتمائهم الى العناصر غير العربية " .(١)

هذا التعليل من جانب الدكتور النص لا أوافق عليه لماذا ؟

لأن الحسن البصرى — عليه رحمة الله — يعلم قيمة الجهاد فى سبيل الله ومبلغ عظمة الشهادة فى سبيلة . وهو الذى أخذ على نفسه العهد دائما أن يعمل بما يقول . فكيف يصاب بخيبة أمل فى هذه الغزوات مهما لمس الاجحاف الذى يلقاه الموالى أمثاله .. ولو صح هذا لما وصل الحسن الى القمة فى نظر الأمة كلها . ولكن بماذا نعلل ما حدث ؟ .

الحق أقول : ان الحسن — رحمه الله — بثاقب فكره ، وضوء حكمته ، وتمام اخلاصه لله تعالى . وجد أن الوقوف أمام أعداء الله تعالى لا يقتصر على الحرب فى ميدان القتال فقط . ولكن لابد من جيوش متعددة لاحراز النصر جيش لميدان القتال ، وجيش للعمل الدائم لتجهيز ما يحتاجه الواقف أمام العدو من طعام وشراب وثياب ومعدات .. ، وجيش لمحاربة الشائعات واحباط المؤامرات التى ترمى الى ضعف الروح المعنوية التى لولاها لما انتصر .. جيش أبدا . والدليل على ذلك التاريخ والواقع . فنحن مثلا فى معركتنا مع العدو الاسرائيلى ومن يسانده ، حينما أصبنا بنكسة فاضحة لم يكن عددنا قليلا أو عدتنا ضعيفة . وانما كنا فى أشد الحاجة الى هذه الروح العالية التى تنساب فى دماء الجنود فيصبحون بهذا كما يقول البعض " رهبانا بالليل فرسانا بالنهار " ومن الذى يبعث فى هؤلاء الجنود بل فى الأمة كلها هذه الروح العالية سوى الدعاة الى الله المخلصين الذين تربوا على مائدة القرآن الكريم ، وهدى الرسول العظيم . فاذا نظرنا بعمق لوجدنا أن من أهم الجيوش هذا الذى يحارب الأفكار الخبيثة ، والآراء الوضيعة .. هذا بالاضافة الى أن الحسن كان يميل بحكم نشأته وتربيته الى العلم والمعرفة . فالحسن البصرى اختار أشق الأعمال فى الحفاظ على الأمة الاسلامية ومن غير الحسن يصلح فى هذا الوقت — وخاصة فى البصرة — لتلك المهمة الكبيرة ؟ . ولا يمنع هذا من اطمئنانه لنفسه فى هذا الطريق الذى سلكه .. وكأنى بالحسن — رحمة الله عليه — باشتراكه فى الفتوحات الاسلامية أراد أن يضرب المثل للأمة فى الجهاد لنشر الدعوة المحمدية وبأن العلماء الحاملين لكتاب الله وسنة رسوله لا يقتصرون على القول بل يقولون ويفعلون . وهذا هو السر فى استجابة الناس له وطاعتهم اياه .. وهذا

(١) الخطابة العربية فى عصرها الذهبى للدكتور احسان النص ص ٣٤٢ — ط ثانية — دار المعارف .

الرد من الممكن أن يرد به أيضا على رأى الدكتور احسان عباس فى كتابه عن "الحسن البصري" لأنه ذكر رأيا يوافق كلام الدكتور النص السابق .

وبالنسبة لاحتقار الموالى من العرب . فالرد على ذلك من وجهين :

الوجه الأول :

أن نزعة العداء والاحتقار التى كانت تظهر ـ أحيانا ـ من العرب نحو العناصر الأعجمية لم تكن سائدة بين الأوساط الدينية والعلمية ، فالرجل الذى كان يعرف من الموالى بصلاحه وتقواه أو بعلمه وأدبه كان ينال من جمهرة الشعب ومن الطبقة الحاكمة كل احترام وتقدير . ويكفى أنه لما توفى امامنا "الحسن البصري" خرجت البصرة كلها تشيع جنازته حتى تعطلت صلاة العصر لأول مرة بمسجدها الجامع الى غير ذلك مما هو مبسوط فى تراجم العلماء والصالحين من الموالى . ولعل هذا كما يقول الدكتور محمد الطيب النجار مما يزيل التناقض الذى يبدو فى الكتب القديمة من أخبار تدل على احتقار الموالى فى تلك الحقبة من الزمن . وأخبار أخرى تدل على احترامهم (١) .

والوجه الثانى :

أن كثيرا من الموالى كانت تبدر منهم بوادر تبعث الشكوك والهواجس فى نفوس الحكام الأمويين . اذا كانوا يريدون من بعضهم خروجا عن المبادئ الاسلامية ومحاولة للانتكاس والرجوع الى دياناتهم القديمة .

وكانوا يرون من البعض الآخر نزعات قومية تميل الى القضاء على السيادة العربية وتتلمس الفرص لذلك . وطالما أقضوا مضاجع الأمويين بالدعايات السرية والثورات المتعاقبة فأضاف الى سلوكهم هذا عاملا جديدا الى العامل الأصيل فى كراهية الموالى ، واحتقارهم وهو العصبية العربية ، وكان الأمويون من أجل هذا وذاك يقابلون العدوان بمثله أو أكثر ، وتبعا لهذا كانت تنحدر منزلة الموالى وتسوء حالتهم ، ويلاقون من العرب ألوانا مختلفة من العنت والازدراء (٢) .

نظر الحسن الى مجتمعه ليحدد طريقه فى كيفية ربطه بالله تعالى بعد أن شذ الكثير منه عن الطريق السوى .

---

(١) ، (٢) الموالى فى العصر الأموى للدكتور محمد الطيب النجار ، الطبعة الأولى ـ دار النيل للطباعة .

حينئذ وجد المجتمع يبرز فيه صنفان من الناس غالبا . صنف أقبلت عليه الدنيا بزينتها فأقبل هو الآخر عليها ، وأخذ منها بالنصيب الوافر ، وصدق الله العظيم اذ يقول : " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب "(١) . ومن العجيب أن هذا الصنف من الناس الذى أخذ كل هذه النعم نسى المنعم تبارك وتعالى وأصبحت حياته مادية بحتة حتى أخلد الى الأرض واتبع هواه ..

وفى مقابل هؤلاء الغارقين فى بحار المادية الزائلة وجد صنف آخر قليلا فى عدده وكثيرا فى معانيه . قال تعالى : "وقليل من عبادى الشكور "(٢) . هذا الصنف عبارة عن فئة استطاعت بفضل الله جل وعز أن تقاوم هذا الاغراء وسلكت فى حياتها مسلكا يتفق مع المثل الأعلى الذى تسمى الى تحقيقه . هؤلاء سموا " بالزهاد " فقام فريق منهم يقف فى وجه هذا التيار المادى الجارف والعمل على تعويق هذا الاقبال الشنيع على الملذات الفانية والمتع الدنيوية الزائلة .
وبالطبع كان من هؤلاء الزهاد من تغالى فى زهده لدرجة تبعدهم عن سماحة الاسلام وجوهره الأصيل الصالح لكل زمان ومكان . وبين هذه الأمواج المتلاطمة يقوم شيخ البصرة الكبير " الحسن البصرى " بدعوته المعتدلة الى الزهد الحقيقى . وسرعان ما وصل النداء من هذا الواعظ الشاب الى القلوب فهزها والى العقول فخاطبها والى الأرواح فغذاها حتى أصبحت حلقة صاحب العمامة السوداء لا تدانيها حلقة . وطارت شهرة الحسن فى البصرة وغيرها حتى عقدوا جميعا له لواء الحكمة والمعرفة .

ومن الأدلة على ذلك حينما سئل الصحابى الجليل خادم المصطفى صلى الله عليه وسلم أنس بن مالك رضى الله عنه عن مسألة قال : " سلوا مولانا الحسن .. انا سمعنا وسمع فحفظ ونسينا "(٣) . وهذا أنموذج كمثال لدعوته الى الزهد فى هذا المقام وسنعرف الكثير من هذا اللون وغيره فيما بعد باذن الله .

قال هشام بن حسان : " سمعت الحسن يقول : " والله ما أحد من الناس

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٤ .
(٢) سورة سبأ آية رقم ١٣ .
(٣) الطبقات لابن سعد ج ٧ ص ١٢٨ .

يسط له فى أمر من أمور دنياه ، فلم يخف أن يكون ذلك مكرا به واستدراجا له الا نقص ذلك من عمله ودينه وعقله . ولا أحد أمسك الله الدنيا عنه ، ولم ير أن ذلك خيرا له الا نقص من عمله وبان العجز فى رأيه . وكان يقول : ما عجبت من شئ كعجبى من رجل لا يحسب حب الدنيا من الكبائر ، وأيم الله إن حبها لمن أكبر الكبائر وهل تشعبت الكبائر الا من أجلها ؟ وهل عبدت الأصنام ، وعصى الرحمن الا لحب الدنيا وايثارها ؟ .. (١)

وفى مسجد البصرة التقى الحسن البصرى بالكثير من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وذلك كأنس بن مالك خادم النبى عليه السلام ، ومعقل بن يسار المزنى ، وعياض ابن حماد التميمى ، وأبى عثمان النهدى وغيرهم .

وسنعرف ان شاء الله أمثلة متعددة من مرويات الحسن عن هؤلاء عند الكلام على شيوخه .

كذلك من التابعين أخذ عن الكثير كصلة بن أشيم ، وعامر بن عبد القيس التميمى ، وصفوان بن محرز وغير هؤلاء من الأئمة الأعلام (٢) .

---

(١) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٣٧ — ٣٨ . تحقيق الأستاذ حسن السندوبى — تحت عنوان عام : الرسائل النادرة .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص ٧٤ — ٧٥ ، وتهذيب ابن عساكر جـ٧ ص ١٦٦ .

موقف الحسن من الحجاج (١) :

تولى الحجاج بن يوسف الثقفى ولاية العراق ما بين عام ٧٥ ، ٩٥ هـ . من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان . بعد أن استشرى الفساد فيها : فسار من المدينة الى الكوفة ثم الى البصرة . وفى الكوفة والبصرة أخذ الحجاج يخطب بخطب قوية — وكان فصيحا بليغا — يتوعد فيها القوم ويلحق الوعيد بالفعل . يصف الحسن البصرى مقدمه فيقول : " أتانا أعيمش أخيفش له جميمة يرجلها وأخرج الينا بنانا قصارا ، والله ما عرق فيها عنان فى سبيل الله فقال : بايعونى فبايعناه ، ثم رقى هذه الأعواد ينظر الينا بالتصغير . وننظر اليه بالتعظيم ، يأمرنا بالمعروف ويجتنبه ، وينهانا عن المنكر ويرتكبه " (٢) .

ويضيق المقام عن ذكر الأخبار التى تدل على شدته وأخذه الناس بالقسوة ويكفى أن نصرف أخباره عن نفسه كما يقول المسعودى : ان أعظم لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ، ولا سبق اليها سواه (٣) .

فماذا كان موقف الحسن رضى الله عنه من الحجاج ؟
والجواب على ذلك كان موقف الحسن منه موقف الناصح الأمين الذى لا يبخل بالنصيحة مهما كانت الظروف والأحوال ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة .. علما بأن الحسن لو أراد الفتوى صراحة ضد الحجاج لشبت ثورة عارمة فى البصرة لا يعلم مصيرها الا الله تعالى . ولهذا كان يرمز الى المخرج من هذه المحنة التى خلقها الحجاج أو خلقها الظرف السياسى يوم ذاك على الأصح فكان يندد — رحمه الله — بنوازع النفوس ويكشف عن الأعمال التى انحط اليها الناس وكأنه يريد بذلك أن يوضح لهم أن العلة انما هى فى أنفسهم وأن الله عز وجل ابتلاهم بسوء أعمالهم وكأنه يشير الى قول الله العلى القدير : ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (٤) .

---

(١) الحجاج هو : الحجاج بن يوسف ، كنيته أبو محمد ينتهى نسبه الى ثقيف الذى سميت القبيلة باسمه . ولد سنة ٤١ هـ ومات سنة ٩٥ هـ (٧١٣م) . وتولى ولاية العراق عام ٧٥ هـ الى أن توفى . نشأ بمدينة الطائف ومات بمدينة واسط . ولشدة ما اشتهر عنه من القسوة والجبروت — سواء كان بحق أو بغير حق — نال الناس منه ومن أبيه وأمه بسببه ...
(٢) الأمالى للمرتضى ج ١ ص ١٠٧ — ١٠٨ .
(٣) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ١٣٠ — ١٣٢ .
(٤) سورة الرعد آية رقم ١١ ...

كان الحسن كثيرا ما ينصح الحجاج تارة عن طريق التصريح وأخرى عن طريق التلميح ، كما كان يعرض بالحجاج فى خطبه منكرا عليه نفاقه ومخالفة قوله لعمله فيقول : " مازال النفاق مقموعا حتى عم هذا عمامة وقلد سيفا " ، ويقول أيضا : " يتلو كتاب الله على لخم وجذام ، ويعظ وعظ الأزارقة ، ويبطش بطش الجبارين " ، ويقول : " اتقوا الله فان عند الله حجاجين كثيرا "(١) .

وعند الكلام عن منهج الحسن فى الدعوة الى الله تعالى سنعرف الكثير والله الموفق .

وبجوار هذا نرى فصاحة الحجاج وبلاغته ، وذكاءه ، وصدق فراسته ..
قال عبد الله بن ظبيان الذى قتل مصعب بن الزبير : كنت يوما واقفا على باب الحجاج ، فاذا به قد خرج وحده ، وليس بالباب أحد ،فوقع فى نفسى أن أقتله فنظر الى وقال : هل لقيت يزيد بن أبى مسلم — كاتب الحجاج — ؟ قلت : لا ، قال : ألقه فانى وليته على الرى مده . فطمعت وكففت عنه ، وتوجهت الى يزيد ، فلم أجد عنده شيئا ففهمت أن الحجاج قال لى ذلك ليشغلنى عما أردته به .

وكان سخيا بالمال لتأليف القلوب ، وكان على جانب كبير من البراعة فى الخلاص من المآزق . هذا الى جدته وصرامته ، وقلة ضحكه ..(٢) وفوق كل هذا علمه بالقرآن الكريم ولغته .

وغالب الظن أن الحسن بسبب هذا الجانب فى الحجاج من جهة . ومن جهة أخرى كرهه الطبيعى فى الخروج على الدولة لاعتقاده أن هذا يكون سببا فى خرابها أكثر من عمرانها — غالبا — والتاريخ يؤيد ذلك ...

بسبب هذا لما جاءه بعض الناس فى المسجد يستفتونه فى قتال هذا الطاغية ويقصدون الحجاج قائلين له يا أبا سعيد : ما تقول فى قتال هذا الطاغية . فقال الحسن : أرى أن لا تقاتلوه ، فانها اما أن تكون عقوبة من الله فما أنتم براد ى عقوبته . ثم قال كلمته المشهوره : يا أيها الناس والله ما سلط الله عليكم الحجاج الا عقوبة ، فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف ، ولكن عليكم بالسكينة والتضرع "...(٣)

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١١٣ — ١١٤ ، البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ١٤٧ وما بعدها . (٢) مروج الذهب للمسعودى ج٢ ص ١٥٠ — ١٥٣ .
(٣) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٧ وما بعدها .

علاقة الحسن بالخليفة العادل عمر بن عبد العزيز :

ظل الوقت الذى تولى فيه الحجاج بن يوسف الثقفى ولاية العراق وما جاورها يسوده القلق والرعب والخوف لأن القوم لا يأمنون بطشه وظلمه لأى سبب من الأسباب كما استمر الحسن أيضا فى خطابه النصائح ودعوته الى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن دون أن يهاب سلطانا أو يخشى فى الحق لومة لائم . وظل الناس على ذلك حتى انتهى عهد الحجاج . وجاء عهد سليمان بن عبد الملك فتنفس الناس الصعداء وسجدوا لله شكرا على زوال عهد الحجاج الذى كتم أنفاسهم ردحا من الزمن ، وجعل الواحد منهم يخاف حتى من أولاده أن يبلغوا عنه شيئا .. وربى فيهم الجبن والذل .. الا أنه لا يفوتنا أن ننوه بالفتوحات الاسلامية فى عهده هنا وهناك .. وهذه ولا شك صفحة بيضاء فى تاريخه الطويل . ولكن جبروته وأخذه الناس بالظنة تغلب فى أذهان الناس على كل ما فعله من اصلاح وفتوحات .

وما حبب الناس فى سليمان بن عبد الملك أنه أقطع الناس الأرض الموات وأطلق الأسارى وخلى أهل السجون ، وأفرج عن المعتقلين وأحسن الى الناس حتى قالوا : سليمان مفتاح الخير " حتى رضى عنه الكثير من الصالحين فى وقته وفى مقدمتهم " الحسن البصرى " . فكان هذا الامام لا يتعرض للخليفة سليمان ولا لعماله يذم كما كان يفعل مع من سبقه . ومع هذا التقدير لسليمان نجد أن الحسن لم ينتهز الفرصة ككثير من الناس فى أخذ شىء من الموات فقد كان زاهدا ..[1] واستمر الحال على هذا ما بين مد وجزر حتى جاء الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز[2] .

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ٥ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، وحلية الأولياء لأبى نعيم جـ٢ ص ١٥٥ .

(٢) الخليفة العادل هو : عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموى القرشى ، الخليفة الصالح ، والحاكم العادل ، وخامس الخلفاء الراشدين (٦١ — ١٠١ هـ) .

واذا كان الكثير يذكر أن الشىء من معدنه لا يستغرب فتستطيع أن نرجع بعمر الفرع الى عمر الأصل لنرى هذا المعدن الأصيل .

كان عمر بن الخطاب — الأصل — يتعسس دائما فى المدينة ليلا لمعرفة آلام الرعية ومتاعبهم — شأن الحاكم المسلم الصادق — وبينما هو ذات ليلة شديدة الصقيع يطوف كعادته أدركه التعب فجلس يستريح تحت جدار لصغيرة فقيرة حتى أوشك الفجر أن يجىء واذا به يسمع هذا الحوار العجيب : الأم تقول لابنتها " يا بنية امذقى اللبن بالماء . والبنت تجيب أمها " كيف أمذق ، وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق ؟؟ وتعود الأم قائلة : ان الناس يمذقون .. فامذقى فما يدرى أمير المؤمنين بنا ان مذقنا ، ولا يرانا .. وتجيبها الفتاة يا أماه .. لن كان أمير المؤمنين لا يرانا فرب أمير المؤمنين يرانا ... سمع هذا الحوار فبعد أن صلى الفجر وذهب الى بيته دعا ابنه (عاصما) وجاء بخبر هذه الفتاة وأمها بعد أن أمره عمر بذلك .

ولما كان أمير المؤمنين عمر يعلم أن ابنه يريد الزواج قال له : اذهب يا بنى فتزوجها =

وجد الحسن البصرى — فى عمر هذا — ضالته كما رأى فيه تحقيق حلمه الكبير الذى كان يراوده وأعجب به كثيرا وذلك للأسباب الآتية :

أولا : كان عمر رضى الله عنه على أدب اسلامى رفيع فبعد أن ولي خلافة المسلمين خطبهم بكلام ليس فيه التهديد ولا الترهيب أو الضرب بيد من حديد على من تسول له نفسه بالخروج عن حكمه .. شأن الكثير من المغرورين الذين حكموا البلاد والعباد .. وانما كانت خطابه تدل على فهمه لنفسه ، وللناس .. ومن ذلك يقول مثلا : "أيها الناس ، أصلحوا سرائركم تصلح لكم علانيتكم ، وأصلحوا آخرتكم تصلح لكم دنياكم ، وان امرءا ليس بينه وبين آدم أب حى لمعرق فى الموت " .

ويقول أيضا : أيها الناس ، انما نحن من أصول مضت فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ وانما الناس فى هذه الدنيا أغراض ، تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نهب المصائب مع كل جرعة شرق ، وفى كل أكلة غصص ، لا ينالون نعمة الا بفراق أخرى ، ولا يعمر منكم يوما ، من عمره الا بهدم آخر من أجله " .

وفى خطبة أخرى يبين فيها للأمة الحدود التى توجب الطاعة للحاكم فيقول : "أيها الناس ، انه قد كان قبلى ولاة تجترون مودتهم بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم . الا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .. من أطاع الله وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيت فلا طاعة لى عليكم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم " .

وفى خطبة تالية يبين — رحمه الله — أسلوب العمل الذى سينتهجه فى سياسة الدولة فيقول : "أيها الناس ، من صحبنا فليصحبنا بخمس ، والا فلا يقربنا : يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بجهده ويدلنا على

= فما أراها الا مباركة ولعلها تلد رجلا يسود العرب . وتزوج عاصم تلك الفتاة وأنجبت له فتاة أسموها "ليلى" وكنوها "أم عاصم" ودرجت أم عاصم فى تقواها وورعها حتى تزوجها عبد العزيز بن مروان لولدت له عمر بن عبد العزيز . رحمه الله وجعل الجنة مثواه .

ولد عمر بن عبد العزيز ونشأ بالمدينة وولى امارتها للوليد بن عبد الملك . وفى عهد سليمان بن عبد الملك أصبح وزيرا على الشام . وولى الخلافة بعهد من سليمان — وهذه حسنة من حسناته — سنة ٩٩ هـ فبويع فى مسجد دمشق وسكن الناس فى أيامه فمنع سب على بن أبى طالب .. واستمر فى الخلافة حوالى سنتين ونصف حتى وافاه الأجل المحتوم .

(البداية والنهاية لابن كثير الجزء التاسع ، وتاريخ الطبرى الجزء السادس)

الخير مالا نهتدى اليه ، ولا يغتابن عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه " .. (١) .

...

ثانيا : علم عمر بأن الشعوب المغلوبة على أمرها كثيرا ما تعانى من عمال الدولة بسبب ظلمهم واستغلال نفوذهم خاصة الكبار منهم حتى وصل الأمر فى بعض الأحيان الى أن يكون فيما بينهم ما يعرف بالأسلوب الحديث بمراكز القوى .. حينئذ نجد أن الخليفة العادل عمر يسد على عماله كل نافذة أو ثغرة يمكن أن يتسللوا منها الى استغلال مناصبهم ، أو توجيه ظلم الى أحد من أبناء الأمة الاسلامية . أو اغتصاب حق فرد من أفرادها . وتشدد فى ذلك متقصيا كل شبهة يمكن أن تؤدى بشكل من الأشكال الى نوع من أنواع الظلم والاستغلال .

فبدأ برفع أجورهم الى الثلاثمائة دينار سنويا ليحقق لهم الكفاية ويغنيهم عن الخيانة فى الوقت الذى لم يفرض لنفسه فيه سوى نفقة يومية لا تزيد على الدرهمين كما أنه حرم على العمال قبول آية هدية من الهدايا كيلا تكون بابا لتقديم الرشاوى من قبل ذوى الحاجات . كما ألغى هدايا أعياد النوروز والمهرجان الفارسية ، ومنع عماله من مزاولة أى نشاط تجارى كيلا يصرفهم عن مهامهم الادارية من جهة ، ولا يدفعهم الى استغلال مناصبهم خلال هذا النشاط من جهة أخرى وكتب اليهم يقول : " نرى أن لا يتجر ولا يحل لعامل تجارة فى سلطانه الذى هو عليه . فان الأمير متى يتجر يستأثر ويصيب أمورا فيها عنت وان حرص لا يفعل " كما نهى عماله عن نظام السخرة المتبع فيما مضى من عهود . وقال : " ونرى أن توضع السخرة عن أهل الارضاء ، فان غايتها أمور يدخل فيها الظلم " (٢)

ثالثا : ان عمر — رضى الله عنه — قرن القول بالعمل . ليس فى جهة واحدة ولكن فى جهات متعددة . ويصور هذا المعنى الدكتور عماد الدين خليل : فيقول : " على جبهات عديدة كان عمر بن عبد العزيز يكافح بهمة لا تعرف الكلل ،

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ١٤٣ — ١٤٤ ، وتاريخ الاسلام السياسى .. للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ١٩٦ ، وفن الخطابة للأستاذ ايليا حاوى ص ٢٥٢ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٤٦ ، ٢٩ ، وتاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٦ ص ٥٦٩ — ٥٧٠ .

وعزيمة ماضية لا توقفها قوة فى الأرض ، وارادة مصممة حازمة تختار فى اللحظات التى يضيع فيها الرجال . على الجبهات العسكرية والسياسية والاقتصادية والادارية والتعليمية . كان عمر يعطى وينافح عن الدولة الممتدة حدودها من الصين الى بحر الظلمات .. ينفذ مطالب الشعوب ، ويعمر الطرق والمؤسسات ، ويطارد الظلم والطغيان فى كل مكان .. يغمد السيوف التى استسلمت دون ما ضرورة كيلا تسفك قطرة دم واحدة ، وتذهب هدرا وهو عنها مسؤول .. يعيد المالية والاقتصاد الى اطاراتها العادلة من القرآن والسنة كيلا تضيع فى الأرض البور قطرة عرق واحدة وهو عنها مسئول .. يعزل الولاة ويضع الحكام الجدد تحت مسئولية ثقيلة قاسية تنوء بحملها طاقات الرجال .. يتفاوض مع الشعوب بالحق والعدل ، ويعطى للمعارض البرهان الساطع لا السيف القاطع ، ويتقدم الى العلماء — لأول مرة فى تاريخ الفكر الاسلامى — أن يجمعوا ويدققوا ما قاله رسولهم العظيم قبل فوات الأوان .. (١)

وعلى سبيل المثال فقد أسقط الجزية عمن أسلم بمجرد توليته للخلافة لدرجة أن بعض الولاة كلمه فى ذلك خوف اختلال الميزان الاقتصادى للدولة — فى نظره — فأعلنها عمر صريحة مدوية : " ضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيه .. فان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا . ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الاسلام على يديه " (٢) .

وكان عمر رضى الله عنه يعين على البلاد الولاة الأكفاء المخلصين ، وكان أى عدوان على الأراضى الاسلامية فى عهده يقابله بالشدة حتى لا يعود المعتدون الى مثلها . وبالنسبة للخارجين على الدولة من المسلمين ما كان يستعمل معهم العنف والقوة الا بعد المناظرات الواسعة ، والمفاوضات الطويلة لكى لا يكون لأحد منهم حجة .. (٣) .

---

(١) ملامح الانقلاب الاسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز للدكتور عماد الدين خليل ص ٨٣ — ٨٤

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٥ ص ٢٨٣

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٦٢ — ٦٩ .

هذه الأمور التى عرفناها عن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز وغيرها جعلت الحسن البصري يقوم بدور ايجابي فى بناء الدولة الاسلامية .. ولم يقف — رحمه الله — من عهد عمر موقف المتفرج بل أسهم مساهمة فعالة فى توجيه الدولة الى النظام المنشود الذى لا يختل أبدا اذا اتبع . وبدأ الحسن بالفعل فى ارسال عدد من الكتب الى المسئول عن الدولة وفى مقدمتها كتاب يصف فيه الامام العادل لا يصلح لعمر فقط بل يصلح لكل حاكم الى اليوم والى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وسأضع بين يدى القارئ الكريم فقرات من هذه الكتب الى الخليفة العادل ليتبين منها اهتمام الحسن بأمر الدولة والقائمين عليها . أما عن تحليلها فسيكون ذلك فى الباب الثالث باذن الله .

كتب الحسن التقى الى الخليفة العادل عمر يصف له الامام العادل رسالة جاء فيها : " اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الامام العادل قوام كل مائل ، وقصر كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ومفزع كل ملهوف — والامام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على ابله ، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع .. — والامام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارا ، ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ويدخر لهم بعد مماته .. (١)

وأرسل اليه بعظه رسالة جاء فيها : " اعلم أن التفكير يدعو الى الخير والعمل به ، والندم على الشر يدعو الى تركه ، وليس ما يفنى وان كان كثيرا يعدل ما يبقى وان كان طلبه عزيزا ، واحتمال المؤنة المنقطعة التى تعقب الراحة الطويلة خير من تعجيل راحة منقطعة تعقب مؤنة باقية ، فاحذر هذه الدار الصارعة الخادعة الخاطئة التى قد تزينت بخدعها ، وغرت بغرورها ، وقتلت أهلها بأملها ، وتشوقت لخطابها .. (٢) .

وكتب اليه مرة يقول : " فكأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل والسلام " ، وكتب اليه مرة أخرى يقول : " ان فيما أمرك الله به شغلا عما نهاك الله عنه . والسلام " (٣) .

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٣٩ ، والحسن البصري لابن الجوزى ص ٥٦ .
(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم الاسبهانى ج ٢ ص ١٣١ وما بعدها .
(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ٩٦ — ٩٨ .

وروى أن الحسن تولى القضاء فى عهد عمر وسنعرف آراءه فيما بعد ءان شاء الله .. (١)

وهكذا كان الحسن البصرى يشارك ايجابيا بناء فى الدولة فرحا مسرورا بخلافة عمر بن عبد العزيز . وكان عمر يكتب اليه كلما أشكل عليه أمر فيجيبه الحسن — رحمه الله — كما أن عمر أيضا فى بعض الأحيان يرد على مكاتبات الحسن . (١) حتى وصل المجتمع الاسلامى فى عهده الى أعلى مستوى فى عهد بنى أمية . بل وفى العهود التالية أيضا . وكان الحسن يتمنى بقاء العهد العمرى حتى يزيد من الخير لهذه الأمة . ولكن أوقات الخير دائما — نراها — تمر سراعا فقد عاجلت المنية جوهرة بنى أمية عمر بن عبد العزيز فى سنة ١٠١ هـ . رحمه الله .

رحلته الى بيت الله الحرام :

فى أواخر حياة الخليفة التقى عمر بن عبد العزيز أدى الحسن البصرى فريضة الحج وكان قد حج فى أول عمره مرة قبل ذلك . وكان اذا ذهب الى مكة فى رحلته الى بيت الله تعالى يجتمع عليه كثير من الناس فلم يجد بدا من الحديث اليهم فقال بعضهم : لم نر مثل هذا قط .

وبينما كان الحسن يوما عند الحجر يحدث الناس ويقص عليهم ما يفيض عليه مولاه من المواعظ والعبر واذا بأحد آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو على بن الحسين عليهما السلام يجىء اليه فقال له : " أترضى يا حسن نفسك للموت ؟ قال : لا ، قال : فعملك للحساب ؟ قال : لا ، قال : فثم دار للعمل غير هذه الدار ؟ قال : لا ، فلله فى أرضه معاذ غير هذا البيت ؟ قال ، لا ، قال فلم تشغل الناس عن التطوف . (٢)

هذا الحوار الذى دار بين على — زين العابدين — بن الحسين ، وبين الحسن نلمح منه ما يلى :

أولا : يبين ثقة الأمة كلها فى امامها " الحسن البصرى " . ولذلك فهم ينتهزون فرصة وجوده فى هذا المكان للمزيد من علمه وروحه .

ثانيا : صراحة الحسن البصرى فى رده على أحد آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم .

ثالثا : انكار على بن الحسين على الحسن مواعظه فى هذا المكان يريد — والله أعلم — أن يربط المسلم بالله عز وجل عن طريق تضرعه بنفسه والعمل على ذلك خاصة حول الكعبة

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٢ ص ٦٢ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٣ ص ٣٠٢ .

(٢) أمالى المرتضى — القسم الأول ص ١٦٢ — ١٦٤ .

وكان الحسن — رحمه الله — يحب الخلوة فى رحلته الى بيت الله الحرام فقد روى ابن قتيبة أن الحسن أراد الحج فقال له ثابت : بلغنى أنك تريد الحج ، فأحببت أن نصطحب . فقال : ويحك .. دعنا نتعايش بستر الله ، انى أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه .

ويؤيد هذا ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل من أصحابه " أما انك ان ترافق غير قومك يكن أحسن لخلقك وأحق أن يقتفى بك " . (١)

وكان الحسن يهفو دائما الى مكة . وله رسالة فى فضلها كتبها الى رجل من الزهاد يدعى عبد الرحيم بن أنس يدعوه فيها الى الاقامة بمكة المكرمة بعد أن علم الحسن عزمه على الخروج منها يقول الحسن فى هذه الرسالة : " فاذا أراد الشيطان أن يكيدك فيا عجبا من عقلك أن نويت ذلك فى نفسك وجعلك الله من أهله لكان الواجب عليك شكره وأبدا ما كنت حيا ولو كنت مشغولا بعبادة الله تعالى أضعاف ما كنت عليه فاياك ثم اياك والخروج منها ... " (٢)

موقفه من ثورتى ابن الأشعث ويزيد بن المهلب :

فى حياة الحسن البصرى قام أناس بعدة محاولات للقيام بثورة لتقويض حكم بنى أمية أبرزها ثورة ابن الأشعث فى عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى . وكان القائمون عليها يحاولون استمالة الحسن اليهم لرغبتهم فى نجاحها . ولكن الحسن — عليه رحمة الله — لم يكن يرى القيام بثورة على الحكم القائم لأسباب متعددة سنعرفها فيما بعد ان شاء الله . فامتنع الحسن عن المشاركة فى هذه الثورة . ليس هذا فقط بل حاربها .

ومما قيل فى ذلك ما روى عن أبى التياح قال : شهدت الحسن حيث أقبل ابن الأشعث وكان ينهى عن الخروج على الحجاج . (٣)

كذلك حدث بعد موت الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز أن هرب يزيد بن المهلب من السجن ولجأ الى قومه بالبصرة . حينئذ اتجه الحسن — رحمه الله — الى المهالبة

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة — كتاب الحرب ص٣٢ ويخرج الحديث .
(٢) رسالة فى فضل مكة منسوبة الى الحسن البصرى بقسم المخطوطات بدار الكتب تحت رقم (٢٦٠٢ح) وهذه الرسالة بخط الشيخ أحمد البتنونى ..
(٣) الطبقات لابن سعد ج ٧ ص ١١٩ .

للعدل عن هذه الثورة من قبل عدى بن أرطاة وتكلم يومئذ بكلام فيه الحكمة وبعد النظر (١) .

وتحدث الحجاج بين عبد الملك بن المهلب والحسن مما أدى الى أن الأول خرج عن شعوره مع الحسن وأخطأ معه كثيرا عند الحديث والجدال معه (٢) .

وكان حربه ضد ثورة يزيد بن المهلب أشد من حربه ضد ابن الأشعث • ذلك أنه ذهب الى حيث يجتمع الناس حول يزيد يتوكأ على عاتق معاذ بن سعد حتى استطاع الوصول الى المنبر الذى يخطب عليه ابن المهلب فقال ليزيد : والله لقد رأيناك واليا ومولى عليك فما ينبغى لك ذلك ووثب من حوله تلامذته وأصحابه يأخذون بيده وفمه وأجلسوه • ويقول ابن سعد صاحبه : ما نشك أن يزيد سمعه ولكن لم يلتفت اليه ومضى فى خطبته .... (٣) .

هذه لمحة سريعة عن موقف الحسن من هاتين الثورتين — ثورة ابن الأشعث وثورة يزيد بن المهلب — أما التعليق على رأى الحسن فى ذلك فسيأتى ان شاء الله فى الباب الثالث ..

الأيام الأخيرة فى حياة الحسن ووفاته :

كان الحسن البصرى العامل الكبير فى فشل ثورة ابن المهلب • هذه الأسرة التى أفل نجمها بعد حياة عريضة بالبصرة • وقام بأمر العراق مسلمة بن عبد الملك واليا عليها بعد عدى بن أرطاة الصديق الحميم للحسن ، ومن الطبيعى أن يسر الوالى الجديد بالحسن سرورا عظيما فلولاه لسارت الفتنة الى مداها ولا يعلم مصيرها الا الله تعالى • وعلى هذا نجد أن مسلمة كان يعمل على توطيد صلته بالحسن والتقرب اليه • وليس معنى هذا أن الحسن بسبب هذه الصلة لا ينصحه بل كان يعظه كلما حانت الظروف • كما نجد فى بعض الأحيان مسلمة يرسل شيئا من الهدايا الى الحسن فيقبلها •

قال يزيد بن هارون أنبأ هشام قال : بعث مسلمة بن عبد الملك الى الحسن بجبة وخميصة فقبلهما فربما رأيته وقد سدل الخميصة على الجبة • وقبول الحسن

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٢٧٧ •

(٢) الحسن البصرى للدكتور احسان عباس نقلا عن العيون والحدائق (لمؤلف مجهول) ص٣ ٥

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٥ ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٣٢ — ١٤٧ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ص ٢٨١ •

الهدية ليست من أى انسان وانما ممن يثق فى اخلاصهم . ذلك لأن الحسن ما كان يقبل العطاء من الدولة واذا جاءه قسمه على الفقراء والمحتاجين . قال سليمان بن المغيرة حدثنا يونس أن الحسن أخذ عطاءه فجعل يقسمه فذكر أهله حاجة فقال : دونكم بقية العطاء أما انه لا خير فيه ان لم يصنع به هكذا .. (١)

وقد بلغ حب مسلمة للحسن أنه حينما وصف له فى بعض الأحيان أظهر العجب وقال : كيف يضل قوم فيهم مثله . (٢)

ولم يطل عهد مسلمة وجاء بعده عمر بن هبيرة وكان من أول ما فعله فى ولايته أن جمع أئمة أهل العراق ليستشيرهم فى سياسة الدولة ومنهم الحسن البصرى فاستمع اليهم جميعا وخاصة الحسن البصرى الذى أخلص له فى النصح .. (٣) ولم يدم ابن هبيرة طويلا فحينما جاء هشام بن عبد الملك خليفة للمسلمين عزل ابن هبيرة وأتى مكانه بخالد بن عبد الله القسرى . ورغم كبر سن الحسن فى هذا الوقت لم يكف لسانه عن النطق بكلمة الحق . حتى أننا نجد صاحب الشرطة — كمدير الأمن فى عصرنا هذا — مثل مالك بن المنذر العبدى يضيق به أحيانا فيتهدده ويمنعه من جمع الناس حوله وربما طلب منه أن يأتى الى المقصورة بالمسجد فيرفض الحسن رفضا باتا بل كان يستهزئ به . ومع كل هذا كان الولاة والحكام فى أيامه الأخيرة يحملون له ألف حساب وحساب (٤) .

وهكذا استمرت علاقة الحسن بالولاة فى أيامه الأخيرة من حيث النصح والارشاد وجمع الأمة على كلمة سواء .

ورغم هذا الضعف وهذه الشيخوخة كان يؤدى واجبه نحو الراعى بالنصيحة الخالصة ، ونحو الرعية بمشاركتهم فى البأساء والضراء فكان يحضر الجنازة معهم راكبا الحمار لعدم استطاعته السير معهم . وبسبب هذا الضعف والشيخوخة يرى بعض العلماء أن بعض الفتاوى التى كانت تصدر من الحسن فى هذه السن المتأخرة من حياته كانت تتأثر بما ذكرنا . ويمثلون لذلك بفتواه عن عدم قتل الحر بالعبد ناسيا حديث الرسول عليه السلام : من قتل عبده قتلناه (٥) . كما تذكر بعض الروايات أنه حينما

---

(١) تاريخ الاسلام للذهبى ج ٤ ص ١٠٢ .
(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ج ٢ ص ١٤٧ .
(٣) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٢ ، وابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ١ ص ١٨٩ .
(٤) الحسن البصرى للدكتور احسان عباس نقلا عن العيون والحدائق — لمؤلف مجهول ص ٨٧
(٥) السنن الكبرى للبيهقى ج ٨ ص ٣٥ وما بعدها .

قرب أجله طلب من خادمه أن تسجر التنور وكانت لديه صحف وكتب فأمر بها جميعا فأحرقت غير صحيفة واحدة ظلت فى حوزة ابنه حتى استمارها منه مسلم بن حصين الباهلى . ولا ندرى لماذا فعل بكتبه هكذا ؟ علما بأنه كان حريصا على انتفاع المسلمين بخبراته وآثاره .(١) ومن يدرى لعل الحسن لشدة ورعه وتقواه شعر بأن شيئا فى كتبه وصحفه لا يوافق الكتاب والسنة . فكأنه يريد بذلك أن يبرئ نفسه أمام الله تعالى أنه لم يترك شيئا يسجل عليه قد يكون فيه شىء من عدم رضا المولى تبارك وتعالى . وعلى كل حال فقد ترك الحسن — رحمه الله — تلاميذه يحملون علمه وفقهه ويلقوه الى الناس حتى أن بعضهم طلب من الحسن صحفه فنقلها ثم ردها اليه مرة أخرى .

وكلما كان الحسن يقترب من النهاية يشتد جزعه حتى أنكر عليه ذلك ولده فقال له : " يا بنى قد جاء الحق وزهق الباطل وها أنا أصاب بنفس التى لم أصب بمثلها .

كذلك كان يزودهم بالنصيحة لكثرة الناس حوله ولم ينس الوصية الأخيرة التى يجب أن يتذكرها كل مسلم . دعا الحسن بمن يكتبها قال : " بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد : فان الحسن عبد الله وابن أمته يشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، من لقى الله بها صادقا لسانه ،مخلصا قلبه ،أدخله الله الجنة . ثم قال : سمعت معاذا يقول ذلك ويوصى به أهله . ثم قال معاذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك ويوصى به أهله(٢) .

وأخذت نهاية الحسن تقترب رويدا رويدا والمرض يشتد حتى وصل الى حالة لم يستطع أن يقول فيها الا الاسترجاع كما يقول ابنه والجميع يلتفت اليه فى رعدة وخشية من هول الموقف . وفى ليلة الجمعة فى مستهل شهر رجب من عام ١١٠ هـ (١٠ أكتوبر سنة ٧٢٨ م) أسلم الروح الى خالقها . وغسله تلميذاه أيوب وحميد الطويل . وصلى عليه عقب الجمعة وحزن الناس عليه حزنا شديدا حتى أن صلاة العصر لم تقم يومئذ فى جامع البصرة وذلك لأن الناس تبعوا جنازته وهو أمر لم يحدث قبل منذ أن جاء الاسلام الى هذا المكان .(٤) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٢٧ .

(٢) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ١٩ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ج٧ ص١٢٥ — ١٢٧ وحلية الأولياء لأبى نعيم ج ٢ ص١٥٣ — ١٥٥ ويخرج الحديث :

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص٢٢٨ — ٢٢٩ ، ودائرة المعارف الاسلامية المترجمة الى العربية — المجلد السابع — ترجمة الحسن البصرى .

(٤) تاريخ الاسلام للذهبى ج ٤ ص ١٠٦ .

وفى هذه الليلة التى فاضت فيها روحه الى الله تعالى رأى بعض الزهاد فى منامه أبواب السماء مفتحة وكأن مناديا ينادى ألا ان الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض(١) .

وبعد أن لقى الحسن ربه شغل الناس به فكانوا يرونه فى منامهم دائما وهذا هو مالك بن دينار الصوفى المعروف يقول : " رأيت الحسن رحمه الله فى منامى بعد أن مات مسرورا شديد البياض تبرق مجارى دموعه . فقلت : ألست من الموتى ؟ فقال : نعم : قلت : فماذا صرت اليه بعد الموت . فلعمرى لقد طال حزنك فى الدنيا ؟ فقال : رفع والله لنا ذلك الحزن علم الهداية الى منازل الأبرار فحللنا بثوابه مساكن المتقين ، وأيم الله ان ذلك الا من فضل الله علينا . قلت : فما تأمرنى به يا أبا سعيد ؟ فقال : وما حسبتنى أن آمرك به لتعلم أن أطول الناس حزنا فى الدنيا أطولهم فرحا فى الآخرة (٢) .

مثل هذه الروايات التى تنسج حول الحسن البصرى أعتقد أن فيها شىء من المبالغة وعلى كل فسواء كانت صحيحة أو غير صحيحة فان الحسن البصرى له من الروايات الصحيحة ما تجعله فى قمة العلماء وأصحاب الفضل والرفعة .

رحم الله الحسن البصرى رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وحسن أولئك رفيقا .

واذا كانت هذه هى النهاية الطيبة للحسن البصرى . فما أحرانا بالاقتداء به . وهذا يكون بمعرفة المؤهلات والأمور التى كانت سببا فى تكوين شخصيته مما يجعلنا نعقد لذلك الفصل الثانى والله المستعان .

---

(١) الكواكب الدرية للمناوى ص ٩٦ .

(٢) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ١٩ — ٢٠ .

الفصل الثانـــــــــى

(مؤهلات الحسن البصرى وتكوين شخصيتـــــه)

انتهينا فى الفصل الأول من رسم صورة عن حياة الحسن البصرى فى عصـــره الذى عاش فيه • وفى هذا الفصل نذكر الأسباب التى جعلت منه هذا الانســـان السوى — حتى نكون فى اقتدائنا به على بينة وبصيرة — لأن حياة الحسن لم تكـــن كحياة كثير من البشر ينتهون بنهاية حياتهم • بل ان بعضهم يحيا ويموت دون أن يلتفت اليه أحد • أما الحسن فان حياته تمتد الى يومنا هذا والى أن يشاء اللـــه تعالى • ولذلك نراه دائما يتمثل — رحمه الله — بهذين البيتين :

ليس من مات فاستراح بميـــت ∴ انما الميت ميت الأحيـــــاء
انما الميت من يعيش كئيبـــــا ∴ كاسفا باله قليـــل الرجـــاء (١)

وصدق من قال : ما الفخر الا لأهل العلم انهم ∴ على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ∴ والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبـدا ∴ الناس موتى وأهل العلم أحيـــاء

والأسباب أو المؤهلات التى أدت الى تكوين شخصيته تنحصر فيما يلى :

أولا : صفاته الظاهرية :

للصفات الظاهرية أثر كبير فى تأدية الانسان لرسالته فى المجتمع الذى يعيـــش فيـــــه •

ولذا نجد أن المصطفى صلى الله عليه وسلم واخوانه من الأنبيـــاء والمرسلين كانوا جميعا على جانب كبير من الصحة والعافية ، وكمال الحواس الخمس • ممـــا جعلهم يبلغون رسالة ربهم على خير ما يحبه الله ويرضاه •

ومثل هذا كان الحسن البصرى فى صفاته الظاهرية •

فقد كان رحمه الله مبصرا • الا أن زرقة عينيه كانت سببا فى اتهامه أحيانـــا بالنظرة مما جعل مصعب بن الزبير كان يخطب مرة فلما رأى " الحسن " نزل عن المنبر لأنه كان يخاف العين • ولذا عده ابن قتيبة فى المعارف من أهل العاهات فقال : الحسن البصرى أزرق • كذلك قال غيره كالذهبى فى تاريخ الاسلام الجزء الرابع ••

---

(١) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٢٠ •

هذه النظرية لا أساس لها من العلم . فهناك الكثير من أصحاب العيون الزرقاء نراهم ونتحدث معهم ولم نعلم تأثيرهم فى الناس كما يقول هؤلاء . ولعل حادثة وقعت من صاحب عين زرقاء — عن طريق الصدفة — فاتخذها البعض مثالا لكل من اتصف بذلك . علما بأن التاريخ لم يحدثنا عن حادثة واحدة وقعت منه مع كثرة الجالسين والمتحدثين معه فى هذا العمر الطويل الذى عاشه الحسن رحمه الله .

وأما حادثة مصعب بن الزبير كما تذكر بعض الروايات المختلفة ربما كان هذا وهما منه فقط كما يحدث لكثير من الناس .

وكان رحمه الله طويل القامة عريض العظام . عن الأصمعى عن أبيه قال : " ما رأيت أعرض زندا من " الحسن " كان عرضه شبرا "(١) .

وكان مع طول قامته جميل الصورة وسيما متناسب التقاطيع مما أدى بامرأة تقول فيه بعد أن نظرت اليه وهو يتردد على أحد أساتذته لتلقى العلم : " كان الحسن يجىء الى حطان الرقاشى فما رأيت شابا قط كان أحسن وجها منه "(٢)

ويؤيد هذا ما قاله الشعبى يوما لرجل كوفى مسافر الى البصرة اقرئ الحسن السلام ، فلما قال له : انى لا أعرفه . رد عليه الشعبى قائلا : انظر الى أجمل وجه رجل تراه عينك فذاك الحسن . الا أنه أصيب بعدئذ فى أنفه عندما سقط عن دابته . وكان يرسل لحيته ويكره أن يأخذ منها فوق قبضة اليد ، ولما ابيضت أخذ يصبغها بالصفرة فى كل جمعة . ولا يأخذ من شاربه الا القليل .

وكان يحلق رأسه مرة واحدة فى يوم النحر .(٣)

وفى تفسير قوله تعالى : عن اليمين وعن الشمال قعيد . قال الضحاك : محلهما تحت الثغر على الحنك . ورواه عوف عن الحسن قال : وكان الحسن يحب أن ينظف عنفقته .(٤)

وكان الحسن يلبس العمامة الحرقانية السوداء المرخاة من ورائه فكان يسميه الحجاج ذا العمامة السوداء .

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص ٤٤٠ ، وتاريخ الاسلام للذهبى ج ٤ ص ٩٩ .
(٢) تاريخ الاسلام للذهبى ج ٤ ص ١٠٠ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١١٦ ، وتاريخ الاسلام للذهبى ج ٤ .
(٤) تفسير القرطبى ج ١٧ ص ١٠ . والعنفقة عبارة عن شعيرات بين الشفة السفلى والذقن (القاموس المحيط ج ٣ ص ٢٧٨) .

أما لباسه الذى يكون على جسده فكان لا يتقيد بلباس واحد فهو يلبس الطيلسانات والجباب والخمائص الكثيرة • وكان برده من الأبراد السعدية نسبة الى سعد بن أبى وقاص الذى كساه الرسول صلى الله عليه وسلم جبة •

وكان يفضل اللون الأسود فيما يشترى من ثياب • كما كان لا يطيل ثيابه لأن الاطالة لم تكن سنة الزهاد • (١)

أما لبسه الصوف فستظهر حقيقة ذلك فى موضعه ان شاء الله • وكان الحسن — رحمه الله — يحمل العصا لأنه كما قال : فيها ست خصال : سنة الأنبياء ، وزينة الصلحاء ، وسلاح على الأعداء ، وعون على الضعفاء ، وغم المنافقين ، وزيادة فى الطاعات •

ويؤيد قول الحسن هذا ما كان من أمر النبى صلى الله عليه وسلم فى اتخاذه العصا لجعلها قبلة فى الصحراء وللاشارة بها نحو الحجر الأسود في الكعبة اذا لم يستطع الوصول اليه • وكان الصحابة أيضا يعتمدون على العصى فى صلاة الليل لطول القيام والقراءة فى الصلاة •• (٢)

من هذه الصفات الظاهرية وغيرها للحسن البصرى يتبين لنا — رحمه الله — أنه كان متناسقا فى مظهره كما كان مخلصا فى مخبره •

والداعية الى الاصلاح بهذه الصورة الطيبة يكون سببا فى اقبال الناس عليه والأخذ بيدهم دائما الى ما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة • واختتم هذه الصفات الظاهرية للحسن بكلمة للشيخ محمد أبو زهرة : " وليس من شك فى أن للشكل الجسمانى دخلا فى الاحترام اذا أضيف اليه الخلق وقوة الروح • وقد كان الحسن ممن آتاه الله بسطة فى العلم والجسم وقد قالوا : انه كان من أجمل أهل البصرة " (٣) •

واذا كانت للصفات الظاهرية أثر كبير فى حياة الحسن فان للصفات المعنوية أثرا أكبر فى تكوين شخصيته لأنه كما يقول ابن حبان البستى :

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ∴ أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ∴ فأنت بالنفس لا بالجسم انسان (٤)

وعلى هذا فما هى الصفات المعنوية التى اتصف بها الحسن ؟ والجواب على ذلك فيما يلى :

---

(١) تاريخ الاسلام للذهبى ج٤ ص ١٠٠
(٢) تفسير القرطبى ج ١١ ص ١١٨ — طبعة دار الكتب المصرية •
(٣) من تاريخ الجدل حسن البصرى للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٤
(٤) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان البستى •

ثانيا : صفاته المعنويـــــة :

تنحصر الصفات المعنوية التي اتصف بها الحسن فيما يأتي :

أ — زهده :

قرأ الحسن البصري بامعان ما ورد في القرآن الكريم والسنة وكلام الســـلف الصالح عن الدنيا وزينتها ، وخداعها لعباد الله تعالى .

فصادف هوى في نفسه فأعرض عن الدنيا وزخرفها . وكان في مكنتـــــه أن يثرى ثراء فاحشا ويصل الى أعلا المستويات في نظر الكثير من عباد المـــال والجاه والسلطان .

ولكنه أعرض عن ذلك كله طالبا ثواب الآخرة ، واشتد في ذلك حتى غلـب عليه الخوف على الرجاء والعقاب على الثواب .

هذا الموقف من الحسن للدنيا وزينتها . جعل المتصوفة من بعده ينظرون اليه بعين الاجلال والاحترام كما جعلهم أيضا ينسجون حوله من الأخبار — الصحيحة أوغير الصحيحة — التي بوأته مكانة عظيمة وأصبح — رحمه الله — المؤسس — في نظرهم — لهذا التراث الصوفي الكبير الذى تركوه الى يومنا هذا . وكثيرا ما ربطـــوا سلاسلهم الصوفية برسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي . وأهم العوامل الـتي جعلت منه هذه الشخصية الزاهدة ما يلي :

العامل الأول : موافقة عمله لقوله :

فالحسن — رحمه الله — لم يذكر قولا الا ونجده مترجما عمليا في شخصه والى القارئ الكريم بعض أقواله في الزهد التي طبقها عمليا على نفسه في حياته .

من هذه الأقوال : " يا ابن آدم عملك عملك فانما هو لحمك ودمك فانظر على أى حال تلقى عملك ، ان لأهل التقوى علامات يعرفون بها ، صدق الحديث والوفاء بالعهد ، ورحمة الضعفاء ، وقلة الفخر والخيلاء ، وبذل المعروف ، وقلة المباهاة للناس ، وحسن الخلق ، وسعة الخلق مما يقرب الى الله عز وجل . يا ابن آدم انك ناظر الى عملك . يوزن خيره وشره ، فلا تحقرن من الخير شيئا وان هو صغر فانك اذا رأيته ســـرك مكانه ، ولا تحقرن من الشر شيئا فانك اذا رأيته ساءك مكانه ، فرحم الله رجلا كسب طيبا وأنفق قصدا .. الى أن قال : لو أن بالقلوب حياة لو أن بالقلوب صلاحا لبكيتم من ليلة صبيحتها يوم القيامـــة . ان ليلة تمخض عن صبيحة يوم القيامـــة

ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر فيه عورة بادية ، ولا عين باكية ، من يوم القيامة "(١) .

وكان رحمه الله من شدة زهده تراه دائما حزينا . اذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه واذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه ، وكان اذا ذكرت عنده النار فكأنما لم تخلق الا له .

ومن هنا قال رحمه الله : " رحم الله رجلا خلا بكتاب الله فعرض عليه نفسه فان وافقه حمد الله وسأله الزيادة من فضله وان خالفه أعتب وأناب " .

وقال أيضا : " طول الحزن فى الدنيا تلقيح العمل الصالح " .

ثم علل الحسن البصرى هذا الحزن بأن المؤمن لا يسعه غير ذلك لأنه بين مخافتين : بين ذنب قد مضى لا يدرى ما الله يصنع فيه وبين أجل قد بقى لا يدرى ما يصيب فيه من المهالك " . وأنه " لا يؤمن عبد بهذا القرآن الا حزن وذبل والا نصب والا ذاب والا تعب "(٢) .

معنى ذلك أن الحسن لم يكن فيه مبدأ التناقض ـ غالبا ـ كما كان مع غيره وهذا جعله كما يقول الدكتور احسان عباس " ينتقد الأشياء من خلال المرآة العامة والخاصة ، ولا يستمرئ من القصص الا ما وافق ذات نفسه ويهتز لها ـ أى لهذه القصص ـ مهما كان .(٣)

وقد ظهر كل هذا على بيته عمليا كما ظهر على نفسه . قال عبد الله بن شوذب عن مطر قال : دخلنا على الحسن نعوده فما كان فى البيت شئ ، لا فراش ولا بساط ولا حصير الا سرير مرموك هو عليه .(٤)

العامل الثانى : امتلاكه لنفسه :

كان الحسن يتحكم فى شهوته ولم يجعل لنفسه سيطرة عليه يظهر هذا

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم ج ٢ ص ١٤٠ ـ ١٥٥ .
(٢) الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور كامل مصطفى الشيبى ج ١ ص ٢٩٢ ومابعدها .
(٣) الحسن البصرى للدكتور احسان عباس .
(٤) تاريخ الاسلام للذهبى ج ٤ ص ١٠٤ وما بعدها .

فى عدم تكلمه الا بقدر متمثلا بقول النبى صلى الله عليه وسلم " رحم الله عبدا تكلم فغنم أو سكت فسلم "(١) . وقوله صلى الله عليه وسلم : " من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به "(٢) .

وقال الحسن البصرى : " تكلم قوم عند معاوية — رضى الله عنه — والأحنف بن قيس ساكت فقال له : مالك يا أبا بحر لا تتكلم ؟ فقال له : أخشى الله ان كذبت وأخشاك ان صدقت "(٣) .

ومما يدل على امتلاكه لنفسه أنه كان يملك نفسه وقت الغضب فلا يخرف فى كلامه كما أنه لا يضحك الا الابتسامة العارضة التى لا تؤثر على هيبته وسمته ووقاره ، وأى شىء كان يتعارض مع مثاليته وأهدافه العليا يرفضه بكل شدة ...

العامل الثالث : أخذه العبرة من الماضى والحرص عليه :

مما ساعد الحسن على زهده فى دنيا الناس أنه كان شديد الحرص على أخذه العبرة من الماضى الذى تركه فى المدينة المنورة بعد أن وصل الى البصرة ويظهر هذا فى كلامه : " ما من الناس رجل أدرك القرن الأول أصبح بين ظهرانيكم الا أصبح وأمسى مهموما " ، وعن علقمة بن مرثد قال : انتهى الزهد الى ثمانية من التابعين ، فمنهم الحسن بن أبى الحسن فما رأينا أحدا من الناس كان أطول حزنا منه ، ما كنا نراه الا حديث عهد بمصيبة ..(٤)

---

(١) هذا الحديث رواه الحسن البصرى وأخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى شعب الايمان من حديث أنس فيه ضعف . قاله من رواية اسماعيل بن عباس عن الحجازيين .

(٢) رواه الطبرانى وأبو نعيم عن ابن عمر مرفوعا . وقال العسكرى : أحسبه وهما والصواب أنه عن عمر من قوله وساقه عن مالك بن دينار عن الأحنف قال قال لى عمر : يا أحنف : من كثر ضحكه قلت هيبته ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شىء عرف به ومن كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه : (تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث لابن الربيع الشيبانى الشافعى المتوفى سنة ٩٤٤ هـ ص ١٦٧) .

(٣) احياء علوم الدين للامام الغزالى جـ ٣ ص ١١١ .

(٤) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ ٢ ص ١٣٢ — ١٣٦ ، والكواكب الدرية للمناوى ص ٩٧ .

ب - تسامحه :

التسامح عامة خلق كريم من أخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم • وصبغ به الاسلام الى حد بعيد جعل تعاطله لمن لا يدينون به من أهل الذمة قد قام منذ العصر الأول على قاعدة أصيلة لم يثر حولها نقاش كمبدأ مشروع ، ولم يضر تطبيقها على توالى الأزمنة اللهم الا فى فترات نادرة لا يجوز الاكتراث بها أو الالتفات اليها ، هذه القاعدة تقوم على أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا • (١)

اذا كان هذا التسامح مع من لا يدينون بالاسلام فما بالك أيها القارئ الكريم بالتسامح لمن يدينون بالاسلام ؟ لا شك أن هذا كان من الاسلام أوجب وألزم • من هذا المعين الصافى نهل الحسن البصرى • وكان مع تدينه وتمسكه بدينه متسامحا فاتحا صدره لكل شخص يريد أن يصل الى الحقيقة مهما كانت نحلته أو كان مذهبه • وكان دائما يستوحى من الاسلام الدعوة الى السلام والمحبة والأمن والأخوة لا الى عكس ذلك •

ومن أجل هذا كان يحضر حلقته النصارى وغيرهم لما يجدون عنده من القبول وانفساح الصدر لكل ما يقولون •

وقد حدث مرة أن مات أحد النصارى المترددين على مجلسه للاستماع الى مواعظه • فذهب الحسن الى أخيه ليعزيه فقال له : أثابك الله على مصيبتك ثواب من أصيب بمثلها من أهل دينك وبارك لنا فى الموت وجعله خير غائب عنا ننتظره ، وعليك بالصبر فيما نزل بك من المصائب • كما روى أيضا أن نصرانيا كان يسير مع زميل له بجوار مجلس الحسن فقال لزميله : مل بنا الى هذا الذى سمته سمت المسيح عليه السلام •

وبلغ من تسامحه عليه رحمة الله أنه - كما روى الخرائطى - كان اذا اشترى شيئا وكان فى ثمنه كسر جبر لصاحبه •

وكان اذا اشترى السلعة بدرهم ينقص " دانقا " كمله درهما • أو بتسعة ونصف كمله عشرة (٢) •• وهكذا نجد تسامح الحسن البصري المستمد من قول الرسول

---

(١) التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام للشيخ محمد الغزالى ص ٤٠ •
(٢) البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير ج ٩ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ •

صلى الله عليه وسلم : رحم الله رجلا سمحا اذا باع سمحا اذا اشترى سمحا اذا قضى سمحا اذا اقتضى [١] . هذا هو التسامح الحق الذى لم يعرف الا فى اطار الصالحين الصادقين من عباد الله تعالى . أقوياء الايمان به والتوكل عليه .

والقرآن الكريم مملوء بآيات التسامح التى سار على هديها الحسن واستمد منها هذا الخلق الرفيع مثل قوله تعالى : " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين " [٢] .

ج — علمـــــه :

كان الحسن البصرى — رحمه الله — عالما رحب الجوانب فيه . فاذا أردنا بالعلم الفقه وجدناه فقيها ، واذا أردنا الحديث ألفيناه محدثا . واذا أردنا الدعوة الى الله تعالى شاهدنا أنموذجا للداعية الموفق .. وهكذا لا نرى ناحية من نواحى العلم — النافع — الا والحسن فيها عملاق من العمالقة . كما سيظهر ذلك فى الباب الثالث ان شاء الله .

ولم يكن علمه أو صفة العلم فيه حسب هواه . بل فى حدود ما تأثر به من السلف الصالح عليهم رضوان الله تعالى حتى أنه حينما يذكر أحد من الصحابة يقول : "قدس الله أرواحهم . شهدوا وغبنا ، وعلموا وجهلنا ، فما أجمعوا عليه اتبعناه ، وما اختلفوا فيه رفعناه " . وكان وضعه فى العراق أرض الملل والنحل والمذاهب المختلفة يتلقى فيها كل هذه الأفكار المختلفة ثم يعرضها على عقله بميزان الشرع الشريف ويخرج بعد هذا برأى موحد ويطرد ما عداه .

كل هذا وغيره كان سببا فى رفع مكانته وسمو منزلتـــه .

ويكفى فى هذا المقام أن أضع بين يدى القارئ الكريم شهادة أحد الصابئين كما رواها ياقوت قال : وحدثنا أبو سعيد السيرافى — وهمك من رجل ، وناهيك من عالم ، وشرعك من صدوق " وكلها بمعنى حسبك " — قال : حدثنا جماعة من الصابئين الكتاب : أن ثابت بن قرة قال : ما أحسد هذه الأمة العربية الا على ثلاثة أنفس فانه :

عقم النساء فلا يلـــدن شبيهـــه .:. ان النساء بمثله عقـــم

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه عن جابـــر .
(٢) سورة الممتحنـــة آية رقم ٨ .

فقيل له : احص لنا هؤلاء الثلاثة . قال : أولهم عمر بن الخطاب فى سياسته ..
والثانى : الحسن بن أبى الحسن البصرى ، فلقد كان من دراريّ النجوم علما وتقوى وزهدا وفصاحة . مواعظه تصل الى القلوب ، وألفاظه تلتبس بالعقول ، وما أعرف له ثانيا ، لا قريبا ولا مدانيا ، كان منظره وفق مخبره ، وعلانيته وزن سريرته ... يجمع مجلسه ضروب الناس وأصناف اللباس لما يوسعهم من بيانه .. هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقن منه التأويل ، وهذا يسمع الحلال والحرام ، وهذا يتبع فى كلامه العربية ، وهذا يجرد له المقالة ، وهذا يحكى الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعظة . وهو فى جميع هذا كالبحر العجاج تدفقا وكالسراج الوهاج تألقا .... يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير ، وعمرو وواصل صاحبا الكلام ، وابن أبى اسحاق صاحب النحو ، وفرقد السبخى صاحب الرقائق وأشباه هؤلاء نظراؤهم فمن ذا مثله ومن يجرى مجراه ؟ والثالث أبوعثمان الجاحظ خطيب المسلمين ...(١)

د — شجاعته :

من صفات الحسن الشجاعة . وحتى نعرف ذلك فلابد لنا أن نتصور عصره الذى عاش فيه . خاصة الوقت الخانق الذى كان يوجد فيه الحجاج بن يوسف الثقفى فى دولة بنى أمية . فى هذا العصر لم يكن الحسن سلبيا بل كان يسهم فى كل ما يستطيع الاسهام به للحفاظ على وحدة المسلمين . وذلك بقلب برىء ونفس مؤمنة بما تعتنق من الأفكار والآراء ، وقلب واثق فى الله شديد الايمان به جل وعز . كان ينطق بالحق لا يخشى لومة لائم وكان فى مجلسه حر التفكير والقول لا يقصد بقوله الا احقاق الحق " والحق أحق أن يتبع " . ولكى تتبين لنا شجاعته نضرب بعض الأمثلة :

١ — موقفه من والى العراق عمر بن هبيرة . وقد عرفناه سابقا .

٢ — موقفه من والى البصرة النضر بن عمرو فكان من قوله مخاطبا له دون خوف أو وجل " اتق الله أيها الرجل فى نفسك وأيم الله لقد رأيت أقواما ما كانوا قبلك فى مكانك يعلون المنابر وتهتز لهم المواكب ويجرون الذيول بطرا ورئاء الناس . يبنون المدر ويؤثرون الأثر . ويتنافسون فى الثياب ،

---

(١) معجم الأدباء — لياقوت — الجزء ١٦ — الطبعة الأخيرة ص ٩٥ — ٩٦ .

اخرجوا من سلطانهم وسلبوا ما جمعوا من دنياهم وقدموا على ربهم ونزلـــوا على أعمالهم فالويل لهم يوم التغابن ، ويا ويلهم " يوم يفر المرء من أخيـه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه " (١) .

٣ — موقفه من الفتن : روى ابن سعد باسناده عن مسلم بن أبي الذيال ، قال : سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام فقال : يا أبا سـعيد ، ما تقول في الفتن مثل يزيد بن المهلب وابن الأشعث ، فقال : لا تكن مـع هؤلاء ولا مع هؤلاء . فقال رجل من أهل الشام ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ؟ فغضب ، ثم قال بيده فخطـر بها ثم قال : ولا مع أمير المؤمنين أبا سعيد ، نعم .. ولا مع أمير المؤمنين (٢) .

٤ — موقفـــــــــه من بناء دار للحجاج بواسط . روى أن الحجاج بنى دارا بواسط وأحضر الحسن ليراها ، فلما دخلها . قال : الحمد لله ان الملوك ليرون لانفسهم عزا . وانا لنرى فيهم كل يوم عبرا . يعمد أحدهم الـــى قصر فيشيده ، والى فرش فينجده ، والى ملابس ومراكب فيحسنها ثم يحـف به ذباب طمع ، وفراش نار ، وأصحاب سوء . فيقول : انظروا ما صنعت فقد رأينا أيها المغرور فكان ماذا يا أفســق الفاسقين ؟ أما أهل السموات فقد مقتوك ، وأما أهل الأرض فقد لعنوك ، بنيت دار الفناء وخربت دار البقاء ، وغررت في دار الغرور لتذل في دار الحبور ثم خرج وهو يقول : ان الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبيننـه للناس ولا يكتمونه ، وبلغ الحجاج ما قـال فاشتد غضبه وجمـــع أهل الشام . فقال : أيشتمني عبيد أهل البصرة وأنتم حضـــور ، فلا تنكرون .. ثم أمر باحضار الحسن ، فجاء وهـــو يحرك شفتيه بما لم يسمع حتى دخل على الحجاج فقال : أيها يا أبا سعيد أما كان لامارتي عليك حق ، حين قلت ما قلت . فقال : يرحمك الله أيها الأمير: ان من خوفك حتى تبلغ أمنك أرفق بك ، وأحب ممن آمنك حتى تبلغ الخوف . وما أردت الذى سبق الى وهمك ، والأمر ان بيدك العفو والعقوبة فافعل الأولى بك وعلى الله فتوكل وهو حسبنا ونعم الوكيل فاستحيا الحجـاج منه واعتذر اليه واحترمه وحيـــاه (٣) .

---

(١) سورة عبس الآيات ٣٤ — ٣٧ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ٢١٩ .
(٣) الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٣ .

وقد يسبق الى الذهن أن الحسن بهذا كان "متهورا" يلقى بنفسه في الهلكة دون حكمة وبصيرة • بالعكس كان الحسن حكيما فى جميع تصرفاته مما جعله يتربع على عرش القلوب القاسية والرحيمة •

كما كان معتدلا متزنا يقدر قيمة الخطر قبل أن يصل اليه • ولذلك نجده في بعض الأحيان يتخذ التقية درعا حصينا كما عرفنا وما سنعرف ان شاء الله • ولا ننسى مساهمته فى الفتوحات الاسلامية •

هـ — ذكـــــــاؤه :

الذكاء ، أو النشاط العقلى ، أو سرعة الخاطر وصفاء الذهن • عنصر أساسى من العناصر المكونة للشخصية القوية • ذلك أن الرجل قد يكون غزير العلم واسع الاطلاع • ولكنه قد لا يكون متقد العقل حاضر البديهة فلا يعــرف المراد بالاشارة كما لا يفهمه باللفظ •• فللذكاء على هذا تأثير حســن فى شخصية الانسان ، وفى ارتفاع منزلته بين المجتمع الذى يعيش فيه • بخلاف الغباوة فلها تأثير ســيئ على صاحبها وتجعله دائما فى خمول وعجز عن كثير من المهام •

والتاريخ أثبت لنا من الأذكياء ما يجعلنا ندين لهم بالولاء والطاعة مثــل العباس بن عبد المطلب عم النــبى صلى الله عليه وسلم • قيل له يومـا : أنت أكبر أم رسول اللـــه عليه وسلم ؟ قال : هو عليه الصلاة والسـلام أكبر منى وأنا ولدت قبله • كذلك الذكاء يساعد علــى النجاح فى الحياة • ويسهل الصعب ويقرب البعيد • وله أثر كبير فى حسن الخلق والسلوك[1] •

هكذا كان الحسن البصرى — رحمه الله — حاد الذكاء ، قوى الادراك ، عميــق الفكرة ، لا يكتفى بالنظرة الأولى فى الأمور كعادة بعض العلمــاء • بل كان رحمه الله يكرر النظر ويراجع الفكر حتى يتكون لديه الرأى الذى يعتد به • حينئذ نجده فى رأيه صلبا لا يتزعزع ولا يلين • والدليل على ذلك أن أنس بن مالك خادم النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن مسألة فقال : سلوا مولانا الحسن ، فقيل له : أتقول ذلك ؟ فقال : سلوا مولانا الحسن ، فانه سمع وسمعنا وحفظ ونسينا •

(١) الشخصية : للأستاذ محمد عطيه الابراشى ص ٧ — ٣٦ • الطبعة الثالثة ١٩٣٨

كما أن مناقشته للحجاج التى عرفناها تدل على بديهة حاضره وذهن متقد ونفس قوية . خاصة لما قال له الحجاج مرة : ما تقول فى على وعثمان . قال : أقول قول من هو خير منى عند من هو شر منك . قال فرعون لموسى (فما بال القرون الأولى قال : علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) (١) .

ومما يدل على سرعة بديهته وقوة ذكائه حينما مات أخوه سعيد بن أبى الحسن حزن عليه حزنا شديدا ووجد عليه كذلك . فكلم فى ذلك فقال : ما رأيت الله جعل الحزن عارا على يعقوب (٢) .

وقال رجل للحسن : يا أبى سعيد فقال : أحسب أن الدوانيق شغلتك عن أن تقول : يا أبا سعيد (٣) .

الى آخر ما قيل من الأمثلة الكثيرة التى تدل على ذكائه ، ونشاط عقله ...

و — فصاحتـه :

ولد الحسن — رحمه الله — بالمدينة ، وتلقى العربية الخالصة بوادى القرى على عادة العرب حينما يرسلون بأولادهم فى البادية لينشأوا نشأة صافية .

والحسن وان كان غير عربى الأصل الا أن الأقدار ساعدته أن يتربى هذه التربية السليمة .

على هذا أصبح الحسن فصيحا ، رائع البيان ، قوى المعانى ، بليغ القول ، ينطق بالحكمة . والأدلة على ذلك كثيرة منها :

أ — قال فيه الأعمش : " مازال الحسن يحتنى بالحكمة حتى نطق بها " .

ب — سمعه آخر وهو يلقى درسه فقال : " لله دره انه لفصيح اذا لفظ نصيح اذا وعظ .

جـ — " سئل الحجاج بن يوسف الثقفى : من أخطب الناس ؟ قال : صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة — يعنى الحسن " .

د — قال عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح من الحسن البصرى ومن الحجاج الثقفى فقيل له : فأيهما أفصح ؟ قال : الحسن (٤) .

---

(١) المنية والأمل للمرتضى ، وسورة طه آية ٥١ ، ٥٢ .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٣ ص ١٨٧ .

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٥

(٤) تاريخ الحسن البصرى لابن الجوزى .

هـ — وتقول بعض الروايات : سمعته أم المؤمنين عائشة يتكلم فقالت :
من هذا الذى يتكلم بكلام الصديقين .

و — والوصف السابق المنسوب الى ثابت بن قرة الصابئى فى وصف الحسن
يدل على مدى ما تمتاز به شخصية الحسن من حيث فصاحته
وبيانه ..[1] .

ز — قال الحسن : " ابن آدم انما أنت أيام كلما ذهب يوم ذهب بعضك "
وقال : " فضح الموت الدنيا فلم يترك فيها لذى لب فرحا "[2] .
وقال : " ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين من الموت " .

ح — وقد بلغ من فصاحة الحسن أن نسبت اليه قراءة من القراءات القرآنية
التى سنتحدث عنها فى الباب الثالث ان شاء الله حتى قال فيه
الامام الشافعى : " لو شاء أن أقول : ان القرآن نزل بلغة
الحسن لقلت لفصاحته " .

كما أن الحسن — لشدة فصاحته — نال اعجاب اللغويين فى عصره لأنه
كثيرا ما كان يملأ عباراته بألفاظ فصيحة مما لم يكن مألوفا فى الحديث
العادى . وهذه بعض الأمثلة على ذلك . منها قوله : " من أدرك
آخر الزمان فليكن حلسا من أحلاس بيته "[3] . وقوله : " ودقدقت
بهم الهماليج "[4] . وقوله : " يملخ فى الباطل ملخا "[5] . الخ ..

الى هنا نكتفى بهذه الصفات المعنوية للحسن البصرى حتى لا يطول
بنا المقام أو لأن الصفات الباقية كالتواضع ، والمشاركة الوجدانية ، والثقة بالنفس ،
والاخلاص ، والوفاء . الخ .. ترجع كلها الى ما ذكر .

والآن لنتعرف الى مؤهل آخر من المؤهلات التى كانت سببا فى تكوين
شخصيته ألا وهو " شيوخه " .

---

(١) معجم الأدباء لياقوت جـ ١٦ ص ٩٦ .
(٢) تاريخ الاسلام للذهبى جـ ٤ ص ١٠٢ .
(٣) الحلس بالكسر كساء على ظهر البعير تحت البرذعة ويبسط فى البيت تحت حر الثياب . وحلس بيته اذا لم يبرح مكانه (القاموس المحيط جـ ٢ ص ٢١٥ ومختار الصحاح) .
(٤) الدقدقة : حلبة الناس وأصوات حوافر الدواب والهماليج جمع هملاج وهو نوع من البراذين (القاموس المحيط جـ ٣ ص ٢٤٠) .
(٥) الملخ : السير الشديد والتردد فى الباطل (القاموس المحيط جـ ١ ص ٢٧٩) .

ثالثا : شيوخـــــه :

من العوامل الأساسية التى أدت الى تكوين شخصية الحسن وأثرت فيه شيوخه وأساتذته — الذين أخذ عنهم واستفاد بعلمهم وتجاربهم ومنهم بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وغيرهم . فمن هؤلاء أخذ علمه ، ومنهم استمد فكره وزهده ، وفى طريق هداهم سار الحسن — رحمه الله تعالى — حتى لقى ربـــه .

ومن هؤلاء الصحابة الذين شهدوا بدرا . قال الحسن فيما رواه أبونعيم فى الحلية والمناوى فى الكواكب الدرية " والله لقد أدركت سبعين بدريا أكثر لباسهم الصوف " .. (١)

وبالطبع لن نستطيع فى هذه الرسالة حصر شيوخ الحسن وأساتذتـــه ولكن سنتعرض فيما يلى — باذن الله — لأهم شيوخه الذين استفاد منهـــم والله المستعان .

١ — أنس بن مالك :

من شيوخ الحسن البصرى الذين قابلهم وأخذ عنهم واستفاد بصحبتهم أنس بن مالك والعلاقة بين أنس والحسن كانت وثيقة الصلة حتى قـــال أنس(٢) يوما : سلوا مولانا الحسن فانه سمع وسمعنا وحفظ ونسينا .

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم ج ٢ ص ١٣٢ ، والكواكب الدرية للمناوى ص ٩٧ .

(٢) أنس هو : أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم الأنصارى أبو حمزة المدنى خادم النبى صلى الله عليه وسلم . ونزيل البصرة . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وغيرهم . كان رضى الله عنه من الذين شهدوا بدرا . كما شهد الحديبية والفتح وحنينا والطائف .. مع رسول الله عليه الصلاة والسلام . وعن شعبة الحجاج عن ثابت عن أبى هريرة ما رأيت أحدا أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن أم سليم (يعنى أنسا) . وقد دعا له الرسول بكثرة المال والولد . فولد من صلبه ثمانون ذكرا ، وشهد له عمر بن الخطاب حينما أراد أبو بكر الصديق أن يبعثه الى البحرين للسعاية —(السعاية : يقال لعامل الصدقات ساع وجمعه سعاة ، (لسان العرب . مادة سعى) — فقال : ابعثه فانه لبيب كاتب فبعثه . وتوفى سنة ثلاثة وتسعين عن مائة سنة وثـــلاث على ما قاله خليفة بن خياط فى تاريخه وهو أصح الأقوال . روى له ألف ومائتا حديث وستة وثمانون حديثا . اتفق البخارى ومسلم على مائة وثمانية وستين حديثا . وانفرد البخارى بثلاثة وثمانين حديثا ومسلم بأحد وسبعين حديثا والأخبار فى شأنه لا تحصى (الطبقات لابن سعد ج ٧ ص ١٧ — ٢٤ ، وتهذيب التهذيب ج١ ص ٣٧٦ ، وتذكرة الحفاظ ج ١ ص ٤٢ .

وقال أنس : انى لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين . الحسن ، وابن سيرين . وكان الحسن كثيرا ما يتشبه بأنس وان كان فى نفس الوقت كان يتشبه بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم عامة .

ومن روايات الحسن عن أنس بن مالك فيما يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الرسول : " الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك .(١)

ومنها عن الحسن عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا يزداد الأمر الا شدة ، ولا الدنيا الا ادبارا ، ولا الناس الا شحا ، ولا تقوم الساعة الا على شرار الناس ولا مهدى الا عيسى بن مريم .(٢)

ومنها عن الحسن عن أنس رفعه " لو أن شرارة بالمشرق - أى من نار جهنم - لوجد حرها من بالمغرب"(٣) .

ومنها : عن الحسن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت .(٤)

ومنها : عن الحسن عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم : أن مؤمنى الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنيهم فقال : على الأعراف وليس فى الجنة مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم فسألناه وما الأعراف ؟ فقال : حائط الجنة تجرى فيه الأنهار وتنبت فيه الأشجار والثمار . (٥)

وهكذا نرى الحسن البصرى كثيرا ما يروى عن أنس رضى الله عنه كما كان يتشبه به فى كثير من الأمور كلبس العمامة السوداء ، وتصفير اللحية والتقرب الى الله تعالى ، وحب النبى صلى الله عليه وسلم ...

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ج ١ ص ٢١ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ج ١ ص ١٨٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٧٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢١٠ - ورواه الدارقطنى فى الافراد وقال هذا حديث غريب تفرد به بقية .

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٧ .

٢ — عبد الله بن عباس :

من شيوخ الحسن البصرى على الأرجح عبد الله بن[1] عباس رضى الله عنهما . وأقول على الأرجح لأن هناك من ينفى صلة الحسن به .

ويثبت ابن سعد رواية الحسن عن ابن عباس ، والذهبى ، وابن حجر العسقلانى [2] . وغيرهم . وقد استفاد الحسن من ابن عباس خاصة فى تفسيره للقرآن الكريم . حدث له هذا ببركة دعاء النبى صلى الله عليه وسلم . ومن الأدلة على حب الحسن لابن عباس هذه الرواية التالية وغيرها . قيل للحسن : يا أبا سعيد : ان قوما زعموا أنك تذم ابن عباس قالوا : فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : ان ابن عباس كان من الاسلام بمكان ، ان ابن عباس كان من القرآن بمكان ، وكان الله له لسان سؤول ، وقلب عقول ، وكان والله مثجا يسيل غربا .

واستفاد الحسن من ابن عباس أيضا يقول الحسن : ان أول من عرف بالبصرة ابن عباس . صعد المنبر فقرأ سورة البقرة ، ففسرها حرفا حرفا وكان مثجا يسيل غربا . ومعنى عرف بالبصرة أى فعل فعل الحجاج بعرفة . وذلك بجمع الناس للذكر والدعاء .

---

(١) ابن عباس : هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى المدنى ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وصاحبه وحبر الأمة وفقيهها ، وترجمان القرآن قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة أو خمس عشرة سنة .

وقد دعا له النبى فقال : اللهم علمه الحكمة . روى الحسن عن أبى بكرة قال : قدم علينا عبد الله ابن عباس البصرة وما فى العرب مثله علما وحشما وثيابا وجمالا وكمالا . ويقول ابن عباس عن نفسه : " دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح بناصيتى وقال : اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب — أى القرآن " . استعمله على بن أبى طالب على البصرة فبقى أميرا عليها ثم فارقها قبل أن يقتل على وعاد الى الحجاز . وتوفى رحمه الله سنة ٥٨ هـ على الأصح . روى ألفا وستمائة وستين حديثا ، اتفق الشيخان على خمس وسبعين وانفرد البخارى بثمانية وعشرين ، ومسلم بتسعة وأربعين . وكف بصره فى آخر حياته .

(تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢٧٦ ، وتذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٧ ، وسير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٢٢٤) .

(٢) تاريخ الاسلام للذهبى ج ٤ ، وتذكرة للحفاظ للذهبى ، وتهذيب التهذيب لابن حجر والطبقات الكبرى لابن سعد .

فكان الحسن ينفذ هذه السنة الحسنة عن ابن عباس رضى الله عنهما

وفى موضع آخر يـ قول الحسن : كان عبد الله بن عباس أول من عرف بالبصرة صعد المنبر فقرأ البقرة وآل عمران ففسرهما حرفا حرفا ، وكان والله مثجا يسيل غربا . وكان يسمى البحر وحبر قريش .

وقال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل " ، وقال عمر : " غص غواص .. (١)

ومما يدل على اقتباس آراء الحسن بالكثير من آراء ابن عباس ما ورد فى تفسير قوله تعالى — مثلا — والشجرة الملعونة فى القرآن . يرى الحسن أنها شجرة الزقوم لما أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل عليه لعائن الله تعالى : هاتوا لنا ثمرا وزبدا وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا ونفس هذا الرأى روى أيضا عن ابن عباس وان كان له رأى آخر فى الشجرة الملعونة فى القرآن وهو : أن الشجرة بنو أمية يعنى الحكم بن أبى العاص وذلك — فى رأى ابن عباس — برؤيا رآها النبى صلى الله عليه وسلم . من أن ولد مروان يتداولون منبره .... الا أن الواحدى — رحمه الله — ينفى هذا التفسير لأن القصة كانت بالمدينة والسورة مكية فيبعد هذا التفسير الا أن يقال هذه الآية مدنية ولم يقل بذلك أحد (٢) ...

٣ — عامر بن عبد القيس (٣) :

اذا كان أبو موسى الأشعرى ترك أثرا كبيرا فى البصرة خاصة فى الحياة الروحية فان تلميذه الذى قرأ عليه القرآن وهو عامر بن عبد القيس من شيوخ الحسن البصرى ترك أثرا أكبر فى البصرة وبالذات فى تكوين شخصية الحسن رحمه الله . ومن أجل هذا نجد أن الشبه قوى بين الحسن وشيخه عامر ..

---

(١) الحيوان جـ ٣ ص ٤٨٩ ، والبيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص ٨٥ ، ٣١٦ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة جـ ٢ ص ١١٨ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٨ — ٤٩ ، والتفسير الكبير للامام الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٢٣٥ — الطبعة الأولى . مطبعة عبد الرحمن محمد .

(٣) عامر هذا هو : عامر بن عبد الله بن عبد القيس . نشأ فى الجاهلية فى القبيلة التى تتصل بسلمان الفارسى . ولم يدرك عامر المصطفى صلى الله عليه وسلم ثم حضر مع قبيلته الى البصرة وأطلق عليه أبو عمرو البصرى . وفيها التقى بأبى =

فهو من أوائل من أسسوا مدرسة الزهد فى البصرة واستفاد منه الحسن فوائد جمة حتى كان يروى عنه ويقص أخباره على تلامذته . لأن هذا اللون من العظات الذى يذكره عامر ما كان معروفا فى عصره ويذكر الحسن أن عامر سئل عن أمر الضيعة فى الصلاة فقال : أتجدونه ؟ قالوا : نعم . قال : والله لأن تختلف الأسنة فى جوفى أحب الى من أن يكون هذا منى فى صلاتى . ويبين أيضا أن عامر صفى قلبه من شعبة الولد والأهل . (١)

وليس معنى هذا أن الحسن كان يتتبع عامرا فى جميع أقواله وأفعاله ؟ بل كان يسير وراءه فى معظمها ما هو لا يخرج عن سماحة الاسلام بدليل أن الحسن كان يختلف معه فى أمر النساء . فقد تزوج الحسن وأنجب الأولاد ... وروى الحسن عنه كثيرا . وعلى سبيل المثال يروى عن الحسن أن عامر بن عبد القيس قال : والله لئن استطعت لأجعلن الهم هما واحدا ، قال الحسن : ففعل والله . (٢)

= موسى الأشعرى وقرأ عليه القرآن وهو من أوائل من أسسوا مدرسة الزهد فى البصرة حتى كانوا يقولون عنه : كان أعبد أهل زمانه وأشدهم اجتهادا " ، ويقولون : ان عامر بن عبد القيس أول من عرف بالنسك واشتهر من عباد التابعين بالبصرة . (أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ج ٣ ص ٨٧ - ٨٨ ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ج ٣ ص ٨٧ وما بعدها) .

وأخذ عامر بن عبد القيس يجاهد نفسه . صيام بالنهار - غالبا - وقيام بالليل حتى قال : تعزوا عن الدنيا بالقرآن فانه من لم يتعز بالقرآن عن الدنيا تقطعت نفسه حسرات . ولم يكتف عامر بزهده وورعه هذا بل كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ودعا الى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن مما عرضه ذلك للقيل والقال . وترك البصرة مرة ثم رجع اليها . شأن كل من وهب نفسه للدعوة الى الله تعالى مهما قوبل من عقبات . (صفة الصفوة لابن الجوزى ج ٣ ص ١٣٢ - ١٣٣ ، ج ١ ص ٣١٢ وما بعدها) .

وقد أخذ عامر يقسو على نفسه ويحملها على أن تكون ذلولة كما يريد . من ذلك روى عنه أنه قال : وجدت أمر الدنيا يصير الى أربع : المال ، والنساء ، والنوم ، والأكل . فلا حاجة لى فى المال والنساء . فأما النوم والأكل - فايم الله - لئن استطعت لأضرن بهما . (حلية الأولياء لأبى نعيم ج ٢ ص ١٣٨ - ١٣٩) .

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى ج ٣ ص ١٣٠ - ١٣١ ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ج ٢ ص ١٣٨ وما بعدها ، ونشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ج ٣ ص ١٣٦ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٠٦ .

ومرض عامر ، ودخل عليه أصحابه فبكى : فقيل له : أتجزع من الموت وتبكى ؟ فقال : ومن أحق منى بذلك ، والله ما أبكى جزعا من الموت ولا حرصا على دنياكم ولكنى أبكى على ظمأ الهواجر ، وقيام ليل الشتاء . (١) وأخذ يحتضر ، فقال : لمثل هذا المصرع فليعمل العاملون : اللهم انى استغفرك من تقصيرى وتفريطى وأتوب اليك من جميع ذنوبى . لا اله الا أنت . (٢)

رحم الله عامرا وتلميذه الحسن ، وأسكنهما فسيح جناته وألحقنا بهما مع الصالحين الأبرار انه سميع مجيب .

٤ — صلة بن أشيم :

من شيوخ الحسن رحمه الله أبو الصهباء " صلة بن أشيم العدوى " من كبار التابعين الذين تأثر بهم الحسن وكان من عوامل تكوين شخصيته .

صلة هذا أسند الحديث عن عبد الله بن عباس وكان يطلق عليه رجل الشفاعة .. وكان فى مجتمعه مثالا للزاهد الصادق . ومن الذين أثروا فى مدرسة الحسن كثيرا ولم يقتصر جهاده على نفسه فقط بل ظل يجاهد أعداء الله تعالى حتى ختمت حياته بالشهادة فى سبيل الله عز وجل فى أوائل امرة الحجاج على العراق .
وكثيرا ما كان يلجأ فى حياته الى المقابر خوفا من عذاب الله تعالى الذى اشتهر به حتى جعل شعاره " انك ميت وانهم ميتون " وقال لزوجه معاذة التى تزوجها " ليكن شعارك الموت فانك لا تبالين على يسر أصبحت من الدنيا أم على عسر " وقد تأثر الحسن بصلة كثيرا فى معظم أحواله . ومن روايته عنه : عن الحسن قال : أبو الصهباء صلة ابن أشيم : طلبت الدنيا مظان حلالها فجعلت لا أصيب منها الا قوتا ، أما أنا فلا أعيل فيها ، وأما هو فلا يجاوزنى ، فلما رأيت ذلك قلت : أى نفس جعل رزقك كفافا فاربعى فربعت ولم تكد .. (٣) .

وهكذا أخذ الحسن — رحمه الله — ينهل من معين صلة الصافى حتى استفاد منه بالكثير مما كان سببا فى أستاذيته وامامته .

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى ج ٣ ص ١٢٧ .
(٢) أسد الغابة لابن الأثير ج ٣ ص ٨٩ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٣٤ — ١٣٧ ، حلية الأولياء لأبى نعيم ج ٢ ص ٢٤١ — ٢٤٢ ، وصفة الصفوة لابن الجوزى ج ٣ ص ١٤٢ وما بعدها .

٥ — هرم بن حيان العبدى :

من شيوخ الحسن : الثقة الزاهد " هرم بن حيان العبدى " .

يقول عنه ابن سعد (١) . وكان ثقة وله فضل عبادة . روى عنه الحسن البصرى .
وأبو نعيم الأصبهانى يحكى طرفا من زهده وورعه فيروى أنه رحل يوما الى الخليفة
عمر من عبد الله بن عامر ، وكان واليا لعمر ، ثم لمعاوية فيما بعد . وكان الاثنان
على رواحلهما ، وأعناق الرواحل تخالج الشجر . ونظر هرم بن حيان
الى شجر منها . وقال لزميله " أتحب أنك شجرة من هذه الشجر . فقال
ابن عامر : لا والله . انا لنرجو من رحمة الله ما هو أوسع من ذلك فقال
هرم : لكنى والله لوددت أنى شجرة من هذه الشجر ، قد أكلتنى هذه الراحلة ،
ثم قذفتنى بعرا ، ولم أكابد الحساب يوم القيامة ، اما الى الجنة وما الى النار .
ويحك يا ابن عامر انى أخاف الداهية الكبرى " فلننظر اليه حينما ولاه عمر بن
الخطاب ماذا فعل هرم بن حيان ؟ . وبالطبع حينما يلى بعض الناس أمرا
من الأمور تطلع اليه أهله ومعارفه .. هكذا اعتقد هرم فأسرع باشعال نار
كبيرة بينه وبين الطامعين فيه . فجاء قومه بالفعل يسلمون عليه من بعيد .
فطلب منهم أن يدنوا اليه ، قالوا : والله ما نستطيع أن ندنو منك . لقد
حال النار بيننا وبينك . فقال : وأنتم تريدون أن تلقونى فى النار أعظم منها ،
فى نار جهنم . (٢)

ورفض بعد هذا الامارة فى أى مكان ، وانطلق هاربا الى ربه ينادى فى
الليل : عجبت من الجنة ، كيف ينام طالبها ، وعجبت من النار كيف ينام
هاربها ، " أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون " (٣) ثم يقرأ
والعصر والهاكم التكاثر ثم يعود الى بيته ، فاذا رأى أهله يكثرون الضحك
أمرهم بالصلاة . (٤)

وكان الحسن البصرى يتشبه به كثيرا ويروى عنه كما ذكرنا . ومن هذه
المرويات : عن الحسن عن هرم بن حيان أنه كان يقول : أعوذ بالله من
زمان يمرد فيه صغيرهم ، ويأمل فيه كبيرهم ، وتقترب فيه آجالهم ، قال : فيقال
له : أوصنا فيقول : أوصيكم بخواتيم سورة البقرة .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٣١ .
(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ج ٢ ص ١٢٠ .
(٣) سورة الأعراف آية رقم ٩٧ .
(٤) صفة الصفوة لابن الجوزى ج ٣ ص ١٣٧ وما بعدها ، حلية الأولياء لأبى نعيم
ج ٢ ص ١١٩ — ٢٢٠ .

وعن الحسن قال : مات هرم بن حيان في غزاة له في يوم صائف ، فلما فرغ من دفنه جاءت سحابة فرشت القبر حتى ترده لا تجاوز القبر منها قطرة واحدة ثم عادت عودها على بدئها (١) .

وهكذا عاش هرم بن حيان في طاعة الله تعالى ومات على خير حال .
واقتبس الحسن البصري من حياته ما جعله في عداد الأصفياء الأخيار .

٦ — حطان الرقاشي :

من شيوخ الحسن البصري حطان بن عبد الله الرقاشي . أو السدوسي كبير القدر ، صاحب زهد وورع وعلم ، روى عن عمر وعلى ، وتوفى في خلافة عبد الملك بن مروان في ولاية بشر بن مروان على العراق في سنة نيف وسبعين من الهجرة النبوية . وكان ثقة قليل الحديث . قرأ على أبي موسى الأشعري عرضا وقرأ عليه عرضا الحسن البصري (٢) .

٧ — أبو العالية :

من شيوخ الحسن البصري الذين عرض عليهم القرآن الكريم واستفاد بعلمهم أبو العالية وهو : رفيع بن مهران ، أبو العالية الرياحي ، من كبار التابعين ، أسلم — رحمه الله — بعد النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين ، ودخل على أبي بكر ، وصلى خلف عمر ، عرض القرآن الكريم على الصحابي أبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عباس ، وعمر وسنده صحيح الى عمر ، ثقة حجة : توفى سنة ٩٠ هـ .
أبو العالية هذا عرض عليه القرآن الحسن البصري (٣) .

٨ — الأحنف بن قيس :

من شيوخ الحسن البصري الذين تأثر بهم "الأحنف بن قيس" (٤) . وكان يعتبر

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٣٣ .
(٢) طبقات القراء ج ١ ص ٢٥٣ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٢٨ .
(٣) طبقات القراء ج١ ص ٢٨٤ ، وميزان الاعتدال للذهبي ج١ ص ٣٠٣ .
(٤) الأحنف هو : الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن عباد . ينتهى نسبه الى زيد مناة بن تميم . وقد أدرك عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصحبه وشهد بعض الفتوحات منها قاشان والنمرة قال ابن قتيبة : ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم بني تميم يدعوهم الى الاسلام كان الأحنف فيهم ولم يجيبوا الى أتباعه ، فقال لهم الأحنف : انه يدعوكم الى مكارم الأخلاق وينهاكم عن ملائمها =

شيخ البصرة الكبير بلا منازع . ووجه الشبه بينه وبين الحسن كبير والدليل على تأثر الحسن به . ما نراه من الأحنف عليه رحمة الله .

فقد وضع للبصريين أو بمعنى أصح للناس جميعا . مقاما للمحاسبة . وهو ما يطلق عليه القرآن الكريم " النفس اللوامة " قال تعالى : لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة "(١) . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا "(٢) ولم يضعه الأحنف نظريا بل كان عمليا أيضا . فاذا ما قضى الليل فى الصلاة والدعاء أقبل على المصباح ، فيضع اصبعه فيه لكى يحترق بنيرانه ، ثم يقول : حس ... يا أحنف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ، ما حملك على ما صنعت يوم كذا .. " .

وحينما نلتفت الى الحسن البصرى نجد قوله متؤثرا به " ان المؤمن لا تراه الا ويلوم نفسه ، ويقول : ما أردت بهذا ؟ لم فعلت هذا ؟ كان غير هذا أولى الى غير ذلك من الكلام الذى يدل على هذا المعنى (٣) .

= فأسلموا وأسلم الأحنف ولم يفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان زمن عمر بن الخطاب وفد عليه ... وقد كان من جلة التابعين وأكابرهم وكان يضرب به المثل فى الحلم . وروى الأحنف عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وكثير من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كما روى عنه جميع من التابعين ومن أشدهم الحسن البصرى — رضى الله عنه — وشهد الأحنف صفين مع على ، ولم يشهد واقعة الجمل لأنه كان يعتزل الفتنة اذ ذاك . وكان الأحنف — عليه رحمة الله — من عباد البصرة الزاهدين المخلصين الذين تركوا أثرا كبيرا فى المجتمع الاسلامى .

(المعارف لابن قتيبة ص ١٨٧ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ج ، الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ص ٩٣ وما بعدها) .

(١) سورة القيامة آية رقم ١ ، ٢ .

(٢) اليواقيت الجوزية لابن الجوزى ص ١٦ .

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزى ج ٣ ص ١٢٤ ، وكتاب الروح لابن القيم ص ٢٥٥ وما بعدها .

وقال الحسن البصرى : أيسر الناس حسابا يوم القيامة الذين حاسبوا أنفسهم لله عز وجل فى الدنيا ...

(اليواقيت الجوزية فى المواعظ النبوية ص ١٦) .

وقد روى الحسن البصرى عن الأحنف الكثير ومن هذه المرويات ما يلى :

أ — روى الحسن عن الأحنف قوله : والله ما سمعت كلمة الا طأطأت لها رأسى لما هو أعظم منها (١) .

ب — ومن كلام الأحنف الذى تأثر به الحسن : " ما ادخرت الآباء للأبناء ولا أبقت الموتى للأحياء ، أفضل من اصطناع المعروف عند ذوى الآداب .
كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة .
من لزم شيئا عرف به . جنبوا مجلسنا ذكر الطعام والنساء فانى لأبغض الرجل يكون وصافا لبطنه ولفرجه . وان من المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه ...

ج — وعن ابن عون عن الحسن قال : ذكروا عند معاوية شيئا فتكلموا والأحنف ساكت ، فقال معاوية : تكلم يا أبا بحر ، فقال : أخاف الله ان كذبت وأخافك ان صدقت (٢) .

د — عن الحسن البصرى عن الأحنف قال : قدمت على عمر بن الخطاب فاحتبسنى عنده حولا فقال : يا أحنف قد بلوتك وخبرتك فلم أر الا خيرا ورأيت علانيتك حسنة وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك . فانا كنا نتحدث انما هلك هذه الأمة كل منافق عليم . وكتب عمر الى أبى موسى الأشعرى : أما بعد : فادن الأحنف بن قيس وشاوره واسمع منه (٣) .

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى جـ ٣ ص ١٢٤ ، ونشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام جـ ٣ ص ١٣٩ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص ٩٥ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص ٩٤ .

هذه نماذج لأساتذة الحسن البصري وشيوخه على سبيل المثال أردنا بها اعطاء القارئ الكريم فكرة سريعة عن جانب كبير من جوانب مكونات شخصية الحسن — رحمه الله — والا فهناك الكثير من شيوخه الذين أثروا فيه الكثير مثل : عمران بن الحصين .. الذى بعثه عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يفقه أهل البصرة .. ، والأسود بن سريع بن حميرى بن عبادة الذى كان من أول من قص فى مسجد البصرة كما قال الحسن .. ، وسمرة بن جندب بن هلال الذى شهد أحدا مع النبى صلى الله عليه وسلم ... ، وعلاثة بن شجار السليطى الذى روى عنه الحسن سماعه من النبى عليه الصلاة والسلام " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يوبقه ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته "(1) .. ، وعمران بن ملحان الملقب بأبى رجاء العطاردى الذى كان شقة فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم .... ، ومطرف بن عبد اللمبن الشخير الذى كان يعتزل الفتنة تماما .. ، وصفوان بن محرز المازنى الذى قال فيه الحسن البصرى : سرب لا يخرج منه الا للصلاة ... ، والهياج بن عمران البرجمى الذى روى عنه الحسن المثله عن عمران بن الحصين ... ، والقاسم ابن ربيعه الذى كان اذا سئل الحسن عن شئ من أمر النسب قال : عليكم بالقاسم بن ربيعة ... ، وأبو الحلال العتكى الأزدى ... ، وخليد بن عبد الله العصرى ... ، وميمون بن سياه ... والامام على كرم الله وجهه ، وأبو هريرة رضى الله عنه مع الخلاف فى سماعه منهما مما سنتعرض له ان شاء الله ... الى غير هؤلاء الأعلام الذين رفعوا راية الاسلام وكانوا سببا فى تكوين هذه الشخصية الفذة — شخصية الحسن — التى فعلت الكثير لأجل الحفاظ على وحدة الأمة والأخذ بيدها الى طريق النجاة والفلاح(2) .

وبلغ من أمر عناية الأمة بشخصية الحسن أن أحد العلماء وهو الحافظ بن عبد الواحد المقدسى ألف مصنفا عمن لقيه الحسن من الصحابة ولكن للأسف الشديد بعد جهد لم أعثر على هذا المؤلف الى الآن ولعلنى بمواصلة البحث عن الحسن أصل اليه ان شاء الله ... .

واذا كان شيوخ الحسن تركوا أثرا ظاهرا فى حياته فلا ننسى أقرانه الذين تعامل معهم وعاش بجوارهم واستفاد أيضا بعلمهم . لأن الانسان قد يستفيد بعلم تلميذه فضلا عن زميله وقرينه .

---

(1) متفق عليه .
(2) الطبقات الكبرى لابن سعد المجلد السابع ، وحلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى المجلد الثانى ، وصفة الصفوة لابن الجوزى المجلد الثالث ، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى المجلد الثانى ... .

وقرناء الحسن من العلماء كثيرون أذكر منهم على سبيل المثال من له صلة وثيقة بالحسن فيما يلى :

١ — ابن سيرين :

هو العالم الزاهد الورع محمد بن سيرين (1) البصرى ، مولى أنس بن مالك ، امام البصرة مع الحسن . روى عن كثير من الصحابة ، وله مع الحسن البصرى صلة وثيقة .

واذا أردنا وضعه بجوار الحسن البصرى نستطيع أن نقول ما يلى :

الحسن يمتاز بشجاعته وصراحته وفصاحته .. ويظهر موقفهما جليا حينما ذهب الحسن وابن سيرين والشعبى الى والى البصرة ابن هبيرة — كما ذكرنا — فترى ابن سيرين والشعبى قالا قولا فيه تقية ..

---

(١) هو : محمد بن سيرين الأنصارى ، كان أبوه مولى أنس بن مالك ، من سبى عين النمر — من بادية العراق قرب الأنبار — أسره خالد بن الوليد فاشتراه أنس بن مالك ، وكاتبه وأدى كتابته وعتق وكانت أمه صفية مولاه لأبى بكر .. ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان وله من الأولاد : محمد هذا ، وأنس ، ومعبر ، ويحيى ، وحفصة وكريمة وكلهم رواه ثقات كان محمد بن سيرين — رحمه الله — ورعا زاهدا عالما فقيها حافظا مؤدبا . دقيق العبارة وكان به صمم . سئل عن فتيا فأجاب وأحسن القول فيها ؟ فقال رجل : والله يا أبا بكر لقد أحسنت القول فيها ، وعرض ، كأنه يقول : ما كان الصحابة تحسن أكثر من هذا فقال محمد : لو أردنا فقههم لما أدركته عقولنا . وقصة صبة الزيت بسبب وجود الفأرة فيه معروفة روى عن زيد بن ثابت ، والحسن بن على ، وأنس بن مالك ، وحذيفة بن اليمان ، وغيرهم كما روى عنه الشعبى وخالد الحذاء ، وعاصم الأحول ، ومالك بن دينار وغيرهم توفى سنة ١١٠ هـ وورد ت عن ابن سيرين الرواية فى حروف القرآن الكريم .
واشتهر بتعبير الرؤيا . ويرى صاحب فجر الاسلام بأنه زيف عليه كتاب فى ذلك . ويستشهد بأنه لم يذكر فى كتب المتقدمين أمثال ابن سعد فى الطبقات . والواقع أن الأخبار الكثيرة فى هذا الموضوع تثبت أن له أصلا وذلك أن ابن النديم ذكره فى الفهرست ، وبروكلمان فى تاريخ الأدب العربى ذكره فى طبعاته المختلفة فى القاهرة وغيرها ، كما ذكر فى تهذيب التهذيب لابن حجر ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ، ورغبة الآمل للسيد المرصفى ، كما أنه طبع على هامش كتاب تعطير الأنام للنابلسى سنة ١٣٠٤ هـ الى غير ذلك ...
(طبقات القراء للجزرى ج ٢ ص ١٥١ ، وتذكرة الحفاظ للذهبى ج ١ ص ٧٣ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٩٣ — ٢٠٦ ، وفجر الاسلام لأحمد أمين ص ٢٢٨ — ٢٢٩ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ج ١ ص ٢٥٥ ...) .

أما الحسن — عليه رحمة الله تعالى — فقد قال رأيه بكل صراحة وشجاعة .

وكان الحسن وابن سيرين صديقين حينا ، وبينهما وحشة حينا آخر .. حتى أن الحسن لما مات لم يتبع ابن سيرين — الذى مات بعده بمائة يوم — جنازته لأمر خفى — قيل من أسبابه أن ابن سيرين ما كان يصلى عملا الا بنيـــة وعند جنازة الحســـن لم تكن لديه النية ... وسبب هذه الوحشة اختلاف طباعهما . فقد كان الحســـن صريحا — كما عرفنا — شديدا حزينا غضوبا لا يخشى أن يقول ما يعتقد حتى فـــى المسائل الخطيرة ، وكان ابن سيرين ضحوكا يتحرج أن يقول ما يؤخذ عليه [1] .

وكان كل من الحسن وابن سيرين له فى الآخر وجهة نظر وعلى سبيل المثال : نرى الحسن لا يعجبه فى ابن سيرين شدة ثقته بنفسه فى تعبير الرؤيا . كما نـــرى ابن سيرين لا يعجبه فى الحسن اندفاعه فى التفسير كأنه شهد التنزيل [2] .

ويروى الشيخ محمد أبو زهرة كلام كل واحد منهـــم فى صاحبه بما يصـــدق قول الأعمش ، كان ابن سيرين يعرض بالحسن المعتزلى ، ويقول : يأخذ الجـــوائز من السلطان ، ويروى المحالات ، ويقول بالهوى ، ويقول بالقدر كأنه اله الأرض يتفـــرد بالفعل دون ربه . الى آخر ما روى عن ابن سيرين فى ذلك .

وبالعكس كان الحسن أيضا — كما يدعون — يعرض بابن سيرين ويقـــــول : يتوضأ بالقربة ، ويغتسل بالزاوية صباحا دلكا دلكا ، تعذيبا لنفسه ، وخلافا لسنة نبيه عليه الصلاة والسلام . يعبر الرؤيا كأنه من آل يعقوب عليه السلام الى آخر ما روى عن الحسن فى ذلك .. [3] .

والتعليق على ما حدث بين الحسن البصرى وابن سيرين من وجوه :

أولا : ننكر كل ما قاله أحدهم فى الآخر — وليس بعضه — لأن حالة الزهد والورع التى وصلا اليها تناقضان هذا . فهما يعرفان حقيقة الأثر الخطير للغيبة والنميمة ، والهمز واللمز الى غير هذا من الأمور السيئة التى يتعفف عنها عامة النـــاس فضلا عن خواصهم وقدوتهم .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٩٣ — ٢٠٦ .
وتذكرة الحفاظ للذهبى ج ١ ص ٧٣ .
(٢) محاضرات الراغب الأصفهانى ج ١ ص ٧١ ، والمعارف لابن قتيبة ص ٢٣٠ ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ج ٢ ص ٢٧٠ .
(٣) أبو حنيفة : حياته وعصره . آراؤه وفقهه للشيخ محمد أبو زهرة ص ٨٩ — ٩٠ الطبعة الثانيـــة .

ثانيا : اذا صح البعض يكون هذا بمثابة تعريف بانسان يراد منه أى أمر من الأمور — مثلا — كما اذا سئل الانسان أمام القاضى عن انسان يعرفه فانه يذكر كل ما يتصف به ولو عاهات حتى تكون شهادته واضحة ..

ثالثا : عصمة البشر لا تكون الا للأنبياء والمرسلين . وما يحدث لغيرهم مادام ذلك لا يقدح فى دينهم لا يكون حدوثه محالا فيما بينهم .. ومن الممكن فى نهاية الحديث عن علاقة الحسن بابن سيرين أن نضع هذه الموازنة بينهما ليتضح المقام أكثر .

موازنة بين الحسن وابن سيرين

الحسن البصرى	ابن سيرين
١ — متساهل فى التجارة لا يريدها	١ — دقيق فى التجارة على حذر
٢ — غضوب كثير الكلام والحزن غزير الدمعة لا يتكلم الا فى كلام الآخرة	٢ — حليم طويل الصمت كثير الضحك والدعابة يتحدث فى الأخبار والأشعار
٣ — يروى الحديث بالمعنى متساهلا فى ذلك	٣ — متشدد دقيق فى الرواية
٤ — كان قوى الذاكرة ...	٤ — ضعيف الذاكرة حتى أنه كان يصلى والمصحف بجواره فاذا شك نظر فيه (١) .

٢ — عامر الشعبى :

من أقران الحسن وأصحابه " عامر الشعبى " العالم الربانى . الحافظ الأديب . ولد رحمه الله لست خلت من خلافة عمر بن الخطاب أى سنة ١٧ هـ ونشأ بالكوفة وهى يومئذ مركز من مراكز العلم والثقافة والمعرفة وكانت تضارع البصرة .. رأى الشعبى حوالى خمسمائة من الصحابة فأخذ عنهم مثل : على ، والحسين والحسين ، وابن عباس ، وأنس ابن مالك ، وعبد الله بن عامر ، وأسامه ابن زيد وغيرهم وغيرهم ، روى الخطيب البغدادى بسنده وابن عساكر فى تاريخه عن أبى أسامه قال : كان عمر بن الخطاب رأس الناس فى زمانه ،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص ١٩٣ — ٢٠٦ ، والمصاحف لابن أبى داود ص ١٩٤ ، ومذكرة عن الحسن البصرى للأستاذ البهى الخولى .

وهو جامع للعلم — انفرد بهذا ابن عساكر — وكان بعد ابن عباس فى زمانه ، وأخرجا — أى الخطيب وابن عساكر — خبرا آخر عن الزهيرى — المشهور — قال : العلماء أربعة : " سعيد بن المسيب بالمدينة وعامر الشعبى بالكوفة ، والحسن بن أبى الحسن بالبصرة ومكحول بالشام .

قال أبو بكر الهزلى : قال محمد بن سيرين : اذا جئت الكوفة فاستكثر من حديث الشعبى فانه كان ليسأل وان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحياء " وكان رحمه الله قاضيا فى عهد عبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز .. ومات رحمه الله سنة ١٠٥ هـ وقد عرفنا سابقا قصة دخول الشعبى وابن سيرين والحسن على ابن هبيرة . وكان — عليه رحمة الله — يهتم كثيرا بالقرآن فقد عرض القرآن على السلمى وعلقمة بن قيس ، وهو القائل : " القراءة سنة ، فاقرأوا كما قرأ أولوكم " .

واذا كان الشعبى قد روى عن كثير من الصحابة فقد روى عنه الكثير أيضا مثل : سعيد بن مسروق الثورى ، والأعمش ، ومنصور ، و سماك بن حرب ، وشعبة بن الحجاج وغيرهم .. وبلغ من قوة ذاكرة الشعبى رحمه الله أنه كان يعتز بهذه الذاكرة — تحدثا بنعمة الله تعالى — فيقول : ما كتبت سوداء فى بيضاء ..(١)

وهناك الكثير من أصحاب الحسن وأقرانه أمثال : سعيد بن أبى الحسن شقيق الحسن الذى حزن على وفاته حزنا شديدا . حتى قيل له : يا أبا سعيد انك تعلم الناس وانهم يرونك تبكى فيذهبون بهذا الى عشائرهم فيقولون : رأينا الحسن يبكى عند المصيبة ، فيحتجون به على الناس ، فحمد الله وأثنى عليه وقد خنقته العبرة فقال : الحمد لله ان الله جعل هذه الرحمة فى قلوب المؤمنين فيرحم بها بعضهم بعضا ، فقد مع العين ويحزن القلب وليس ذلك بجزع انما الجزع ما كان من اليد واللسان ، ثم قال الحسن : ان الله لم يجعل حزن يعقوب عليه ذنبا اذ قال : وابيضت عينان من الحزن فهو كظيم ... ، وجابر بن زيد الأزدى الذى كان يحب الحسن حبا جما . وبلغ من هذا الحب وهو يحتضر أن أخذ يشتكى

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبى جـ ١ ص ٧٥ ، وتهذيب التهذيب لابن حجر جـ ٥ ص ٦٥ ، والطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٦ ص ١٧٢ ، وطبقات القراء جـ ١ ص ١٤٤ .

من شدة مابه من التعب فقيل له : ما تشتهى ؟ قال : نظرة من الحسن فانطلق ثابت البنانى الى الحسن وهو متوار فى منزل أبى خليفة فجاء به اليه فقال : أقعدونى . وهكذا أخذ يتكلم معه الحسن بما يناسب المقام .. ، ومسلم بن يسار الذى قال فى شأنه ابن عون : كان مسلم بن يسار لا يفضل عليه فى ذلك الزمان أحد .. وقال بعض العلماء فى شأنه : كان مسلم ثقة فاضلا عابدا ورعا أرفع عندهم من الحسن ، حتى خرج مع عبد الرحمن ابن الأشعث فوضعه ذلك عند الناس وارتفع الحسن عنه .. ، والنضر بن أنس بن مالك الثقة الذى مات قبل الحسن رحمهما الله ، يروى حرب بن مسمون الأنصارى قال : بينما محمد بن سيرين يغسل النضر بن أنس بن مالك والحسن البصرى شاهد وأنا أعطيهم فقال : محمد : حىّ بنمط ، فجئته بنمط أحمر ، فقال محمد : يا أبا سعيد هذا زينة قارون ، فقال له الحسن : نعم ، فقال لى محمد : حىّ بغيره قال : فجئته بنمط آخضر فلفّه فيه .. ، وبكر بن عبد الله المزنى الذى كان كثير الحديث حجة ثقة ثبتا مأمونا .. كان يقول فى دعائه : " اللهم ارزقنا من فضلك رزقا تزيد نا به لك شكرا واليك فاقة وفقرا وبك عمن سواك غناء وتعففا .. "

كان يقول : انى لأرجو أن أعيش عيش الأغنياء وأموت موت الفقراء .. وكان اذا لبس كسوته يجىء الى المساكين فيجلس معهم يحدثهم .. ويقول : انهم يفرحون بذاك . ومن أجل هذا وغيره كان الحسن البصرى يسميه : بكرا المكيس وحضر الحسن جنازة بكر بن عبد الله وهو على حمار . عليهما رحمة الله تعالى ..(1)

رابعا : من عوامل تكوين شخصية الحسن . عصره الذى عاش فيه وقد التقى فيه علمان . علم النبوة وقد حمل هذا العلم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم الذين التقى ببعضهم الحسن — رحمه الله — أمثال : أنس بن مالك ، وابن عباس ، وعبد الله بن عمر الخ .. وعلوم أخرى : جاءت الى الأمة بعد الفتوحات الاسلامية وبالطبع هذه الأمم التى دخلت الاسلام لها حضارتها وأديانها القديمة وثقافتها المختلفة . فكان لابد من اختلاط بين الثقافة الاسلامية الجديدة والثقافات الأخرى . وعلى هذا فلا مناص من ضابط وميزان نعرف به الصحيح من السقيم . ولم يكن هذا الضابط سوى النوع الأول من العلم

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد المجلد السابع ..

وهو كتاب الله تعالى والمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وما أخذ به السلف الصالح • فكان هذا العلم هو الضابط والميزان لكل ما يراد أخذه من الثقافات المختلفة التي نتجت عن هذه الفتوحات الاسلامية •

ولا ننسى أيضا انتفاع الحسن — رحمه الله — بالفصاحة التي كان يشتهر بها الصدر الأول من الاسلام وقد أوضحنا القول عن عصره

خامسا : ثقافته الواسعة في الاسلام : وهذا يتمثل في حفظه وفهمه للقرآن الكريم حتى كان لا ينتقل من سورة الى سورة حتى يعرف تأويلها وفيم أنزلت •• كذلك استيعابه لكثير من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وآثار السلف الصالح رضي الله عنهم •

وفي غير الاسلام وهذا يتمثل في المدارس الثقافية المختلفة بالعراق مما جعله يوازن بين هذه وتلك ويخرج برأى صحيح في ضوء الاسلام ويهدم ما عداه •

سادسا : مساهمته في الفتوحات الشرقية التي اكسبته الخبرة النافعة •

سابعا : الظروف التي ساعدته بسبب المولد والنشأة مع اخلاصه لله عز وجل وتوفيق الله له •

وصدق الله العظيم اذ يقول : " وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب " •

الباب الثالث

فكره .. وزهده .. ودعوته الى الله تعالى

الفصل الأول : فكره ...

الفصل الثاني : زهده ...

الفصل الثالث : دعوته الى الله تعالى ...

الباب الثالث

(فكره .. وزهده .. ودعوته الى الله تعالى)

هذا الباب يعتبر من أهم أبواب الرسالة . خاصة الفصل الثالث منه وهو : دعوته الى الله عز وجل . لأن الحسن — رحمه الله — كان يضع جميع امكانياته فى خدمة هذه الدعوة المباركة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان هذه الرسالة من قسم الدعوة والارشاد فلابد وأن يكون مجالها — غالبا — حول هذه المعانى التى يهتم بابرازها قسم الدعوة أسوة ببقية الأقسام الأخرى وعلى ذلك فقد قسمت الباب الثالث الى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : فكره ، ويحتوى على فكر الحسن عموما سواء كان ذلك فى التفسير أو القراءات أو الحديث أو العقائد أو الفقه أو الزهد الخ ..

الفصل الثانى : زهده ، ويشرح قضية الزهد خاصة فى صدر الاسلام وموقف الحسن منها . مع بيان العلاقة التى تربط الزهد بالتصوف ..

وهذا الفصل مرتبط بسابقه لأنه يعتبر كتفصيل بعد الاجمال فى قضية اشتهر بها الحسن — عليه رحمة الله — واستغلها الكثير من المستشرقين لبيان أن الاسلام دين الآخرة فقط وليس له فى الدنيا نصيب . وهذه الناحية — فى اعتقادهم — هى التى أدت بالمسلمين الى التأخر ، والانحطاط الى يومنا هذا ..

الفصل الثالث : دعوته الى الله تعالى ، ويتعرض هذا الفصل لاظهار الدعوة الى الله عموما على سبيل الاجمال ولدعوة الحسن ومنهجه فيها بالتفصيل . مع ذكر نماذج تحليلية لخطبه ومواعظه ..

وهذا الفصل — دعوته الى الله تعالى — يعتبر كتطبيق لكل ما سبق من أفكاره ، وزهده .. لأن هدف الحسن البصرى — رحمه الله — مدة حياته التى عاشها بالعرض لا بالطول فقط هو : الوصول بالمجتمع الاسلامى فى عصره الى المكانة التى يجب أن يكون عليها . باذلا فى سبيل هذا الهدف كل ما يملك من علم وعلى . مقتديا فى هذا كله بالسلف الصالح عليهم جميعا رضوان الله تعالى .

الفصل الأول

(فكـــــــــــــره)

قبل أن نتعرض لفكر الحسن البصري يقتضينا المقام أن نفهم معنى " الفكر"

معنى الفكر :

بالبحث فى كتب اللغة العربية وغيرها وجدنا أن الفكر — بالكسر ويفتح — معناه : تردد القلب بالنظر والتدبر لطلب المعانى • أو اعمال النظر فى الشىء كالفكرة والفكرى — بكسرهما — ويقال أيضا : الفكر هو : ترتيب أمور فى الذهن يتوصل بها الى مطلوب يكون علما أو ظنا •• (١) •

وعلى هذا من الممكن أن نفهم قول بعض الأدباء : الفكر مقلوب عن الفرك لكن يستعمل الفكر فى المعانى وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للوصول الى حقيقتها • ومن المادة أيضا التفكر " وهو : جولان الفكرة — التى هى قوة مطرقة للعلم الى المعلوم — بحسب نظر العقل وذلك للانسان دون الحيوان ولا يقال الا فيما يمكن أن يحصل له صورة فى القلب • ولهذا روى عن النبى صلى الله عليه وسلم " تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله " (٢) • اذ كان الله منزها أن يوصف بصورة • قال تعالى : " ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٣) " ••

وهذا الكلام الذى نتكلم به أو الألفاظ التى ننطق بها تسمى " لغة " ولا بد لهذه اللغة من عملية التفكير لكى تؤدى مهمتها كما ينبغى • وعلى هذا نستطيع أن نخرج من كل ما ذكرناه بأهمية الفكر وضرورته وأنه — أى الفكر — هو الذى يربط الألفاظ بمعانيها •• أو هو الذى يتوسل به الانسان الى توسيع نطاق اللغة وتنظيمها • ومن شواهد تأثير الفكر على اللغة كما يقول الشيخ الخضر حسين لا يرتفع شأنها وتظهر فصاحة ألفاظها وغزارة مادتها وحسن بيانها • الا أن تلد أرضها

---

(١) القاموس المحيط ج ٢ ص ١١٥ — طبعة الحلبى • والمصباح المنير مادة (فكر) •

(٢) هذا الحديث له طرق عن ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن سلام وأسانيدها (تمييز الطيب من الخبيث للشيبانى • والجامع الصغير للسيوطى) •

(٣) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٨٤ والآية الكريمة من سورة النحل رقم ١١ وغيرها وقد وردت مادة (فكر) فى القرآن الكريم عدد ١٨ مرة •

رجالا ذوى عقول نيرة وقرائح جيدة (١) . والحسن البصرى من هؤلاء الرجال الذين نحتاج الى فكرهم .

أهمية الفكر فى الاسلام :

لقد مر الفكر البشرى بأطوار مختلفة يصعد تارة وينحدر تارة أخرى وفقا للأهواء والأغراض ، سواء كان ذلك فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى حيث أن الكنيسة ظلت هى المهيمنة على الحياة العقلية الى أن جاء عصر النهضة ، أو فى الشرق حيث الجدل القاحل الذى كاد يقضى على الانتاج الفكرى البشرى . وبينما الحياة العقلية فى الشرق على هذه الصورة من الجدل ، والتعارض بين الفلسفة والعقيدة حدث ذلك الحادث الهائل الذى قلب دنيا العصور الوسطى رأسا على عقب ، وغير وجه التفكير العالمى كله وهو ظهور الاسلام الذى لم يلبث أن وضع الشرق وجانبا عظيما من الغرب تحت سلطانه ، ووحد بين العناصر المختلفة ، وفرض عليها عقيدته المؤسسة على مبدأ التوحيد الكامل الذى لا مشابهة فيه بوجه ، والتى تصرح بأن ارادة الاله وقدرته لا تتقيدان بناموس ولا تقفان عند حد ، ولا تنحنيان لعلة من العلل أيا كانت طبيعتها كما قال الدكتور غلاب (٢) .

وصدق الله العظيم اذ يقول : " لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون " (٣)

هذا التفكير الاسلامى الذى أحدث دويا فى الفكر البشرى كله — خاصة الالهى منه — مر هو الآخر بأطوار مختلفة منها : طور التمهيد والاعداد ، وطور النضوج والكمال والانتاج ، وطور الضعف والاضمحلال وعدم الابتكار ..

والذى يعنينا من هذا كله هو الطور الأول — أعنى طور التمهيد والاعداد — لأنه وجد فى عصر الحسن البصرى وقبل ترجمة الفلسفة اليونانية فى العصر العباسى .

وفى هذا المعنى يقول الدكتور عوض الله حجازى : " فالدور الأول : دور التمهيد والاعداد ، يشمل حال التفكير الاسلامى فى وقت عزلته قبل ترجمة الفلسفة اليونانية ، ونقلها الى اللغة العربية ، وذلك فى عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية ، وما حصل من التفكير الاسلامى على يد بعض علماء هذا العصر أمثال :

---

(١) دراسات فى العربية وتاريخها للشيخ محمد الخضر حسين ص ١١ — ١٢ الناشر : المكتب الاسلامى بدمشق — الطبعة الثانية ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م

(٢) ينابيع الفكر الاسلامى وعوامل تطوره للدكتور محمد غلاب ص ١٠ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٢٣ .

(الحسن البصري ، وواصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد) وغيرهم من بناة علم الكلام في فترة تكوينه الأولى ، فلم يتعد بعض المسائل القليلة ، مسألة مرتكب الكبيرة ، ومسألة الامامة ، والايمان والكفر ، ولم يكن ذلك التفكير الذي نشأ في هذا الدور حول هذه المسائل يستند الى أدلة عقلية قوية ، وعمق في التفكير ، وانما كان في الغالب مستندا الى أدلة نقلية ، ونظرة سطحية ، ولم يكن له طابع التفكير الفلسفي العميق" . ثم انتقل التفكير الاسلامي بعد هذا — كما عرفنا — الى دور النضوج والكمال والانتاج .. يشهد بذلك التاريخ والواقع بما لا يحتمل الشك . ومع هذا يذاع بين الأوربيين في القرن التاسع عشر فكرة خطرة على الحقيقة والتاريخ ، مؤداها — كما يقول الدكتور غلاب — أن الاسلام كان حربا ضروسا على حرية الفكر ، وأنه كبت جميع الحركات العلمية فحارب العلم والفلسفة وحظر على معتنقيه التأمل والنظر ، وأن العرب مدينون بالعناصر الأولى من أفكارهم للاغريق اذ أنه لم يظهر لديهم قبل عصر الترجمة شيء من التفكير . وكان " أرنست رينان " أبرز دعاة هذه الفكرة الخاطئة فأفسح لها أمكنة واسعة في عدة كتب من مؤلفاته ، وأفرد لها سفرا خاصة عنوانه (الاسلام والعلم) فانتشرت بسبب هذه الدعاية في جميع الأوساط الأوربية المشفقة على ما بها من عداء للحق وافتيات على التاريخ ، وقد أذاع (رينان) هذه الفكرة في جامعة (السوربون) ثم رد عليها المغفور له السيد جمال الدين الأفغاني بما ألجأه الى الاعتراف بخطئه فيما قرره "(١) .

ونحن في هذه الكلمة عن الفكر الاسلامي سنكتفي بما ذكرنا لأن هذا الموضوع متشعب الآراء تناوله الباحثون قديما وحديثا بما لا يحتمله المقام .

واذا كنا نضع هذه الكلمة بين يدي فكر الحسن ، فلابد لنا أن نعطي للقارئ الكريم فكرة عن تلاميذ مدرسته التي كونها في البصرة .

مدرسة الحسن أو تلاميذه :

بعد هذه اللمحة عن معنى الفكر ، وأطواره وأهميته في المجتمع البشري يجيء دور تلاميذ الحسن الذين تتلمذوا في مدرسته .

---

(١) ينابيع الفكر الاسلامي وعوامل تطوره للدكتور محمد غلاب ص ١٨ .

فلولا هذه المدرسة أو هؤلاء التلاميذ الذين حملوا فكره الى الأمة . لما عرفنا عنه شيئا . كشأن الكثـــير من أصحاب الفكر فى العالم الذين لم يجدوا تلاميذ يحملون فكرهم . فالحسن على هذا كان صاحب مدرسة كبرى وكما يقول الدكتور النشـــار :

احتل شيخ المدرسة ـ الحسن البصري ـ مكانة لم يدانيها من سبقوه أو من عاصروه من مفكرى الاسلام وتاهت البصرة به على مدن العالم الاسلامى كله ، وادعته الفرق المختلفة والاتجاهات المتباينة لنفسها . فصدرت عنه أو جملته الفرق ينطق بمختلف الآراء ، ومتناقض الأفكار ومتباين النظريات . وجمع فيه كل شىء . بحيث يمكننا أن نقول : ان أسطورة الحسن البصري كانت أضخم أسطورة فى العالم الاسلامى فى القرنين الثالث والرابع الهجرى (١) ..

وهذا ثابت بن قرة يصوره كأستاذ كبير ومرب ناجح فيقول : " .. يجلـــس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير ، وعمرو وواصل صاحبا الكلام ، وابن أبى اسحاق صاحب النحو ، وفرقد السنجى صاحب الرقائق ، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم فمن ذا مثلـــه ومن يجرى مجراه ؟ .. " (٢) ولم يكن هذا كله الا بفضل مدرسته التى كونها وتلاميذه الذين استوعبوا علمه وفقهه عليهم رحمه الله تعالى .

هذه المدرسة لم تختص بفن معين بل تشعبت فنونها وتعددت مناهجها وكلها تدور حول القرآن الكريم ، وسنة المصطفى الأمين . فعلم القراءات ـ مثلا ـ له مكان فى هذه المدرسة ، وتفسير القرآن الكريم ، والعقائد الاسلامية ، والآراء الفقهيـــة ، والرقائق القلبية .. الى غير ذلك من العلوم والفنون له مكان فى هذه المدرســة البصرية . هذه المواد التى نشأت ودرست فى هذه المدرسة لها رجالها الذيـــن حملوها وبلغوها لغيرهم حتى وصلت الينا اليوم . هؤلاء الرجال الأفذاذ ما هم الا تلاميذ لتلك المدرسة التى يديرها شيخ المفكرين فى عصره " الحسن البصري " .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن من هم هؤلاء التلاميذ ؟ ..

والجواب : أن تلاميذ الحسن كشيوخه وأساتذته لا نستطيع حصرهم ومن أجـل هذا سنكتفى بذكر بعض هؤلاء التلاميذ كنماذج لهذه المدرسة الكبرى كما سنراعى ـ باذن الله ـ فى اختيارنا لهؤلاء الرجال ممن كانوا على صلة وثيقة بالحسن ، وممـن اشتهروا بفن معين فى الكلام أو التفسير أو الزهد الخ ..

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام للدكتور على سامى النشار جـ ٣ ص ١٦٠ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت جـ ١٦ ص ٩٦ .

١ — واصل بن عطاء :

كان واصل بن عطاء[1] على صلة وثيقة بالحسن البصري وكان تلميذا ناجحا فى مدرسته . وظل هكذا مدة من الزمن غير قليلة ملازما لحلقته حتى جاء هذا السؤال الى حلقة الحسن وهو ما حكم مرتكب الكبيرة ؟ وقبل أن يجيب أستاذ الحلقة — الحسن — وهو فى تفكيره للاجابة على هذا السؤال . أجاب التلميذ واصل بما يخالف رأى أستاذه وهو فسق بينما أستاذه يرى نفاقه . لم يكتف التلميذ بهذا بل انفرد لتقرير هذه المسألة مع بعض المتجمعين حوله فى المسجد .

نستدل مما سبق على أن العلاقة بين التلميذ وأستاذه قد انقطعت وظلت هكذا حتى لقى الحسن ربه . وهذا الانقطاع بين الشيخ وتلميذه لم يؤد الى

---

(١) واصل هو : واصل بن عطاء الغزال الألثغ — أى الذى لا يستطيع النطق بالراء ولذلك كان يمنعها من كلامه — ولد بالمدينة سنة ثمانين من الهجرة . من أصل فارسى . وكان مولى لبنى ضبة وقيل غير ذلك . وعلى كل فقد ذكرت بعض الروايات أن أكثر عمره كان حرا . عاش واصل مدة بالمدينة — لا نعلم مقدارها على التحديد — ثم انتقل الى العراق مركز الثقافة الواسعة والآراء المختلفة والتحق بمدرسة الحسن وأصبح تلميذا له . واستمر هكذا يتردد على حلقته الى أن اعتزل مجلس الحسن . وكان رحمه الله على صلة بالخوارج والشيعة وأهل الحديث وأرباب النحل المختلفة مما نلمس فى آرائه المزيج من كل هذه الثقافات المتشعبة .

ويكاد يجمع المؤرخون على أن واصلا كان شيخا للمعتزلة وأنه أول من لقب بالمعتزلى كما أنه الذى أسس مذهبهم ودافع عن معتقداتهم التى كانت لهم مذهبا كلاميا خاصا بهم . وكان أيضا على خلق حتى نجد المبرد يروى أن واصلا لم يكن غزالا ولكن يلقب بذلك لأنه كان يلازم أبا عبد الله صديقا له ليعرف المتعففات أو المنقطعات من النساء فيجعل لهن صدقته . (وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٢ ص ٢٢٥ ، المنية والأمل للمرتضى ص ٧ — ١٧ ، الكامل للمبرد جـ ٢ ص ١٢٢) .

وواصل هذا كشأن أى مفكر كبير تأثر ببيئته كما تأثر بأستاذه . ونحن قد عرفنا عصر الحسن . ويشبهه الى حد كبير عصر تلميذه واصل من الناحية السياسية والفكرية .. حتى فى تكوين حياته — غالبا — نشأ بالمدينة ثم رحل الى العراق كالحسن . مما أثر ذلك فى ثقافته .

ولزيادة الايضاح عن واصل نوجز صفاته فيما يلى :

(١) الصمت : حتى ظن به الخرس وهو فى حلقة الحسن

(٢) حسن التخلص فى المواقف المصيبة . (٣) البديهة الحاضرة .

(٤) الحلم والتأنى .. (٥) زهده وتقواه

(٦) ثقافته الواسعة .. (٧) شجاعته ..

(البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص ٢٦ — ٣٠ ، والكامل للمبرد جـ ٢ ص ١٠٦ — ١٢٣ ، والمنية والأمل للمرتضى ص ١٨ ، وتاريخ الفرق الاسلامية للدكتور محمود زيادة القسم الثانى ص ٦٤ — ٦٧) .

الحقد والكراهية كما هو المعروف فى دنيا الناس . لماذا ؟ لأن هذا الانقطاع لم يكن الا لله وفى الله . وكما يقولون : ان اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية . والدليل على ذلك أن التلميذ — واصل — كان يستمع الى نصائح أستاذه وعظاته .. فقد كتب ذات يوم الى زميله فى الحلقة عمرو بن عبيد الذى انضم له بعد ذلك فى تقرير المسألة التى ذكرناها يقول : "أما بعد ، فان استلاب نعمة العبد وتعجيل المعاقبة بيد الله ، ومهما يكن ذلك فباستكمال الآثام ، والمجاورة للجدال الذى يحول بين المرء وقلبه ، وقد عرفت ما كان يطعن به عليك وينسب اليك ، ونحن بين ظهرانى "الحسن بن أبى الحسن رحمه الله" ، لاستبشاع قبح مذهبك ، نحن ومن قد عرفتهم من جميع أصحابنا ، ولمة اخواننا الحاملين الواعين عن الحسن ... ثم قال : عهدى والله بالحسن وعهدكم به أمس فى مسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بشرقى الأجنحة ، وآخر حديث حدثنا اذ ذكر الموت وهو المطلع ، فأسف على نفسه واعترف بذنبه ثم التفت — والله — يمنة ويسرة معتبرا باكيا ، فكأنى أنظر اليه يمسح مرفضّ العرق عن جبينه ، ثم قال : اللهم انى قد شددت واضين راحلتى وأخذت فى أهبة سفرى الى محل القبر ، وفرش العفر ، فلا تؤاخذنى بما ينسبون الى من بعدى . اللهم انى قد بلغت ما بلغنى عن رسولك ، وفسرت من محكم تأويلك ما قد صدقه حديث نبيك ألا وانى خائف عمرا ، ألا وانى خائف عمرا ، شكاية لك الى ربه جهرا ، وأنت عن يمين حذيفة ، أقرب بنا اليه .. ثم قال : ولم يكن كتابى اليك ، وتجليبى عليك ، الا تذكيرك بحديث الحسن رحمه الله وهو آخر حديث حدثناه الى آخر ما ذكره ..(١)

نلمح فى هذه الرسالة الشدة والقوة فى تقريع عمرو لأنه شعر بأن عمرا أخذ يحيد عن المنهج الذى رسمه أستاذه الحسن . كما يقول الدكتور الغرابى : "فهذا الذى ذكره دليل على أن واصلا قد بقيت علاقته بأستاذه ومودته له ، وحرصه على سماع دروسه ، والانتقال معه فى الأسفار والارتحال فى سبيل الله تعالى لأن هذا الدرس الذى أوصى فيه الأستاذ تلميذه أو تلميذيه كان بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعلوم أن الحسن كان قد أقام بالبصرة وبقى بها حتى توفى ..

ويقول أيضا فى موضع آخر يجعل القول عن واصل : " انه وضع أساس الدعاة فى الدولة الاسلامية وهو الذى سن ارسال الرسل فى سبيل الدعوة الى الله والدفاع

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٢ ص ٣٨٦ وما بعدها .

عن الرأى الذى يعتنقه . كما وضع أصل الاحتجاج بالاجماع والعقل زيادة على الاحتجاج بالكتاب والسنة ..(١)

٢ – عمرو بن عبيد :

من تلاميذ الحسن البصرى وأحد طلاب مدرسته " عمرو بن عبيد "(٢) الذى وصفه أستاذه الحسن للسائل فقال : " لقد سألتنى عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكأن الأنبياء ربته ان قام بأمر قعد به ، وان قعد بأمر قام به ، وان أمر بشئ كان ألزم الناس له ، وان نهى عن شئ كان أترك الناس له ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه ، ولا باطنا أشبه بظاهر منه "(٣) . كما كان يشبه كثيرا أستاذه الحسن فى الزهد . ومما روى فى ذلك أن أبا جعفر المنصور أرسل اليه بمال كثير وطلب منه أن يعرض عليه حاجته حينئذ يرد المال ويقول : " لا تبعث الى حتى آتيك " . فيقول له أبو جعفر : " اذا لا نلتقى " قال : هى حاجتى وانصرف ولم يفز منه المنصور بشئ " ، ولما غاب عن بصره قال :

كلكم يمشى رويد ... كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد (٤)

---

(١) تاريخ الفرق الاسلامية .. للدكتور على مصطفى الغرابى ص ٧٦ – ٧٩ ، ١٠١

(٢) عمرو هو : أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب ولد سنة ٨٠ هـ بالعراق على الراجح . واختلف فى عام وفاته ما بين سنة ١٤٢ هـ . وعلى كل فقد أدرك فترة من حياة الدولة الأموية وأخرى من الدولة العباسية . وكان عمرو مولى لبنى تميم . وعمله كما يقول الخطيب البغدادى : " ان عبيدا أبا عمرو كان نساجا " وهذه الصناعة لم تشغله عن التردد على حلقة الحسن والتزود من علمه حتى أصبح عالما يشار عليه بالبنان . ولا عجب فى ذلك فكان هذا دائما دأب العلماء المخلصين يأكلون من عمل أيديهم كالأنبياء والمرسلين ثم يبلغون العلم والمعرفة احتسابا لوجه الله تعالى . ولذلك اشتهر الكثير منهم بمهنته فيقال : فلان البزاز ، وفلان المخلاتى ... وهم من أكابر العلماء الذين حافظوا على تراث الاسلام .

وكان عمرو حر التفكير غزير العلم . اعتنق رأى أستاذه فى مرتكب الكبيرة حينا ثم مال الى رأى زميله واصل كان – رحمه الله – الحياء شعاره ، والخوف ازاره . يظهر هذا من أحد الواصفين له " اذا رأيته جالسا توهمته أجلس للقود " ... (وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٥٣٥ وتاريخ بغداد للخطيب ج ٢ ص ١١٦ – ١٦٨ ، والمنية والأمل للمرتضى ص ٢٣ وما بعدها .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٥٣٥ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٥٣٦ ،

ومروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ٢٢٨ .

كما يصفه الحسن أيضا : " بين عينيه أثر السجود " .

وكان عمرو على جانب كبير من العلم والمعرفة . الا أنه كان متهما فى حديثه . وحينما سئل يحيى بن معين عنه قال : لا يكتب حديثه وذلك لقوله بالقدر ، وحبه للجدل حتى كان يقضى فيه الوقت الكثير مما هو مبسوط في بطون الكتب. (١)

ومن شهادة الحسن لعمرو نستدل على العلاقة الوثيقة بين الأستاذ وتلميذه وظلت هكذا حتى حدث ما ذكرناه من مسألة مرتكب الكبيرة وانحياز عمرو بعد مدة طويلة من الحسن الى زميله واصل وذلك عقب جدال عنيف بينهما .

ومع انحيازه الى واصل تحدثنا بعض الروايات أنه لم ينقطع بتاتا منها رواية الخطيب البغدادى : أن حميدا حدث أصحابه بحديث ، فقال عمرو : كان الحسن يقول : فلما قال عمرو هذا قال حميد لبعض أصحابه : لا تأخذ عن هذا (أى عمرو بن عبيد) شيئا فان هذا يكذب على الحسن . كان يأتى الحسن بعد ما أسن فيقول : يا أبا سعيد ، أليس تقول : كذا وكذا للشىء الذى ليس من قوله ، فيقول الشيخ برأسه هكذا .. (٢) . وهذا بالطبع يدل على العلاقة التى كانت بين التلميذ وشيخه مهما كانت درجة التبليغ عنه ، ومهما قال المحدثون فيه .

والتجربة التى خاضها واصل مع أستاذه أراد أن لا تتكرر مع عمرو فأرسل واصل اليه الرسالة التى عرفناها فيما سبق — الحديث عن واصل — مما يدل على اقتناع التلاميذ واقتناعهم برأى أستاذهم الحسن عليه رحمة الله تعالى .

أما آراء عمرو الكلامية فكان معظمها يوافق رأى زميله وصديقه واصل بن عطاء والقلة يخالفه فيها مثل : حكم مرتكب الكبيرة ففى رأيه أنه منافق كرأى أستاذه الحسن البصرى مخالفا بذلك واصلا لأنه يرى أنه فاسق . أو فى منزلة بين المنزلتين . ولكن واصلا أخذ يحاج عمروا حتى أخذه الى جانبه وقال عمرو قولته المشهورة : " ما بينى وبين الحق من عداوة " ، كذلك كان عمرو يقول بالاختيار . (٣)

---

(١) ميزان الاعتدال للذهبى ج ٢ ص ٢٩٦ وما بعدها ، وتاريخ بغداد للخطيب ج ١٢ ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب ج ١٢ ص ١٨٠ .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب ج ١٢ ص ١٨٦ .

ومن آرائه القاسية تفسيق بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم الذين اشتركوا فى حرب الجمل وصفين .. ويختلف عن زميله واصل فى أنه يمين ناسا بالذات كطلحة والزبير ... ويستند عمرو فى هذا على حديث يعتقد أنه ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم . عن طريق الحسن شيخه وهو : " من حمل علينا السلاح فليس منا "(1) .

ويلتمس الدكتور الغرابى العذر لعمرو بن عبيد فى حكمه هذا بسبب الحديث(2) السابق .. ولكن الحق أقول : مهما كانت صحة الحديث لا يصح أبدا أن نحمله على هذا المعنى الذى تبادر الى ذهن عمرو . من رمى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم القاسى لعلو مكانتهم من الدين .. خاصة وأن الرسول نهانا عن سبهم والخوض فى شأنهم بالأذى ..

واذا كان ولابد من الرد بسبب الحديث فنستطيع أن نقول : ان هذا تهديد من الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو نحمل الحديث على المعنى الآتى : من حمل علينا السلاح — بغيا وعدوانا — فليس منا . — أما من حمله علينا رأيا واجتهادا فان الحديث لا يعنيه — والله أعلم .

٣ — قتادة السدوسى :

قتادة السدوسى (3) أحد تلاميذ مدرسة الحسن البصرى الذين اشتهروا بتفسير

(1) هذا الحديث يكذبه المحدثون كما يروى ذلك الخطيب فى تاريخ بغداد ج٢ ص١٨١ ولكن الامام السيوطى فى كتابه " الجامع الصغير " شرح المناوى يخرجه هكذا : (حم ق ن ه) عن ابن عمر .

(2) تاريخ الفرق الاسلامية للدكتور الغرابى ص ١٢٥ .

(3) قتادة هو : قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز .. بن سدوس أبو الخطاب السدوسى البصرى أحد الأئمة الأعلام حافظ مدلس . تلميذ الحسن البصرى . وغيره من الأئمة الفضلاء مثل ابن سيرين ، وعمران بن حصين ، وعطاء بن أبى رباح وغيرهم ، ولد سنة ٦١ هـ وتوفى سنة ١١٧ هـ . وروى عن قتادة : أيوب السختيانى ، وسليمان التيمى ، ومطر الوراق .. قال ابن المسيب : ما أتانى عراقى أحفظ من قتادة . وقال ابن مهدى : قتادة أحفظ من خمسين مثل حميد . وقال اسلام ابن مسكين : حدثنى عمرو بن عبد الله قال : لما قدم قتادة على سعيد ابن المسيب فجعل يسأله أياما وأكثر . فقال له سعيد : أكل ما سألتنى عنه تحفظه ؟ قال : نعم سألتك عن كذا فقلت فيه كذا ، وسألتك عن كذا فقلت فيه كذا . وقال فيه الحسن : كذا حتى رد عليه حديثا كثيرا قال قال سعيد : ما كنت أظن أن الله خلق مثلك . وكان يرمى بالقدر فكان طاوس يفر منه . (روى صاحب العقد الفريد ج ١ ص ٩٣ أنه قيل لطاوس : هذا قتادة يريد أن يأتيك قال : لئن جاء لأقومن ، قيل : انه فقيه ، قال : ابليس أفقه منه ، قال : رب بما أغويتنى ، يريد أن ابليس رد الاغواء الى الله تعالى .=

القرآن الكريم وكان — رحمه الله — متشبعا بروح أستاذه الحسن ، راويا عنه الكثير من آرائه في التفسير ، وحتى يتبين لنا ذلك نذكر نموذجا من روايةقتادة عن شيخه الحسن كمثال ، في تفسير قوله تعالى : والاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ، ان الله كان توابا رحيما " (١) .

كان الحكم في ابتداء الاسلام أن المرأة اذا ثبت زناها بالبينة العادلة حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه الى أن تموت ، وهذا الامساك في البيوت كما قال القرطبي أول عقوبات الزناة ، قاله عبادة بن الصامت ، والحسن البصري ، ومجاهد حتى نسخ بالأذى الذى بعده — فآذوهما — ثم نسخ ذلك بآية النور ، وبالرجم في الثيب ، وهل كان هذا الامساك أو السجن حدا أو توعدا بالحد ؟ والأرجح الأول وهو أنه حد ، كما روى ذلك عن ابن عباس والحسن البصري .

وحديث عبادة بن الصامت هو قوله : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحى أثر عليه وكرب لذلك وتغير وجهه فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم فلما سرى عنه قال : خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا ، الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر ، الثيب جلد مائة ورجم بالحجارة والبكر جلد مائة ثم نفى سنة " (٢) .

فهذا هو السبيل الذى جعل الله لهن ، الثيب جلد ورجم ، والبكر جلد وتغريب عام ، وقال بعض العلماء : ليس هذا الحكم نسخا للأول وهو السجن والأذى ، لأن هذا الحكم — وهو السجن والأذى — كان ممدودا الى غاية وهى آية " النور " والحديث الشريف مثل قوله تعالى : " ثم أتموا الصيام الى الليل " (٣) ، فاذا جاء الليل ارتفع حكم الصيام لانتهاء غايته لا نسخه ، وهكذا الزاني والزانية يوبخان على فعلهما ويعذبان كما قال قتادة والسدى ، أما ابن عباس فيرى النيل باللسان والضرب بالنعال .. ومن جهة الحبس فيكون ذلك على ذمة التحقيق ، وهذا أمر طبيعى بعد ضبط الجريمة

= وأما قتادة فأنكر ذلك ، وهو دليل على أنه كان يكره منه انكار القدر) ولهذا زعم جماعة أنه متروك الحديث بسبب ما رمى به ، ولكن النقاد دفعوا هذا بأن ترك كل من نسب اليه بدعة يؤدى الى ترك كثير من علماء السنة ، وثقه ابن حبان ، وابن سعد في الطبقات . (الطبقات لابن سعد ج ٧ ص ٢٢٩ — ٢٣١ ، وتذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٥)

(١) سورة النساء آية ١٥ ، ١٦ .

(٢) قال الامام أحمد بن حنبل : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن البصري عن حطان الرقاشي — شيخ الحسن — عن عبادة بن الصامت قال ... ورواه مسلم في صحيحه ، وقال الترمذي : هذا حديث صحيح .

(٣) سورة البقرة آية ١٧٨ .

يقال للمجرم — قبل الحكم عليه — لما فعلت كذا ؟ يا كذا .. والتطبيق العملى لهذا ما فعله الامام على كرم الله وجهه وهو أنه جلد شراحة الهمدانية مائة ورجمها بعد ذلك ، وقال : جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال بهذا القول : الحسن البصرى والحسن بن صالح بن حى واسحاق ..[1] . وفى المسألة كلام كثير لا يحتمله المقام ، والمهم فى هذا كله أن قتادة — رحمه الله — فى تفسيره للقرآن الكريم كان يسير على منهج الحسن غالبا . وهو تتبع آثار السلف رضى الله عنهم .

٤ — أبو عمرو بن العلاء :

أحد خريجى مدرسة الحسن البصرى فى علم القراءات واللغة العربية وأحد القراء السبعة . وهو : زبان[2] بن العلاء بن عمار .. ابن الحسين ابن الحارث المازنى البصرى كازرونى[3] الأصل . أسمر طوال — ولما هرب أبوه من الحجاج بن يوسف الثقفى سار معه الى مكة والمدينة . حيث قرأ القرآن الكريم كما قرأ أيضا على جماعة من الكوفة والبصرة ومنهم شيخنا " الحسن البصرى " وكان على جانب من الزهد[4] ، واتقان القرآن الكريم من جميع جوانبه ... قال الأصمعى : قال لى أبو عمرو : لو تهيأ لى أن أفرغ ما فى صدرى فى صدرك لفعلت . لقد حفظت فى علم القرآن أشياء لو كتبت ما قدر الأعمش على حملها . ولولا أن ليس لى أن أقرأ الا بما قرئ لقرأت كذا وكذا وذكر حروفا . وقال أبو عبيدة : كانت دفاتر أبى عمرو على بيت الى السقف ثم تنسك فأحرقها وتفرد للعبادة وجعل على نفسه أن يختم فى ثلاث ليال .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٨٢ ـ ٨٨ ، جـ ١٢ ص ١٦٠ ، وتفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٦٢ ط عيسى الحلبى .

(٢) الدليل على تسميته زبان . ما رواه الحافظ أبو العلاء الهمزانى أن الفرزدق جاء معتذرا من أجل هجو بلغه عنه فقال له أبو عمرو بن العلاء كما فى نزهة الألباء للأنبارى ص ١٦ — ١٩ .

هجوت زبان ثم جئت معتذرا ... من هجو زبان لم تهجو ولم تدع

(٣) كازرونى : نسبة الى كازرون بلدة بفارس . ويبدو من هذا النص أنه لا يوثق بعروبة أبى عمرو بن العلاء . ولكن الدكتور عبد الصبور شاهين فى رسالة الماجستير التى كتبها عن " الأصوات فى قراءة أبى عمرو بن العلاء " أثبت عروبته وأنه ليس فى القراء السبعة عربى صريح سوى أبى عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن عامر اليحصبى ، قارئ أهل الشام ، والباقون من الموالى .

أخذ عنه بعض كبار العلماء منهم : يونس بن حبيب البصري ، والخليل ابن أحمد ، وأبو محمد بن المبارك . ولد بمكة سنة ٦٨ هـ أو سنة ٦٩ هـ أيام عبد الملك بن مروان ، ونشأ بالبصرة وتوفي بالكوفة سنة ١٥٤ هـ أو سنة ١٥٧ أو غيرها .

قال أبو عمرو الأسدي : لما أتى نعي أبي عمرو الأسدي : أتيت أولاده فعزيتهم عنه فاني لعندهم اذ أقبل يونس بن حبيب فقال : نعزيكم وأنفسنا بمن لا نرى شبها له آخر الزمان (1) ...

رحم الله أبا عمرو تلميذ الحسن البصري وجزاه عن الأمة الاسلامية خير الجزاء .

٥ — عيسى الثقفي :

من طلاب مدرسة الحسن البصري أبو عمرو — وقيل أبو سليمان — عيسى بن عمر الثقفي النحوي البصري صاحب كتاب الجامع والكامل في النحو . عرض القرآن الكريم على شيخه " الحسن البصري " وآخرين . وممن روى عنه الخليل بن أحمد وغيره .

قال القاسم بن سلام : كان من قراء البصرة عيسى بن عمر الثقفي وكان عالما بالنحو غير أنه كان له اختيار في القراءة على مذاهب العربية يفارق قراءة الجماعة ويستنكره كثير من الناس . مات سنة ١٤٩ هـ

وكان رحمه الله من شدة تمكنه في العربية يتقعر في الألفاظ ويحاول دائما أن يأتي بالغريب .

ونستدل على ذلك بما روى أنه لما ضربه يوسف بن عمر بن هبيرة في سبب ثياب استودعها قال : " ان كانت الا أثيابا في أسيفاط قبضها عشاروك وذلك أن بعض أصحاب خالد بن عبد الله القسري أودعه وديعة فلما نزع خالد بن عبد الله عن امارة العراق وتقلد مكانه يوسف بن عمر

---

(1) هذه الترجمة عن أبي عمرو من الكتب الآتية : (نزهة الالبا في طبقات الأدباء لابن الانباري ص ١٦ — ١٩ المتوفى سنة ٥٧٥ هـ ، وطبقات القراء للجزري ج ١ ص ٢٨٨ ، ولطائف الاشارات لفنون القراءات للقسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣ هـ الجزء الأول ص ٩٥ تحقيق وتعليق الشيخ عامر السيد عثمان ، والدكتور عبد الصبور شاهين) .

كتب الى واليه بالبصرة أن يحمل اليه عيسى بن عمر الثقفى مقيدا فدعى به ودعى بالحداد وأمره بتقييده وقال : لا بأس عليك انما أراد الأمير أن يؤدب ولده " . قال : " فما بال القيد اذن " .

فبقيت مثلا بالبصرة فلما أتى به يوسف بن عمر سأله عن الوديعة فأنكرها فأمر به فضرب بالسياط فلما أخذه السوط جزع فقال : أيها الأمير والله انما كانت أثيابا فى أسفاط قبضها عشاروك " فرفع السوط عنه ووكل به حينا أخذ الوديعة منه .

أما عن كتبه التى ذكرنا وهى الجامع والكامل فى النحو فليس لها أثر وفيهما يقول الخليل بن أحمد :

ذهب النحو جميعا كله ∴ غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك اكمال وهذا جامع ∴ فهما للناس شمس وقمر (١)

٦ — فرقد السبخى :

وهذا تلميذ آخر من مدرسة الحسن البصرى تخصص فى " معانى الزهد " وهو : فرقد بن يعقوب السبخى من كبار زهاد المسلمين فى عهد الحسن الذين اشتهروا بكثرة العبادة لله تعالى . وقد تحدث الدكتور مصطفى الشيبى العالم العراقى عن هذه الشخصية فحقق اسمه السبخى لا السنجى كما كان يقول ذلك بعض الباحثين . وتتبع هجرة " فرقد " من الكوفة الى البصرة . (٢)

وفى البصرة التقى — فرقد — بضالته المنشودة " الحسن البصرى " وهذا هو الذهبى يصف لنا هذا اللقاء بين فرقد والحسن : فقد دخل على الحسن فقال : السلام عليك يا أبا سعيد ، فقال الحسن : من هذا ؟ قالوا : فرقد ، قال : من فرقد ؟ قالوا : انسان يكون بالسبخة . قال : يا فرقد ، ما تقول فيمن يأكل الخبيص ، قال : لا أحبه ،

(١) نزهة الألبا لابن الانبارى ص ١٣ — ١٥ ، وطبقات القراء للجزرى جـ ١ ص ٦١٣ والقراءات الشاذة وتوجيهها عند العرب للشيخ عبد الفتاح القاضى ص ١٤ .

(٢) الصلة بين التشيع والتصوف للدكتور الشيبى جـ ١ ص ٣٠١ — ٣٠٣ .

ولا أحب من يحبه . ولا أتولاه . فقال الحسن : أترونه مجنونا . (١)

وكان الحسن — رحمه الله — غضب من منهج فرقد فى حياته وأراد أن يعطيه دروسا فى كيفية الحياة الصحيحة التى لا شطط فيها . فقبل الحسن صحبته وأخذ يستمع الى ما يعرفه خاصة وأن فرقدا كانت لديه نزعة قصصية اسرائيلية أو مسيحية كما كان منتشرا فى ذلك العهد مما أعرض عنه رجال الحديث .

يذكر ابن الجوزى أنه أسند عن أنس بن مالك ، وسمع من كبار التابعين وشغله التعبد والتفانى فى ذكر الله عز وجل عن حفظ الحديث (٢) .

اشتد فرقد فى زهده حتى امتنع كثيرا عن الطعام مع وجود أستاذه الحسن . مما اشتهر بفكرة " الجوع " الذى كان سمة لبعض العباد والزهاد بالشام الذين أطلق عليهم " الجوعية " قائلا فى ذلك : " ويل لذى البطن من بطنه ، ان أضاعه ضعف وان أشبعه ثقل " (٣) . ومع زهده وورعه كان ناقدا للحكام كما كان يفضل أستاذه الحسن بالحكمة واللباقة . ومن أقواله فى ذلك : " ان ملوك بنى اسرائيل كان يقتلون قراءهم على الدين ، وان ملوككم يقتلونكم على الدنيا ، فدعوهم والدنيا " (٤) .

وحمل فرقد — رحمه الله — فكر الحسن من ناحية الوعظ والارشاد والنصح للأمة فكان يقول — ويضع كلامه على لسان عيسى بن مريم : " طوبى للناطق فى آذان قومه يسمعون كلامه ، وأنه ما تصدق رجل بصدقة أعظم أجرا عند الله تعالى ، من موعظة قوم يصيرون بها الى الجنة " . ودعا الناس الى عصم أنفسهم عن الذنوب فكان يقول : " انى رأيت والله فى المنام كأن مناديا ينادى من السماء : يا أشباه اليهود ، كونوا على حياء من الله عز وجل " . وقد اشتهر فرقد بلبس الصوف مما يراه من تكالب الناس على لبس الثياب الفاخرة وقد دعى يوما هو وشيخه الحسن الى طعام ، وكان على فرقد جبة صوف فقال له : يا فرقد : لو شهدت الموقف لحرقت ثيابك ، مما ترى من عفو الله تعالى . وكأن الحسن البصرى كما يقول الدكتور النشار يعود هنا الى الايمان " بالعفو " الالهى والرحمة الالهية ، وهو الذى طالما هدد الناس لفاحش أعمالهم ونكسة أخلاقهم بالعذاب الالهى .. والنار المحرقة (٥) .

(١) ميزان الاعتدال للحافظ الذهبى ج ٣ ص ٣٤٦ .
(٢) صفة الصفوة لابن الجوزى ج ٣ ص ١٩٦ .
(٣) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ج ٣ ص ٤٦ .
(٤) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٦ — ٤٧ .
(٥) نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام للدكتور النشار ج ٣ ص ٩٤ — ١٩٨ .

وكثيرا ما كان الحسن ينهى فرقدا عن أمور لا تمت الى الدين بصلة خاصة اذا كانت من ناحية الشكل والمظهر مثل لبس الصوف وبالأخص اذا كان متعمدا .

ويذكر ابن الجوزى — رحمه الله — أن فرقدا أتى الحسن ، فأخذ الحسن بكسائه ، فمد اليه وقال : يا فريقد ، يا ابن أم فريقد : ان البر ليس فى الكساء ، وانما البر ما وقر فى الصدر وصدقه العمل . كما يذكر أيضا أن حماد بن سلمة قدم البصرة فجاءه فرقد وعليه ثياب صوف فقال له حماد : دع عنك نصرانيتك هذه ... (١) .

٧ — حبيب العجمى :

اذا كان فرقد السبخى السابق اشتهر فى مدرسة الحسن بالزهد . فان حبيب بن محمد العجمى أو الفارسى لا يقل عنه أهمية ويكفى أن الذهبى سماه " زاهد البصرة فى زمانه " (٢) . ويذكر لنا صاحب الحلية وغيره كيف اتصل حبيب بالحسن البصرى . كان الرجل يأتى الى المسجد ويجلس فى المكان " الذى يأتيه فيه أهل الدنيا والتجار " بينما الحسن البصرى يتخذ مجلسه الوعظى فى المسجد . وكان حبيب الفارسى لا يأبه بالحلقة ، وغير منتبه الى الحسن الى أن حدث يوما أن التفت الى الحسن وسأل بعض أصدقائه بالفارسية : " أين بيرهمى ورايد حكويد " (أى ما يفعل هذا ؟) فأجابه أصدقاؤه " والله يا أبا محمد : يذكر الجنة ويرغب فيها ويزهد فى الدنيا " فوقر ذلك فى قلبه وقال بالفارسية أيضا : ما معناه : " اذهبوا بنا اليه " فأتاه فقال أصدقاء الحسن له : يا أبا سعيد ، هذا أبو محمد حبيب قد أقبل اليك فعظه . وسأل حبيب بالفارسية : أين همى كوى جكوى . معناها (ايش يقول ؟) فقالوا له هذا الرجل يقول : ايش يقول . فأقبل عليه الحسن بمواعظه الخلابة العميقة ، يذكر الجنة ونعيمها ويرغبه فى الخير ويخوفه بالنار ويزهده فى الشر . فقال حبيب : أين كوى : فقال الحسن : أنا ضامن لك الجنة (٣) .

---

(١) تلبيس ابليس لابن الجوزى ص ١٩٥ .
(٢) ميزان الاعتدال للذهبى ج ١ ص ٤٥٧ .
(٣) حلية الأولياء لأبى نعيم ج ٦ ص ١٤٩ — ١٥٠ ، وصفة الصفوة لابن الجوزى ج ٣ ص ٢٢٦ .

وليست هذه هى الرواية الوحيدة التى تحكى صلة حبيب بالحسن • ولكن هناك روايات أخرى •

المهم أن الرجل أقبل على شيخه الحسن البصرى واضعا دنياه وراء ظهره وأصبح فى جملة الخائفين بدليل قول صاحب الحلية • " كان حبيب أبو محمد رقيقا ، من أكثر الناس بكاء ، فبكى ذات ليلة " فقالت له زوجته : عمرة بالفارسية ، وقد كانت هى فارسية أيضا : لم تبك يا أبا محمد ؟ فقال لها حبيب بالفارسية : " دعينى فانى أريد أن أسلك طريقا لم أسلكه من قبل "(١) •

وهكذا سلك حبيب طريق الله تعالى وجاهد نفسه فى العبادة حتى ثبتت قدمه وقويت روحه وكثرت الروايات عنه فى هذا المضمار بما يضاهى أستاذه الحسن ان لم يفوقه • مثل رواية ابن عساكر التى تحكى هروب الحسن من الحجاج الى بيت حبيب وقال له — أى لتلميذه — " يا أبا محمد : احفظنى الشرطى على أثرى • فقال له حبيب : استحييت لك يا أبا سعيد • ليس بينك وبين ربك الثقة • ما تدعو فيسترك من هؤلاء ، ادخل بيتى • فدخل الشرطى على أثره و ألوا حبيبا : " يا أبا محمد • دخل الحسن هنا ؟ فقال : بيتى فادخلوا •(٢)

وهذا هو الهجويرى يردد هذه الرواية على صورة أوسع يعجب لها الانسان ولا يكاد يصدقها حتى وصل الأمر الى أن قال الحسن لتلميذه : " أنا أعلم أن الله سترنى ببركتك ولكن لم أخبرتهم أنى هنا فقال له حبيب : انهم لم يعموا عنك ببركتى ولكن ببركة الصدق "(٣) •

ثم نرى الدكتور احسان عباس يعلق على هذه الحادثة بقوله : " ان الحسن لجأ الى حبيب لجوء الرجل الدنيوى الى صاحب الحقيقة "(٤) • والواقع — كما أعتقد — أن مثل هذه الرواية فيها الكثير من المغالاة بما لا يتفق وطبيعة الحسن وبما عرفناه سابقا من صراحته فى الحق وشدة ايمانه بربه ••• فلا نستطيع أن نتقبل هذا بهذه البساطة • وان كنا فى نفس الوقت لا نمنع وصول هذا التلميذ الى درجة عالية من الزهد والتصوف والعبادة الدائمة لله رب العالمين • وكل ميسر لما خلق له •

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ج ٦ ص ٥٤

(٢) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٣٠

(٣) كشف المحجوب للهجويرى ص ١٨٠

(٤) الحسن البصري للدكتور احسان عباس ص ١٢

واذا كان فرقد السابق متروك الحديث فى رأى الكثير من المحدثين فا ن حبيبا كان على العكس مقبول الحديث .

وهذا هو الامام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم يذكره بدون تجريح . بل ذكر أنه روى عن الحسن وأبى تميمة الهجيمى وروى عنه حماد بن سلمة وجعفر بن سليمان يزيد بن يزيد الخثعمى . ليس هذا فقط بل نرى أيضا أن الذهبى — رحمه الله — يبرئه من الكذب ويذكر أن البخارى روى له فى كتاب الأدب ويقول : " وما علمت فيه جرحا وانما ذكرته هنا لئلا يلحق بالزهاد الذين يهمون فى الحديث وان كان يقول فى موضع آخر : " ان غالب ما عنده الحكايات "(١) .

والحق يقال ان حياة حبيب كما يقول الدكتور النشار لم تصب بشائبة ، دخل باب العبادة ووصل أوجها ، ولم يشغل بفقه ، وحين حدث ، لم يهم — كما قال الذهبى ناقد الرجال المشهور — ولم يبتدع كما كان يفعل الزهاد فيما بعد ، يضعون الحديث لتبرير زهدهم(٢) ..

٨ — مالك بن دينار :

من تلاميذ الحسن كذلك مالك بن دينار ويكنى أبا يحيى ، مولى لامرأة من بنى سلمة بن لؤى . نشأ أول أمره يروى العلم عن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كأنس بن مالك رضى الله عنه . وفيما يروى عنه عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه مر ليلة أسرى بـه على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقال من هـؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به . الى غير ذلك من الأحاديث التى تهز النفس وتجبرها على الخضوع لله تعالى . ثم أقبل مالك رحمه الله على مجالس الحسن البصرى وغيره وكان الحسن بالذات يملك عليه فؤاده حتى أقبل بكليته على الله تعالى . وترك ما عداه . والأخبار فى ذلك كثيرة يعجب لها طلاب الدنيا وزينتها .

ومما يدل على صلته الوثيقة بأستاذه الحسن والاستفادة من علمه وتجاربه أنه لما وقعت الفتنة أتى مالك الحسن البصرى يسأله : يا أبا سعيد : ما تأمرنى ؟

(١) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم — القسم الثانى من المجلد الأول ص ١١١ وما بعدها ، وميزان الاعتدال للامام الذهبى ج ١ ص ٤٥٧ .

(٢) نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام للدكتور النشار ج ٣ ص ٢٠٩ .

فلا يجيبه الحسن ، وتردد عليه ثلاثة أيام يسأله ، والحسن على موقفه ، ثم قال له مالك : يا أبا سعيد أتيتك ثلاثة أيام أسألك وأنت معلى فلا تجيبني ؟ والله لقد هممت أن آخذ الأرض بقدمي وأشرب من أفواه الأنهار وآكل من بقل البريــة حتى يحكم الله بين عباده ، فأرسل الحسن عينيه باكيا ثم قال : يا مالك ومن يطيق ما تطيق لكنا والله ما نطيق هذا . فقد اعترف الحسن في هذه الرواية لتلميذه مالك بأنه أقدر منه على هجرة المألوفات والفرار بالدين من الفتن .

ومن أجل هذا كان وعظه في البصرة له تأثير كبير في النفوس كشيخه الحسن . وهذه بعض الأمثلة من كلامه الطيب الذى يدخل القلب بلا استئذان . قال رضى الله عنه : " قرأت في التوراة : أيها الصديقون : تنعموا بذكر الله في الدنيا ، فانه لكم في الدنيا نعيم ، وفي الآخرة جزاء عظيم " ، " مثل المؤمن مثل اللؤلؤة أينما كانت حسنها معها " ...

وهكذا عاش مالك بن دينار على صلة قوية بالله تعالى حاملا فكر الحسن وزهده الى الأمة متزودا بخير الزاد " وتزودوا فان خير الزاد التقوى . توفى رحمه الله سنة ١٣١ هـ (١) .

٩ — شعبة بن الحجــاج :

وهذا تلميذ من مدرسة الحسن البصري اشتهر برواية الحديث عن الحسن وغيره . واسمه : شعبة بن الحجاج بن الورد المتكى ، الأزدى الواسطى ، المكنى بأبى بسطام . نزيل البصرة ومحدثها ، وعالمها ، أمير المؤمنين في الحديث .. مولى للأشاقر عتاقة ، كان ثقة مأمونا ثبتا صاحب حديث حجــة ، كان أكبر من الثورى بعشر سنين ، وكان صواما قواما عابدا راويا للشعر كما ذكر ابن سعد في الطبقات .

وكان يتحرج كثيرا من راوية الحديث خوفا من أن يقول حديثا مكذوبا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القائل في الحديث المتواتر :

" من كذب علــىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار " .

---

(١) طبقات القراء للجزرى ج ٢ ص ٣٦ ، وميزان الاعتدال للذهبي ج ٢ ص ٣٢٧ ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ج ٢ ص ٣٦٧ وما بعدها ، وصفة الصفوة لابن الجوزى ج ٣ ص ٢٠٥ وما بعدها .

لهذا روى عن شعبة أنه قال : ما أنا مقتحم على شيء أخاف أن يدخلني النار غيره ، يعني الحديث . لذا كان يتشدد مع الكذابين في الحديث ... رأى شعبة أنس بن مالك وسمع كثيرا من التابعين . وثقه ابن سعد ، والعجلي ، وابن معين ، وابن حنبل ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم واحتج به الأئمة كلهم . قال ابن حنبل : كان اليه المنتهى في التثبت . وقال النسائي : لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق ، وكان في الرجال ، وبصره بهم نسيج وحده . ومثل هذا قال الشافعي ...

روى عن أنس بن مالك ، والحسن البصري ، وابن سيرين وغيرهم وروى عنه سفيان الثوري ، وابن المبارك وغيرهم .

وتوفى شعبة بن الحجاج بالبصرة في أول سنة ١٦٠ هـ وهو ابن ٧٥ سنة(١) .

١٠ — أيوب السختياني :

هو : أيوب بن أبي تميمة ... السختياني . ويكنى أبا بكر مولى لعنزة ، ويقول عنه ابن سعد : كان أيوب ثقة ثبتا في الحديث جامعا عدلا ورعا كثير العلم حجة . ولد أيوب رحمه الله سنة ست وثمانين .

قال ابن سعد : حدثنا مومون أبو عبد الله قال : كنا عند الحسن وعنده أيوب فسأله عن شيء ثم قام فاتبعه الحسن بصره حتى اذا كان حيث لا يسمع أيوب قال : (هذا سيد الفتيان) .

كلمة الحسن هذه في أيوب تعتبر شهادة عظيمة لتلميذه المجتهد أيوب . لها قيمتها وأهميتها .

نظر أيوب الى المجتمع الذي عاش فيه فوجد أنه تفان في الدنيا وأمام ذلك مجموعة من الزهاد لبسوا الصوف يظهر من حالتهم أنهم نساك لكنه لم يعجبه المظهر — كأستاذه الحسن — بقدر ما يعجبه المضمون . فلبس الثياب

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص ٢٨٠ — ٢٨١ .
والجرح والتعديل لابن أبي حاتم جـ ١ ص ٢١ .
وتهذيب التهذيب لابن حجر [illegible] ص ٩١ .

الجيـــدة التى يحكم على صاحبها بأنه بعيد عن النسك لدرجة أن حماد بن زيد — من عباد البصرة — يقول : " لو رأيتم أيوب ثم استسقاكم شربة على النســك ، لما سقيتموه " .

ومن أقواله : " ان قوما يريدون أن يتواضعوا ، ويأبى الله الا أن يرفعهم " ، " لا ينبغى الرجل حتى تكون فيه خصلتان . العفة عما فى أيدى الناس . والتجاوز عما يكون منهم " . وكان يتحمل الأذى كأستاذه الحسن ويظهر ذلك فى قولـــه عن رجل أذاه " انى لأرحمه . انا نفارقه وخلقه معه " .

وكان من خلقه اخفاء الحسنات كما يخفى أحدنا السيئات . يقسم عبدالواحد ابن زيد أنه قد عطش يوما وكان مع أيوب . حينئذ ضرب أيوب الأرض فخرج المــاء وشـــرب عبد الواحد بن زيد غاية ما فى الأمر أن أيوب طلب منه أن لا يتحدث بذلك وهـــو حىّ .

وكان راويا لحديث النبى صلى الله عليه وسلم : يقول معمر : وانه ليعز علىّ أن أسمع لأيوب حديثا لم أسمعه منه .

توفى رحمه الله فى الطاعون بالبصـرة سنة ١٣١ هـ وهو يومئذ ابن ٦٣ سنة[(١)] .

خلاصة الحديث عن تلاميذ الحسن ومدرســـته :

ان الحديث عن تلاميذ الحسن البصرى ومدرسته يطول لأن كل خـــريج يحتاج الى رسالة كاملة .

ومن هذا العرض السريع لبعض النماذج الذين تخرجوا من هذه المدرسة مع شىء من أفكارهم المأخوذة عن الحسن البصرى نرى أنماطا متعددة مثل قتـادة الذى اشتهر بالتفسير ، وعيسى الثقفى الذى عرف بالنحو والعربية ، وأبو عمرو بن العلاء الذى اشتهر بالقراءات ، وواصل بـــن عطاء ، وعمرو بن عبيد اللذان عرفـــــا بالكلام ، وشعبة بن الحجـاج بالحديث ، وفرقد ، ومالك ، وأيوب بالزهــــد

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ٢٤٦ — ٢٥١ . ،
وصفة الصفوة لابن الجوزى ج ٣ ص ١٨٤ — ٢١٧ .

وهكذا نرى أن هذه المدرسة قد خرجت الكثير من عمالقة الفكر والزهد والدعوة فى الاسلام . الذين تركوا أثرا لا يمحى مدى الزمان .

وهناك الكثير من تلاميذ الحسن ومدرسته لا يقلون أهمية عما ذكرناه مثل :

جويريه بن بشير الهجيمى البصرى ، ويونس بن عبيد ، وسلام بن سليمان الطويل ، وعاصم الجحدرى ، ومحمد بن واسع ، وصالح بن بشير المرى ، وعبد الواحد بن زيد ، ومطر الوراق ، وبديل بن ميسرة العقيلى ، وأبو محمد ثابت بن أسلم البنانى وغيرهم ممن يطول المقام بذكرهم . رحمهم الله رحمة واسعة وحشرنا معهم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . انه سميع مجيب .

أنماط من الفكر عند الحسن البصري

فى الفصل الأول من الباب الثالث وهو الذى يتعرض لفكر الحسن من معظم جوانبه ألقينا الضوء على معنى الفكر وأهميته للمجتمع ، مستشهدين على هذا من القرآن والسنة ، ثم بينا بعض النماذج من حملة فكر الحسن الى الأمة ، وهم طلاب مدرسته الكبرى ، مع بيان لبعض هذه الأفكار التى تأثروا بها بسبب تلمذتهم للحسن البصرى — رحمه الله — . ثم بعد هذا — وفى الفصل الأول أيضا — نذكر أنماطا من الفكر عند الحسن لنبرز بهذا شخصية الرجل على حقيقتها ، هذه الشخصية التى تربت على تراث السلف الصالح ، رضى الله عنهم ، وبالطبع لن نستطيع حصر جميع أفكاره ، لأننا معنى هذا نحصى كل ما جادت به قريحته فى القراءات ، والتفسير ، والسنة النبوية ، والفقه ، والزهد ، والعقائد ، والدعوة الى الله سبحانه وتعالى الخ ...

وهذا غير ميسور فى رسالة محدودة لها خطتها التى التزمت بالسير عليها ، وعلى هذا سنظهر — باذن الله تعالى — أهم أفكار الحسن فى جوانبه المتعددة من القراءات ، والتفسير ... مستفيدين فيما سنذكره بما وضعناه سابقا عن الحسن وعصره اذا اقتضى المقام ذلك وبالله التوفيق ومنه العون .

أ — فى القراءات :

تمهيد :

ان خير ما يجب أن يهتم به المسلم فى حياته هو القرآن الكريم قراءة ، وتدبرا وعملا ، كتاب الله تعالى المنزل على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، المتعبد بتلاوته ، المعجز بأقصر سورة منه ، المنقول الينا بالتواتر المفيد للقطع واليقين المكتوب فى المصاحف من أول سورة " الفاتحة " الى آخر سورة " الناس " .

أحكمه الله فأتقن احكامه ، وفصله فأحسن تفصيله ، وصدق الله : " كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " (١) .

---

(١) سورة هود آية رقم ١ .

لا يتطرق الى ساحته نقص ولا ابطال وصدق الله حيث يقول : " وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد "(١) .

هذا الكتاب السماوى الذى مهما تعاقبت عليه الأجيال والسنون لا يزداد الا جدة وطرافة .. ولا يزال غضا طريا كما أنزل ، وكلما تقدمت العلوم والمعارف الانسانية تكشف للناس منه العجب العجاب . وصدق الله حيث يقول : " سنريهم آتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد (٢) . بلى ... وأنا على ذلك من الشاهدين . وقد بلغت عناية الأمة الاسلامية بهذا القرآن مبلغا جعلتهم يهتمون به اهتماما كبيرا وذلك بدراسته من جميع نواحيه وتظهر هذه الدراسة فى مؤلفاتهم المختلفة عنه ، وكما قال الدكتور أبو شهبة .. فمنهم من ألف فى تفسيره ، ومنهم من ألف فى رسمه ، وقراءاته ومنهم من ألف فى استنباط الأحكام منه ومنهم من ألف فى ناسخه ومنسوخه ، ومنهم من ألف فى أسباب نزوله ، ومنهم من ألف فى اعرابه ، ومنهم من ألف فى قصصه ، ومنهم ألف فى تناسب آياته وسوره الخ ...(٣) . ورحم الله الدكتور دراز القائل : " اذا كان القرآن بعيدا عن أى عامل خارجى — قد تأثر بصفة دائمة على عقول جد مختلفة فلابد أن يكون ذلك راجعا الى ما له من جاذبية خاصة بتوافقه الكامل مع أسلوب الناس الفطرى فى التفكير والشعور . وباستجابته لما تتطلع اليه نفوسهم فى شئون العقيدة والسلوك ، وبوضعه الحلول الناجعة للمشكلات الكبرى التى تتلق بالهم . وبمعنى آخر لابد أنه ينطوى على ما يشبع حاجتهم الى الحق والخير والجمال بما يجمع من صفات العمل الدينى والأخلاقى والأدبى فى آن واحد (٤) .

ولأهميته القصوى للبشرية يسر الله قراءته فقال : " ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر "(٥) هذا التيسير انما يكون اذا استطاع العدد الكبير فى البشرية تلاوته وتدبره . وهذا ما حدث بالفعل فقد استطاعت جميع القبائل فى الجزيرة العربية وغيرها قراءته بلهجاتها المختلفة غاية ما فى الأمر أن هذا كله فى اطار اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم ، والتى لا يصلح الاعجاز أو التحدى الا بها .

---

(١) سورة فصلت آية (٤١ — ٤٢) .   (٢) سورة فصلت آية ٥٣ .
(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم للدكتور محمد محمد أبو شهبة ص ٤ — ١١ .
(٤) مدخل الى القرآن الكريم — عرض تاريخى وتحليل مقارن — للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٧٠ . ترجمه لأول مرة عن الفرنسية الأستاذ محمد عبد العظيم على وراجعه الدكتور السيد محمد بدوى . طبع دار القرآن الكريم بالكويت — الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م .   (٥) سورة القمر آية رقم ٣٢ .

ومن هذه اللهجات المختلفة التى كانت لها السيادة على غيرها لهجة قريش . هذه اللهجة التى جعلت الكثير من العلماء يقول بأن القرآن الكريم نزل بلغة قريش ولهجتها . وليس معنى هذا أنه أغفل اللغات واللهجات الأخرى . بالطبع لا لأن الواقع يبين لنا وجود لهجات متعددة فى القرآن . ولكن اللغة القرشية هى النموذجية لأنها تتسع للهجات العرب الأخرى .

ذلك حتى يتم الاعجاز والتحدى ، وسهولة حفظه ، وتلاوته ، وتدبره من أجل هذا حدث التباس بين بعض العلماء بسبب ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم . " ان القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف " .

وقبل أن نزيل هذا الالتباس نحب أن نبين بأن الحديث بالنظر الى رواياته المتعددة " متواتر " كما يقول الامام " أبو عبيد القاسم بن سلام " . فقد رواه من الصحابة : أبى بن كعب ، وأنس بن مالك ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن أرقم ، وسمرة بن جندب ، وسليمان بن صرد ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وعبد الرحمن بن عوف ... حتى عد أحدا وعشرين صحابيا [1] . كما روى هذا الحديث برواياته البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والامام أحمد بن حنبل فى مسنده ، والطبرى ، والطبرانى ...

هذه الروايات كلها تدل على تيسير حفظ القرآن الكريم وتلاوته .. بالاضافة الى الآية الكريمة التى ذكرناها . كما تدل على مظاهر الرحمة والنعمة وحرص الصحابة — رضى الله عنهم — البالغ على كتاب الله تعالى الذى لا كتاب بعده الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

أما الالتباس الذى وجد — بين بعض العلماء — بسبب هذا الحديث فقد فهموا أن الأحرف السبعة هى القراءات السبعة . وعلى هذا فغير القراءات السبعة — فى ضوء هذا الفهم — لا يصح أن يقرأ بها الانسان . وهذا ما لم يقل به معظم العلماء . واختلف فى هذا الموضوع الى وجوه أوصلها بعض العلماء الى أربعين وجها [2] .

وذكر هذه الآراء ومناقشتها والخروج منها برأى ترتاح اليه النفس مما يبعدنا عن منهج الرسالة الذى نحن بصدده . ويكفى أن نشير فقط الى أهمها فنقول :

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ١ ص ٤٥ ، وتفسير القرطبى ج ١ المقدمة .
(٢) الاتقان للسيوطى ج ١ ص ٤٥ وما بعدها .

١ ـ ابن قتيبه يرى أن الأحرف السبعة ، المراد منها الوجوه التى يرجع اليهـا اختلاف القراءات وعددها سبعة بالفعل . وقد أيد رأى ابن قتيبة الشيخ محمد نجيب المطيعى ، والدكتور ابراهيم أنيس ، وعارضه ابن عبد البر الذى يرى أنها سبعة أوجه من المعانى المتفقة . بالألفاظ المختلفة ..[1]

٢ ـ والطبرى يرى أنها سبع لغات مؤيدا رأيه بأحكام بعض الصحابة ـ حينما اختلفوا فى قراءتهم ـ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . واقرار الرسول لهم جميعا[2] .

٣ ـ أبو حاتم السجستانى ويرى أنها سبع لغات وعينها[3] .

٤ ـ أبو شامة يرى أنه نزل أولا بلغة قريش ومن جاورهم ثم أبيح للعرب بعد ذلك[4] .

٥ ـ الفخر الرازى يرى أن الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف فى الاختلاف وذكرها[5] .

هذه هى أشهر الآراء التى ذكرت فى معنى المراد بالسبعة أحرف التى نزل بها القرآن والمذكورة فى حديث الرسول السابق .

والمهم فى ذكر هذه الآراء أن نعرف بأن أعداء الاسلام من معظم المستشرقين ينتهزون فرصة أى رأى شاذ حينئذ يتبنونه مظهرين ـ فى حماسة ـ بأن هذا الرأى هو الصواب لأنه يخدم هدفهم الذى يسعون اليه وهو التشكيك فى النص القرآن مصدر الاسلام .

مصدر القراءات :

هذا الاختلاف فى القراءات جعل بعض المحدثين يتابعون المستشرقين فى كون القراءات السبع ليست من الوحى فى قليل ولا كثير وليس مفكرها كافرا ولا فاسقا ،

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٢٨ وما بعدها ، والكلمات الحسان فى الحروف السبعة للشيخ محمد بخيت المطيعى ص ٥٨ ، واللهجات العربية للدكتور ابراهيم أنيس ص ٣٨ .

(٢) تفسير الطبرى ج ١ ص ١٥ .

(٣) لطائف الاشارات فى فنون القراءات ج ١ ص

(٤) المرجع السابق ج ١ ص

(٥) مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى ـ طبعة الحلبى ص ١٤٨ .

ولا مفتمزا فى دينـــه وانما هى قراءات مصدرها اللهجـات .. (١)

ومن هؤلاء المستشرقين "جولدتسـيهـر" فى كتاب "مذاهب التفسير الاسلامى" وآثر جفـرى فى مقدمة كتاب "المصاحف" لابن أبى داود . وغيرهما ولكن الله تعالى قيض لهذه الآراء الضالة من يرد عليها ويظهر خبثها مثل الدكتور محمد أحمد الغمراوى الذى رد على الدكتور طه حسين في أدب ونقد هادئ ومنه على سبيل المثال كما قال الدكتور الغمراوى : " تناول صاحب الكتاب ـ في الأدب الجاهلى ـ بعد ذلك مسألة القراءات فى القرآن واعترف قبل أن يتناولها بأنه لم يكن لديه وقت لفحصها وهذا يجعل تناوله اياها على الصورة التى تناولها بها أشـبه بالتهجم منه بالبحث والا فلماذا لم ينتظر حتى يكون لديه الوقـت الكافى والمعلومات اللازمـة لفحصها وبحثها على الوجه اللائق فيصدر فيها عن علم ويكتب عـــن بصيرة ؟ .. (٢)

وهناك أيضا ممن ردوا على الدكتور طه حسين من العلماء الأجلاء أمثـال الشيخ محمد الخضر حسين ، والأستاذ محمد فريد وجدى ، والأستاذ مصطفـى صادق الرافعى ، والأستاذ محمد حسين وغيرهم .

ونتيجة لهذه الآراء الشاذة نرى بعض الرسائل الجامعية تتعرض لهـــذا الموضوع بشطط . مثل : رسالة الماجستير للطالبة تفريد السيد عنبر تحت عنـوان : " دراسة فى أصوات المد فى التجويد القرآنى " التى تقدمت بها الى قسم اللغة العربية فى كلية آداب الاسكندرية باشراف الدكتور حسن عون . وفى هذه الرسالة تحاول الباحثة أن تجعل القرآن الكريم ـ وهو أصل الأصول الاسلامية ـ كأى بنـاء لغوى منطوق يكون صورة أدائية تتغير بتغير الزمن ، ولا يحوق هذا التغيـــــير عوامل التقديس ... ولكن الله تعالى الذى تولى بنفسه حفظ كتابه وفق أحـــد العلماء المخلصين الى تفنيد هذه الآراء الشاردة الموجودة فى الرسالة المذكورة والرد عليها بما لا يحتمل النقض . (٣)

---

(١) فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين ص ٩٥ ـ ط دار المعارف بمصر .
(٢) النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى للدكتور محمد أحمد الغمـــراوى للرد على الدكتور طه حسين .
(٣) مزاعم حول قراءات القرآن فى رسالة أصوات المد فى القرآن الكريم للشـــيخ محمد الصادق عرجون عميد كلية أصول الدين وقت كتابة هذه المزاعم ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م .

ثم يجيء الدكتور عبد العال سالم على فيرد على آراء هؤلاء المستشرقين ومن يسير فى فلكهم — من المسلمين — ويقرر أن : " القراءات ليس مصدرها هذه اللهجات العديدة وانما مصدرها قراءة النبى صلى الله عليه وسلم .. "(١) . بدليل ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، بسندهما عن ابن شهاب الزهرى قال : أخبرنى عروة بن الزبير ، أن المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن عبد القارى أخبراه أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة "الفرقان فى حياة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرأ على حروف كثيرة ، لم يقرأ بها رسول الله ، فكدت أساوره — أى أواثبه وأمسك به — فى الصلاة فتصبرت حتى سلم ، فلببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : كذبت — أى أخطأت بلغة الحجاز — فان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به ، أقوده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : انى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أرسله ، اقرأ يا هشام ، فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كذلك أنزلت ، ثم قال : اقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التى أقرأنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذلك أنزلت ، ان القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منه "(٢) .

وهذا ما أعتقده ، وأقتنع به ، وأدين الله عليه .

القراءة الصحيحة والشاذة :

لقد وضع ابن الجزرى مقياسا به نتبين القراءة الصحيحة من القراءة الشاذة

---

(١) أثر القراءات فى الدراسات النحوية للدكتور عبد العال سالم ص ٣٦ وما بعدها

(٢) فتح البارى لابن حجر ج ٩ ص ١٩ وما بعدها ، وشرح النووى على صحيح

وهذا المقياس أجمع عليه علماء القراءات تقريبا . ألا وهو : " كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا ، وصح سندها فهى القراءة الصحيحة التى لا يجوز ردها ، ولا يحل انكارها بل هى من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، ووجب على الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة أم العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليه ضعيفه ، أو شاذه ، أو باطله سواء كانت عن السبعة أن عمن هو أكبر منهم .. " (١)

من هذا القول لابن الجزرى نعلم بأن كثيرا من القراءات غير السبع التى اتفق على تواترها وصحتها . تكون من الأحرف السبعة مادام المقياس موجودا ..

والآن بعد هذا العرض السريع فى علم القراءات نجد أنفسنا فى اشتياق الى معرفة فكر الحسن البصرى فى القراءات فى ضوء هذا الخضم من الآراء والأفكار القديمة والحديثة . حتى تتبين لنا قيمة الرجل وعظمته ..

قراءة الحسن :

عرض الحسن البصرى القرآن الكريم على شيخه حطان الرقاشى ، عن أبى موسى الأشعرى .. وعرضه أيضا على أبى العالية عن أبى بن كعب وزيد بن ثابت وعمر بن الخطاب رضى الله عنهم .

---

(١) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى جـ ١ ص ٩ ، ومنجد المقرئين ومرشد الطالبين له أيضا ص ١٥ .

واذا كان الحسن تلميذا أخذ القراءة عن أكابر العلماء فقد كان أستاذا كذلك قرأ عليه نخبة ممتازة من العلماء الأجلاء كما عرفنا فيما مضى .

ثم نجد أن الهذلي أسند قراءته من رواية ابن عباد بن راشد ، وعباد بن تميم ، وسليمان بن أرقم ، وعتبة بن عتيبة ، وعمر بن مقبل كلهم عن الحسن . كما أسند الأهوازي قراءة الحسن عن شجاع البلخي وأن شجاعا قرأ على عيسى بن عمر النحو وأن عيسى قرأ على الحسن .

وقد أثبت قراءة شجاع على عيسى بن عمر وقراءة عيسى على الحسن الحافظ أبي العلاء . قال الشافعي عن قراءته : " لو أشاء أقول : ان القرآن نزل بلغة الحسن لقلت لفصاحته " .. (١)

وقد اتفق علماء القراءات — تقريبا — بأن القراءات السبع وما زاد عليها وهي القراءات العشر متواترة وما عداها فشاذ . وعلى هذا فقراءة الحسن على منهجهم تعتبر شاذة .

ولكن اذا ما أخذنا بمقياس ابن الجزري المتفق عليه وهو : صحة السند .. ، وموافقة الرسم العثماني .. ، وموافقة العربية .. تبين لنا أن بعض قراءة الحسن البصري

---

(١) اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر للدمياطي الشافعي المتوفى سنة ١١١٧ هـ . رواه وصححه وعلق عليه الشيخ علي محمد الضباع ص ٧ — ٩ .

ليس بشاذ . لأنها توافق هذا المقياس ونستدل على هذا ببعض النماذج التى نجدها فى كتب القراءات فيما يلى :

(الحمد لله) قرأ الجمهور بالرفع على الابتداء والخبر ما بعده أى متعلقة . ولكن قراءة الحسن بكسر الدال . هذه القراءة فما موقفها من الشروط التى وضعت لتكون القراءة صحيحة ؟ الفرق بين قراءة الجمهور وقراءة الحسن هو : كسر الدال . فمن حيث الرسم العثمانى لم يحدث تغيير ،ومن حيث العربية فهناك مسوغ وهو أن كسرها اتباعا لكسرة اللام بعدها . وهى لغة تميم وبعض غطفان يتبعون الأول الثانى للتجانس . وانما جاز الاتباع هنا فى كلمتين مع أنه انما يكون فى كلمة واحدة لتنزيل الكلمتين هنا منزلة الكلمة الواحدة نظرا لكثرة استعمالهما مقترنين ، أما سند القراءة فقد رويت عن زيد بن على (١) وغيره . لكنها لم تصل الينا عن طريق التواتر فلم تعتبر ضمن العشر المتفق عليها .

من المثال السابق وغيره نعلم أنه من الممكن تجميع كل قراءة وردت عن الحسن البصرى والعكوف على دراستها فى ضوء وعلم اللغة الحديث نستطيع بهذا أن نخرج بقراءة للحسن قد تصل الى الصحة . وهذا بالطبع يحتاج الى دراسة مستقلة نرجو من الله أن يعيننا عليها .

والدليل على هذا الامكان ما ذكره ابن الجزرى المتوفى سنة ٨٣٣ هـ بمدينة شيراز فى كتابة " منجد المقرئين ومرشد الطالبين . بعد أن تحدث عن القراءة الصحيحة والشاذة وتفرق القراء فى جميع الأمصار يقول : ... ثم ان القراء بعد ذلك تفرقوا فى البلاد وخلفهم أمم بعد أمم وكثر بينهم الخلاف وقل الضبط واتسع الخرق فقام الأئمة الثقات النقاد وحرروا وضبطوا وجمعوا وألفوا على حسب ما وصل اليهم وصح لديهم فالذى وصل الينا اليوم — طبعا فى حياة ابن الجزرى — متواترا وصحيحا مقطوعا به قراءات الأئمة العشرة ورواتهم المشهورين — وكان قبل ذلك يقتصر التواتر على السبعة — هذا الذى تحرر من أقوال العلماء وعليه الناس اليوم بالشام والعراق ومصر والحجاز وأما بلاد المغرب والأندلس فلا ندرى ما حالها اليوم لكن بلغنا عنهم أنهم يقرؤون بالسبع من طرق الرواة الأربعة عشر فقط . وربما يقرأون ليعقوب الحضرمى فلو رحل اليهم أحد من بلادنا لأسدى اليهم معروفا عظيما .

---

(١) اتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر للدمياطى الشافعى مع حاشية الشيخ الضباع ص ١٢٢ ، ١٢٦ ،ورسالة " القراءات الشاذة " وتوجيهها من لغة العرب للشيخ عبد الفتاح القاضى ص ٢٢ ، ٢٤ .

فثبت من ذلك أن القراءة الشاذة ولو كانت صحيحة فى نفس الأمر فانها مما كان اذن فى قراءته ولم يتحقق انزاله وان الناس كانوا مخيرين فيها فى الصدر الأول ثم أجمعت الأمة على تركه للمصلحة وليس فى ذلك خطر ولا اشكال لأن الأمة معصومة من أن تجتمع على خطأ " [1] .

من هذا نعلم أنه يجوز معرفة القراءة الشاذة — ومنها قراءة الحسن البصرى ككل — وتعليمها للناس غاية ما فى الأمر يمتنع القراءة بها فى الصلاة الى أن يثبت تواترها عن طريق الأبحاث الجادة البريئة عن التعصب والزيغ والضلال . وقد قال بهذا المعنى أحد العلماء المحدثين المهتمين بهذا العلم وهو الشيخ عبد الفتاح القاضى . فبعد أن بين آراء العلماء فى القراءة المقبولة والمردودة قال : " واذا علمت أن القراءة الشاذة لا تجوز القراءة بها مطلقا فاعلم أنه يجوز تعلمها وتعليمها وتدوينها فى الكتب ، وبيان وجهها من حيث اللغة والاعراب والمعنى ، واستنباط الأحكام الشرعية منها على القول بصحة الاحتجاج بها ، والاستدلال بها على وجه من وجوه اللغة العربية ، وفتاوى العلماء قديما وحديثا مطبقة على ذلك والله أعلم" [2] وما يقال عن القراءة الشاذة يطبق على قراءة الحسن لأنها من الأربعة الزائدة عن العشرة .

أهمية القراءات :

يجب أن نهتم كثيرا بعلم القراءات وأن نضع له الامكانيات الكافية لدراسته . لأن هذا العلم كما يقول الدكتور الراجحى : هو الذى طبع العقل الاسلامى فى دقة النقل وضبط الأداء . ولأنه أيضا دفع المسلمين الى ارتياد ميادين كثيرة فى البحث وبخاصة فى ميدان علوم اللسان ... والجهل به يؤدى الى جهلنا بلغتنا العربية التى هى ملاك وحدتنا العربية . فأنت لا تقيم لسانك بعربية صحيحة الا اذا أقمته أولا على قراءة القرآن الكريم . فالقضاء على القراءة قضاء على اللغة التى هى حياة الوحدة العربية . والقضاء على اللغة قضاء على الدين الذى هو حياة اللغة" [3] .

---

(١) منجد المقرئين ومرشد الطالبين لابن الجزرى ص ٢٣ — ٢٤ طبع مكتبة القدسى .

(٢) القراءة الشاذة وتوجيهها من لغة العرب للشيخ عبد الفتاح القاضى ص ٨ .

(٣) مجلة الفكر الاسلامى التى تصدر ببيروت — السنة الأولى العدد الحادى عشر مقال للدكتور الراجحى .

وللوصول الى هدفنا الذى ذكرناه أقترح الآتى :

أولا : لا نكتفى بمعهد للقراءات فقط وانما لابد من انشاء معاهد أخرى حتى ينتشر الوعى القرآنى بين الناس ٠

ثانيا : بعد الحصول على شهادة المعهد لا يصح أن نقتصر على هذا ، بل نعمل على انشاء دراسات عليا فى القراءات القرآنية يحصل فيها الطالب على درجة الماجستير والدكتوراه ٠ وهذا بلا شك سيكون حافزا على الاقبال الكبير على هذا النوع من الدراسات وللوقوف أمام المستشرقين والمبشرين فى أبحاثهم الجديدة عن القرآن الكريم الذين يريدون بها التقليل من شأن هذا الكتاب العظيم ، ولذلك فرحت كثيرا ببعض العلماء المحدثين الذين اتجهوا هذه الوجهة الطيبة التى نحن فى أشد الحاجة اليها أذكر منهم على سبيل المثال من الأحياء الشيخ عبد الفتاح القاضى ، والشيخ عامر السيد عثمان ، والدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبى ، والدكتور عبد الصبور شاهين ، والدكتور عبد العال سالم على الخ ٠٠٠

ثالثا : نصح القراء بعدم جمع القراءات فى المحافل مطلقا لأنه كما يقول بعض العلماء بدعة منكرة لا ينبغى اقرارها ولا السكوت عليها ٠

لهذا يقول ابن الجوزى فى " تلبيس ابليس " : " ان من تلبيسه عليهم أن منهم من يجمع القراءات ، فيقول : ملك مالك ملاك ٠ وهذا لا يجوز لأنه اخراج للقرآن عن نظمه (1) ٠

وكثيرا ما يحدث فى بعض الأماكن من بعض القراء لم يكونوا متقنين لهذا العلم فيقرأون بجهل فيضلون ويضلون ٠

أما القراءات التى تكون مثلا فى اذاعة محطة القرآن الكريم بجمهورية مصر العربية كرواية ورش عن نافع ٠٠ لا شك أنها تعتبر من الأسباب التى تؤدى الى الحفاظ على هذا العلم وبالله التوفيق ٠

---

(1) مجلة الوعى الاسلامى : السنة السابعة : العدد ٨١ — مقال قيم تحت عنوان " حكم جمع القراءات فى المحافل " ٠

ب — فى التفسير :

تمهيد :

المراد من التفسير هنا — والذى يعنينا — بيان كلام الله عز وجل ، وهذا يكون بذكر الألفاظ والعبارات الموجودة فى القرآن الكريم المنزل على قلب المصطفى عليه الصلاة والسلام . والتفسير كأحد العلوم أو الدراسات الشرعية التى اهتم بها المتقدمون والمتأخرون من العلماء الأجلاء له مكانته وفضله وأهميته ... مما هو مبسوط فى المراجع الكثيرة كالطبرى ، والقرطبى ، وابن كثير ، وعلوم القرآن الكريم ، وطبقات المفسرين الخ ... قال تعالى : " وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون " (١) .
وقد بين الامام السيوطى شروط الذى يتعرض لتفسير القرآن الكريم نوجزها فيما يلى :

١ — اللغة : قال مجاهد : لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله اذا لم يكن عالما بلغات العرب .

٢ — النحو : سئل الحسن البصرى عن الرجل يتعلم العربية ، يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته ، فقال للسائل : حسن فتعلمها ، فان الرجل يقرأ الآية فيعى بوجهها ، فيهلك فيها .

٣ — التصريف :

٤ — علوم البلاغة : (المعانى ، والبيان ، والبديع) .

٥ — علم القراءات .. ٦ — أصول الدين ... ٧ — أصول الفقه ...

٨ — أسباب النزول ... ٩ — الناسخ والمنسوخ .. ١٠ — الاخلاص للمتعالى (٢) .

وهذه الشروط التى وضعها المتأخرون لمن يفسر القرآن الكريم كانت كلها تقريبا متوفرة فى السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومنهم الحسن البصرى .

---

(١) سورة النحل آية ٦٤ .

(٢) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ٢ ص ٢٠٧ — ٢٢٠

وقد بلغت عناية الصحابة بالتفسير فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم الى حد جعل المسلمون الأوائل يتعلمون القرآن علما وعملا وتدبرا كما روى ذلك أبو عبد الرحمن السلمى قال : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن — كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما — أنهم كانوا اذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا • ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة • وقال أنس بن مالك : " كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جل فى أعيننا ، وقال مجاهد رضى الله عنه : " عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها • وفى رواية أنه عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة • ومن هنا نرى الشافعى والبخارى وغيرهما يعتمدون على تفسيره ...(١)

والتابعون أيضا كان لهم دور كبير فى تفسير القرآن الكريم كمجاهد الذى ذكرناه وسعيد بن جبير المتوفى سنة ٦٤ هـ وتذكر بعض الروايات أن تفسيره دونه أو دون له ،وجابر بن يزيد الجعفى المتوفى سنة ١٢٧ هـ ،وأبو محمد اسماعيل بن عبد الرحمن الكوفى القرشى المعروف بالسدى المتوفى سنة ١٢٧ هـ الذى قال عنه السيوطى : ان تفسيره من أمثل التفاسير ،وسفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١ هـ بالبصرة صاحب كتاب " تفسير القرآن الكريم " رواية أبى جعفر محمد عن أبى حذيفة النهدى ، ومقاتل الأزدى ...(٢) • وكان معظم الصحابة والتابعين يفسرون القرآن بالمأثور غالبا • اللهم الا بعض المشهورين الذين كانوا يأخذون عن أهل الكتاب وهو ما عرف بالاسرائيليات مثل : كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ...(٣)

تفسير الحسن البصرى :

بعد هذا الموجز عن علم التفسير • نذكر أن الحسن البصرى — عليه رحمة الله — كان على دراية بهذه الناحية من فكره • ويظهر اهتمامه هذا بالتفسير من

---

(١) طبقات القراء لابن الجزرى ج ١ ص ٤١٣ ، ومقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص ٦ وخلاصة تذهيب الكمال للخزرجى ص ٣١٥ ، وتلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكرى لابن تيمية ص ١٥ — ١٦ المطبعة السلفية •

(٢) الاتقان للسيوطى ج ٢ ص ٢٢٢ وما بعدها ، ومقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص ٢٢ ، وتفسير القرآن الكريم لسفيان الثورى • رواية أبى جعفر محمد عن أبى حذيفة النهدى والذى طبع بالهند تصحيح وتعليق الأستاذ امتياز على عرشى مدير مكتبة رضا (رامبور) وهذا التفسير موجود حاليا بمكتبة كلية أصول الدين العامرة •

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤ ، وتفسير القرطبى : المقدمة ، وتلخيص كتاب الاستغاثة [illegible]

قوله : " ما أنزل الله آية الا وهو يحب أن تعلم فيما أنزلت وما أراد بها "(١) .

وكان رحمه الله قد أخذ التفسير عن ابن عباس الصحابى الجليل وغيره وتنسب اليه تفسير القرآن الكريم برواية تلميذه عمرو بن عبيد وانتفع الثعالبى به كثيرا (٢) . ولكن للأسف لم أعثر عليه . وعلى كل حال لا نيأس فان كتب التفسير المختلفة مملوءة بآراء وأفكار الحسن رحمه الله عن تفسير القرآن مثل : تفسير القرطبى ، والطبرى ، والألوسى ، وابن كثير الخ ... ونستطيع بعد بحث وتنقيب فى كتب التفسير -حسب ظنى- أن نخرج بتفسير للحسن البصرى . له قيمته وأهميته فى المكتبة العربية والاسلامية . الى أن نحصل على تفسيره المطلوب . وما ذلك على الله بعزيز .

وهذه بعض النماذج لفكر الحسن فى التفسير .

١ - قال تعالى : " ... واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر اذ يعدون فى السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون الى قوله تعالى : " قلنا لهم كونوا قردة خاسئين (٣) .

يقول الحسن البصرى فى تفسير هذا القول الكريم : حوت حرم الله تعالى عليهم -أى اليهود- صيده يوما من أيام الجمعة وأحله فيما سوى ذلك من الأيام ، فكانوا يأتيهم فى يوم التحريم كالمخاض ما يمتنع من أحد للمحنة والبلية والاختبار بالطاعة ، فجعلوا يهمون بأخذه ويمسكون مخافة وتعبدا . وقل ما هم عبد بذنب الا واقعه ، ثم عزموا عليه فأخذوه وأكلوه والله أوخم أكله أكلها قوم ، فنودوا ثلاثا وهم نائمون . ثم نودوا : يا أهل القرية : فانتبه الرجال والنساء والصبيان . فقيل لهم : كونوا قردة خاسئين ، فكانوا كذلك وأيم الله لحرمة عبد مؤمن يقتل ظلما أعظم عند الله من كل حوت خلق ،ولكن جعل الله تعالى موعد قيام الساعة والساعة أدهى وأمر (٤) .

---

(١) الاتقان للسيوطى جـ ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٣٦ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان جـ ١ ص ٢٥٧ ، وطبقات المفسرين للحافظ ابن أحمد الداودى المتوفى سنة ٩٤٥ هـ حـ ا ص ١٤٧ - الناشر مكتبة وهبة ، وتاريخ التراث العربى للأستاذ فؤاد سركين - المجلد الأول ص ١٨٧ مترجم الى العربية بالقاهرة سنة ١٩٧١ .

(٣) سورة الأعراف الآيات من ١٦٣ الى ١٦٦ . " واذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عن ما نهوا عنه ... "

(٤) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٤٨ .

هذا التفسير للآيات الكريمة من الحسن — رحمه الله — نلمح فيه ما يلى :

أولا : النظر دائما الى لب الموضوع دون الالتفات الى التفاصيل التى كثيرا ما تؤدى الى الأخذ من الاسرائيليات . فالحسن هنا نظر الى الآيات الكريمة بطريق الاجمال . جاعلا فهم السلف الصالح نصب عينيه خاصة ابن عباس رضى الله عنهما الذى قال فى ابتلاء اليهود بهذا قال : " ان اليهود أمروا باليوم الذى أمرتم به وهو يوم الجمعة ، فتركوه واختاروا السبت فابتلاهم الله — تعالى — به ، وحرم عليهم الصيد فيه ، وأمرهم بتعظيمه فاذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون اليها فى البحر فاذا انقضى السبت ذهبت وما تعود الا فى السبت المقبل ، وذلك بلاء ابتلاهم الله به ، فذلك معنى قوله تعالى : (ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) ... (١) .

ولهذا نجد بعض المفسرين المتأخرين الذين يهتمون بالتفسير بالمأثور كابن كثير لا يخرجون عن تفسير الحسن جملة مثل ما قاله ابن كثير فى الآيات السابقة " ... أى واسأل — يا محمد — هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم ، واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم لئلا يحل بهم ما حل باخوانهم وسلفهم وهذه القرية هى أيلة وهى على شاطئ بحر القلزم ... (٢) .

وكذلك القرطبى القائل فى تفسيره : " .. أى واسأل اليهود الذين هم جيرانك عن أخبار أسلافهم وما مسخ الله منهم قردة وخنازير . وهذا سؤال تقريع وتوبيخ . وكان ذلك علامة لصدق النبى صلى الله عليه وسلم اذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلم . وكانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ... فقال تعالى لنبيه : سلهم يا محمد عن القرية ، أما عذبتهم بذنوبهم ، وذلك بتغيير فرع من فروع الشريعة .. (٣) .

وقال جمهور المفسرين — مبينين افتراق بنى اسرائيل فى هذا المقام — : ان بنى اسرائيل افترقت ثلاث فرق .. فرقة عصت وحادت .. وفرقة نهت

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٤ ص ٢١٦ طبعة المطبعة الأزهرية ١٢٠٨ هـ
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٥٧ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٠٤ .

واعتزلت .. وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص ، وأن هذه الطائفة قالت للناهية : لم تعظون قوما — تريد العاصية — الله مهلكهم أو معذبهم على غلبة الظن ، وما عهد من فعل الله تعالى حينئذ بالأمم العاصية . فقالت الناهية : موعظتنا معذرة الى الله لعلهم يتقون .. ثم اختلف بعد هذا ، فقالت فرقة : ان الطائفة التى لم تنه ولم تعص هلكت مع العاصية عقوبة على ترك النهى ، قال ابن عباس . وقال أيضا : ما أدرى ما فعل بهم ، وهو الظاهر من الآية . وقال عكرمة : قلت لابن عباس لما قال : ما أدرى ما فعل بهم : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقالوا : لم تعظون قوما الله مهلكهم ؟ فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا فكسانى حلة . وهذا مذهب الحسن البصرى[1] .

وقيل : ان أهل القرية — صاحبة القصة السابقة — كانوا منقسمين الى فرقتين : الأولى : الفرقة العاصية ، والثانية : الفرقة المطيعة ، والواعظة ، فلما داومت الثانية الوعظ والنصيحة للأولى قالت الأولى لها — أى للواعظة — على سبيل الاستهزاء والسخرية : لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا فى اعتقادكم ، فأجابتهم الواعظة بقولها : معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون . والذى نرجحه هو الرأى الأول الذى ذكرناه من أنهم كانوا على ثلاث فرق وعليه مذهب الحسن البصرى مستدلين بما يأتى :

أ — لو كانوا فرقتين لقالت الواعظة للعاصية : ولعلكم تتقون . بكاف الخطاب ولكنه قال : لعلهم يتقون . ما يدل على أن المحاورة كانت بين الفرقة اللائمة والفرقة الواعظة أما العاصية فمعروفة .

ب — ما ذكره المولى سبحانه وتعالى عقب كل من الواعظة والعاصية " فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء — وهم الواعظة — وأخذنا الذين ظلموا — وهم الفرقة العاصية — بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون .

جـ — جمهور المفسرين على هذا الرأى الذى يؤيد مذهب الحسن البصرى مثل : القرطبى ، وابن كثير ، والألوسى ، والزمخشرى ..[2] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٠٧ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥١٥ ، وتفسير الألوسى جـ ٣ ص ١٤٧ ، وتفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٥٧ ، والقرطبى جـ ٧ ص ٣٠٦ ..

ثانيا : محاولته دائما فى تفسيره أخذ العبرة والعظة حتى يكون لهذا التفسير الفائدة المرجوة والدليل على ذلك أيضا النص الذى معنا فى تفسيره للآيات السابقة • فبعد أن قال : ••• فقيل لهم : كونوا قردة خاسئين ، فكانوا كذلك • قال بعد هذا : وأيم الله لحرمة عبد مؤمن يقتل ظلما أعظم عند الله من كل حوت خلق ••

هذه المقارنة العجيبة بين حرمة قتل المؤمن وكل حوت خلق تدل على مدى عمق الحسن فى تفكيره للوصول بالتفسير لصلاح الفرد والمجتمع •

ذلك أن الحوت أو الحيتان تسببت فى انهيار الانسانية لبنى اسرائيل فى هذا الوقت وتحويلهم الى القردة والخنازير • فكان قتل المؤمن ظلما — فى رأيه — أشد وأعظم عند الله من تحويل الانسان الى فصيلة القرود أو الخنازير •

ويؤيد هذا المعنى — من حيث الشدة — قول الله تعالى : (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما)[1] ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم "[2]

ثالثا : البعد ما أمكن عن الغرائب وعدم أخذ القارئ فى تفسيره الى متاهات تخرجه عن المقصود من الغاية المرجوة • كما تفعل بعض كتب التفاسير المحتوية على الاسرائيليات مثل : تفسير الثعالبى ، وتفسير مقاتل بن سليمان ، وتفسير الخازن[3] ••• وغير ذلك •

---

(١) سورة النساء آية ٩٣ •

(٢) حديث صحيح أخرجه الترمذى والنسائى عن عبد الله بن عمرو بن العاص •

(٣) الثعالبى هو : أبو اسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعالبى النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ وقيل — كما فى وفيات الأعيان لابن خلكان سنة ٤٣٧ هـ • وتفسير الثعالبى مخطوط يقع فى أربع مجلدات ويوجد معظمه بمكتبة الأزهر • ومقاتل المفسر هو : مقاتل بن سليمان بن بشير الخرسانى المتوفى سنة ١٥٠ هـ وتفسيره المشهور قام بتحقيقه أحد الباحثين بكلية دار العلوم جامعة القاهرة وهو الدكتور عبد الله شحاته • وحصل بهذا البحث على درجة الدكتوراه • ويقول الدكتور محمد الذهبى الأمين المساعد بمجمع البحوث الاسلامية بالأزهر عن تفسير مقاتل هذا : وأنا فى شك من تفسير مقاتل فالعصر الذى عاش فيه مقاتل كان عصر اسناد حتى من الوضاعين ، وما وجدنا فى تفسير مقاتل اسنادا الا نادرا وكثيرا ما يليه فى هذا التفسير عبارة (قال أبو محمد الفراء : كذا وكذا) • وأحيانا نجد عبارة (قال الفراء) فى سياق التفسير وكأنما قائل هذه العبارة هو المفسر نفسه ، ولا يعقل أن يكون مقاتل بن سليمان لأنه توفى فى سنة ١٥٠ هـ •

وبالبحث نجد أن الكثير من التفاسير تدور فى معظم آرائها غالبا حول مذهب الحسن ، كما ذكرنا مثالا على ذلك فى القرطبى ، والألوسى ، وابن كثير ، والكشاف ، والفخر الرازى ..

٢ — قال تعالى فى محكم تنزيله : " .. قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون .. " (١)

كان الحجاج الى بيت الله الحرام قبل الاسلام يطوفون بالبيت وهم عراة ظنا منهم بأن هذا منتهى الخشوع والخضوع لله تعالى . حينئذ أراد الله جل ذكره أن ينبههم بأن هذا ليس تقربا اليه بسبب التغالى فى البعد عن الحياة وزينتها ..

فأنزل الله قوله عز من قائل : " يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ... الآيات .

وأخذ المصطفى صلى الله عليه وسلم يعلمهم كيف تكون الزينة وتناول الطيبات من الدنيا فى غير سرف أو غلو . ولكن بعض القوم بعد أن كانوا على يسار السفينة وكادوا يغرقون فى البحر تنقلوا الى وسطها ثم الى جهة اليمين غلوا واسرافا . ونسوا قول النبى صلى الله عليه وسلم : " خير الأمور أوساطها " (٢).

= والفراء ولد فى سنة ١٤٤ هـ وتوفى سنة ٢٠٧ هـ (الاسرائيليات فى التفسير والحديث ص ١٩٢ — ١٩٣) . والخازن هو : علاء الدين أبو الحسن على بن محمد ابن ابراهيم بن عمر بن خليل الشيحى البغدادى الشافعى المعروف بالخازن لأنه كان خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق . ولد فى بغداد سنة ٦٧٨ هـ وتوفى فى حلب سنة ٧٤١ هـ .

(١) سورة الأعراف الآية رقم ٣٢ وما بعدها .

(٢) أخرجه ابن السمعانى فى ذيل تاريخ بغداد بسند مجهول عن على مرفوعا به . وأخرجه البيهقى عن مطرف من قوله (تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث للعلامة ابن الديبع الشيبانى الشافعى الأثرى المتوفى سنة ٩٤٤ هـ الطبعة الثانية) .

بعد هذا جاء الحسن البصري ليصرخ فى آذان الشاردين عن الطريق المستقيم وليعلمهم كيف يكون الفهم لهذا القرآن الكريم. قال الطبري : " حدثني المثنى قال : حدثنا حبان بن موسى قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن سفيان عن رجل عن الحسن البصري - قال : لما بعث الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - فقال : " هذا نبى هذا خيارى استنوا به " خذوا فى سننه وسبيله ، لم تغلق دونه الأبواب ولم تقم دونه الحجبة ولم يغد عليه بالجفان ولم يرجع عليه بها وكان يجلس بالأرض ويلعق يده ويلبس الغليظ ، ويركب الحمار ويردف بعده وكان يقول : " من رغب عن سنتي فليس منى " . قال الحسن رحمه الله : " فما أكثر الراغبين عن سنته التاركين لها : ثم ان علوجا فساقا أكلة الربا والغلول قد سفههم ربى ومقتهم زعموا أن لا بأس عليهم فيما أكلوا وشربوا وزخرفوا هذه البيوت يتأولون هذه الآية : " قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ... " وانما جعل ذلك لأولياء الشيطان قد جعلها ملاعب لبطنه وفرجه " . ثم يعلق محقق تفسير الطبري الشيخ شاكر على هذا بقوله : " رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء ج ٢ ص ١٥٣ - ١٥٤ من طريق محمد بن محمد عن الحسن بن أحمد بن محمد عن أبى زرعة عن مالك بن اسماعيل عن مسلمة بن جعفر عن الحسن - البصري - بنحو هذا اللفظ وهى صفة تحفظ وموعظة تهدى الى طغاتنا فى زماننا ، من الناطقين بغير معرفة ولا علم فى فتوى الناس بالباطل الذى زخرفته لهم شياطينهم . (١)

ويذكر الحسن البصري أيضا حديثا عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت " (٢) . ويقول الحسن رحمه الله : " ليس فى الطعام سرف " تاليا قوله تعالى : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا (٣) . ويقول لفرقد : السبخي تلميذه : بلغني أنك لا تأكل الفالوذج ؟ قال : يا أبا سعيد ، أخاف أن لا أؤدى شكره : قال : يا لكع .. وهل تؤدى شكر الماء البارد فى الصيف والحار فى الشتاء ؟ أما سمعت قول الله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم .. (٤) .

---

(١) تفسير الطبري . جامع البيان عن تأويل القرآن ج ١٢ ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .

(٢) رواه الدارقطنى فى الأفراد وقال هذا حديث غريب تفرد به بقية . (تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢١٠) ، وخرجه كذلك ابن ماجه فى سننه . كما روى فى تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٩٥ .

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٨ ص ٦ . والآية الكريمة من سورة المائدة آية ٩٣

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٧٢ .

نخرج من كل هذا الى أن الحسن البصرى رحمه الله - كان ينظر الى القرآن الكريم على أنه كتاب البشرية وموافق الفطرة . ومع كون القرآن كذلك لا ينتفع به أى انسان . وانما الذى ينتفع به هو الانسان العاقل الذى يعلم حقيقة هذا الدين قال تعالى : "ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى للمتقين " (١) .

ولذا نجد أن الله تعالى ختم الآية الكريمة التى نحن بصددها بقوله تعالى " كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون .

ويعلق صاحب كتاب " فى ظلال القرآن " على هذا الختام بقوله : " والذين "يعلمون" حقيقة هذا الدين هم الذين ينتفعون بهذا البيان . فأما الذى حرمه الله حقا . فليس هو الزينة المعتدلة من اللباس . وليس هو الطيب من الطعام والشراب - فى غير سرف ولا مخيلة - انما الذى حرمه الله حقا هو الذى يزاولونه فعلا : " قل انما حرم ربى الفواحش - ما ظهر منها وما بطن - والاثم والبغى بغير الحق . وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون " (٢) .

هذا هو الذى حرمه الله . الفواحش من الأعمال المتجاوزة لحدود الله . ظاهرة للناس أو خافية . والاثم . وهو كل معصية لله على وجه الاجمال . والبغى بغير الحق . وهو الظلم الذى يخالف الحق والعدل ...

٣ - قال تعالى : " ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون " (٣) .

روى عن عثمان بن مظعون أنه قال : لما نزلت هذه الآية الكريمة قرأتها على على بن أبى طالب رضى الله عنه فتعجب فقال : يا آل غالب . اتبعوه تفلحوا . فوالله ان الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق . وفى حديث - ان أبا طالب لما قيل له : ان ابن أخيك زعم أن الله أنزل عليه : " ان الله يأمر بالعدل والاحسان ... " قال : اتبعوا ابن أخى فوالله لا يأمر الا بمحاسن الأخلاق .

وقال عكرمة : قرأ النبى صلى الله عليه وسلم على الوليد بن المغيرة : " ان الله يأمر بالعدل والاحسان ... " فقال : يا ابن أخى أعد ... فأعاد عليه

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١ ، ٢
(٢) سورة الأعراف آية رقم ٣٣
(٣) سورة النحل آية رقم ٩٠

فقال : والله ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أصله لمورق وأعلاه لمثمر ، وما هو بقول بشر .. وذكر الغزنوى أن عثمان بن مظعون هو القارئ .

قال عثمان : ما أسلمت ابتداء الا حياء من رسول الله عليه وسلم . حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فاستقر الايمان فى قلبى ، فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال : يا ابن أخى أعد .. فأعدت فقال : والله ان له لحلاوة ، .... وذكر تمام الخبر .

وقال ابن مسعود : هذه أجمع آية فى القرآن لخير يمتثل ولشر يجتنب . هذا بعض ما ذكره القرطبى (١) . فى فضل هذه الآية الكريمة . ثم نجد أن ابن كثير يضع قاعدة أساسية للأمر والنهى الذى جاء به الله تعالى فيقول : " ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنون الا أمر الله به وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم الا نهى الله عنه وقدم فيه . وانما نهى عن سفاسف الأخلاق ومزامها ولهذا جاء فى الحديث : " ان الله يحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها " (٢) .

فكأن ابن كثير يريد أن يقول : " ان هذه الآية الكريمة جاءت موافقة للفطرة التى فطر الله الناس عليها . لا يشذ عنها الا هالك . ولا ينحرف عنها الا من كتب له الشقاء . وتكملة للفائدة نذكر معانى ألفاظ الآية الكريمة وهى كالآتى :

العدل معناه : لفظ يقتضى معنى المساواة والانصاف .

والاحسان : فوق العدل لأن فيه معنى التفضل .

والفحشاء : ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال .

والمنكر : كل فعل قبيح فى ضوء الشريعة .

والبغى : طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى ،

ونعنى بالطبع هنا المذموم منه .... (٣)

بعد هذه اللمحة السريعة عن معنى الآية الكريمة عند بعض المفسرين ننظر ماذا قال " الحسن البصرى " فيها .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٦٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٢ . والحديث رواه ابن كثير هكذا .
وفى الجامع الصغير للسيوطى رواه الطبرانى فى الكبير عن الحسين بن على (ح) هكذا : " ان الله تعالى يحب معالى الأمور وأشرافها ويكره سفسافها " .

(٣) المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى ص ٣٢٥ ، ١١٩٦ ، ٣٧٣٦ ، ٣٧٤٦ ،

قال الحافظ أبو نعيم : حدثنا محمد بن أحمد قال حدثنا محمد بن يحيى المروزى قال : حدثنا عاصم بن على قال : حدثنا جويرية بن بشير قال : سمعت الحسن — البصرى — قرأ هذه الآية : " ان الله يأمر بالعدل والاحسان ... " ثم وقف فقال : " ان الله جمع لكم الخير كله والشر كله فى آية واحدة ، فوالله ما ترك العدل والاحسان شيئا من طاعة الله عز وجل الا جمعه ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئا الا جمعه " (١) .

هذا التفسير للحسن البصرى للآية الكريمة يعتبر خلاصة لكل ما قيل فى الآية الكريمة من أقوال . أو بمعنى أصح جميع الأقوال الواردة فى تفسير الآية الكريمة تعتبر كشرح وبيان لما أوجزه الحسن وهكذا نجد الحسن البصرى دائما فى تفسيره للقرآن الكريم يميل الى الايجاز وبيان العبرة والموعظة من قول الله تعالى .

وليس هذا بعجيب فقد قال تعالى : " يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الألباب " (٢) .

تدبره للقرآن الكريم :

من النماذج السابقة لفكر الحسن فى تفسير آيات من القرآن الكريم نعلم كيف كان الحسن رحمه الله يقرأ القرآن بتدبر وامعان . ولا عجب فى ذلك فقد قسم القراء الى ثلاثة نفر ، قوم اتخذوه بضاعة يطلبون به ما عند الناس ، وقوم أجادوا حروفه وضيعوا حدوده استدروا به أموال الولاة واستطالوا به على الناس — وقد كثر هذا الجنس من حملة القرآن والعياذ بالله — فلا كثر الله جمعهم ولا أبعد غيرهم ، وقوم قرأوا القرآن فتدبروا آياته وتداووا به . وكان رحمه الله من هذا القسم الذى يفهم معنى قراءة القرآن .. قرأ رضى الله عنه قوله تعالى : " وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون " (٣) . ثم قال : " يا عجبا لمن يخاف ملكا ، أو يتقى ظالما بعد ايمانه بهذه الآية ؟ أما والله لو أن الناس اذا ابتلوا صبروا لأمر ربهم ، لفرج الله عنهم كربهم . ولكنهم جزعوا من السيف فوكلوا الى الخوف ونعوذ بالله من شر البلاء .

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم ج ٢ ترجمة ١٦٩ ، والكواكب الدرية للمناوى ترجمة ٧٩
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٦٩ .
(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٣٧ .

وقرأ أيضا — رحمه الله — يوما " الهاكم التكاثر " .

ثم قال : " انا لله وانا اليه راجعون . الهى والله عن نار الخلود ، وشغل عن نعيم لا يبيد ثم قرأ (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) ثم قال : " أيها الناس لو توعدكم مخلوق بموت لما استقر بكم القرار فكيف بوعد ملك الملوك ، والحى الذى لا يموت . وكان اذا قام بالقرآن وانتهى الى هذه السورة لم يتجاوزها ولا يزال يرددها ويبكى الى أن ينقطع نحبه .

وكان رضى الله عنه اذا تلا قوله تعالى : " لنحيينه حياة طيبة " قال : " لنرزقنه طاعة يجد لذتها فى قلبه " .

وروى أنه قال : لنرزقنه رزقا لا نعذبه عليه ثم يقول : كل حياة ابن آدم والله مرة الا حياته فى الجنة .. " (١)

---

(١) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٤٦ — ٤٩ .

جـ — فى السـنة :

تمهيـد :

ان اهتمام الصحابة والتابعين .. بالسنة النبوية الشريفة لا يقل عن اهتمامهم بالقرآن الكريم . ذلك لأن السنة هى المصدر الثانى لشريعة الاسلام وعلى هذا كان الهجوم على السنة من المستشرقين والمبشرين وغيرهم من أعداء الاسـلام لا يقل خطرا عن الهجوم على القرآن الكريم .

اذا كان الأمر كذلك فلابد من معرفة شىء عن تاريخ السنة ليتبين لنا قيمة الاهتمام بها والحفاظ عليها من الصحابة والتابعين وغيرهم .

السنة هى : فى عرف العلماء المهتمين بهذا الفن عبارة عن ما أضيف الـى النبى صلى الله عليه وسلم ولو حكما من قول أو فعل أو تقرير أو صفة أو نحـو ذلك مما يتصل بهداية الناس الى ما فيه سعادتهم فى الدارين .

ومثل هذا أو قريب منه الحديث ، والخبر ، والأثر .. والسنة أعم (١) قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكـم " (٢) .. وقال صلى الله عليه وسلم : " نضر الله وجه امـرئ سمع مقالتى فحفظها ووعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع " (٣) ، وقال أيضا : " تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما ، كتاب اللـه ، وسـنتى " ، وقال : " ألا انى أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجـل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا وان ما حرم رسول الله كما حرم الله " (٤) . وقال بعض العلماء :

حدث وشنف بالحديث مسامعى ∴ فحديث من أهواه حلى مسامعى
لله ما أحلى مكرره الـذى ∴ يحلو ويعذب فى مذاق السامع
بسماعه نلت الذى أملتـه ∴ وبلغت كل مطالبى ومسامعى (٥)

---

(١) قانون الرواية عند المحدثين للأستاذين محمد سيد ندا ، والسيد محمد الحكيم الطبعة الأولى ص ٥ .
(٢) سورة الأنفـال آية رقم ٢٤ .
(٣) رواه أبو داود والترمذى عن زيد بن ثابت .
(٤) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه عن المقدام بن معد يكرب .
(٥) قانون الرواية عن المحدثين ص ٦ ، ١١ .

وقد بينت السنة النبوية كيف كان الرسول الأمين يعلم الأمة ويربيهم على نهج سليم وتربية فريدة .. أتى اليه يوما فتى من قريش قائلا له : يا رسول الله ، ائذن لى فى الزنا ، فأقبل القوم عليه وزجروه فقالوا مه مه .. فقال : ادنه فدنا منه قريبا .. فقال : " أتحبه لأمك ؟ " قال : لا والله جعلنى الله فداك . قال : " ولا الناس يحبونه لأمهاتهم " قال : " أفتحبه لابنتك ؟ " قال : لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداك . قال : " ولا الناس يحبونه لبناتهم " — ثم ذكر له رسول الله أخته وعمته وخالته ، وفى كل ذلك يقول الفتى مقالته : " لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداك " — قال : فوضع يده عليه وقال : اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصن فرجه " قال الراوى : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت الى شئ .. (١)

واذا كان عليه الصلاة والسلام حريصا على تعليمهم فقد كان الصحابة وغيرهم أيضا حريصين على تلقى هذا العلم . قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : " كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد ، وهى من عوالى المدينة ، وكنا نتناوب النزول على رسول الله .. ينزل يوما ، وأنزل يوما ، فاذا جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره . واذا نزل فعل مثل ذلك " (٢) .. فكان الواحد منهم يثق فى أخيه ولا يكذبه ولا يدرون ما الكذب .

وهكذا حتى لقى الرسول ربه والقرآن قد ثبت فى الصدور والسطور . أما السنة فقد ثبتت فى الصدور لنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كتابتها فى أول الأمر خوفا من الالتباس بالقرآن الكريم مثل قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تكتبوا عنى شيئا الا القرآن ومن كتب شيئا فليمحه " (٣) .. اللهم الا القليل بالنسبة لما قاله النبى صلى الله عليه وسلم . مثل ما حدث لأبى شاة اليمنى وقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى شأنه " اكتبوا لأبى شاة " (٤) .

وما كان من أمر الرجل الأنصارى الذى كان يجلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمع منه الحديث فيعجبه ولا يحفظه فشكا ذلك الى الرسول .. فقال : (استعن بيمينك وأوما بيده الى الخط) .. (٥)

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين الهيثمى — طبع القدسى بالقاهرة ١٣٥٣ هـ عن أبى امامة الباهلى جـ ١ ص ١٢٩ . رجاله رجال الصحيح وقد رواه الطبرانى فى الكبير .
(٢) فتح البارى لابن حجر العسقلانى جـ ١ ص ١٩٥ .
(٣) رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى .
(٤) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .
(٥) أعلام المحدثين للدكتور محمد أبو شهبة ص ١٧ والحديث الشريف ، رواه الترمذى

وهكذا أخذت السـنة تكثر كتابتها خاصة فى أواخر البعثة النبوية • وبعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وقعت أحداث جسيمة فى الأمة الاسلامية مثل : حروب الردة ، ومقتل سيدنا عثمان ، ومعركة الجمل وصفين ،وظهور الخوارج ،والشيعة الخ .. مما نتج عنه افشاء الوضع فى السنة المطهرة • يقول الدكتور السباعى : " كانـت سنة أربعين من الهجرة هى الحد الفاصل بين صفاء السنة وخلوصها من الكـذب والوضع ، وبين التزويد فيها واتخاذها وسيلة لخدمة الأغراض السياسية والانقسامات الداخلية ، بعد أن اتخذ الخلاف بين على ومعاوية شكلا حربيا سالت به دمـاء وأزهقت منه أرواح وبعد أن انقسم المسلمون الى طوائف متعددة الى آخر ما قـال مبينا الأمور التى أدت الى الوضع فـى السنة مثل : الخلافات السـياسية ، والزندقة ،والعصبية للجنس ،والقبيلة ، واللغة ، والبلد ، والقصص ، والوعـظ ، والخلافات الفقهية ، والكلامية ،والجهل بالدين مع الرغبة فى الخير ، والتقرب للملوك والأمراء بما يوافق أهواءهـم • ليس هذا فقط بل ان تساهل حكام المسلمـين مع الوضـاعين فى السنة شجعهم على المضى فى تضليل المسلمين • وخلطهـم الصدق بالكذب .. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ..(١) أما عن حركة الوضـع وأثرها السىء فى المجتمع الاسلامى وما يتصل بذلك فليس هنا مجاله • المهم أن العلماء المخلصين تصدوا للدفاع عن السنة المطهرة وتنقيتها من الشوائب التى لحقت بها مما جعلهم يتشـددون فى أخذ الحديث ويظهر هذا من قول ابن سيرين : " لم يكونوا يسألون عن الاسناد فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم ،فينظر الى أهـل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر الى أهل البدعة فلا يؤخـذ حديثهم الى آخر ما قيـل فى ذلك مما هو مبسوط فى موضعه ..(٢)

علاقة الحسن بالسـنة :

بعد هذا التعريف الموجز بالسنة وأهميتها فى الحفاظ على القرآن الكريم .. يجىء دور الحسن البصرى فى الحفاظ على هذه السنة النبوية وفكره الصافـى الذى يسخره فى تبليغها للأمة الاسلامية .. ولا عجب فى هذا فقد تربى فى بيت

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى للدكتور مصطفى السباعى ص ٧٦ــ٨٨ •

(٢) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير تأليف الأستاذ أحمد شاكر ص ٨٠ وما بعدها ، ومقدمة صحيح مسلم ، وبحث موجز عن : الوضع وأثره السيئ فى الأمة • للطالب مصلح سيد بيومى قدمه فى الشهادة العاليـة بكلية أصول الدين الى فضيلة الدكتور مصطفى أمين التازى أستاذ الحديث بالكلية •

النبوة ، ونشأ فى المنطقة التى شهدت الكثير من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم — المدينة المنورة — فى مقد متهم الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه . يقول الحسن البصرى : " رأيت عثمان يخطب وأنا ابن خمس عشرة سنة قائما وقاعدا " ، وقال محمد ابن عمر : " ... وقد رآه — أى رأى عثمان — وسمع منه وروى عنه ، وروى عن عمران بن حصين ، وسمرة جندب ، وابن عباس ، وعمر بن تغلب ... كما تبين دائرة المعارف الاسلامية فى علاقته بالسنة النبوية فتقول : " وكان الحسن — البصرى — يعد ندا لمعاصره الحجاج فى الخطابة ، وراوية ثبتا فى الحديث ، فقد عرف عنه أنه كان متصلا بسبعين رجلا ممن شهدوا وقعة بدر وان كان عمدته فى الحديث هو أنس بن مالك .. (١)

وهناك الأحاديث الكثيرة التى امتلأت بها كتب السنة من رواية الحسن البصرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عن طريق شيوخه وأساتذته .. ولكن حينما يوضع الامام الجليل فى ميزان النقد بين العلماء المبرزين فى هذا الفن نجد الأقوال الآتية ..

الذهبى يقول : " ... كان ثقة فى نفسه ، حجة رأسا فى العلم والعمل عظيم القدر ... نعم ، كان الحسن — البصرى — كثير التدليس ، فاذا قال فى حديث عن فلان ضعف لحاجة ولا سيما عمن قيل انه لم يسمع منهم ، كأبى هريرة ونحوه ، فعدوا ما كان له عن أبى هريرة فى جملة المنقطع ... " (٢)

وابن الجوزى يقول : " عاصر الحسن — البصرى — خلقا كثيرا من الصحابة فأرسل الحديث عن بعضهم وسمع من بعضهم .. " (٣)

وابن سعد يقول : " .. وكان الحسن — البصرى — جامعا عالما عاليا رفيعا فقيها ثقة مأمونا عابدا ناسكا كبير العلم فصيحا جميلا وسيما ، وكان ما أسند من حديثه وروى عمن سمع منه ، فحسن حجة وما أرسل من الحديث فليس بحجة " (٤) ..

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٥٧ ، ودائرة المعارف الاسلامية الانجليزية المترجمة الى اللغة العربية ، المجلد السابع ص ٣٨١ — ٣٨٢ .

(٢) ميزان الاعتدال فى نقد الرجال للذهبى ، القسم الأول ص ٥٢٧ وتذكرة الحفاظ للذهبى أيضا ج ١ .

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزى ج ٣ ص ١٥٩ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٥٧ — ١٥٨ .

وقال مثل هذا : ابن حجر العسقلانى فى تهذيب التهذيب ، والرازى فـــى الجرح والتعديل وهكذا ..

من هذه الأقوال وغيرها نعلم بأن معظم العلماء مجمعـــون على فضلــــه وعلمه .. ولكن ينسبون اليه الارسال ، والتدليس .. وهل كل ارسال أو تدليس يعتبر عيبا ينقص من قدر صاحبـــه ؟ والجواب على هذا ما يلى :

لنتعرف أولا — وقبل كل شئ — على معنى المرسل والمدلس من حديث النبى صلى الله عليه وسلم . كى ننظر ما اذا كان الحسن تقبل أحاديثه أم لا ؟ ..

المرسل : لغة : "الارسال" قال تعالى : " .. انا أرسلنا الشياطين علـــى الكافرين .. " (١) . واصطلاحا له عدة تعريفات . المشهور منها عند بعـــض أهل هذا الفن كابن الصـــلاح وغيره " ما أضافه التابعى الذى لم يلق النبى علـــى الله عليه وسلم صغيرا كان أو كبيرا للنبى صلى الله عليه وسلم ولم يذكر الواسطة " (٢) .
مثل : ما روى عن الحسن — البصرى — قال : لما نزلت : ولله على الناس حــج البيت من استطاع اليه سبيلا . قال : يا رسول الله ما السبيل قال : الـــزاد والراحلـــة . (٣)

فنحـــن نرى فى هذا المثال أن الحسن البصرى لم يذكر الواسطة بينــــه وبين الرسول عليه الصلاة والسلام . فهل يا ترى تقبل مثل هذه الأخبار ؟ . هـذا ما نود معرفته عن قبول المرسل وعدم قبوله عند مختلف العلماء .

أشهر المذاهب فى حجيـة المرسل :

اختلف العلماء فى حجية المرسل وعدمه الى مذاهب مختلفة أشهرها مايلى :

الأول : ذهب الامام أبو حنيفة وأتباعه من أهل العراق ، والامام أحمد والامام مالك فى أشهر الروايا يتبين عنهما ، ومعهم جماهير المعتزلة كأبى هاشم وتبعهم الآمدى فى الاحكام .. الى قبول المرسل العدل مطلقا ...

---

(١) سورة مريم آية رقم ٨٣ .
(٢) غيث المستغيث فى علم مصطلح الحديث للدكتور محمد السماحى ص ٧٥ .
(٣) المراسيل لأبى داود السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ — مكتبة صبيح .

الثاني : ذهب الامام الشافعى — رحمه الله — وأحمد فى أحد قوليه ، والظاهرية ، وجمهور الأئمة من حفاظ الحديث ونقاد الأثر ... واختاره أبو بكر الرازى .. ذهبوا الى أنه غير مقبول مطلقا .. الا أن الامام الشافعى قبل المرسل بشروط نوجزها فيما يلى :

أ — الحديث المرسل اذا اعتضد لم يصل فى الحجة الى درجة الحديث المسند المتصل ..

ب — لا يقبل الا مرسل كبار التابعين .

جـ — أن يكون اذا سمى من روى عنه لم يسم مجهولا ولا موغوبا عن الرواية عنه ..

وهذه الشروط من الامام الشافعى عليها اعتراضات لا يتسع لها المقام .

الثالث : ذهب عيسى بن ابان الى أن مرسل العدل فى القرون الثلاثة الأولى حجة مطلقا ، وأما من بعدهم فلا يقبل الا اذا كان من أئمة النقل . وتبعه فى ذلك ابن الحاجب وغيره ..(١).

وهكذا أخذ كل من المؤيدين والمعارضين يؤيد مذهبه بالنقل والعقل . وهذا لا يعنينا كثيرا بقدر ما يعنينا موقف الحسن من السنة ، وقبول الأمة منه ما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . اذا بحثنا عن ذلك نجد أن موقف الحسن البصرى من السنة موقف الحافظ الواعى الحريص على تبليغها للمجتمع الذى يعيش فيه قولا وعملا كما أمر الله ورسوله . والا فما كانت لديه شهوة الحديث كما يظن بعض الناس يظهر هذا من قوله — رضى الله عنه — : " دخلنا فاغتممنا وخرجنا فلم نزد الا غما . اللهم اليك نشكو هذا الغثاء الذى كنا نحدث عنه ، ان أجبناهم لم يفقهوا ، وان سكتنا عنهم وكلنا هم الى عى شديد والله لولا ما أخذ الله على العلماء فى علمهم ما أنبأناهم بشىء أبدا " (٢) . هذا الحرص من الحسن على تبليغ الرسالة ورغبته الملحة فى تحويل المجتمع الى ما يحبه الله ورسوله فضلا على كونه كان ثقة فى نفسه لا يتصور أبدا أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يكذب عليه

---

(١) الحديث المرسل — حجيته وأثره فى الفقه الاسلامى . بحث قيم للأستاذ محمد حسن هيتو — دار الفكر بلبنان .

(٢) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله لابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ هـ جـ ١ ص ٦

المرسل فانه ضعف من قبل أن هؤلاء الأئمة حدثوا عن الثقات وغير الثقات ، فاذا روى أحدهم حديثا وأرسله لعله أخذه عن غير ثقة ، وضرب لذلك مثلا وهو : أن الحسن البصري قد تكلم في معبد الجهني ثم روى عنه . (١)

وصحة الاسناد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقتضى سماع الحسن من غيره . وعلى سبيل المثال نذكر سماع الحسن من سمره بن جندب وعدمه : قال صاحب فتح الباري : من سمرة بن جندب الى نبيه : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا أن نصلى كل ليلة بعد المكتوبة ما قل أو كثر ، ونجعلها وترا " . وروى البيهقي منها : أما بعد ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا أن نخرج الصدقة من الذى نعد للبيع " . ووصلت هذه الرسالة كاملة الى الحسن البصري ، (المتوفى سنة ١١٠ هـ) وكان يعتمد عليها فى روايته ويبيح نسخها لمن شاء ، ويستمع الى من يرغب فى قراءتها عليه ، جاء فى كتاب العلل ومعرفة الرجال لأحمد بن حنبل . عن ابن عون قال : وجدت عن الحسن — البصري — كتاب سمرة فقرأته عليه " . وروى النسائي منها : " عن الحسن ، عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل " (٢)

وقال ابن حجر أيضا : " وأما رواية الحسن عن سمره بن جندب ففى صحيح البخاري سماعا منه لحديث العقيقة . وقد روى عنه نسخة كبيرة غالبة فى السنن الأربعة وعند على بن المدينى : ان كلها سماع . وكذا حكى الترمذى عن البخاري وقال يحيى القطان : وآخرون هى كتاب . وذلك لا يقتضى الا الانقطاع وفى مسند أحمد حدثنا هشيم عن حميد الطويل وقال : جاء رجل الى الحسن فقال : ان عبدالله أبق وانه نذر أن يقدر عليه أن يقطع يدا فقال الحسن : حدثنا سمره قال قلما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمرفيها بالصدقة ونهى عن المثلة . وهذا يقتضى سماعه منه لغير حديث العقيقة . وقال أبو داود عقب حديث سليمان بن سمرة عن أبيه فى الصلاة . دلت هذه الصحيفة على أن الحسن سمع من سمرة . قال ابن حجر : " ولم يظهر لى وجه الدلالة بعد " (٣) .

---

(١) الحديث المرسل — حجيته وأثره فى الفقه الاسلامى للأستاذ محمد حسن هيتو ص ٢٨ ، ٣٢٦ .

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ الجزء الأول ص ١١ — تقديم السيد صقر — طبع دار الكتاب الجديد — نشر جريدة الأهرام .

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٧٨ .

وعن حبيب الشهيد قال : قال لى محمد بن سيرين : سل الحسن ممن سمع حديث العقيقة ؟ فسألته فقال : سمعته من سمرة ، قال على : وسماع الحسن من سمرة صحيح وأخذ بحديثه : " من قتل عبده قتلناه " (١) .

كذلك روى الحاكم عن الحسن عن سمرة أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن تباع الشاة باللحم • وقال الحاكم عن هذا الحديث : رواته عن آخرهم أئمة حفاظ ثقات • فرواية الحسن هذه — عن سمرة — هى العاضد للمرسل الذى قبله الامام الشافعى رضى الله عنه ، وعمل به • وهو مرسل سعيد بن المسيب فى حديث النهى عن بيع الحيوان باللحم • وقد قال الترمذى فى باب (ما جاء فى كراهية بيع الحيوان بالحيوان نسيئة) مبينا رواية الحسن عن سمرة : " وسماع الحسن من سمرة صحيح ، هكذا قال على بن المدينى وغيره • قال الحاكم : احتج البخارى بالحسن عن سمرة وله شاهد مرسل فى الموطأ • (٢)

من كل ما سبق نعلم بأن سماع الحسن البصرى من سمرة هو الغالب بما فى ذلك حديث العقيقة وغيره كما عرفنا •

وهذا كمثال فقط وإلا فهناك الكثير من الأمثلة التى لا يحتملها المقام • وما دام الأمر كذلك فمن الممكن قبول أحاديث الحسن عن سمرة وعن كل ما يثبت سماعه منه • وعلى هذا فالحسن البصرى له ضلع كبير فى رواية السنة النبوية الشريفة • أما عن مراسيل الحسن فهى والحمد لله كما قال الكثير من العلماء مقبولة غاية ما فى الأمر أنها ضعيفة فى رأى بعض العلماء • وأصح المراسيل مراسيل سعيد بن المسيب • • (٣) .

المدلس :

ذكرنا فيما سبق أن الحسن — البصرى — رحمه الله اشتهر بالنسبة للسنة النبوية الشريفة بأمرين وهما : الارسال ، والتدليس • وقد تحدثنا — على قدر المستطاع — عن الارسال ونسبته الى الحسن البصرى وبينا حجية المرسل وقبوله • وعرفنا أن

---

(١) كتاب التاريخ الكبير للبخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ — الجزء الأول القسم الثانى ص ٢٨٧ •
(٢) تذكرة الحفاظ للذهبى ج ١ — من الطبعة الأولى الى السابعة — الطبعة الثالثة ، والحديث المرسل — وحجيته فى الفقه الاسلامى •
(٣) روى عن يحيى بن معين أنه قال : " مرسلات ابن المسيب أحسن من مرسلات الحسن ، ومرسلات ابراهيم صحيحة الا حديث تاجر البحرين (السنن الكبرى

الارسال لم يكن عيبا جوهريا يوصم به الحسن وغيره من الأئمة الأعلام الموصوفين بذلك ..
بقى أن نعرف الوصف الآخر الذى علق بالحسن وهو التدليس . وحتى تتبين لنا
هذه العلاقة . يحسن بنا أن نلقى الضوء على هذا الوصف المذكور .

التدليس : لغة : كتم العيب فى المبيع ونحوه . أصله من الدلس وهو
الظلمة أو اختلاط الظلام .

واصطلاحا : اخفاء حال الشيخ أو السند لغرض من الأغراض ، وينجلى معناه
بشكل أوضح بعد معرفة أقسامه وتعريف كل قسم .

القسم الأول : تدليس الاسناد . وهو أن يسقط الراوى من حدثه من الثقات
لصغره أو من الضعاف ولو عند غيره فقط ويرتقى لشيخ شيخه فمن فوقه ممن عرف له منه
سماع ويأتى بلفظ عن أو ان أو قال موهما به الاتصال .

الثانى : دون الأول التدليس للشيوخ وهو أن يصف المدلس الشيخ الذى سمع
ذلك الحديث منه بما لا يشتهر به من اسم أو كنية أو لقب أو نسبة الى قبيلة أو بلدة
أو ضيعة ونحو ذلك . كى يجعل الطريق على السامع منه وعرا كقول أبى بكر بن مجاهد
المقرى حدثنا عبد الله بن أبى عبد الله يريد به عبد الله بن أبى داود السجستانى .

الثالث : تدليس التسوية وهو أن يروى حديثا عن ضعيف بين ثقتين لقى
أحدهما الآخر فيسقط الضعيف ويروى الحديث عن شيخه الثقة عن الثقة الثانى بلفظ
يحتمل فيصير الاسناد كله ثقات وهذا القسم شر الأقسام لما فيه من الغرور
الشديد .(١)

وليست هذه كل الأقسام للتدليس فهناك أقسام أخرى ليس هنا موضعها .
وعلى هذا فما هى علاقة الحسن البصرى بالتدليس ؟ وكيف نفسر قول العلماء على
أنه مدلس وعنعنة المدلس لا تقبل ، ولا يثبت بها الاتصال خاصة وأن الأحاديث
المروية عنه من الامام علىّ معنعنة فلا يثبت بها المطلوب .. ؟

---

(١) التاريخ الكبير للحافظ ابن عساكر الشافعى — المجلد الثانى ص ٢٤ ،
مطبعة روضة الشام سنة ١٣٢٩ هـ ، وقانون الرواية عند المحدثين أو علم
مصطلح الحديث للأستاذين محمد سيد ندا ، السيد محمد الحكيم
بكلية أصول الدين ... ص ٦١ .

والجواب على هذا أن الحسن البصري روى أنه رأى عليا وسمع منه .. فلا يكون بعد هذا مدلسا وعلى سبيل المثال : قال البخاري في التاريخ الصغير في ترجمة سليمان بن سالم القرشي أبي داود العطار سمع على بن زيد من الحسن قال : رأيت عليا والزبير التزما ورأيت عليا وعثمان التزما .

وحديث آخر يثبت السماع وهو : قول أبي يعلى في (مسنده) حدثنا حوثرة بن أشرس ،قال : أنا عقبة بن أبي الصهباء الباهلي ،قال : سمعت الحسن يقول : سمعت عليا عليه السلام يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره " قال الحافظ ابن حجر العسقلاني بعد أن أورد هذا الحديث في تهذيب التهذيب : قال محمد بن الحسن الصيريفيني شيخ شيوخنا : هذا نص صريح في سماع الحسن من علي كرم الله وجهه ، ورجاله ثقات ، وحوثرة وثقه ابن حبان . وعقبة ، وثقة أحمد ،وابن معين . الى آخر ما قيل في هذا المجال مما لا يتسع المقام لذكره لأن هذا يحتاج الى بحث مستقل نرجو الله تعالى أن يعيننا على اخراجه انه سميع مجيب .

د — فى الفقـــــــه :

" تمهيـــــد " :

الفقه بالكسر — كما جاء فى كتب الفقه — هو : العلم بالشىء والفهم له والفطنـــة .

وغلب على علم الدين لشرفه ، أو هو التوصل الى علم غائب بعلـــم شاهد ، أو هو الفهم (١) . ثم اطلقت كلمة " فقه " على ما يتناول الأحكام الدينية جميعها . يؤيد هذا قول الله عزوجل : " فلولا نفر من كـــل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهـــم لعلهم يحذرون " (٢) .

وعلى هذا الاطلاق فالفقه يمثل الطابع الحقيقى للتفكير الاسلامى ، ثم بعد انتهاء العصور الأولى للاسلام اتسعت الفتوحات وزادت رقعة دولة الاسلام ودخل فى دين الله أقوام كثيرون . مما استتبع ازدياد الأحكام وتنـــوع الفتاوى ، فدعى هذا الى قصر كلمة (فقه) على العلم بالأحكام الشرعيـة العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية ، كما أطلقوا الفقه أيضا على هـــذه الأحكام نفسها (٣) .

معنى هذا أنه علم مستنبط بالرأى ، والاجتهاد ، ويحتاج فيه الى النظر والتأمل ، ولذا لا يجوز أن يسمى الله تعالى " فقيها " لأنه لا يخفى عليـــه شىء ، كما لا يجوز أن يسمى الرسول كذلك لأنه لا ينطق عن الهـــوى ان هو الا وحى يوحى .

أما عن (الفقيه فى الاصطلاح الشرعى) من يكون " الفقه " ملكة لـــه ويطلق على المتفقهين العارفين بالأحكام الشرعية الثابتة للأفعال الانسانية التى هى موضوع الفقـــه .

---

(١) القاموس المحيط ج ٤ ص ٢٩١ ، والمفردات فى غريب القرآن ، مادة " فقه " ، ومادة " فقه " ذكرت فـى القرآن فى عشرين موضعا .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٢٢ .

(٣) المدخل للفقه الاسلامى . تاريخه ومصادره ونظرياته العامة للدكتور محمـــد سلام مدكور ص ٤١ وما بعدها ، وكتاب : أصول الفقه للدكتور طه عبد اللـــه الدسوقى ص ١٧ ط ثالثة .

والشخص لا يصير فقيها الا بمعرفة جملة من الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال المكلفين ، ولابد أن يكون العلم بها ناشئا عن نظر واستدلال بأدلتها التفصيلية وذلك بمعرفة النصوص وعللها وضبط الفروع بأصولها .

وليس هذا الاعتبار سائدا عند جميع الفقهاء . فاننا نجد فقهاء الأحناف يشترطون ليكون الشخص فقيها فوق ما تقدم أن يعمل بهذه الأحكام الفقهية لأن العلم بها فى نظرهم ليس مقصودا لذاته وانما ليعمل به .

وما قاله الأحناف هذا يوافق الى حد كبير رأى الحسن البصرى فى نظرته الى الفقه والفقهاء . يظهر لنا هذا حينما جاء اليه رجل فسأله : الفقهاء يقولون كذا . فقال له الحسن : " هل رأيت فقيها قط . انما الفقيه الزاهد فى الدنيا البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه " . وقال أيضا : " والله ما طلب هذا العلم أحد الا كان حظه منه ما أراد به " وعن سفيان بن عيينة عن أيوب قال : " لو رأيت الحسن لقلت انك لم تجالس فقيها قط " (١) ..

أما هدف التشريع الاسلامى فهو : مصلحة الانسان ، والسلام الدائم القائم على العدل . ولهذا نجده موافقا للفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها . كما قال عز من قائل : " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (٢) . وما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : " ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى " (٣) ..

ويقول الدكتور القاضى : " ان الناظر فى الأحكام الشرعية يدرك أمرا هاما هو أنها كلها فطرة انسانية ، لا تخالف الفطرة ، بل محققة لها متفقة معها ، فهى على قلة نصوصها بعضها مستمد من طبيعة البشر كأحكام المواريث ، فانها مناسبة لطبيعة البشر .. " (٤) .

---

(١) المدخل للفقه الاسلامى للدكتور محمد سلام مدكور ص ٣٧ ، والكواكب الدرية للمناوى ترجمة رقم ٧٩ ، وجامع بيان العلم .. لابن عبد ربه ج ١ ص ٧٢ ، وحلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى ج ٢ ترجمة الحسن البصرى .

(٢) سورة الروم آية رقم ٣٠ .

(٣) رواه البزاز عن جابر (ض) من الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ١٧٢ .

(٤) من بحث للدكتور مختار القاضى ضمن المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية بالأزهر الشريف ص ٩٤ .

هذا الفقه أو التشريع الاسلامى مر بأدوار مختلفة . حتى وصل الى النضج والكمال والذى يعنينا منها فى هذا المقام دور النشأة ، ودور الشباب .

فدور النشأة : كما سماه الفقهاء يطلق على التشريع فى عصر النبوة . ومن الممكن تلخيص الخطوط العريضة لهذا التشريع فى النقاط التالية :

١ — أن سلطة التشريع فى هذا العصر كانت للرسول صلى الله عليه وسلم وحده ، وأن مرجعه فى التشريع الوحى الظاهر والباطن .

٢ — أن آيات الأحكام كانت تتنزل لسبب أو جوابا عن سؤال .

٣ — أن الفقه الاسلامى لم يثبت جملة بل ثبت مجزءا متتابعا .

٤ — أنه لم يكن هناك مجال للخلاف أو الاختلاف فان الرجوع الى الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقضى على أسباب ذلك (١) . .

أما دور الشباب للفقه الاسلامى فيطلق على عصر الصحابة والتابعين .

هذا الدور حدثت فيه عوامل ومؤثرات أدت الى نموه وازدهاره أهمها :

أ — امتداد الاسلام شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .

ب — هجرة الصحابة بعد وفاة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ج — افتراق المسلمين الى خوارج وشيعة . .

د — انقضاء عهد عمر بن الخطاب رحمه الله .

ومن الطبيعى أن يكون لهذه العوامل أثرها فى الفقه وفى ظهور الاجتهاد والمجتهدين ، اذ كل من الصحابة القادرين على تعمق القرآن الكريم يجتهد فى فهمه وفهم ما ثبت عنده من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كان هذا الحديث أو ذاك قد يصح عند البعض دون البعض الآخر .

وهكذا بدأ الفقه الاسلامى يتكون ، وبدأت أصوله تعرف وتتميز ، نعنى الكتاب والسنة ، والقياس ، والاجماع .

---

(١) نشأة الفقه الاجتهادى وأطواره للشيخ محمد على السايس ص ٣٤ — ٣٥ سلسلة البحوث الاسلامية عن مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر .

وأخذت أعراف وقوانين البلاد المختلفة ، التى أصبحت تحت راية الاسلام وتكون جسم الدولة الاسلامية تؤثر فى الفقـــه والتشريع بصفة عامة أثرا غير قليـــل ... (١)

وبشىء من التوضيح — مثلا — نرى أبا بكر الصديق — خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم — كان اذا عرض له أى أمر من أمور المسلمين يحتاج فيه الى الاستفتاء • نظـر أولا الى القرآن الكريم • فان وجد فيه ما يحتاج اليه من الفتوى قضى به • فان لم يجد لجأ الى ما يعرفه من سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم فان وجد فيه طلبته قضى به • فان لم يجد ما يريد لا فى الكتاب ولا فى السنة ، لجأ الى الصحابة ، فان وجد عنـــد أحدهم شيئا من أحاديث الرسول عليه السـلام قضى به والا جمع أهل الحل والعقـــد فاستشارهم ثم يقضى بما يجتمعون عليه • وبعد أن لحق أبو بكر بربـــه • فعـــل سيدنا عمر مثل سابقه الا أنه كان يتحرى رأى أبى بكر الصديق • فان لم يجد له رأيـا فى المسألة • جمع أهل الرأى والمشورة وقضى بما اجتمعوا عليه •

ومع هذا فقد كان الشيخان — أبو بكر وعمر — يجتهدان فى بعض الأمـــور الضرورية التى لابد من الاجتهاد فيها • ليس هذا فقط بل كانا يستعملان القيـــاس فى بعض الأحيان • خاصة أمير المؤمنين عمر الذى عرف له التاريخ بعض الآراء فى حيـــاة المصطفى صلى الله عليه وسلم • نزل القرآن موافقا لها • مثل حادثة أسرى بدر وغيرها • الا أن عمر — رضى الله عنه — نفســـه كان يجتهد فى الرأى بنور الله ، وكان يتخـوف على الناس أن يجتهدوا برأيهم فيضلوا ويضـلوا • والدليل على ذلك كتابه الـــى شريح بن الحارث الكندى المتوفى سنة ٨٠ هـ وقيل سنة ٨٧ هـ حين ولاه قضاء الكوفـــة ، فيقول له : ان جاءك شىء فى كتاب الله فاقض به ولا يلفتك عنه الرجال ، فان جاءك ما ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يتكلم فيه أحـــد قبلك ، فاختر أى الأمرين شئت : ان شئت أن تجتهد برأيك فتقدم ، وان شئت أن تتأخـر فتأخر ، ولا أرى التأخير خيرا لك (٢) •

---

(١) الفقه الاسلامى ، مدخل لدراسته ونظام المعاملات فيه للدكتور محمد يوسف موسى ص ٢٧ — ٢٨ •

(٢) حجة الله البالغة للامام الدهلوى جـ ١ ص ١٤٩ تحقيق الشيخ السيد سابـــق ، واعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ ص ٥١ ، ٧٠ والتشريع الاسلامى وأثره فى الفقـــه الغربى للدكتور محمد يوسف موسى ص ١٠ — ١٣ •

وهناك العديد من الأمثلة يطول المقام بذكرها مثل : قصة الجدة التى جاءت الى أبى بكر الصديق وأرادت أن يلتمس لها ميراثا ، والجد مع الاخوة الذى حدث بسببه جدال بين الصحابة واستقر رأى عمر على اعطاء الاخوة ، وأرض العراق والشام التى فتحت عنوة ، استقر الأمر - بعد أخذ ورد - على تركها مع أهلها وتوظيف الخراج عليها .. (1)

نلمح مما سبق أن الكثير من الصحابة عليهم رضوان الله تعالى كان يفتى بالرأى اذا لم يجد فى الكتاب أو السنة .. مثل الخلفاء الراشدين ، والمغيرة بن شعبة ، وعبد الله ابن مسعود ..

أما عن فقه التابعين : فلا نكاد نجد خلافا يذكر عن فقه الصحابة الذى عرفنا اشارة عنه .

وكفى أنهم " تابعون " لما كانوا عليه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . لم يشذوا فى ذلك . ولم يكن هذا الا ببركة حديث النبى صلى الله عليه وسلم : " خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يأتى من بعدهم قوم يتسمنون (2) ويحبون السمن يعطون الشهادة قبل أن يسألوها " (3) . ورحم الله الدكتور محمد يوسف موسى القائل فى حقهم : " وهؤلاء التابعون استحقوا هذا الوصف الشريف لاتباعهم هدى الرسول وسنن صحابته الأكرمين ، وسيرهم فى الطريق الذى ساروا فيه ، فليس للباحث فى المأثور عنهم أن يتوقع اختلافا يذكر عن طريقة الصحابة فى معرفة الأحكام واستنباطها . انهم ساروا سيرتهم فى تعرف علل الأحكام التشريعية ، وفى رعاية مقاصد الشريعة والمصالح التى تهدف لها ، وفى عدم الوقوف عند النصوص والجمود عليها " (4) .

وأخذ الفقه فى التابعين يسرى حتى اشتهر فيما بينهم " الفقهاء السبعة " كما أخذ يتقلص فى مجموعه حتى وصل الى الموالى واشتهروا به : قال عبد الرحمن بن زيد ابن مسلم : لما مات العبادلة (عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمرو بن العاص) صار الفقه فى جميع البلدان الى الموالى : فقيه مكة عطاء ، وفقيه اليمن طاوس ، وفقيه اليمامة يحيى بن كثير ، وفقيه البصرة الحسن البصرى ،

---

(1) التشريع الاسلامى - أهدافه واتجاهاته للدكتور محمد أنيس عباده ص ٩٧ ، وتذكرة الحفاظ للذهبى ج ١ ص ٣ ، والتركة والميراث فى الاسلام بحث مقارن للدكتور محمد يوسف موسى ص ٢٢٦ ، وكتاب الشهاوى فى تاريخ التشريع الاسلامى للدكتور ابراهيم دسوقى الشهاوى ص ٥٣ .

(2) يتسمنون : ينهمكون فى لذيذ المطاعم ولذاتها .

(3) هذا حديث صحيح رواه الترمذى ، والحاكم عن عمران بن حصين . وهناك روايات أخرى عن عائشة رضى الله عنها ، وابن مسعود ، وجعده بن هبيرة رضى الله عنهم أجمعين .

(4) تاريخ الفقه الاسلامى - فقه الصحابة والتابعين للدكتور محمد يوسف موسى ج ١ ص ٩٨ .

وفقيه الكوفة ابراهيم النخعى ، وفقيه الشام مكحول ، وفقيه خراسان عطاء الخراسانى .. (١) " .

والحسن البصرى بلا منازع أحد الفقهاء المشهورين الذين تركوا أثرا كبيرا فى الفقه الاسلامى . حتى أن بعض العلماء رووا عن محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج القاضى أبو عبد الله القرطبى أن له كتابا تحت عنوان " فقه الحسن البصرى " فى سبع مجلدات (٢) . وللأسف لم نعثر على هذا الكتاب الهام " . ولكن آراء ، وفقهه امتلأت بها كتب الفقه القيمة التى يعتد بها قديما وحديثا . مثل : المغنى لابن قدامة ، والأم للامام الشافعى ، والمحلى لابن حزم ، واعلام الموقعين لابن القيم وفتح القدير لابن الهمام ، واختلاف الفقهاء للطبرى ، وموسوعة الفقه الاسلامى الذى يعنى باخراجها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ... كما أن الشيرازى وضعه بين طبقات الفقهاء .. (٣)

وبالطبع لن نستطيع حصر كل هذه الآراء الفقهية للحسن البصرى ، ولكن سنذكر — باذن الله تعالى — بعض الأمثلة ليتبين منها فكر الحسن فى ناحية الفقه أو التشريع الاسلامى ..

١ — الحرية الدينية فى فكر الحسن :

حينما ننظر الى روح الاسلام وتعاليمه السمحة . نجد أنه يتعامل مع الانسان على أنه بشر بكل المعانى التى يؤديها مدلول هذه الكلمة وعلى هذا فيعطيه الحرية الدينية ، والفكرية ، والمدنية ، والسياسية .. ذلك قبل أن يتشدق المتعالمون باعلان حقوق الانسان العالمى الذى ورد فيه : " يولد الناس جميعا أحرارا متساويين فى الكرامة وفى الحقوق ، وهم ذو عقل وضمير ، ويجب أن يعامل بعضهم بعضا بروح الاخاء " وفيه أيضا : " لكل شخص الحق فى حرية التفكير ، والضمير ، والدين . ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته ، وحرية الاعراب عنهما بالتعليم

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ج ١ ص ١٠٣ .

(٢) جذوة المقتبس ص ٤٠ ، وبغية الملتمس ص ٤٩ .

(٣) طبقات الفقهاء لأبى اسحاق ابراهيم بن على الشيرازى ، بغداد ١٣٥٦ هـ تحقيق الدكتور احسان عباس .

والممارسة واقامة الشعائر ومراعاتها سواء كان ذلك سرا أو مع الجماعة "(١) .

وهذه الأقوال وغيرها من الاعلان العالمي لحقوق الانسان لم تأت بجديد مما جاء به الاسلام اذا جردت عن العصبية العمياء ..

والحسن البصري له فى هذا المجال الفكرى كلام يجب أن ينظر اليه بعنايـــة . هذا الكلام له خطورته ووزنـــه على المستوى البشرى كلـه .

فقد أرسل اليه خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز يسأله " ما بال الخلفـــاء الراشدين تركوا أهل الذمة بما هم عليه من الزواج بالمحارم التى لا تحل فى دين الاسلام واقتناء الخنازير والخمور ، فكتب اليه الحسن البصرى : " ان الاسلام يوجب تركهم وما يعتقدون وانما أنت متبع ولست بمبتدع " . فهذا الرد من الحسن فقيه عصـــره على عمر بن عبد العزيز حاكم عصره . يدل على مدى الحرية التى أعطاها الاســـلام لأهل الذمة فى العمل بشريعتهم وهذا الكلام للحسن يساير روح الكتاب والسـنة وعلى الصحابة قبله . قال تعالى " لكم دينكم ولى دين "(٢) ، وقال تعالى : " لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون .. "(٣)

وقال صلى الله عليه وسلم : " انكم ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيهـــا القيراط . فاذا فتحتموها فأحسنوا الى أهلها ، فان لهم ذمة ورحما أو " ذمة وصهرا "(٤) .

وجاء فى المعاهدة التى ذكرها عمرو بن العاص لأهل مصر : " هذا ما أعطى عمرو بن العاص لأهل مصر مـــن الأمان على أنفسهم وأموالهم وملتهم وكنائسـهم وصلبانهم وبرهم وبحرهم . لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص " .

وحينما دخل الفاروق عمر كنيسة القيامة وحان وقت الصلاة غادر الكنيسة الـــى خارجها ، وأدى الصلاة الواجبـة .

---

(١) المادة رقم (١) ، (١٨) من الاعلان العالمى لحقوق الانسان الذى أصدرتـه الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٠/١٢/١٩٤٨م

(٢) سورة الكافرون آية رقم ٦

(٣) سورة يونس آية رقم ٤١

(٤) رواه الامام مسلم فى صحيحه .

ولما سئل فى ذلك قال : " انى أخشى اذا ما صليت فى الكنيسة أن يقول المسلمون : هنا صلى عمر ، ثم يتخذوه مسجدا . ولا يزال مسجده خارج الكنيسة الى اليوم شاهد صدق على سماحة الاسلام وحمايته للحرية الدينية .. (١)

ويقول الشيخ محمد الغزالى : " كن مسيحيا أو اسرائيليا ، ولكن لا تكن خصما للاسلام ونبيه وأتباعه تتمنى لهم الشر وتتربص بهم الدوائر .

واذا استفحل فى نفسك الكره لهذا الدين ، فاحذر أن يتجاوز فؤادك الى الحياة الخارجيــة عراكا مسلحا ، والا فأنت الملوم " (٢) . قال تعالى : " قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له مخلصون " (٣) ، وترى أيضا فى سورة التوبة — وهى التى أعلنت الحرب على طوائف من أهل الكتاب — ترى السورة ختمت بهذا التوجيه الالهى الكريم : " فان تولوا فقل : حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم " (٤) .

هل الكلام يبطل الصـــلاة ؟ :

اتفق جمهور العلماء على أن الكلام العمد فى الصلاة لغير اصلاحهـــا أو لأمر يوجبه يفسدها . لقول زيد بن أرقم " كنا نتكلم فى الصلاة ، يكلم الرجـــل منا صاحبه وهو الى جنبه فى الصلاة حتى نزلت : وقوموا لله قانتين . فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام (٥) . أما كلام الساهى والجاهل . فقد اختلف العلمـــاء فيهمـــا . يرى الجمهور ، وابن المبارك ، والنخعى ، وأبو حنيفه بطـــلان الصلاة لعموم أحاديث النهى .

أما الحسن البصرى ويتبعه الأئمة مالك ، والشافعى وابن حنبل وبعـــض التابعين كقتـــادة وعطاء بن أبى رباح .. وكذلك بعض الصحابة كابن مســـعود ، وابن عباس وغيرهما فهؤلاء جميعا يرون عدم بطلان الصلاة . واستدلوا بحديـــث ذى اليدين ، وحديث ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وســـلم

---

(١) مجلة عالم الفكر الكويتية — بحث قيم للدكتور زكريا البرى عن الاسلام وحقـــوق الاسلام — المجلد الأول : العدد الرابع .

(٢) حقوق الانسان بين تعاليم الاسلام واعلان الأمم المتحدة للشيخ محمد الغزالى ص ١١٠ — الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥ م .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٣٩ . (٤) سورة البقـرة آية رقم ٢٩ .

(٥) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما وقال الترمذى : حسن صحيح .

قال : ان الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .[١] . كما استدلوا على عدم بطلان صلاة الجاهل بقصة معاوية بن الحكم السلمى حينما سمت عاطسا فى الصلاة فقال له الرسول بعدها : ان هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس .. هذه الأدلة التى استدل بها القائلون بعدم بطلان الصلاة بالنسبة للساهى والجاهل . لم تسلم من الاعتراض والنقد من الفريق الأول[٢] .

وعلى كل فالحسن البصرى نراه دائما فى استنباطه للأحكام الفقهية يساير روح الاسلام مع ملاحظة بشرية الانسان ..

٣ — حكم من مات بدون حج مع القدرة عليه :

الحج ركن من أركان الاسلام بالأدلة النقلية والعقلية .. ويعتبر من أفضل العبادات فى الدنيا . وكفاه قول النبى صلى الله عليه وسلم : " حينما سئل عن أفضل الأعمال قوله : ايمان بالله ورسوله . قيل ثم ماذا ؟ قال : ثم جهاد فى سبيل الله قيل : ثم ماذا ؟ قال : ثم حج مبرور " .

"وقد سئل الحسن البصرى عن الحج المبرور قال : أن يرجع زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة "[٣] .

" وقال الحسن البصرى : " من مات عقيب رمضان أو عقيب غزو أو عقيب حج مات شهيدا "[٤] .

واذا كان للحج هذا الفضل الكبير لابد وأن يكون عقاب من يموت تاركا له جسيما . ومن ثم حينما قال سبحانه وتعالى مخبرا عن فريضة الحج فى قوله تعالى : " ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين "[٥] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والدارقطنى والطبرانى والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

(٢) الدين الخالص أو ارشاد الخلق الى دين الحق للشيخ محمود خطاب السبكى ج ٤ ص ٣ — ٦ ، وكتاب الأم للامام الشافعى ج١ ص١٠٩ طبعة كتاب الشعب .

(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٥ ص ٢٠ .

(٤) احياء علوم الدين للامام الغزالى ج ١ ص ٢٤١ .

(٥) سورة آل عمران الآية رقم ٩٦ — ٩٧ .

فى ضوء هذا القول الالهى الكريم نرى الامام الحسن البصرى يقرر هذا الحكم الفقهى الذى يقول فيه : " ان من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر " •

هذا الحكم يعتبر قاسيا وشديدا • ولكن اذا نظرنا الى الحسن كيف وصل فكره فى الفقه الاسلامى لعرفنا أنه لا ينطلق الا عن بصيرة • وهذه هى الأدلة :

أ — ختم الله تعالى آية الحج السابقة بقوله : " ومن كفر فان الله غنى عن العالمين " • قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : أن ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غنى عنه • وعن عكرمة قال : نزلت : " ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) قال اليهود : فنحن مسلمون قال الله عز وجل : فاخصمهم فحجهم يعنى فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : " ان الله فرض على المسلمين حج البيت من استطاع اليه سبيلا " فقالوا لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا • قال تعالى : " ومن كفر فان الله غنى عن العالمين •

ب — قول الرسول عليه الصلاة والسلام : من ملك زادا وراحلة تبلغه الى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا وذلك أن الله تعالى يقول فى كتابه : " ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا "(١)

وفى رواية قتادة عن الحسن البصرى قال : قال عمر رضى الله عنه : لقد هممت أن أبعث رجالا الى الأمصار فينظرون الى من كان له مال ولم يحج فيضربون عليه الجزية ، فذلك قوله تعالى : (ومن كفر فان الله غنى عن العالمين)(٢) •

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية عن يونس عن الحسن البصرى قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا " فقالوا يا رسول الله : ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة(٣) •

---

(١) أخرجه ابن عدى من حديث أبى هريرة والترمذى نحوه من حديث على وقال : غريب وفى اسناده مقال •

(٢) تفسير القرطبى ج ٤ ص ١٥٣ ، وتفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٨٦ •

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٨٦ — ورواه وكيع فى تفسيره عن سفيان عن يونس •

من نظر الى هذه النصوص المختلفة فى أهمية فريضة حج بيت الله الحرام والى الأغنياء الذين أعطاهم الله بسطة فى المال والصحة .. ثم يبخلون على الله بمال الله بينما ينفقون على العاهرات والملذات الرخيصة الكثير من الأموال التى لا يلقون لبذلها فى هذا المجال بالا .. من نظر الى هذا يجد أن الحسن البصرى — رحمه الله — معذور فى حكمه الشديد هذا . على من مات تاركا للحج وهو قادر عليه ... ولكن حينما ننظر الى هذا الحكم بنظرة الضعف البشرى — خاصة فى القرن العشرين — نجد أن هذا الحكم فيه قسوة وشدة وسيضيع بسببه الكثير والعياذ بالله . اذا فما موقفنا من النصوص السابقة وغيرها مما لم يتسع المقام لذكره ؟ .. وللجواب على ذلك نقول : اذا كان الانسان قادرا على الحج ولم يحج فقيل له لم لم تحج — مثلا — فأنكرها وجحدها أو استهزأ بها . فمثل هذا الانسان لا شك فى كفره لأنه أنكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة . أما اذا لم ينكرها وبحيث اذا سئل عن أداء هذه الفريضة قال — مثلا — ربنا يوفقنا .. مثل هذا الانسان لا يمكن أن نحكم عليه بالكفر . ويكون حكم الحسن وغيره على من جحدها وأنكرها . وتكون النصوص الواردة فى هذا المقام كما قال القرطبى : " هذا خرج مخرج التغليظ ، ولهذا قال علماؤنا : تضمنت الآية أن من مات ولم يحج وهو قادر فالوعيد يتوجه عليه ، ولا يجزئ أن يحج عليه غيره ، لأن حج الغير لو أسقط عنه الفرض لسقط عنه الوعيد " . وقال سعيد بن جبير : لو مات جار لى وله ميسرة ولم يحج لم أصل عليه [1] .. والله أعلم .

٤ — حكم الزكاة فى مال الصبى والمجنون ومن فى حكمهما :

الزكاة هى الركن المالى الاجتماعى من أركان الاسلام الخمسة ، وبها — مع التوحيد واقامة الصلاة — يدخل المرء فى جماعة المسلمين ، ويستحق أخوتهم والانتماء اليهم ، كما قال تعالى : " فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين " [2] ..

وتعد الزكاة فى الحقيقة وواقع الأمر جزءا هاما من نظام الاسلام الاجتماعى ومن هنا ذكرت فى كتب السياسية الشرعية والمالية .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٤ ص ١٥٤ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١١ . وفى تفسير القرطبى ج ٨ ص ٨١ قال ابن مسعود : أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له . وفى نفس الجزء من التفسير ص ٢٤٤ يقول خليفة رسول الله أبو بكر الصديق : " والله

فلا عجب اذا أن عنى فقهاء المسلمين ببيان أحكامها كل فى دائرة اختصاصه ٠

وقد أجمع العلماء من المسلمين على وجوبها — بالنقل والعقل — فى مال المسلم البالغ العاقل ، ولكنهم اختلفوا فى مال الصبى والمجنون هل تؤخذ منهما الزكاة أم تؤجل حتى يبلغ الصبى ويعقل المجنون ؟ ٠٠

العلماء فى هذا على فريقين :

الفريق الأول : وفى مقدمتهم الامام " الحسن البصرى " يرى عدم وجوب الزكاة فقد روى عنه أنه قال : " ليس فى مال اليتيم زكاة الا فى زرع أو ضرع "(١) ، ومثل الحسن قال مجاهد التابعى المفسر ، ووافقه أبو حنيفة فى الزرع فقط وما عداه من الأموال فلا ٠

وهناك من العلماء من منع وجوب الزكاة مطلقا مثل : الشعبى ، والباقر والنخعى ٠٠ هذا الفريق القائل بعدم وجوب الزكاة فى مال الصبى وما يماثله له أدلته نلخصها فيما يلى :

١ — الزكاة عبادة محضة كالصلاة تحتاج الى نية من صاحبها والصبى والمجنون ومن فى حكمهما لا تتحقق منهما النية قياسا على الصلاة فى سقوطها عنهما :

٢ — حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : " رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ وعن المبتلي حتى يبرأ وعن الصبى حتى يكبر (٢) " ورفع القلم كناية عن عدم التكليف ٠

٣ — قوله تعالى : " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ٠٠ " (٣) ٠

٤ — مصلحة الصبى والمجنون ومن فى حكمهما اذا ما أخرجت زكاتهما بانتظام تقضى على تركتهما ٠ لذلك تقتضى المصلحة عدم الزكاة خشية ضياع الأموال ٠٠

الفريق الثانى : من العلماء يرى وجوب الزكاة فى مال الصبى وما يماثله وفى مقدمة هذا الفريق : جابر بن زيد ، وعطاء ، وطاوس ، والشافعى ، وأحمد ، وابن أبى ليلى ، وابن عيينه ، وهو قول عمر وابنه من الصحابة ٠٠ هذا الفريق له أيضا أدلته

(١) الأموال لأبى عبيد ص ٤٥٣ ٠

(٢) هذا حديث صحيح عن عائشة رضى الله عنها — رواه الامام أحمد فى مسنده ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، والحاكم ٠ وفى رواية أخرى عن عمر وعلى : ٠٠ عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبى حتى يحتلم ٠ رواه أحمد وأبو داود والحاكم ٠

(٣) سورة التوبة آية رقم ١٠٣ ٠

فى وجوب الزكاة تتلخص فيما يلى :

١ ـ عموم النصوص الواردة فى وجوب الزكاة من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ..

٢ ـ أمر النبى صلى الله عليه وسلم لأولياء أمور اليتامى ومن فى حكمهم باستثمار أموالهم مثل قوله : " اتجروا فى أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة " [1]

٣ ـ تأييد الكثير من الصحابة لوجوب الزكاة فى أموال هؤلاء مثل : عمر ، وعلى ، وعائشة ..

٤ ـ اعتبار أن المقصود من الزكاة سد خلة الفقراء من مال الأغنياء ، شكرا لله تعالى وتطهيرا للمال ، ومال الصبى وما يماثله قابل لأداء النفقات والغرامات ، فلا يضيق عن الزكاة .. [2]

هذه الأدلة من الفريقين لم تسلم من اعتراض كل منهم " ولكل وجهة هو موليها " وبعد أخذ ورد وموازنة وترجيح للآراء بسط القول فيها الأستاذ يوسف القرضاوى فى بحثه القيم " فقه الزكاة " خرج بهذه الخلاصة : أن مال الصبى والمجنون ـ ومن فى حكمهما ـ فيه الزكاة ، لأنها حق يتعلق بالمال فلا يسقط بالصغر والجنون .. ويستوى فى ذلك أن يكون ماله ماشية سائمة أو زرعا وثمرا ، أو تجارة أو نقودا بشرط ألا تكون النقود مرصودة لنفقته الضرورية ، فانها حينئذ لا تكون فاضلة عن الحاجة الأصلية له . ويطالب ولى الصبى والمجنون .. باخراج الزكاة عنهما . والأولى ـ كما قال بعض المالكية ـ أن تقضى بذلك محكمة شرعية ، ليرفع حكمها الخلاف ، ولا يتعرض الولى للمطالبة بغرامة أو تعويض بناء على مذهب الحنفية [3] .

وانني بعد هذا العرض الموجز لهذه القضية أميل الى الفريق الثانى القائل بوجوب الزكاة فى مال الصبى ومن فى حكمه حتى يحصل لأموالهم التطهير والتزكية من جهة ، ومن ناحية أخرى لكى لا يكون هناك تكديس للأموال لا ينتفع بها المجتمع الاسلامى . ولكن بشرط أن يضمن الحاكم عدم التلاعب فى أموال هؤلاء الذين لا يحسنون التصرف .

---

(١) حديث صحيح عن أنس رواه الطبرانى فى الأوسط .

والحسن البصري — رحمه الله — لم يقل بعدم وجوب الزكاة فى أموال هؤلاء — الا فى نزع أو ضوع — الا لأنه يعلم تماما مدى حرصه على مصلحة أفراد المجتمع والعمل على حفظهم من الضياع والتشرد .. هذا المعنى شئ ، والترجيح بين آراء الفقهاء وتفضيل البعض على الآخر حرصا على كيان المجتمع ككل شئ آخر . خاصة وأن المجتمع الاسلامى الذى جعل الله غايته ، والرسول قدوته ، والجهاد سبيله ، والموت فى سبيل الله أسمى أمانيه . لا يضيع فيه يتيم ولا ضعيف ، ولا تكنز فيه الأموال ، يؤدى فيه كل فرد واجبه ، ويعطى كل ذى حق حقه . والله أعلم .

خلاصة لفكر الحسن فى الفقه والتشريع الاسلامى :

بالنظر الى آراء الحسن البصري الفقهية نجدها تارة قد وافقها مذهب الشافعى ، والامام مالك . وتارة أخرى وافقها أهل الرأى . ويظهر هذا جليا فى قوله بانقطاع المؤلفة قلوبهم بسبب عز الاسلام وظهوره . وهذا القول منه هو المشهور من مذهب الامام مالك وأصحاب الرأى [1] . واستنتج الحسن البصرى من الآية الكريمة : " ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ " [2] بأن الرق ينافى الملك وهو قول أخذ به الشافعى فى الجديد . ومنهم من قال : انه يملك ولكنه ناقص الملك ومن تبعه . وتابعه فى ذلك الشافعى فى القديم .. [3]

وواضح من بعض أحكامه مسايرة الحياة الاجتماعية المتطورة مثل ما روى عنه أنه سئل عن البيض يلعب به الصبيان يشتريه الرجل فيأكله فلم يربه بأسا وان أطعموه أن يأكل منه ، والجوز الذى يلعب به الصبيان . ووافقه فى ذلك سعيد بن المسيب . كما سأل بقال الحسن مرة قائلا : ان الصبيان يأتوننى ببيضتين مكسورتين يأخذون منى صحيحه واحدة . قال الحسن : ليس به بأس . وهذه فتيا فى استبدال البيض . [4]

علما بأننا اذا نظرنا الى قول عطاء وطاوس فى لعب الصبيان هكذا نجد قولهما : كل قمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالكعاب والجوز ولم ينكر الحسن لعب الشطرنج وكره لعب النردشير (ما فيه زهر) وكان رضى الله عنه يكره

(١) تفسير القرطبي جـ ٨ ص ١٨١ .
(٢) سورة النحل آية رقم ٧٥ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٤٧ .
(٤) [illegible] جـ ٢ ص ٢٩٢ ، ٣٦٥ .

كثرة غشيان النساء للأسواق لما يؤدى ذلك الى ضياع الأخلاق التى بفقدها نفقد كل شىء .. ولذلك يقول - رحمه الله - فى شأن المرأة : " والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى الا كبه الله فى النار " .

وكان رضى الله عنه ينهى عن الوشم . وحارب بكل شدة العبث المترف وضياع الأموال فيما ليس فيه فائدة . فقد سئل عن امرأة مترفة صنعت للعبها عرسا فنحرت جزورا فقال : لا يحل أكلها فانها انما نحرت لصنم "(١) .

من هذه الأمثلة وغيرها نقول : اننا لا نستطيع أن نضع قاعدة ثابتة للحسن البصرى - الآن - من حيث التشدد والتساهل . ولكننا نجد أن المسألة نسبية حسب الاجتهاد والميل الذاتى (٢) .

ولعل بعد دراسات عديدة خاصة فى فقه الحسن . وجمع كل ما يتعلق بهذا من أمهات كتب الفقه الاسلامى والمراجع الأخرى لعل بعد هذا نستطيع أن نحصل على مذهب متكامل لفقه الحسن والله الموفق دائما للكل على يرضيه .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٣٢٤ .
(٢) تفسير الطبرى ج ٢ ..

هـ — في العقيدة .. :

تمهيـــــد :

عرفنا في الفصل الثالث من الباب الأول — الحياة الفكرية في عصر الحسن — أن الفتوحات المختلفة في العراق ، وفارس ، والشام ومصر .. في عصر الخلفـاء الراشدين .. ودخول الموالي في الاسلام الى غير ذلك كان له تأثير كبير في المناقشات والجدل الذى نهى عنه الاسلام أو على الأقل ضيق حدوده . وكان المركز الكبـير لهذه التيارات المختلفة هو "العراق" خاصة "البصرة" ونتيجة لهذه التيـارات المختلفة من المناقشات والجدل . ظهرت الأحزاب والفرق الدينية وتعاليمهـا التى أخذت وقتا كبيرا مما كان الاسلام فى أشد الحاجة اليه . لنشر تعاليمـه على أوسع مدى حتى يعم الخير البلاد كلها .

وكان من أشهر الأحزاب والفرق الدينية التى ظهرت فى هذا العصـر "الشيعة" ، و"الخوارج" ، و"المرجئة" ، و"المعتزلة" ..

وقد تحدثنا عن كل هذا بشيء من التفصيل . وبالذات المعتزلة التى تزعمهـا بعض رواد حلقة الحسن البصرى مثل : واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد وغيرهما . هذه الحلقة كانت عبارة عن الميزان الذى توزن به الأفكار والآراء المختلفـة — المحلية والمستوردة — ثم تخرج منها الى الأمة — بعد تنقيحها وتهذيبهـا — سليمة صافية من كل زيغ وضـلال .

ويوضح هذا المعنى الدكتور حموده غرابة : فبعد أن تحدث عن الفـرق المختلفة التى ظهرت بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . من خوارج وشيعة على مختلف أنواعها ، وقدريـة وجهميـة ...

قال : " فزاد ذلك من حدة الجدل بين المسلمين ثم كان أن التقـت هذه التيارات المختلفة جميعا عند رجل له مكانة فى تاريـخ الاسلام العقلـى وهو الحسن البصرى .

لم يشأ الحسن البصرى أن تدور المناقشات حول الأشخاص بل حول المبادئ ثم تساءل عن السبب فى اتهام على ، ومعاوية وغيرهما بالكفر فى نظر من رماهم به ثم قال : أليس ذلك لارتكابهم كبيرة فى نظر من حكم بكفرهم ؟ واذا فليكن موضـوع البحث هو مرتكب الكبيرة فى ذاتـه من حيث هو بقطع النظر عن هؤلاء المتهمين

بالكفر جميعا ثم قال : ان الايمان الحق فى رأيى يستتبع العمل الصالح قطعا فليس من المعقول أن نؤمن بوجوب الصلاة وما يترتب على فعلها أو تركها من عقوبة أو جزاء ثم نتركها بعد ذلك .

وليس من المعقول أن نؤمن بتحريم شىء كالزنا والقتل أو بخيرية الشىء وأنه من عند الله دون أن يؤدى ذلك الى اتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه وترتب على هذا أن صرح بأن مرتكب الكبيرة لا يعتبر مؤمنا والا لعمل بايمانه كما أنه لا يعتبر كافرا والا لتظاهر بالكفر وجاهر به واذن فهو منافق .. وهو بذلك يحتج الى رأى الخوارج وان كان يخالفهم بأن عليا ارتكب كبيرة فأصبح منافقا .. أما مشكلة " القدر " فقد قال — أى الحسن البصرى — بحرية العبد وأثبت له الاختيار المطلق فى الأفعال كلها الخير والشر جميعا وان أسند بعضهم اليه أن جميع الأفعال من الله ما عدا الشر والمعاصى فانها تعود الى العبد . وليس من شك فى أن انتقاله بالموضوع من الجزئى الى الكلى فى مشكلة الكبيرة هو المنهج الصحيح فى الوصول الى حكم على .. "(١)

كما عرفنا أيضا أن الصبغة العامة لعصر الحسن الفكرى هى : " الجدل " يظهر هذا بجلاء ووضوح فى كتب التاريخ والأدب ، والملل والنحل ، والطبقات .. واذا كان الأمر كذلك فهل كان الجدل أو الحديث فى العقيدة أو كما يطلقون عليه علم الكلام .. مقبولا فى نظر العلماء ؟ .

والجواب على ذلك أن العلماء فى هذا على فريقين :

الفريق الأول :

يرى أن الجدل والكلام بدعة وحرام . وفى مقدمة هؤلاء العلماء " الحسن البصرى " القائل : " لا تجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم " .

والامام الشافعى ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، وسفيان .. ومعظم أهل الحديث من السلف .. ولهم أدلة متعددة على ذلك . منها قول الحسن البصرى السابق ، وقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : " هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون "(٢) . الى غير ذلك من الأدلة الكثيرة .

---

(١) الأشعرى : أبو الحسن . للدكتور حموده غرابه ص ٣٧ الطبعة الأولى سنة ١٩٥٣ م
(٢) المتنطعون : هم المتعمقون فى البحث والاستقصاء ، والحديث رواه مسلم عن ابن مسعود

الفريق الثانـــــى :

يرى أنه ليس بدعة ، مادام بعيدا عن التعصب والتشعب والعداوة والبغضـــاء وما يفضـــى اليه الكلام ، وفى مقدمة هذا الفريق الامام على بن أبى طالب كرم اللـــه وجهه ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، ولهذا الفريق أيضا أدلته المتعددة الـــتى يستدل بها ، مثل قوله تعالى : " ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه .. الى أن قال فبهت الذى كفر "(١) ، وقوله تعالى : " لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا "(٢) ، وقوله : " وجادلهم بالتى هى أحسن "(٣) ، ورواية الحسن أنه ناظر قدريا فرجـــع عن القدر .

وخلاصة القول فى هذا كله كما قال الامام أبو حامد الغزالى : " ان فيـــه ـ أى علم الكلام أو العقيدة ـ منفعة وفيه مضرة ، فهو باعتبار منفعته فى وقت الانتفـــاع حـــلال ، أو مندوب اليه أو واجب كما يقتضيه الحال ، وهو من اعتبار مضرته فى وقـــت الاستضرار ومحله حرام .."(٤) .

وقد لاحظنا من كلا الفريقين يستشهد بكلام للحسن البصرى فهل معنى هـــذا أن الحسن رحمـــه الله كان يناقض نفسه ؟ .

بالطبع لا ، لأنه ـ رحمه الله ـ فى نهيه عن الجدل وما يشـــــابهه يريد أن يغلق الباب حتى لا يكون فى فتحه فتنة للأمة ، وفى مناظرته للقدرى وجـــد أن هذا ضرورة ملحة بدليل أن القدرى كما عرفنا رجع عن مقالتـــه .

وعلى هذا فلم يلجأ الحسن البصرى الى " الجدل " أو مناقشة الآراء المختلفـة الا بعد أن يتيقـــن بأن هذا ضرورة تفرضها عليه الظروف من جهة ، ومن جهة أخرى الحاجة فى تبليغ الرسالة المحمديـــة .

وهل هناك ضرورة أشد من مجتمع ترتكب فيه الكبائر سرا وعلانية ، يقول الدكتـــور النشار : " ... وتشيع الفاحشة بين الناس ، والناس على دين ملوكهم ، وكانت البصرة ثغر المسلمين الحقيقى وفى هذا المـــــهد كان أهلها أكثر فسادا ، تحللوا من كثير

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٨ .
(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٢ .
(٣) سورة النحل آية رقم ١٢٥ .
(٤) قواعد العقائد للامام أبى حامد الغزالى ص ٤٣ ـ ٥٤ ، نشر مجمع البحـــوث الاسلامية بالأزهر الشريف .

من التكاليف ، وشاعت الفكرة أنه قدر علينا ولا محيص ، والبصرة الشماء ذات الأصول العريقة تجد من أصولها الوثنية ومن روادها ذوى التاريخ الالحادى القديم ما يحلل تحللها من " شرع الله " ..(١)

على هذا لابد لامامنا الحسن البصرى من التصدى لهذه التيارات المختلفة ولو بالجدل (٢) دفاعا عن الدين الذى أكرم الله به البشرية . خاصة ما يتعلق بالعقيدة . وسأذكر باذن الله تعالى أشهر المسائل التى تحدث فيها وعالجها . مثل : القدر ، والايمان ، ومرتكب الكبيرة .

القدر ورأى الحسن فيه :

مشكلة القدر من المشكلات التى كثر الكلام فيها قديما وحديثا . فهؤلاء فلاسفة اليونان انقسموا فيما بينهم الى فريقين . الفريق الاول وهم : الرواقيون . يقولون بعدم حرية الانسان . والثانى : وهم الأبيقوريون يقولون بحرية الانسان لا يقيد ارادته شئ . وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، اختلفوا فيما بينهم كذلك الى فرق متعددة فى هذه المسألة . بل ان عرب الجاهلية أنفسهم كان لهم نصيب فى هذا التفكير . وهكذا حتى جاء الاسلام ليحرر العقول والنفوس فى أول قرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم "(٣).

فاتفقت كلمة المسلمين على عقيدة واحدة ، وخفت صوت الجدال فى حرية الانسان وعدمه حينا من الدهر .

ولما فتحت البلاد ودخل الموالى فى الاسلام ... — كما عرفنا سابقا فى الباب الأول — فتح باب الجدل الضار الذى نئن منه ونتوجع الى اليوم . وكان من أشهر الفرق التى حطت راية الجدال فى القدر المعتزلة ، والجهمية ...

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام للدكتور على سامى النشار ج١ ص٣٣٢ ، الطبعة الرابعة . (٢) الجدل هنا ليس معناه المنازعة والمفاوضة ولو بالباطل وانما معناه والذى سار عليه الحسن هو رد الشبه التى يثيرها أعداء الاسلام . قال تعالى : " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن .. " ، وقال تعالى : " ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن .. " . (النحل آية ١٢٥ ، والعنكبوت آية ٤٦) .

(٣) سورة العلق آية رقم ١ — ٥ .

فالمعتزلة قالت : الانسان مخير ، وان ارادته حرة .. بعكس الجهمية .
ومن الطريف نرى المعتزلة يقولون للجبرية متندرين :

ما حيلة العبد ، والأقدار جارية .. عليه في كل حال ، أيها الرائي ؟
ألقاه في اليمّ مكتوفا . وقال له .. اياك اياك أن تبتل بالماء

حينئذ ترد الجهمية على المعتزلة قائلة :

ان حقّة اللطف لم يمسسه من بلل .. ولم يبال بتكييف والقاء
وان يكن قدر المولى بفرقته .. فهو الغريق ، ولو ألقى بصحراء

وبالنظر في القرآن الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم لا نجد تعريفا للقدر أو القضاء ولكن علماء اللغة التي نزل بها القرآن وغيرهم تعرضوا لتعريفهما مثل ما ورد في مفردات الراغب الأصفهاني ، والقاموس المحيط ، ومختار الصحاح ، والمصباح المنير ، والنهاية لابن الأثير .. وخلاصة القول في معظم هذه المراجع والذي عليه أكثر المحققين أن القدر يرجع الى التقدير . والقضاء يرجع الى الايجاد وهذا ما يوافق روح القرآن الكريم وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام . والذي أدى الى التفكير في هذا المجال فضلا على ما ذكرنا هو ما ورد في القرآن الكريم من بعض الآيات التي يدل ظاهرها على الجبر والأخرى على الاختيار . من هذه الآيات الكريمة التي يدل ظاهرها على الجبر ما يلي :

١ — قال تعالى : " وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وهو الله لا اله الا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون " (١) .

٢ — وقال أيضا : " قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون " (٢) .

ومن الآيات الكريمة التي يدل ظاهرها على الاختيار ما يلي :

١ — قال تعالى : " وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " (٣) .

---

(١) سورة القصص آية رقم ٦٧ — ٧٠
(٢) سورة التوبة آية رقم ٥١ .
(٣) سورة الكهف آية رقم ٢٩ .

٢ — وقال أيضا : " قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل "(١) ..

وكذلك السنة النبوية الشريفة . منها حديث النبى صلى الله عليه وسلم :

" ان أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل اليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه وأجله وعمله ، وشقى أم سعيد . فوالله الذى لا اله الا غيره : ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها "(٢) . وحديث محاجة آدم لموسى الى غير ذلك ..

على هذا نجد أن كل فريق يستدل بالآيات والأحاديث على صحة مذهبه بما يتبين منه فى الظاهر وجود التناقض بين الآيات والأحاديث مما يتسبب عنه العمل على تأويل ذلك من ناحية كل فريق حتى يستقيم الكلام ويستغل هذا الموقف جماعة من المستشرقين والمبشرين فيعملون على توسيع الهوة بين أصحاب المذاهب المختلفة ويصلون بذلك الى الهدف المنشود وهو : اظهار وجود التناقض الحقيقى بين كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام . وعلى هذا فلا داعى من تمسك المسلمين بالقرآن الكريم والسنة النبوية . ويكون هذا كأى كتاب حرف وبدل . كما عرفنا سابقا فى أوائل الباب الثالث حينما تحدثنا عن لون من تفكير الحسن البصرى فى ناحية القراءات القرآنية ..

ولكن هؤلاء المستشرقين وغيرهم من أعداء الاسلام لم ولن يصلوا الى هدفهم ان شاء الله . فقد قيض الله لهذا الدين من العلماء المخلصين الذين لا يبيعون آخرتهم بدنياهم ما جعلهم يحافظون عليه بشتى الطرق فهذا ابن قتيبة — مثلا — يؤلف كتابه " تأويل مختلف الحديث " الذى يوفق فيه بين آراء العلماء المتضاربة فى بعض الأحاديث مما يوهم ظاهره التعارض وكذلك الآيات الكريمة ...

---

(١) سورة يونس آية رقم ١٠٨ .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أبى عبد الله الرحمن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال : " ان أحدكم ...

فما موقف الحسن البصري اذا من القدر ؟

والجواب على هذا أن حلقة الحسن — كما عرفنا سابقا — كانت غاصة بمختلف العلماء . وكانوا يلقون اليه بالأفكار المتنوعة التي يتلقونها من غيرهم . ومن هؤلاء العلماء الذين سبقوا الحسن البصري في التحدث حول هذه المعاني : معبد الجهني (١) ، وعطاء ابن يسار وغيلان الدمشقي (٢) وغيرهم . وليس كما يذكر الدكتور أحمد كمال زكي في كتابه " الجاحظ " (٣) من أن الحسن البصري أول من قال بالقدر .. بينما يقول في كتاب آخر له " ... وزهوا بأن كان منهم الحسن البصري الذي ذم " القدرية " (٤) فكيف يكون أول من قال بالقدر وفي الوقت نفسه كان يذم " القدرية " (٥) ؟ . المهم أن العلماء اختلفوا في نظرتهم للحسن البصري بالنسبة لهذا الموضوع . وأكثرهم يؤيد نسبة القدر الى الحسن البصري مستدلين بالأدلة الآتية :

---

(١) هو : ابن خالد الجهني البصري اختلفوا في اسم أبيه . وهو أول من تكلم في القدر . رأى من يتعلل في المعصية بالقدر ، فأراد أن يرد عليه وأخطأ الطريق وقال : " لا قدر والأمر أنف " فعم كلامه فنبذه الصحابة والتابعون حيث ضل الطريق للرد على العاصي .. وقتله الحجاج بعد سنة ٨٠ هـ لما خرج مع ابن الأشعث .

(٢) غيلان الدمشقي هو : ابن مسلم القبطي ، أخذ مذهب القدر عن معبد . واستتابه عمر بن عبد العزيز ثم قتله هشام بن عبد الملك . وكان من بلغاء الكتاب أفسده بعض علماء مكة .

(٣) الجاحظ للدكتور أحمد كمال زكي ص ١٨٣ — سلسلة أعلام العرب .

(٤) الحياة الأدبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني الهجري للدكتور أحمد كمال زكي ص ١٧١ .

(٥) أجمعت كتب العقائد الاسلامية وغيرها — تقريبا — على أن أول من تكلم في القدر بالبصرة — بعد عمر المقصوص في دمشق — هو معبد الجهني وليس الحسن البصري وهذه هي بعض المراجع والمصادر التبصير في الدين للاسفراييني ص ١٣ ، ٤٠ ، والملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٦٢ ، والفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٧ ، ٧٠ ، والمعارف لابن قتيبة ص ١٩٥ ، ومذاهب الاسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوي ج ١ ص ١٠٨ — نشر دار العلم للملايين ببيروت ، ونشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ج ١ ص ٣٠٨ وما بعدها ، وفجر الاسلام للدكتور أحمد أمين ص ٢٨٦ ..

١ — قصة معبد الجهنى، وعطاء بن يسار حينما ذهبا الى الحسن يسألانه عن ظلم الملوك واحتجاجهم بعد هذا بالقدر وقول الحسن لهما : " كذب أعداء الله "(١) .

٢ — قول ابن قتيبة عن الحسن : " وكان تكلم فى شىء من القدر فرجع عنه "(٢) .

٣ — رسالة الحسن الى عبد الملك بن مروان . وسيجىء تفصيل ذلك ..

٤ — عن داود بن أبى الهند أنه قال : سمعت الحسن يقول : كل شىء بقضاء الله وقدره الا المعاصى .

٥ — ويقول طاشكبرى زاده : " ان الحسن البصرى تكلم فى شىء من القدر فرجع عنه ثم أنكر عليه أشد الانكار .

٦ — عن قتادة عن الحسن قال : " الخير بقدر والشر ليس بقدر ، قال أيوب السختيانى : فناظرته فى هذه الكلمة فقال : لا أعود "(٣) .

الى غير هذا من الأدلة الدالة على ذلك .

ويتفق رأى الدكتور النشار ، والأستاذ زهدى صاحب كتاب " المعتزلة " وغيرهما مع الآراء السابقة .

من هذه الأقوال المتعددة وغيرها نعلم بأن الحسن البصرى له صلة قوية بموضوع " القدر " هذا الذى نحن بصدده . وحتى يتضح المقام أكثر نعرض على القارئ الكريم نص الرسالة التى بعث بها الحسن الى عبد الملك بن مروان ردا على رسالة عبد الملك بن مروان اليه .

كتاب عبد الملك بن مروان الى الحسن البصرى :

بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الملك ، أمير المؤمنين ، الى الحسن بن أبى الحسن : سلام الله عليك ، أما بعد : فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله .

وبعد : فقد بلغ أمير المؤمنين عنك قول فى وصف القدر لم يبلغه مثله عن أحد ممن مضى ، ولا نعلم أحدا تكلم به ممن أدركنا من الصحابة ، رضى الله عنهم ، كالذى بلغ أمير المؤمنين عنك . وقد كان أمير المؤمنين يعلم منك صلاحا فى حالك ، وفضلا فى دينك ودراية فى الفقه ، وطلبا له ، وحرصا عليه .

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص ١٩٥ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى ج ٢ ترجمة الحسن البصرى .

ثم أنكر أمير المؤمنين هذا القول من قولك ، ما كتب الى أمير المؤمنين بمذهبك ، والذى به تأخذ أعن أحد من أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟ .. أم عن رأى رأيته ؟ .. أم عن أمر يعرف تصديقه فى القرآن ؟ .. فانا لم نسمع فى هذا الكلام مجادلا ولا ناطقا قبلك .

فحصل لأمير المؤمنين رأيك فى ذلك وأوضحه . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ..

تعليق على هذا الكتاب :

يفهم من هذا الكتاب الى الحسن البصرى . أن عبد الملك لم ينكر القول مطلقا فى القدر وانما ينكر التطور الذى وصل اليه هذا الموضوع وهو بهذه الحالة لم يكن فى عهد الصحابة عليهم رضوان الله تعالى .

والذى أدى الى هذا التطور ما وصلت اليه البلاد من الصراعات السياسية وغيرها كذلك نلحظ فى قول عبد الملك للحسن : وقد كان أمير المؤمنين يعلم منك صلاحا فى حالك ، وفضلا فى دينك ، ودراية للفقه .. ما يدل على أهمية الحسن فى المجتمع ومدى خطورته فى امكانه تحويل مجرى تفكير الأمة الى ما يريد . هذا الى احترام رئيس الدولة للعلماء وتبجيلهم وتقديرهم .. ولم يفعل عبد الملك - أمير المؤمنين - ما يفعله بعض المستبدين من حكام المسلمين حينما تصل الى أسماعهم آراء تخالف ما يعتقدون . حينئذ يسرعون بالقبض على صاحبها ويضعونه فى غياهب السجون وينكلون به تنكيلا شديدا . وهم فى ذلك مخالفون لروح الرسالة المحمدية . فالواجب عليهم أن يتثبتوا من صحة الخبر أولا عملا بالمبدأ القرآنى فى سورة الحجرات . وثانيا : يتركوا أصحاب الفكر والمعرفة ليعبروا عن آرائهم وأفكارهم فى حرية تامة . ما دام ذلك لا يؤدى الى تخلخل المجتمع ، واشاعة الفوضى ، والزيغ ، والضلال فيه .

رسالة الحسن الى عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم : لعبد الله أمير المؤمنين ، من الحسن بن أبى الحسن البصرى ، سلام الله عليك يا أمير المؤمنين . فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، أما بعد : أصلح الله أمير المؤمنين ، وجعله من الولاة الذين يعملون بطاعة الله ويتبعون رسوله ويسارعون فى اتباع ما أمرهم . فان أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، أصبح فى قليل من كثير مضوا من أهل الخير ، منظور اليهم ومغفول عنهم ومقتدى بأعمالهم ، وقد أدركنا ، يا أمير المؤمنين السلف الذين عملوا بأمر الله ، ورووا حكمته واستنوا بسنة رسوله

صلى الله عليه وسلم ، فكانوا لا ينكرون حقا ولا يحقون باطلا ، ولا يلحقون بالرب ، تبارك وتعالى الا ما ألحق بنفسه ولا يحتجون الا بما احتج الله به على خلقه فى كتابه فان الله تبارك وتعالى يقول : «وقوله الحق : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون " (١) ، فأمرهم الله بعبادته التى لها خلقهم ، ولم يكن ليخلقهم لأمر ثم يحول بينهم وبينه ، لأنه تعالى ليس " بظلام للعبيد " (٢) ، ولم يكن أحد ممن مضى من السلف ينكر هذا القول ، ولا يحاول عنه ، لأنهم كانوا على أمر واحد متفقين ، ولم يأمروا بشىء منكر كما قال الله تبارك وتعالى : " قل ان الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل أمر ربى بالقسط " (٣) ، وكان نهيه عن الفحشاء والمنكر والبغى " يعظكم لعلكم تذكرون " (٤) ، فكتاب الله تعالى حياة عند كل موت ، ونور عند كل ظلمة ، وعلم عند كل جهل ، فما ترك الله للعباد بعد الكتاب والرسول حجة ، وقال عز وجل : " ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وأن الله لسميع عليم " (٥) ، ففكر أمير المؤمنين فى قوله تعالى : " لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ، كل نفس بما كسبت رهينة " (٦) ، وذلك أن الله تعالى جعل فيهم من القدرة ما يتقدمون بها ويتأخرون ، وابتلاهم لينظر كيف يعملون ، وليبلو أخبارهم . فلو كان الأمر كما يذهب اليه المخطئون لما كان اليهم أن يتقدموا ولا يتأخروا ، ولما كان لمتقدم أجر فيما عمل ولا على متأخر لوم فيما لم يعمل ، لأن ذلك بزعمهم ليس منهم ولا اليهم ولكنه من عمل ربهم . واذا لما قال : " ويضل الله الظالمين ، وما يضل به الا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون " (٧) ، فتدبر ، يا أمير المؤمنين ، ذلك بفهم ، فان الله عز وجل يقول : " فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب " (٨) . واسمع الى قول الله تعالى حيث يقول : " ولو أن أهل الكتاب آمنوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم " (٩) ، وقال : " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا ، فأخذناهم بما كانوا يكسبون " (١٠) . واعلم يا أمير المؤمنين ، أن الله لم يجعل الأمور حتما على العباد

---

(١) الذاريات آية ٥٦
(٢) فصلت آية ٤٦
(٣) الأعراف آية ٢٩
(٤) النحل آية ٩٠
(٥) الأنفال آية ٤٢
(٦) المدثر آية ٣٨
(٧) البقرة آية ٢٧
(٨) الزمر آية ١٨
(٩) النساء آية ٦٥ ، ٦٦
(١٠) الأعراف آية ٩٦

ولكن قال : أن فعلتم كذا فعلت بكم كذا ، وأن فعلتم كذا فعلت بكم كذا . وانما يجازيهم بالأعمال ، كما قال " فزده عذابا ضعفا فى النار "(١) . ولكن الله قد بين لنا من قدم لهم ذلك ، ومن أضلهم ، فقال : " وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا "(٢) . فالسادات والكبراء هم الذين قدموا لهم الكفر وأضلوهم السبيل بعد أن كانوا عليهم ، لأن الله تعالى يقول : " انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا "(٣) . أما أن يشكر لهذا بيننا له السبيل وأنعمنا عليه ، واما أن يكفر " ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم "(٤) وكذلك قال الله عزوجل : " وأضل فرعون قومه وما هدى "(٥) .

فقل يا أمير المؤمنين ، كما قال الله : فرعون الذى أضل قومه ولا تخالف الله فى قوله ، ولا تجعل من الله الا ما رضى لنفسه ، فانه قال : " ان علينا للهدى وان لنا للآخرة والأولى "(٦) ، فالهدى من الله والضلال من العباد .

ثم فكر يا أمير المؤمنين فى قول الله عزوجل : " وما أضلنا الا المجرمون "(٧) ، وقوله : " وأضلهم السامرى "(٨) ، وقوله : " انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم له بمعجزين "(٩) ، يعنى ما أنتم بناجين من عذابه ان أتاكم ولا بممتنعين منه ، ولا ينفعكم نصحى حينئذ ان أردت أن أنصح لكم عند حلول العذاب بكم .

وقد علم نوح ، عليه السلام ، أن العذاب اذا نزل بهم وعاينوه لهم ينفعهم الايمان عند ذلك وقد بين الله تعالى فى الأمم التى أهلكها بقوله : " فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون "(١٠) . فهذه سنة الله ، لا تقبل التوبة عند معاينة العذاب . وأما قوله : " ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون "(١١) ، فانما يعنى بالغىّ فى هذا الموضع العذاب ، وهو قوله تعالى : " فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا "(١٢) ، أى عذابا أليما . وقد تقول العرب لقى فلان اليوم غيا ، أى ضربه الأمير ضربا مبرحا شديدا أو عذبه عذابا أليما . ومما يجادلون فيه قول الله تعالى : " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا كأنما يصعد فى السماء " كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون "(١٣) .

(١) ص آية ٦١ — (٢) الأحزاب آية ٦٧
(٣) الانسان آية ٣ — (٤) النمل آية ٤٠
(٥) طه آية ٧٩ — (٦) الليل آية ١٣
(٧) الشعراء آية ٩٩ — (٨) طه آية ٨٥
(٩) الاسراء آية ٥٣ — (١٠) هود آية ٣٣
(١١) غافر آية ٨٥ — (١٢) مريم آية ٥٩ — (١٣) الأنعام آية ١٢٥

فتألوا ، بجهلهم ، على أن الله ، تعالى ، خص قوما بشرح الصدور وبغير عمل صالح قدموه ، وقوما بضيق الصدور ، يعنى القلوب بغير كفر كان منهم ولا فسق ولا ضلال ولا لهؤلاء سبيل الى ما كلفهم من الطاعة ، وهم مخلدون فى النار طول الأبد ، وليس ذلك ، يا أمير المؤمنين كما ذهب اليه الجاهلون المخطئون . ربنا ارحم وأعدل وأكرم من أن يفعل ذلك بعباده . كيف ، وهو يقول : " لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت " (١) ، وانما خلق الجن والانس لعبادته فجعل لهم أسماعا وأبصارا وأفئدة يطيقون بها أضعاف ما كلفهم الله من عبادته ، فمن أطاع منهم فيما أمر به فقد شرح الله صدره للاسلام ثوابا منه بطاعته فى العاجل من الدنيا ، ويخفف به عليه أعمال البر ويثقل به الكفر عليه والفسوق والعصيان .

فان كان فى حاله تيك مطيقا لجميع ما أمر به ونهى عنه ، وكذلك حكم فى كل من بلغ من الطاعة مبلغه من شريف أو وضيع ، ومن ترك ما أمره الله به من الطاعة وتمادى فى كفره وضلاله فى عاجل الدنيا ، وهو مع ذلك مطيق للانابة والتوبة ، جعل الله صدره ضيقا حرجا ، كأنما يصعد فى السماء ، عقوبة منه له بكفره وضلالته فى عاجل الدنيا والتوبة مأمور بها ، ومدعو اليها ، كذلك حكم الله ، عز وجل ، فيمن بلغ من الكفر والفسوق مبلغه .

وانما ذكر الله يا أمير المؤمنين ، الشرح والضيق فى كتابه ، رحمة منه لعباده وترغيبا منه لهم فى الأعمال التى يستوجبون بها ، فى حكمته ، أن يشرح صدورهم ، وتزهيدا منه لهم فى الأعمال التى يستوجبون بها فى حكمته تضييق الصدور ولم يذكر لهم ذلك ليقطع رجاءهم ، ولا ليؤيسهم من رحمته وفضله ، ولا ليقطعهم عن عفوه ومغفرته وكرمه ، واذا هم صلحوا . وقد بين الله عز وجل فى كتابه فقال تعالى : " يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم " (٢) .

وقال — أى الحسن البصرى ، اذ من هنا حتى نهاية الرسالة يتبين أن الناسخ والراوى تصرفا فى نص هذه الرسالة (٣) — يذكر أن السلف الماضين من صحابة النبى ، عليه السلام ، كانوا على كلامه لا ينكرون منه شيئا ، ولا يجادلون فيه لأنهم

---

(١) البقرة آية ٢٨٦ (٢) المائدة آية ١٦

(٣) رسائل العدل والتوحيد . دراسة وتحقيق الأستاذ محمد عماره ص ٨٨ مطبعة دار الهلال . الجزء الأول .

كانوا على أمر واحد متفق متسق ، ولا ينكرون منه حقا ، ولا يحقون منه باطلا ، ولا يلحقون بالرب الا ما ألحق بنفسه ، ولا يحتجون الا بما احتج الله به على خلقه .

وذكر — أى الحسن — لأمير المؤمنين أنه انما أحدث الكلام فيه حين أحدث الناس النكرة له ، فلما أحدث المحدثون الكلام فى دينهم ذكرت من كتاب الله خلافا لما قالوا وأحدثوا .

وذكر من ذلك مالا ينكره أمير المؤمنين ، بل يعرفه ويعرف تصديقه فى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ففى كتاب الحسن بعد كتاب الله الشفاء والبرهان ، وقد بعث اليك يا أمير المؤمنين نسخة كتاب الحسن لتنظر فيه برأيك وعقلك لنفسك وللمسلمين ، ولا تدخل عليه فيه شبهة ، فانه واضح لمن تدبره وعقله وقبل عدل الله فيه .

واعلم أنه لم يبق ممن أخذ عن السلف الماضى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد هو أعلم بالله وأفقه فى دين الله وأقرأ لكتاب الله من الحسن ، مع صلاح حاله وثقته فى دينه وأمانته واهتمامه بأمور المسلمين فأكرمه كرامة ترجو بها ثواب الله تعالى فى الآخرة والأولى .

تحقيق الرسالة والتعليق عليها :

أولا : من حيث تقويم الرسالة . فهى مصورة بدار الكتب المصرية نمرة (٥٢٢١ — ٣٠ ق ١٧ × ٢٥ سم) وهى مأخوذة عن مخطوطة "أيا صوفيا" المنسوخة فى القرن التاسع الهجرى (سنة ٨٨٢ هـ) ، ومنها نسخة كذلك بمكتبة جامعة الدول العربية (ف ١٩٧ ، ٧٩٢) .

هذه الرسالة للحسن البصرى لها تلخيص للامام الحاكم أبى سعد المحسن ابن كرامة الجشمى البيهقى (٤٣١ — ٤٩٤ هـ) أثناء حديثه عن الحسن البصرى فى الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة بالجزء الأول من كتابه (شرح عيون المسائل) وذلك فى اللوحات ٧٢ — ٧٤ من مصورة دار الكتب المصرية (٢٧٦٢٣ب) وقد اكتفينا بحمد الله تعالى بذكر الرسالة الأصلية التى أوردناها سابقا وتركنا الملخص منعا من التكرار والاطناب . وتلخيص هذه الرسالة من هذا العالم الجليل تدل على أهميتها وورودها .

وفى كتاب " المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل " لابن المرتضى وردت عبارات لهذه الرسالة • ولكن صاحب المنية والأمـــل يرى أن السائل ليس هو عبد الملك بن مروان وانما الحجاج بن يوسف الثقفى • وكتاب المنيـــة والأمل •• مصورة دار الكتب المصرية (٢٧٧٩٨ ب) اللوحة ٤٧ ٤٨٦ •

ثانيا : ومن حيث الاشارة الى المراجع فكثيرة نذكر منها ما يلى :

١ ـ الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٦٣ وما بعدها •

٢ ـ المنية والأمل للمرتضى ص ٣ ـ ١٤ •

٣ ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى ج ٦ ص ٣٨ •

٤ ـ تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان • ترجمة الدكتور عبد الحليم النجا ، الجزء الأول ص ٢٥٨ وفيه يقول : " رسالة عبد الملك بن مروان الى الحسن وجوابه عليها : كوبريلى ١٥٨٩ ، أيا صوفيا ٣٩٩٨ (أنظر : WZKM XXVI, 70) ، وانظـــــــر تذكـــــــرة النوادر ١٢٠ ، ومنها نسخة مصورة بالقاهـــرة ثانى ٣ : ١٦٩ ونشرها رتر •••

٥ ـ الحسن البصرى لابن الجوزى • ذكر الرسالة محقق الكتاب فى مقدمته البليغـــة الأستاذ حسن السندوبى •

٦ ـ الحسن البصرى للدكتور احسان عباس •

٧ ـ رسائل العدل والتوحيد • دراسة وتحقيق الأستاذ محمد عماره وقد قام بتحقيق عدة رسائل لبعض كبار العلماء من المتقدمين منهم رسالة الحسن البصـــــرى مع بعض التعليقات عليها • طبع ونشر دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٧١ م ، الجزء الأول •

٨ ـ نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام للدكتور على سامى النشار الجزء الأول ـــــــ الى غير ذلك من المراجع العديدة التى تشير الى هذه الرسالة •

ثالثا : أما عن دراساتها وصلتها بمشكلة " القدر فكالآتى :

فى الواقع ان كثرة المراجع التى أشارت الى هذه الرسالة مع النصوص الواردة عن الحسن البصرى بما يشبهها فى الكتب الكثيرة التى تعتبر مرجعا للباحثـــين تجعلنا نميل الى صحتها له أكثر من ميلنا لنفيها عنه • وما حدث للشهرستانى رحمه الله ـــ وهو الذى يمثل الفريق الثانى الذى ينفى الرسالة عن الحسن ـــ فعجيب • فقد أدى حبـــه للحسن واقتناعه به كعالم سلفى أن ينفى عنـــه

هذه الرسالة ويسندها الى تلميذ له وهو " واصل بن عطاء " علما بأن واصلا بن عطاء وهو المولود سنة ٨٠ ويستحيل عليه أن يكتب رسالة فى أى موضوع الى عبد الملك بن مروان المتوفى سنة ٨٦ هـ؟؟ ..

ومن العلماء المحدثين من وافق الفريق الأول على اثبات الرسالة للحسن البصرى مثل : الدكتور على سامى النشار . ومنهم من وافق الفريق الثانى فى نفى الرسالة عن الحسن مثل : الدكتور احسان عباس ..

وليس معنى ترجيحى لنسبة الرسالة للحسن أننا نحكم عليه بأنه قدرى أو قال بالقدر ثم رجع عنه . بالطبع لا .

وعلى هذا .. فبماذا نفسر ما قاله فى رسالته الى عبد الملك ، والواضح منها القول بالقدر حسب ظاهر اللفظ ؟ .

وقبل أن أجيب على هذا أبين للقارئ الكريم أننى ذكرت الرسالة كاملة ودون نقصان لأجل أن يقرأها القارئ بامعان ويرى رأيه فيها ولعله يخالف ما أعتقده " وفوق كل ذى علم عليم "

قبل الحكم على الحسن فى هذا الموضوع من خلال هذه الرسالة لابد من أمور نضعها بين يدى القارئ الكريم حتى يكون الحكم صوابا أو أقرب الى الصواب .

الأمر الأول : استيعاب واستحضار عصر الحسن البصرى الذى مر فى الباب الأول خاصة الحياة الفكرية .

الأمر الثانى : تتبع حياة الحسن من مولده ونشأته حتى الوقت الذى صرح فيه بقوله هذا . لنرى كيف كان الحسن ينطق بهذه الآراء التى فهمها الناس كل حسب اتجاهاته واعتقاده .

الأمر الثالث : دراسة الظروف المحيطة به داخليا وخارجيا .

هذه الأمور الهامة تجعلنا حونا نسير مع الحسن — بإذن الله — فى رسالته يكون الحكم بعيدا عن المؤثرات الخارجية مثل : ارتباط المعتزلة به على أنه المؤسس لها — فى رأى البعض — ، والقدرية على أنه يوافقها ، والمشبهة على أنه لا يخالفها وهكذا ..

وبعد قراءتي للرسالة خرجت منها بهذه النقاط التالية :

أولا : يدأ الحسن الرسالة بالبسملة أسوة بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام . كما نرى أدبه الجم في مخاطبة ولي الأمر بما يرقق قلبه ويجذب روحه نحو طاعة الله عز وجل ورسوله عليه الصلاة والسلام .

ثانيا : البيان لما كان عليه السلف الصالح واذعانهم لله عز وجل وأنهم لا يقولون على الله تعالى الا ما قاله عن نفسه . بعكس أهل الجبر فانهم يقولون في الله قولا لا يمثل الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها ثم استشهد بقوله تعالى : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " .

ثالثا : حينما قال له عبد الملك في سؤاله له : " ولا نعلم أحدا تكلم به ممن أدركنا من الصحابة رضي الله عنهم " حينئذ رد عليه الحسن في أدب وعلم بقوله : " ولم يكن أحد ممن مضى من السلف ينكر هذا القول ، ولا يحاول عنه ، لأنهم كانوا على أمر واحد متفقين " .

رابعا : أعطى الله عز وجل بني آدم القدرة على التقدم أو التأخر وابتلاهم لينظر كيف يعملون قال تعالى : " لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر كل نفس بما كسبت رهينة " .

خامسا : لم يجعل المولى سبحانه وتعالى الأمور قدرا محتوما وجبرا لا اختيار فيه على العباد " انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا " .

هذه النقطة تحتاج الى شئ من التوضيح حتى ينجلى المعنى . ذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل أقدار العباد على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : لا يستطيع الانسان دفعه مهما فعل مثل ما يوجد من سنن الحياة من كون الانسان أبيض أو أسود ، وطويل أو قصير .. ، وجاذبية الأرض والمصادفات البحتة الى غير هذا من الأمور التى لا يستطيع الانسان ردها ..

والنوع الثانى : لا يستطيع الانسان أن يقاومه كل المقاومة ولكن يستطيع أن يخفف من حدته نوعا ما . وهذا النوع مثل : ما يتعلق بالوراثة والبيئة والغريزة وما شاكل ذلك .

أما النوع الثالث : فقد جعل الله تعالى فى وسع الانسان أن يقاومه ، وأن يبذل فى سبيل ذلك كل ما يملك من قوة وجهاد . وهذا النوع مثل : التكاليف الشرعية ، قال تعالى : " ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما "(١) ولما وقع الطاعون بالشام على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يشبه الحجر الصحى حينئذ قال له : أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح : أتفر من قدر الله ؟ قال : نعم ، أفر من قدر الله الى قدر الله " ..

---

(١) سورة النساء آية رقم ٢٩ .

سادسا : يريد بعض القوم الذين عاش فيهم الحسن ارتكاب المعاصى والمنكرات محتجين بالقضاء والقدر . معتذرين عن أعمالهم هذه دون أن يعقدوا العزم على التوبة الصادقة .

هؤلاء لابد لهم من الصرخات القرآنية التى توقظهم من غفلتهم وسباتهم قال تعالى : " فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون "(١) .

سابعا : يلاحظ فى هذه الرسالة أن كل عنصر من عناصرها يستشهد عليه الحسن بآية أو أكثر من كتاب الله تعالى وهذا الاستشهاد موافق للمعنى الذى يريده ويهدف اليه .

خلاصة المعانى التى تهدف اليها الرسالة :

ما ذكرته من الأمور السابقة عبارة عن بعض المعانى التى تجيش فى صدرى بعد قراءتى لهذه الرسالة . ويظهر منها الميل الى صلة الرسالة بالحسن وليس معنى هذا أنها تقول بالقدر . حتى يستشهد بها من يريد تأييد مذهبه من المتكلمين وغيرهم . ولكنها تعالج أمرا هاما فى الأمة الاسلامية ألا وهو : انسياق الكثير من أفراد هذه الأمة الى الماديات والأهواء التى تبعد الانسان عن طريق الله تبارك وتعالى . ولا شك أنهم بذلك أخلدوا الى الأرض واتبعوا أهواءهم . فكانوا مستحقين لعقاب الله جلت قدرته .

---

(١) سورة غافر آية رقم ٨٥ .

وللأسف ما حدث منهم كان بعد تلاوة القرآن عليهم وتشبعهم به ولكنها سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا . وصدق الله العظيم اذ يقول : " واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون . من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون . ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون "(١) .

من أجل هذا صرخ فيهم الحسن البصرى بهذه الرسالة وغيرها حفظا للأمة من الضياع والأخذ بيدها الى طريق النجاح والفلاح .

وعلى هذا فلا خوف من الصاق هذه الرسالة بالحسن بعد ذلك كما فعل محبوه مثل الشهرستانى فى الملل والنحل الذى ينفى الرسالة عنه لأن الحسن عليه رحمة الله فى ناحية وهؤلاء الأحزاب والفرق المختلفة فى جهة أخرى . وفى هذا المقام أعجبتنى كلمة للأستاذ يحيى هاشم فرغل فى بحثه الذى نال به درجة الماجستير بتقدير " ممتاز " من كلية أصول الدين حيث يقول : " وانه ليكاد ينقدح لدىّ أن هذه الرسالة — وهى رسالة الحسن البصرى الى عبد الملك بن مروان . لا يستبعد صدورها من الحسن ، وأنها لا تعنى بالضرورة القول مباشرة بانكار القدر ، وانما هى تعالج واقعا عمليا يعتذر فيه المسلمون عن ذنوبهم بالقدر ، وهذا هو ما يعنى الحسن — وفقا لتصورى لشخصيته .. — ويهتم بالرد عليه ومغالبته ، ومن ثم فلا محل لانكارها ، ولا للقول بأنه كان قدريا وقتا ما ، ثم رجع .. ولا لاتهامه بانكار القدر ، ومع ذلك فلا ينكر أنها مقالة صالحة لاستغلال القدرية . ولأن يقوموا بالتلمذة عليها .. وليس ذلك مما يؤخذ على الحسن — البصرى — ، الرجل الذى يشارك الناس حياتهم ويهتم بأمرهم فى عصر يموج بالتيارات المتصارعة ، ويشارك فيه الفكر الحياة ولا ينعزل عنها "(٢) .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٥ — ١٧٩ .

(٢) جوانب التفكير فى العقيدة الاسلامية — الكتاب الأول : نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية . للأستاذ يحيى هاشم فرغل ص ١٧٢ نشر مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر .

ثانيا : الايمان فى نظر الحسن :

الايمان : لغة • يطلق على معنيين •

أ — ايمان بمعنى اعطاء الامان " مرادف للتأمين " •

ب — ايمان بمعنى التصديق • قال بعض العلماء : ان التصديق يلزم منه المعنى الأول •

والاسلام : لغة • له معنيان كذلك •

أ — التسليم والاعطاء •

ب — التسليم والانقياد • قال بعض العلماء : يلزم من المعنى الثانى المعنى الأول •

ومرجع الايمان الباطن أما الاسلام فقد يكون بالباطن وقد يكون بالظاهر فبالنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق فكل ايمان اسلام ولا عكس •

ومن قال بأن الايمان عبارة عن التصديق ، والاسلام : الانقياد الظاهرى فقط فتكون النسبة بينهما التباين لكن النسبة بين مؤمن ومسلم " العموم والخصوص الوجهى " وعلى هذا فالمذاهب فى مفهوم الايمان اذا كان مرادفا للاسلام فكالآتى :

١ — الايمان : قول فقط • أعم من موافقة العقيدة أولا • وهو فاسد حيث يدخل المنافق • وهذا مذهب الكرامية وبعض المرجئة •

٢ — الايمان : قول واعتقاد • ولا دخل للعمل فى مفهوم الايمان وهو مردود بقوله تعالى : " أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات •• "(١) وهو مذهب المرجئة •

٣ — قول الخوارج : الايمان : قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمل بالأركان • ومن ترك العمل كمن ترك العقيدة كلاهما كافر مخلد فى النار• وهذا أيضا باطل لتصادمه بأحاديث الشفاعة التى تفيد اخراج المؤمن العاصى من النار • وبأن الله تعالى فرق بين الكفر وما دونه فقال سبحانه : " ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء "(٢) •

---

(١) سورة الجاثية آية ٢١ •
(٢) سورة النساء آية ٤٨ •

٤ — قول المعتزلة : وهو قريب من قول الخوارج لكنهم لا يسمون العاصى مؤمنا ولا كافرا بل هو فى منزلة بين المنزلتين — ويرد على هذا كسابقه ..

٥ — قول أهل السنة : الايمان قول واعتقاد وعمل ..

وعلى هذا القول . الايمان يزيد وينقص .(١)

فى ضوء هذه المعانى فما موقف الحسن البصرى من الايمان ؟ ..

يرى الحسن البصرى أن الايمان الجدير باسم الايمان هو ما يدفع الى العمل به ، فالايمان فى نظره يستلزم العمل . وعلى هذا فمن لم يؤد الصلاة فهو غير مؤمن بوجوبها . وليس معنى هذا أنه كافر بها ، لأن الكافر بالصلاة يكون مؤمنا بعدم وجوبها . وليس تارك الصلاة كذلك بل هو لم يبلغ بعد درجة الايمان بها ، كما لم ينزل أيضا الى درجة الايمان بعدم وجوبها .

وخلاصة القول فى هذا : أن الانسان اذا لم ينفذ أمرا من أوامر الله تعالى كالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج .. لا يكون بعد مؤمنا بهذا الأمر وأيضا من لم يترك أمرا من الأمور التى كلفنا بتركها كالقتل ، والسرقة ، وشرب الخمر .. لا يكون مؤمنا بوجوب تركها واذا فعلها فان هذا لا يدل على ايمانه بفعلها والا كان كافرا والعياذ بالله . بل هو لم يبلغ بعد درجة الايمان بأحد الطرفين . والدليل على ذلك قول الحسن : " كان الرجل اذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك فى تخشعه وبصره ولسانه ويده وصلاته وزهده ، وان كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به فيكون خيرا له من الدنيا وما فيها لو كانت له فجعلها فى الآخرة " ، وقوله : " والله ما طلب هذا العلم أحد الا كان حظه منه ما أراد به " ، وقوله : " ابن آدم انك لن تجمع ايمانا وخيانة ، كيف تكون مؤمنا ولا يأمنك جارك أو تكون مسلما ولا يسلم الناس منك ؟ أليس قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : " لا ايمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له "(٢)

---

(١) المختار من صحيح مسلم ج ١ ص ٥ — ١٦ ، والمختار من التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للزبيدى شرح الشرقاوى ج ١ — الطبعة الثانية وحقق الكتابين السابقين وعلق عليهما الأستاذ الدكتور مصطفى أمين التازى

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ج ١ ص ٧٢ ، وتاريخ الفرق الاسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين للدكتور على الفرابى ص ٣٨ — ٣٩ ، ومن تاريخ الجدل — حسن البصرى للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٦ — ١٧ .

وهذا الرأى للحسن البصرى فى الايمان يشبه الى حد كبير ما قال به سقراط (١) فى المعرفة حيث يرى أن معرفة الفضيلة تستلزم العمل بها ولهذا كان يقول : " المعرفة الفضيلة ، أو الفضيلة المعرفة " .

وكان — سقراط — يرى أن الانسان لا يمكنه أن يعيش سعيدا كما ينبغى الا اذا حقق عمليا تلك العبارة التى كانت مكتوبة على معبد دلفى " اعرف نفسك بنفسك " (٢)

ومما يدل على صحة رأى الحسن البصرى وسقراط من قبله — فيما نرى — قول النبى صلى الله عليه وسلم : " لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن .. " (٣) فكأنه صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الشريف يريد أن يقول : ان الانسان وقت ارتكابه خلاف ما يقتضيه ايمانه لا يكون مؤمنا والا ما فعل خلاف ما يوجبه هذا الايمان فاتيان خلاف ما يوجبه ايمانه دليل على عدم ايمانه . (٤)

ثالثا : مرتكب الكبيرة ورأى الحسن فيه :

رأى الحسن البصرى فى مرتكب الكبيرة مبنى على رأيه فى الايمان فهو يرى أن مرتكب الكبيرة منافق لأنه لو كان مؤمنا ما ارتكبها وما يعلنه من الايمان لم يتصل صميم القلب فهو اذا ليس مؤمنا خالصا ، ولا كافرا خالصا . لأنه لو كان كذلك لأظهر أعماله التى تتفق مع الكفر وجاهر بها .

والدليل على رأيه هذا من كلامه : " الناس ثلاثة ، مؤمن ، وكافر ، ومنافق . فالمؤمن من قد ألجمه الخوف ، وقومه ذكر العرض . وأما الكافر فقد قمعه السيف وشرده الخوف ، فأذعن بالجزية وسمح بالضريبة . وأما المنافق ففى الحجرات والطرقات يسرون غير ما يعلنون ، ويضمرون غير ما يظهرون " (٥).

وهذا الموضوع سيجئ بالتفصيل — ان شاء الله — فى فصل " دعوته الى الله تعالى " .

---

(١) سقراط : فيلسوف يونانى له شهرة كبيرة . عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد (٤٧٠ — ٤٠٠ ق م) وكان كثيرا ما يدافع عن الحقائق الأخلاقية . ومات بسبب دفاعه عنها ..

(٢) مبادئ الفلسفة والمذاهب السياسية للدكتور أحمد الخشاب وآخر ص ٤٦ — ٤٩

(٣) الحديث

(٤) تاريخ الفرق الاسلامية للدكتور الغرابى ص ٣٩ ، ومن تاريخ الجدل — حسن البصرى للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٧ .

(٥) تاريخ الفرق الاسلامية للدكتور الغرابى ص ٣٩ ، ومن تاريخ الجدل — حسن البصرى للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٧ .

و — فى الزهد ، والدعوة الى الله تعالى :

بعد أن تناولنا الحديث عن أنماط من الفكر عند الحسن البصرى من ناحية القراءات ، والتفسير ، والسنة ، والفقه ، والعقيدة .. يجىء الحديث بعد هذا عن الزهد ، والدعوة الى الله تعالى عنده . ولما كان الزهد عاملا قويا فى شهرة الحسن فى الأمة على مختلف العصور وكذلك الدعوة الى الله تعالى .

لهذا أوردت كلا من الزهد والدعوة الى الله تعالى فى فصلين مستقلين . ونبدأ الحديث فيما يلى عن الزهد . والله الموفق .

الفصـــــل الثانـــــى

زهـــــده

تمهيـــــد :

تحدثنا فى الفصل الثانى من الباب الثانى عن الزهد كصفة من صفات الحســن المعنوية وكان الحديث فيه موجزا • لأنـه دار حول العوامل التى جعلت منه هـذه الشخصية الزاهدة • وانحصرت هذه العوامل فى موافقة عمله لقوله ــ معنى هذا أن الحسن رحمه الله كان يفعل ما يقول ــ • ثم تحكمه فى شعوره مقتفيـــا بهذا آثـار المصطفى صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح من عباد الله تعالى •وأخيرا أخـــذه العبرة من الماضى والحرص عليه • هذا مع ضرب الأمثلة القولية والفعلية لما ذكرنا •

وكان من الممكن أن نكتفى بما أوجزنا فى هذا الموضوع •لولا أن الزهد عنصر أساسى من عناصر الرسالة فلابد من بسط القول فيه • هذا من ناحية • ومن ناحية أخـــرى أن الحديث عن زهد الحسن وشهرته فى ذلك تجعلنا نذكر بعض الشئ عـــن "نشأة التصوف" • فقد أثبت معظم الباحثين من العلماء أن الزهد كان الأساس القوى الذى بنى عليه " التصوف " المعروف لدينا من أواخر القرن الثانى الهجرى ــ تقريبا ــ الى يومنا هذا •

ومن ناحية ثالـــثة أن بعض المستشرقين •والمبشرين من أعداء الاسلام أرادوا الكيد له حينئذ استغلوا هذا الجانب العاطفى فيه • وظهوره عند كثير من رجال الأمـة الاسلامية العارفين بالله تبارك وتعالى • فأخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه • خاصـة وأن بعض المنتسبين الى الزهد والتصوف يبعدون كل البعد عن جوهر الاسلام • مما شجع أعداء الاسلام على المضى فى مخططهم التخريبى لتقويض دعائم الاسلام الحنيف •• لهذا كله كان الحديث عن الزهد عامة • وما يتصل بالحسن البصرى خاصة • وما يتعلق به ••• أمرا ضروريا فى هذا الفصل الذى عقدناه لذلك •

وحينما نحاول وضع تعريف للزهد أو التصوف فاننا لا نكاد نجد تعريفا صريحـــا لما ذكرنا فى القرآن الكريم ولا فى سنة النبى صلى الله عليه وسلم •• لأن العلوم المختلفة لم تدون • ولم توضع لها المصطلحات فى هذا الوقت • خاصة وأن السلف الصالح عليهم رضوان الله تعالى كان جـل اهتمامهم التطبيق العملى لما استمعوا اليه من الكتاب

والسنة فاذا استعملنا بعض التعريفات للمتأخرين فانما ذلك لتقريب المعنى والله المستعان .

معنى الزهد ودليله :

الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين . وهو : عبارة عن انصراف الرغبة عن الشئ الى ما هو خير منه ، أو بمعنى آخر أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالاضافة الى نفاسة الآخرة . وليس كل نوع من الترك يسمى زهدا لأن الانسان قد يترك الشئ مروءة فتوة وسخاء وحسن خلق .. ولا يسمى زهدا (١) .

وللزهد فضائل جمة يضيق المقام عن ذكرها . فيكفى أنه زينة الأنبياء ، والمرسلين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين .. وأنه سبب لكل خير . وصل اليه العلماء العاملون ، والفقهاء المخلصون .

واذا نظرنا الى القرآن الكريم نجده قد امتلأ بزاد كبير فى الدلالة على حب الآخرة والسعى لها ، وعدم الاغترار بالدنيا والتمسك بزينتها الزائلة . كذلك سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام زاخرة بزاد عظيم فى هذا المجال . هذا عدا أقوال السلف الصالح رضى الله عنهم والزاهدين من عباد الله تعالى . وهذه بعض الأدلة على ذلك :

١ — وصف المولى سبحانه وتعالى قارون — عليه اللعنة — حينما خرج على قومه فى زينته ، وافتتن الناس به . ثم بين موقف العلماء الصادقين العاملين وأنهم زهدوا فى دنيا قارون .. فقال تعالى : " فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون " (٢) .

٢ — قال تعالى : " الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة " (٣) . فوصف الله عز وجل الكفار بذلك . فمفهومه أن المؤمن هو الذى يتصف بنقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا .

---

(١) احياء علوم الدين للامام الغزالى ج ٤ ص ٢١٦ — ٢١٩ . ويقول الراغب الأصفهانى فى المفردات مادة " زهد " : الزهيد : الشئ القليل والزاهد فى الشئ الراغب عنه والراضى منه بالزهيد أى القليل (وكانوا فيه من الزاهدين) .

(٢) سورة القصص آية ٧٩ — ٨٠ .

(٣) سورة ابراهيم آية ٣ .

٣ — قال تعالى : " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام "(١) ، وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الشرح قال : ان النور اذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح ،قيل : يارسول الله وهل لذلك علامة ؟ قال : نعم ،التجافي عن دار الغرور ،والانابة الى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله .(٢)

وبنظرة فاحصة لهذه الحديث النبوي الشريف نجد أنه قد جعل الزهد شرطا للاسلام وهو التجافي عن دار الغرور ..

٤ — ما ذكر من الآيات الكريمة — وغيرها — نجد فيها معنى الزهد وليس لفظه .
واذا نظرنا في القرآن الكريم لم نجد سوى آية واحدة فيها هذه المادة " الزهد " وهي قول الله تعالى : " وشروه — باعوه — بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين "(٣) .

وكذلك الثوب تهم ببيعه ، وتريد بيعه ويغلب عليك ذلك . ولا تكون زاهدا . ولكن تكون موصوفا بالارادة للزهد حتى تبيعه وتتقاضى منه ، فحينئذ حق زهدك فيه . ففي تدبر الخطاب من قوله تعالى : " وكانوا فيه من الزاهدين" كما قال أبو طالب المكي : أن من أخرج الشيء من يده طوعا ونفسه تتبعه فله مقام في الزهد بالمجاهدة ، ومن أمسك الشيء وأظهرت نفسه الزهد فيه بالارادة والهمة فلا مقام له في الزهد لأن الامساك علامة الرغبة والرغبة ضد الزهد ، فكيف يوصف بالشيء وضده في حال قائمة ، فالممسك للشيء المتوهم للزهد فيه باظهار نفسه ذلك بأحد وصفين : اما أن لا يعرف الزهد ، أولا يعرف خفي شهوة النفس . هذا أن لم يموه على الراغبين ، والمخرج للطيب عنه هو المتحقق بالزهد فيه وهذا هو الذي وصف الله تعالى به اخوة يوسف .(٤)

٥ — ومن الأحاديث الشريفة . حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : دلني على عمل

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٥
(٢) الحديث ذكره صاحب الاحياء ج ٤ ص ٢٢٠ ،ورواه الحاكم ، وذكره القرطبي في تفسيره ج ٧ ص ٨١ ، وابن كثير في تفسيره ج ٢ ص ١٧٤ — ١٧٥ وبعد أن ذكر الروايات المختلفة لهذا الحديث قال : " فهذه طرق لهذا الحديث موسلة ومتصلة يشد بعضها بعضا .. " .
(٣) سورة يوسف آية رقم ٢٠
(٤) قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي المتوفى سنة ٣٨٦ هـ ج ١ ص ٥٠٤

اذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس . فقال : "ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس". (١)

ويبين ابن حجر الهيتمى شارح هذا الحديث الشريف ما يلى :

الزهد لغة : الاعراض عن الشىء احتقارا له من قولهم شىء زهيد .

وشـرعا : أخذ قدر الضرورة من الحلال المتيقن الحل فهو أخص من الورع اذ هو ترك المشتبه وفيهما أقوال أخر . وهذا هو زهد العارفين وهو المراد هنا وأعلى منه زهد المقربين وهو الزهد فيما سوى الله من دنيا وجنة وغيرهما اذ ليس لصاحب هذا الزهد مقصد الا الوصول اليه تعالى ..

وأما الزهد فى الحرام فواجب عام ،وفى المشتبه مندوب عام وقيـل واجب .. " (٢) . وعلى هذا فيحمل الزهد السابق — والله أعلم — الـذى ذكره أبو طالب المكى فى قوت القلـوب حينما تحدث عن قوله تعالى : " وكانوا فيه من الزاهدين " . وعلى الزهد اللغوى لأن القوم حينما باعوه لم يقصدوا بهذا البيع التقرب الى الله تعالى . ومن الأحاديث الشريفة أيضا قوله صلى الله عليه وسلم : (الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن والرغبة فى الدنيا تطيل الهم والحزن) (٣) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : (الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن والرغبة فيها تكثر الهم والحزن والبطالة تقسى القلب) (٤) .

٦ — قال ابن عيينة : " حد الزاهد أن يكون شاكرا عند الرخاء ، صابرا عند البلاء " .
وهذا القول من ابن عيينة يوافق كثيرا حديث النبى صلى الله عليه وسلم : " عجبا لأمر المؤمن، أن أمره كله له خير ،وليس ذاك لأحد الا للمؤمن : ان أصابته سراء شكر فكان خيرا ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له " (٥) .

٧ — وقال الحسن البصرى : " مات رسول الله صلى الله عليه وسلم و لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة " (٦) .

---

(١) هذا حديث حسن . رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة .
(٢) فتح المبين لشرح الأربعين لابن حجر الهيتمى ص ٢٣١ — مطبعة دار احيـاء الكتب العربية .
(٣) رواه أحمد فى مسنده باب الزهد ،والبيهقى فى شعب الايمان عن طاوس مرسلا .
(٤) رواه القضاعى عن ابن عمرو — حديث حسن — (الجامع الصغير للسيوطى)
(٥) رواه الامام مسلم فى صحيحه عن أبى يحيى صهيب ابن سنان بن خالد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ...
(٦) الحديث رواه ابن حبان فى الثقات ،وأبو نعيم فى الحلية هكذا مرسلا . وللطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة " من سأل عنى أو سره أن ينظر الى فلينظر الـى أشعث شمر لم يضع لبنة على لبنة .. الحديث " واسناده ضعيف .

وقال الحسن : " دخلنا على صفوان بن محيريز وهو فى بيت من قصب قد مال عليه ،فقيل له : لو أصلحته ؟ فقال : كم من رجل مات وهذا قائم على حاله " . وقال الحسن : " كنت اذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت بيدى الى السقف " .

وقال الحسن : " أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم الا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط : كان اذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه "(١) .

٨ — قال الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه — وسئل عن الزهد : ما كان — فقال : هو أن لا تبالى من أكل الدنيا من مؤمن أو كافر .(٢)

٩ — يقول أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — فى بعض ما كان يدعو ربه " اللهم امنحنى الخير الوفير فى الدنيا ،ورغبنى فى التخلص منها " . فهو يطلب خيرا ، وخيرا وفيرا ثم يقف من هذا الخير موقف المتعفف عنه ، المنصرف عن الاشتغال به .

ففى هذه الحال يظهر معنى الزهد ، وتعرف منازل الزاهدين ، فى هذا الصراع الذى يقوم بين دواعى النفس الى هذا الزاد الشهى الذى بين يديها ، وبين تعففها عنه ، وزهدها فيه ، وتعاليها عليه . قيل لابن المبارك — وكان من العابدين الزاهدين — يا زاهد .. فقال : " الزاهد عمر بن عبد العزيز ،اذ جاءته الدنيا راغبة ، فتركها ، وأما أنا ففيم زهدت ؟ .

ذلك هو الزهد الذى يقبله الاسلام ، ويتقبل عمل العاملين به (٣).. الى آخر هذه الأقوال والأفعال الدالة على معنى الزهد وفضيلته ..

علامات الزهد :

قد يسأل سائل : اذا كان هذا هو معنى الزهد وفضيلته والأدلة عليه فكيف يشعر به الانسان أو ما هى علامته ؟ .

---

(١) احياء علوم الدين للغزالى ج ٤ ص ٢٣٦ وما بعدها .
(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى تحقيق الشيخ النواوى ص ١١٢ .
(٣) الأدب الصوفى فى مفهوم جديد للأستاذ عبد الكريم الخطيب ص ١٠ — ١١ .

والجواب على ذلك أن للزهد علامات بها يعرف الانسان نفسه • وفي ضوء ما سبق نرى الامام الغزالي حصر هذه العلامات في ثلاث :

الأولى : أن لا يفرح — الانسان — بموجود ولا يحزن على مفقود ويوضح هذا قول الباري تبارك وتعالى : "لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم[1]" بل ينبغي بالضد من ذلك حتى يحوز برضوان الله تعالى •

الثانية : أن يستوي عنده ذامه ومادحه •

الثالثة : أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة ••• ولذلك قيل لبعضهم الى ماذا أفضى بهم الزهد ؟ فقال : الى الأنس بالله ، فان الأنس بالدنيا وبالله لا يجتمعان • ويلخص هذا العابد الزاهد يحيى بن معاذ فيقول : " علامة الزهد ثلاثة : عمل بلا علاقة ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة "[2] •

زهد الحسن :

نظر الحسن البصري الى الجانب العاطفي من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح عليهم رضوان الله تعالى ، قولا وفعلا •• نظر الى كل هذا فصادف هوى في نفسه فأعرض عن الدنيا وزخرفها • وكان في مكنته أن يثرى ثراءا فاحشا وأن يصل الى أعلى ما يهفو اليه الناس ولكنه أشاح بوجهه عن ذلك طالبا لثواب الآخرة ، واشتد في ذلك لدرجة أنه كان يغلب عليه الخوف على الرجاء ، والعقاب على الثواب • وقد ظهر لنا ذلك من كلامه وسيظهر أوضح ان شاء الله • موقف الحسن هذا من الدنيا وزينتها — قولا وفعلا — جعل المتصوفة بعده ينظرون اليه بعين الاجلال والاحترام كما جعلهم أيضا ينسجون حوله من الأخبار — الصحيحة وغير الصحيحة — التي بوأته مكانة عظيمة وأصبح المؤسس لهذا التراث الكبير الذي تركوه الى يومنا هذا • لهذا نجدهم يربطون الحسن البصري بالرسول عليه الصلاة والسلام ويكونون بهذا الارتباط سلاسل صوفية متعددة حصر بعضها الدكتور احسان عباس ، ووافقه عليها الدكتور علي سامي النشار في ثلاثة فروع نوجزها فيما يلي :

الفرع الأول : يبدأ من الرسول عليه الصلاة والسلام الى حذيفة بن اليمان — ثم الحسن البصري — فالمحاسبي •

---

(١) سورة الحديد آية رقم ٢٣ •

(٢) احياء علوم الدين للامام الغزالي ج ٤ ص ٢٤١ — ٢٤٢ •

ويعتبر الدكتور احسان عباس هذا الفرع أوثق الفروع مع ما فيه من كلام • وذلك لشبه الحسن بأبي حذيفة ، والمحاسبي بالحسن • واشتهرت هذه السلسلة بشمال افريقيا • ومن أجل هذا تكونت طريقة صوفية ضمن الطرق المتعددة تسمى " الطريقة البصرية " نسبة الى الحسن البصري •• كما يقول الدكتور عبد الرحمن زكي ••

الفرع الثاني : يبدأ من النبي صلى الله عليه وسلم الى علي بن أبي طالب ، ثم الحسن البصري ، فحبيب العجمي ، فداود الطائي فمعروف الكرخي •••••

ويرى الدكتور احسان عباس أن وصل الصوفية الحسن بعلي يلحظ منه محاولة الصوفية نسبة مذهبهم الى علي بن أبي طالب — وسيجيء توضيح ذلك باسهاب باذن الله — ومعنى هذا عند الدكتور كامل الشيبي صلة الزهد بالتشيع وصدوره عنه • وهذا غير صحيح لأن الحسن — رحمه الله — كان قد اختط لنفسه منهاجا مستقيما في ضوء الكتاب ، والسنة لاعوج فيه مما جعل كل طائفة من الطوائف تنسبه اليها أو تنسب نفسها اليه • والذي حمل الدكتور الشيبي أن يقول ذلك • لما ورد عن الحسن من عطفه على العلويين وتأثره بمقتل علي ، والحسين ، والشبه القوي بينه وبين علي • وهذا كله لا يعني التشيع لآل البيت أو الاعراض عنهم ••

الفرع الثالث : يبدأ من الرسول صلى الله عليه وسلم الى أنس بن مالك ، ثم الحسن ، ثم فرقد السنجي ثم معروف الكرخي ، ثم السري السقطي ، فالجنيد فالخلدي ••(١)

نعود الى الحديث عن زهد الحسن البصري رضي الله عنه فنرى أن هناك عوامل ساعدت على زهده ، وتكوين شخصيته الزاهدة تحدثنا عنها في أول هذا الفصل الذي عقدناه لهذا الموضوع ••

واحب أن أعيد هنا بعض الفقرات من كلامه الطيب — الذي ذكرته بدون تحليل في الحديث عن الزهد كصفة من صفات الحسن في الفصل الثاني من الباب الثاني لتحليله بعض الشيء حسبما يتسع المقام لذلك — ليتبين لنا الحسن العملاق في زهده وصلته بالله تعالى فأقول والله المستعان : قال الحسن : "يا ابن آدم عملك عملك فانما هو لحمك ودمك فانظر على أي حال تلقى عملك ، ان لأهل

---

(١) الحسن البصري للدكتور احسان عباس ص ١٠ — ١١ ، ونشأة الفكر الفلسفي في الاسلام للدكتور النشار ج ٣ ص ١٦٠ — ١٦٢ ، والصلة بين التصوف والتشيع للدكتور مصطفى الشيبي ج ١ ص ٣١٦ ، والمسلمون في العالم اليوم — افريقيا الاسلامية للدكتور عبد الرحمن زكي — الملحق الثالث عن أشهر الطرق الصوفية في العالم الاسلامي ، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٨ م ، والتراث الروحي للتصوف الاسلامي للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص ١٧٦ — ١٨٠ •

التقوى علامات يعرفون بها : صدق الحديث والوفاء بالعهد ، ورحمة الضعفاء ، وقلة الفخر والخيلاء ، وبذل المعروف ، وقلة المباهاة للناس وحسن الخلق ، وسعة الخلق مما يقرب الى الله عز وجل . يا ابن آدم انك ناظر الى عملك يوزن خيره وشره فلا تحقرن من الخير شيئا وان هو صغر فانك اذا رأيته سرك مكانه ، ولا تحقرن من الشر شيئا فانك اذا رأيته ساءك مكانه ، فرحم الله رجلا كسب طيبا وأنفق قصدا .. يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ولا تبيعن آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا ..

ويحدثنا تلميذه حميد الطويل مبينا لنا أيضا حالة من حالات زهده وورعه وتقواه فيقول :

" بينما الحسن في يوم من أيام رجب في المسجد وهو يمص ماء ويمجه ، تنفس تنفسا شديدا ثم بكى حتى ارتعدت منكباه . ثم قال : لو أن بالقلوب حياة لو أن بالقلوب صلاحا لأبكيتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة . ان ليلة تمخض عن صبيحة يوم القيامة ما سمع بيوم قط أكثر فيه عورة بادية ، ولا عين باكية ، من يوم القيامة " (١)

تحليل ما سبق من أقوال الحسن :

يركز الحسن البصري في النص السابق — يا ابن آدم عملك عملك .. على العمل والحث عليه . وأنه هو الطريق السوى للوصول الى الله تبارك وتعالى . ثم يبين العلامات التى تظهر لدى أهل التقوى والصلاح من صدق ، ووفاء ، ورحمة ، وتواضع ، وكرم ، وحسن خلق ، وسعة الخلق وبعد هذا يوضح أن العمل — أيضا — اذا كان خيرا مهما كان صغيرا يسر الانسان وان كان شرا مهما كان صغيرا كذلك يسىء الانسان . فلا يستقل الانسان عمله مهما صغر . وهذا يوافق تماما قول الله تبارك وتعالى : " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " (٢)، وقول النبى صلى الله عليه وسلم : " اتقوا النار ولو بشق تمرة " (٣). وأخيرا يطلب الحسن رحمه الله من ابن آدم أن يبيع دنياه بآخرته حينئذ يحصل على ربحهما ، وينهاه عن بيع آخرته بدنياه فيخسرهما جميعا .. وفى النص الآخر للحسن الذى حكاه عنه تلميذه حميد الطويل . يبين الحسن أن فقدان الحياة والصلاح من القلوب يتسبب عن ذلك موتها أى فسادها . قال صلى الله عليه وسلم : " .. ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب " (٤) ..

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم ج ٢ ص ١٤٠ وما بعدها .
(٢) سورة الزلزلة آية ٧ ، ٨
(٣) حديث متفق عليه من حديث عدى بن حاتم .
(٤) رواه البخارى ومسلم عن أبى عبد الله النعمان بن بشير رضى الله عنهما .

والدليل على موتها وفسادها أنها لم تتأثر بالموعظة ولم تزهد فى الدنيا . علما بأن القلب لو انتبه واستيقظ لليلة صبيحتها يوم القيامة لما غفل أبدا وتفانى فى سبيل عبادة ربه ، والوصول الى مولاه ..

وكان رحمه الله من شدة زهده وخوفه من الله سبحانه وتعالى تراه دائما حزينا . اذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه واذا جلس . فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه ، وكان اذا ذكرت النار عنده . فكأنما لم تخلق الا له . ومن هنا قال رحمه الله : " رحم الله رجلا خلا بكتاب الله فعرض عليه نفسه فان وافقه حمد الله وسأله الزيادة من فضله وان خالفه أعتب وأناب " ومن أجل هذا أيضا كان يقول رحمه الله : " طول الحزن فى الدنيا تلقيح العمل الصالح " . ثم علل الحسن البصرى هذا الحزن بأن المؤمن لا يسعه غير ذلك لأنه بين مخافتين : " بين ذنب قد مضى لا يدرى ما الله يصنع فيه وبين أجل قد بقى لا يدرى ما يصيب فيه من المهالك " . وأنه : " لا يؤمن عبد بهذا القرآن الا حزن وذبل والا نصب والا ذاب والا تعب "(١) ، معنى هذا أن الحسن البصرى لم يكن فيه مبدأ التناقض غالبا كما يحدث لكثير من الناس وهذا جعله كما يقول الدكتور احسان عباس ينتقد الأشياء من خلال المرآة العامة والخاصة ، ولا يستمرئ من القصص الا ما وافق ذاته نفسه ويهتز لها أى لهذه القصص مهما كان .(٢)

وقد ظهر كل هذا على بيته عمليا كما ظهر على نفسه . قال عبدالله بن شوذب عن مطر قال : مبينا زهد الحسن فى منزله ـ دخلنا على الحسن نعوده فما كان فى البيت شئ لا فراش ولا بساط ولا حصير الا سرير مرمول هو عليه .(٣)

هذا الزهد فى الدنيا كان له ثمرة وهى : سيطرته على نفسه حتى كانت فى عداد النفوس اللوامة ، والمطمئنة . تحكمه فى شعوره فكان لا يتكلم الا بقدر متمثلا بقول الرسول الكريم : " رحم الله عبدا تكلم فغنم أو سكت فسلم "(٤) تملكه لنفسه خاصة عند الغضب فكان لا يخرف فى كلامه مهما كان الموقف .. وفوق هذا كله كان لا يضحك

---

(١) الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور كامل الشيبى ج ١ ص ٢٩٢ وما بعدها .
(٢) الحسن البصرى للدكتور احسان عباس .
(٣) تاريخ الاسلام للذهبى ج ٤ ص ١٠٤ وما بعدها . والسرير المرمول معناه : المنسوج من السعف بالحبال . (تفسير غريب الحديث لابن حجر ص ١٠٧) .
(٤) هذا الحديث : رواه الحسن البصرى ، وأخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت ، والبيهقى فى شعب الايمان من حديث أنس . فيه ضعف فانه من رواية اسماعيل ابن عياش عن الحجازيين .

— كما يفهمه كثير من الناس — الا الابتسامة العارضة التى لا تؤثر على هيبته فى المجتمع الذى يعيش فيه ..

وكانت أسرة الحسن تتحمل كل هذا بمشقة لأنه قد فرض عليها ما لا يستطيع الغير أن يتحمله . ولم يظهر عطفا على رجل ماتت زوجته فحزن لفقدها وتوجع .(١)

ومما أعان الحسن على هذا الزهد الذى ملك عليه نفسه وروحه فى دنيا الناس . أنه كان شديد الحرص على الاستفادة من الماضى الذى تركه فى المدينة المنورة المتمثل فى حياة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيها بعد أن وصل الى البصرة . ولذا نجد أن أهل البصرة كانوا دائما حريصين عليه . ويرون فيه الانسان المثالى الذى يحمل اليهم حياة الرسول الكريم كما عاشها أصحابه . ويظهر هذا المعنى واضحا جليا من قول الحسن رضى الله عنه : " ما من الناس رجل أدرك القرن الأول أصبح بين ظهرانيكم الا أصبح وأمسى مهموما " وعن علقمة بن مرثد قال : " انتهى الزهد الى ثمانية من التابعين ، فمنهم الحسن بن أبى الحسن فما رأينا أحدا من الناس كان أطول حزنا منه ، ما كنا نراه الا أنه حديث عهد بمصيبة ثم قال : نضحك ولا ندرى لعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا فقال : " لا أقبل منكم شيئا ويحك يا ابن آدم هل بمحاربة الله طاقة ؟ انه من عصى الله فقد حاربه . والله لقد أدركت سبعين بدريا أكثر لباسهم الصوف ، ولو رأيتموهم قلتم مجانين . ولو رأوا خياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا شراركم لقالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . ولقد رأيت أقواما كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه ولقد رأيت أقواما يمسى أحدهم وما يجد عنده الا قوتا فيقول : لا أجعل هذا كله فى بطنى . لأجعلن بعضه لله عز وجل فيتصدق ببعضه ، وان كان هو أحوج ممن يتصدق به عليه .(٢)

وحرص الحسن على الماضى المشرق بالنسبة له جعله دائما كان يتمسك بالقديم ولا يقبل الا اذا اعتقد بأن هذا الجديد لا يعارض مبدأه الكبير ويقتنع به اقتناعا كاملا . يظهر هذا من بعض أحكامه .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ١٦١ وما بعدها ، عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٣ ص ١٨٧ ، احياء علوم الدين للامام الغزالى ج ٣ ص ١١١ ، ٢٨٣ ، ومحاضرات الراغب الأصفهانى ج ١ .

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم ج ٢ ص ١٣٢ — ١٣٧ ، والكواكب الدرية للمناوى ص ٩٧

وعلى سبيل المثال : كان يكره بيع المصاحف ويرى أنه يجب أن توزع مجانا دون أن تتعرض للبيع والشراء . ولكن هذا الرأى للحسن لا يصلح فى معظم الأزمان خاصة وأن الشحّ والبخل والعياذ بالله طمس على قلوب كثير ممن آتاهم الله بسطة فى المال .. ومن أجل هذا ظل تلميذاه مطر الوراق ، ومالك بن دينار يجادلانه فى هذا الموضوع حتى اقتنع الحسن وأفتى بجواز البيع .(١)

كذلك كان لا يرى أخذ الأجر على التعليم ولكن سرعان ما تنازل عن هذا الرأى بسبب تغير الحياة من حوله .(٢) وهذا التساهل منه فى بعض الآراء — التى تدل على مرونته واستجابته لكل رأى يقتنع به ولو كان من تلميذ له دون تكبر — لأنه لم يجد نصا صريحا من كتاب الله أو سنة رسوله عليه الصلاة والسلام أو من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم .

أما اذا صدر نص صريح فى أى أمر من الأمور لا يتخلى عنه مطلقا مهما كان هذا الأمر مثل الحكم الذى استمع اليه فى المدينة وهو صغير من الخليفة الثالث عثمان بن عفان حينما قال : " اقتلوا الكلاب " فلم يتنازل عن هذا الرأى مطلقا وأخذ يفتى به .(٣)

وزهد الحسن أيضا أدى به الى الابتعاد عن كل ما يشوه سمعته بين الناس حتى يستطيع أن يبلغ رسالته فى مجتمعه . مما جعله يشدد وينهى كثيرا عن مجالسة أهل الأهواء والبدع الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويموهون معالم الدين الصحيح تبعا لأهوائهم وميولهم .(٤)

هذا هو زهد الحسن البصرى الذى دل عليه الكثير من المراجع الزاخرة مما لا يتسع المقام لذكر أمثال : حلية الأولياء لأبى نعيم ، والطبقات لابن سعد ، وللشعرانى ، والكواكب الدرية للمناوى الى غير ذلك من المراجع العديدة ويعتبر بحق مؤسسا للمذهب البصرى فى الزهد القائم على الخوف ، والتفكر الموصل الى الايمان ، والحزن والبكاء اللذين يصفيان النفس ، ويؤديان بالانسان الى الظفر برضوان الله ، ونعيم جنته كما قال الدكتور محمد مصطفى حلمى .(٥)

---

(١) المصاحف لابن أبى داود ص ١١٧ ، ١٤٠ نشر أرثر جفرى .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٢٨ .
(٣) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٢٩٣ .
(٤) الاعتصام للشاطبى ج ٢ ص ٢٥ وما بعدها .
(٥) الحياة الروحية فى الاسلام للدكتور محمد مصطفى حلمى ص ٧٦ ، نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ م

مظاهر الزهد عند الحسن :

ذكرنا فيما مضى أن الحسن كان دائما يرى حزينا ونزيد الأمر وضوحا — هنا — فنذكر أنه كان أيضا خائفا من الله دائما . ونراه أحيانا يلجأ الى التقيّة لحذر الاصطدام بين ما يسمى بالمثالية والواقعية . وليس معنى هذا أنه كان جبانا . بالعكس فان ما روى عن شجاعته ينفى ذلك . عن أبى بكر الهذلى ، قال كنا عند الحسن اذ أقبل وكيع بن أبى أسود فجلس ، فقال : يا أبا سعيد : ما تقول فى دم البراغيث يصيب الثوب أيصلى فيه ؟ فقال : يا عجبا ممن يلغ فى دماء المسلمين كأنه كلب ثم يسأل عن دم البراغيث .. فقام وكيع يتخلج فى مشيته كتخلج المجنون ، فقال الحسن : ان لله فى كل عضو منه نعمة فيستعين بها على المعصية ، اللهم لا تجعلنا ممن يتقوّى بنعمتك على معصيتك .. (١)

وكان من شدة خوفه اذا سئل : أمؤمن أنت ؟ قال : ان شاء الله ، ولم يقل : نعم ، لأنه يخاف ان قال ذلك يقول الله : كذبت يا حسن ، وما رآه أحد الا ظنّه حديث عهد بمصيبة ، ويئن كل آونة وأخرى يرتعد ويتنفس تنفسا شديدا حتى تكاد تزهق روحه ، كما كان يخاف من الموت لدرجة أنه اذا ذهب الى جنازة رجع الى بيته ولم يتحدث أياما ، واذا عاد مريضا لم ينتفع به أولاده وأهله وأصحابه ويظل — رحمه الله — أياما لا يأكل ولا يشرب ، ويعتبر الحسن أن الذى سبب له هذا الحزن والخوف — الذى نتج عنه الزهد — هو القرآن الكريم فنراه يقول : " والله لا يؤمن عبد بهذا القرآن الا حزن وذبل والا نصب وذاب والا تعب " ، واشتد خوفه من النار حتى سمع يوما حديثا عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان فقال رحمه الله : " ياليتنى كنت ذلك الرجل " ، وكان رحمه الله يخاف من النفاق ومشتقاته حتى قال يوما : " لو أعلم أنى برىء من النفاق كان أحب الىّ مما طلعت عليه الشمس " وما عنوا بالنفاق الذى هو ضد أصل الايمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الايمان فيكون مسلما منافقا كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام :

" أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، اذا ائتمن خان ، واذا حدث كذب ، واذا عاهد

---

(١) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٢٢٥ .

غـــدر ، واذا خاصم فجـــر " (١)

ومن الممكن تصوير ما ذكرناه عن زهد الحسن فى النقاط التالـية :

أ — انه كان دائما يتهم نفسه فليس ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا فهو يخـــاف الله وعذابه ولا يعتبر ما قدم من عمل مهما كثر بمنجيه من هول يوم القيامـة ٠ حتى قيل لعبد الواحد بن زيد صف لنا الحسن فقال : " رحم الله أبا سعيد كـان والله اذا أقبل كأنه رجع من دفن حميمه ، واذا أدبر كأن النار فوق رأسه ،واذا جلس كأنه أسير قدم لضرب عنقـه ٠٠

ب — لم يكن راغبا عن الحلال الطيب بل سائرا فى جادة الاعتدال يطلب لذة هـــذه الحيـاة كما يبتعد عن موبقاتها معتقدا أنه لا رهبانية فى الاسلام ٠ وأن تحريـم ما أحل الله ليس من كمال الايمان ٠ وقد عرفنا — فيما مضى — قوله للرجل الـــذى أراد أن يمتنع عن أكل طيبات الحياة وكان يتساهل فى الغناء — وبالطبع الغناء الـذى لا فحش فيه ولا مكروه — قال ابن عون : " " أدركت ثلاثة يتشددون فى الســـماع ، وثلاثة يتساهلون فى الغناء ٠ فأما الذين يتساهلون ٠ فالحسن ،والشعبى ٠ والنخعى ٠ وأما الذين يتشددون فابن سيرين ،والقاسم بن محمد ورجاء بن حيوة ٠٠

جـ — مع كونه قواما بالليل يخلو ويعتكف حـتى جاء الشعبى يوما وهو فى خلوتــــــه ٠ سلم عليه فلم يلتفت فقال الشعبى : الرجل والله فى غير ما نحن فيه ٠ وممـــا قاله فى خلوته هذه : " ابن آدم لم تكن فكونت وسألت فأعطيت ،وسئلت فبخلت ،بئس والله ويحك ما صنعت " ٠

مع كل هذا كان يختلط بالناس ولا يعتزلهم ،ويدعوهم الى الله تعالى ، وكان يعمل على قضاء حوائجهم ما استطاع الى ذلك سبيلا (٢) ٠

---

(١) احياء علوم الدين للغزالى جـ ١ ص ١٣٤ ، جـ٣ ص ١٢٤ ،جـ ٤ ص ٢٣ ، ١٦٣ ، ١٧٢ ، هذا الحديث الذى رواه الغزالى فى الاحياء خرجه الحافظ العراقى بقوله : حديث " من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى ياحنان يا منان " أخرجه أحمد وأبو يعلى عن رواية أبى ظلال القسملى عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون ، وتاريخ الاسلام للذهبى جـ ٤ ص ١٠٣ ، والبيان والتبيين للجاحظ جـ ٣ ص ١٥٣ وما بعدها ، والطبقات الكبرى لابن سعد جـ٧ ص١٣٨—١٣٩ وعيون الأخبار لابن قتيبة جـ ٢ ص ٣٦٢ — ٣٦٣ ، وقوت القلوب لأبى طالب المكى جـ ١ ص ٢٠٨ ،وتخريج حديث النفاق ما يلى : رواه البخارى عن عبد الله بن عمرو

(٢) من تاريخ الجدل — حسن البصرى للشيخ محمد أبو زهرة ص ١١ — ١٢ ٠

التصوف والاسلام

أصل كلمة "التصوف" :

اختلف العلماء والباحثون فى أصل كلمة "التصوف وما اشتق منها" الى وجوه متعددة . نذكر طرفا منها فيما يلى :

- فمن قائل أنها نسبة الى الصفة الأولى وهى صفة المسجد التى كانت فى مؤخر مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة حيث كان ينزلها من فقراء المسلمين من أهل الصفة يكتسبون عند امكان الاكتساب الذى لا يصدهم عما هو أوجب أو أحب الى الله من الكسب . وأما اذا أحصروا فى سبيل الله عن الكسب فكانوا يقدمون ما هو أقرب الى الله ورسوله ، وكان الرسول يبعث اليهم بما يكون عنده (١) .

ويؤيد هذا المعنى السهروردى فى قوله : " قد اجتمعوا بمسجد المدينة كما يجتمع الصوفية قديما وحديثا فى الزوايا والربط لا يرجعون الى زرع ولا الى ضرع ولا الى تجارة ، وكان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحث الناس على مواساتهم ، ويؤاكلهم ، ويجالسهم " (٢)

- ومن قال أنهم سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله جل وعز بارتفاع هممهم اليه ، واقبالهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه . (٣)

- ومن قائل أنهم سموا بذلك نسبة الى الصفة اذ جملة التصوف اتصاف بالصفات الحميدة وترك للصفات الذميمة .

- ومن قائل أنها نسبة الى صوفة القفا ، وهى الشعر الأغبر المتلبد الذى يتدلى من القفا (٤) .

- ومن قائل أنها نسبة الى الصفاء كما يقول صاحب اللمع (٥) : " ان العبد اذا

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ج ١ ص ٢٦ ، ٣٠ .
(٢) عوارف المعارف للسهروردى ص ٤٧ .
(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ص ٢٨ ـ ٢٩ .
(٤) نشأة التصوف للدكتور ابراهيم بسيونى ص ١٠ .
(٥) اللمع لأبى نصر السراج ص ٤٧

صفا من كدر البشرية يقال له قد صوفى فهو صوفى "
ويحلل لذلك القشيرى فى رسالته بأن الصفاء محمود بكل لسان.[1]

• ومنهم من يعتقد صلة بينها وبين الكلمة اليونانية " سوفيا "

يقول جورجى زيدان : " وعندنا أنها مشتقة من لفظة يونانية الأصل هى " صوفيا " ومعناها الحكمة ، فيكون الصوفية قد لقبوا بذلك نسبة الى الحكمة ، لأنهم كانوا يبحثون فيما يقولون أو يكتبونه بحثا فلسفيا ، ويؤيد ذلك أنهم لم يظهروا بعلمهم هذا ولا عرفوا بهذه الصفة الا بعد ترجمة كتب اليونان الى العربية • ودخول لفظ الفلسفة فيها "[2] الا أن " نولدكه " أثبت خطأ هذا الزعم كما أيده فى ذلك " نيكلسن " و " ماسينيون " ، ومن أدلة " نولدكه " أن " س " اليونانية نقلت الى العربية كما هى سينا لا صادا كما أنه لا يوجد فى اللغة الآرامية كلمة تعد واسطة لانتقال سوفيا الى صوفى[3] ••

والحاصل من هذا كله وغيره أنه يظهر من أقرب الأقوال الى العقل واللغة أن كلمة " التصوف وما اشتق منها " كلمة عربية ومشتقة من كلمة " صوف " وفى هذا المعنى يقول الدكتور بسيونى : " والنسبة الى الصوف أقرب النسب الى الاشتقاق اللغوى ، ولأن ثمة علاقة بين ارتداء الصوف وبين التخفف من متع الحياة والميل الى الزهادة والاتجاه الى التنسك ، ومن المعقول أن هذه العلاقة عرفت بعد ظهور الاسلام ، حين اقترن مظهر المتعبدين الزاهدين به وصار مميزا لهم ••

ومما يؤيد ذلك ما يلى :

أ — يقول أبو موسى الأشعرى : " يابنى لو رأيتنا ونحن مع النبى صلى الله عليه وسلم اذا أصابتنا السماء وجدت منا ريح الضأن من لباسنا الصوف "[4] .

ب — كان أبو عبيدة عامر بن الجراح يظهر للناس وعليه الصوف فلاموه على ذلك وقالوا له : " انك بالشام وحولنا الأعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك فقال : " ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم "[5] .

---

(١) الرسالة للقشيرى ص ١٣٨ •
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٢ ص ٣٢٢ •
(٣) تاريخ التصوف فى الاسلام للدكتور قاسم غنى ص ٦٧ — ٦٨ •
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ٨٠ •
(٥) مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ٤١٨ •

جـ ـ قال الحسن البصري : " أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف " (١) . وقال أيضا : " رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا ، فلم يأخذه وقال : معي أربعة دوانق فيكفيني ما معي " (٢) .

د ـ وقال القشيري ـ فيما رواه ابن خلدون في مقدمته ـ ما يلي :

" ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ، والظاهر أنه لقب . وأما القول باشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي . وكذلك من الصوف ، لأنهم لا يختصون بلبسه " . وقد علق ابن خلدون على هذا الرأي بقوله : قلت : والأظهر ـ ان قيل بالاشتقاق ـ أنه من الصوف ، وهم في الغالب مختصون بلبسه ، لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف " (٣) الى آخر هذه الأقوال الدالة على ذلك .

وليس معنى هذا أن هذه القاعدة مطردة . ليس كذلك لأن بعض المضللين والأدعياء انتهزوا هذه الفرصة وأخذوا يلبسون الصوف ليظهروا بمظهر الزهد والورع كي يحصلوا على مآربهم من الحياة . مما اختلط على بعض عباد الله المخلصين من هو الصادق في زهده ومن هو الكاذب ؟ حتى أننا نجد رجلا كالحسن البصري يقول : أصحاب النار هم أصحاب الأكسية " (٤) .

ومن أجل هذا كان بعض أهل الزهد والورع يتحفظ في كلامه حتى لا يحمل مثل ما روى أن محمد بن واسع دخل على قتيبة بن مسلم والي خراسان وعليه مدرعة صوف ـ في القرن الثاني ـ ، فقال قتيبة : " ما يدعوك الى لباس هذه ؟ فسكت عنه . . . فقال له قتيبة : أكلمك فلا تجيبني ؟ قال : أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي ، أو أقول فقرا فأشكو ربي . (٥)

تعريف التصوف :

في ضوء ما ذكرناه من أصل كلمة التصوف وما اشتق منها تجيء التعريفات لهذه الكلمة وهي كثيرة حتى قيل : انها بلغت زهاء الألفين ، والسر في هذا التعريفات

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم جـ ٢ ص ١٣٤ .
(٢) عوارف المعارف للسهروردي ص ٤٨ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٨ .
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص ١٢٣ .
(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٦ ص ٢٢٦ .

الكثيرة أن كل واحد من الصوفية كان يذكر التعريف حسبما يشعر ويتذوق .
وكما يقول القائل : " من ذاق عرف " .

ومرجع كل هذه التعريفات يدور حول الاخلاص فى عبادة الله والاستعانة به دون سواه .. اقرأ ان شئت قوله تعالى : " اياك نعبد واياك نستعين " فان جميع ما ذكره الصوفية وساروا على هديه يدور حول هذين الأصلين ويتفرع عنهما ..(١)

والى القارئ الكريم نماذج من هذه التعريفات على سبيل المثال لا على سبيل الحصر :

- سئل أبو سعيد الخراز عن الصوفى فقال :
" من صفى ربه قلبه ، فامتلأ قلبه نورا ، ومن دخل فى عين اللذة بذكر الله " .
- قال أبو بكر الكتانى :
" التصوف : صفاء ومشاهدة "(٢) .
- وقال الجنيد : " التصوف حفظ الأوقات " .
- وقال ابن عطاء الله السكندرى : " التصوف الاسترسال مع الحق .
- قال أبو الحسن محمد بن أحمد الفارسى : " أن كان التصوف عشرة : تجريد التوحيد ، وفهم السماع ، وحسن المعاشرة ، وايثار الايثار ، وترك الاختيار ، وسرعة الوجد ، والكشف عن الخواطر ، وكثرة الأسفار ، وترك الاكتساب ، وتحريم الادخار .
- وقال أبو يعقوب السوسى : الصوفى : هو الذى لا يزعجه سلب ولا يتعبه طلب .(٣)
- وقال معروف الكرخى : التصوف : الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الناس .
- وقال أبو سليمان الدارانى : التصوف : أن تجرى على الصوفى أعمال لا يعلمها الا الحق ، وأن يكون دائما مع الحق على حال لا يعلمها الا الله .
- وقال بشر الحافى : الصوفى من صفا قلبه لله .
- وقال ذو النون المصرى ، عن المتصوفة : هم قوم آثروا الله عزوجل على كل شئ فآثرهم الله عزوجل على كل شئ .
- وقال أبو حفص الحداد : التصوف : تمام الأدب (٤)

---

(١) سورة الفاتحة آية ٥ ، وكتاب الانسان والاسلام للشيخ الحامدى ص ٢٠٥ .
(٢) المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمد الطبعة السادسة ص ١٧٣ .
(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ص ١٠٨ — ١٠٩ .
(٤) فى التصوف الاسلامى وتاريخه لبعض المستشرقين ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى ص ٢٨ — ٣٠ .

ولا نكاد نجد تعريفا يجمع هذا كله . اللهم الا محاولة للدكتور ابراهيم بسيونى الذى استطاع بعد استعراضه لأربعين تعريفا (من سنة ٢٠٠ هـ ـ الى سنة ٣٣٤ هـ) . فى نواحى ثلاثة فيما يلى :

الناحية الأولى : تعريفات تتحدث عن البداية

الناحية الثانية : وتعريفات تتحدث عن المجاهدات .

الناحية الثالثة : وتعريفات تتحدث عن المذاقات .

يقول الدكتور ابراهيم بسيونى عن تعريف الجامع — فى رأيه ـ التصوف : تيقظ الوصول فالاتصال بالوجود المطلق " (١)

والمهم من هذا كله هو : الوصول الى الله عزوجل بالطريق السوىّ فى ضوء الكتاب والسنة ..

التصوف فى صدر الاسلام :

التصوف بالمعنى الذى عرفناه من مجاهدة النفس ،والعبادة الخالصة لله تبارك وتعالى ، وعدم الافتتان بمباهج الحياة الدنيا وزينتها ... فلاخفاء أنه طلع مع الاسلام فى أفق واحد ـ فضلا عن كونه وجد فى صدره ـ بدليل الآيات القرآنية الكثيرة ، وأحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام وآثار العلماء العاملين من عباد الله تعالى بما لا يتسع المقام لذكره وقد أوردنا بعضه فى موضوع الزهد .

وعلى سبيل المثال قوله تعالى : " رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار .. " (٢) . وقوله صلى الله عليه وسلم للسيدة عائشة رضى الله عنها حينما قالت له بعد قيام طويل لله رب العالمين : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : " أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا " (٣) .

والحسن البصرى وصف أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقال : " والله لقد رأيت أقواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذى يمشون عليه ، وما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت ، ذهبت الى ذا أم ذهبت الى ذا ... " والواقع أن التصوف

---

(١) نشأة التصوف فى الاسلام للدكتور ابراهيم بسيونى ج ١ ص ١٧ ، ٢٨ .
(٢) سورة النور آية رقم ٣٧ .
(٣) الحديث أخرجه البخارى ومسلم عن السيدة عائشة رضى الله عنها .

بهذا المعنى موجود فى كل ملة ٠ لأن جميع الأنبياء والمرسلين لم يبعثوا الا لتزكية الطباع وتهذيب النفوس وصرفها عن شهوات الدنيا الفانية ٠

أما النظرة اليه – أى الى التصوف – من حيث ما وقع فيه من الكلام عن الخواطر والأذواق ٠٠٠ فشأنه شأن بقية العلوم كالفقه وأصوله والتوحيد ٠٠ التى لم تظهر بصورتها الحالية الا بعد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ وأول من تكلم فى هذا اللون من أتباع الراية المحمدية " الحسن البصرى " ٠ قال أبو سعيد ابن الأعرابى : لم يبلغنا أن أحدا تكلم فى هذه المذاهب – يعنى فى أحوال النفس – ودعا اليها وزاد فى بيانها وترتيبها ، وصفات أهلها مثل : " الحسن البصرى "(١) .

كما بين ذلك صاحب قوت القلوب أن الحسن أول من مهّد سبيل هذا العلم وفتق الألسنة به ونطق بما فيه ، وأظهر أنواره ، وكشف قناعه ، وكان يتكلم بكلام لم يسمعوه من أحد من اخوانه فقيل له : يا أبا سعيد ، انك تتكلم فى هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك فممن أخذت هذا ؟ فقال : من حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ٠ كما ذكر أيضا صاحب قوت القلوب : أن الحسن البصرى أحد المذكرين وكانت مجالسه مجالس الذكر يخلو فيها مع اخوانه وأتباعه من النساك والعباد فى بيته – وهذا لا يمنع أنه بدأ فى المسجد أولا ثم كانت فى بيته أخيرا أو مجلس بالمسجد وآخر بالبيت – مثل مالك بن دينار ، وثابت البنانى ، وأيوب السختيانى وفرقد السبخى ٠٠٠ وقال كذلك صاحب قوت القلوب : " والحسن البصرى رحمه الله هو امامنا فى هذا العلم الذى نتكلم به ، أثره نقفو ، وسبيله نتبع ، ومن مشكاته نستضئ ، أخذنا ذلك باذن الله تعالى ٠ من امام عن امام الى أن ينتهى ذلك اليه ، وكان من خيار التابعين باحسان ٠٠(٢) ٠ وعلى كل فالعناية بالتصوف بصورته المتكاملة لم تظهر الا فى القرن الثالث الهجرى والله المستعان ٠

الفرق بين الزهد والتصوف :

بعد أن تحدثنا عن الزهد وما يتعلق به ، وعن التصوف كذلك ٠٠ يجئ هذا السؤال : هل هناك فرق بين الزهد والتصوف ؟ ٠٠

---

(١) الانسان والاسلام للشيخ محمد الطاهر الحامدى ص ٢١٠ – ٢١٢ ٠

(٢) قوت القلوب فى معاملة المحبوب لأبى طالب المكى ج ١ ص ٣٠٤ – ٣٠٥ ٠

والجواب على ذلك نقول وبالله التوفيق .

لا أكاد أجد فرقا بين الزهد والتصوف لأن كلا منهما يراد منه الوصول الى الله تعالى ليعيش الانسان سعيدا فى الدنيا والآخرة . ولكن بعض الباحثين استطاعوا أن يوجدوا فروقا متعددة بين الزهد والتصوف نذكر منها :

أن الزاهد يتعبد طمعا فى الجنة التى يعده بها ربه وخوفا من النار التى أعدت للعصاة والكافرين . كما أنه ينصرف عن الملذات الدنيوية وينكر نفسه وشهواته ويتحمل مرارة الجوع والعطش لا يفعل ذلك الا طمعا فى نعيم الآخرة والبعد عن نارها ..

أما الصوفى فيعبد الله لعبادته فقط .. ولمحبته فقط والاتصال به فلا يرجو من ذلك شيئا وانما همه الوقت الحاضر ، وهدفه معرفة الله تعالى . ويمثلون لذلك بقول رابعة العدوية : الهى : ان كنت أعبدك رهبة من نارك فاحرقنى فى جهنم ، وان كنت أعبدك رغبة فى جنتك فاحرمنى منها ، وان كنت أعبدك لمحبتك فلا تحرمنى يا الهى جمالك الأزلى .

ان طريق الزهد والتصوف واحد ولكن ما أبعد الشقة بينهما .

ومنها أن الزاهد محاط بجلال الله تعالى شاعر بعقابه يقف بين يديه خاشعا يرتعد من الخوف وتسيل دموعه رهبة وخشوعا .

أما الصوفى فناعم البال فى رحمته ولطفه وكرمه وفوق كل شىء " محبته " الى آخر ما قيل من فروق (1) .

هل كان الحسن متصوفا ؟ :

بعد هذا الاجماع من العلماء الأجلاء على زهد الحسن بل على تأسيسه له ، وبعد الحديث الموجز على التصوف وما يتعلق به يقف أمامنا هذا السؤال . هل كان الحسن متصوفا ؟ . والجواب على ذلك : بالنظر الى أقوال العلماء والباحثين نجدهم على فريقين :

---

(1) التصوف الاسلامى العربى للأستاذ عبد اللطيف الطيباوى ص ٢٦ ، دار المصر للطبع والنشر سنة ١٩٢٨ ، فى التصوف الاسلامى . مفهومه وتطوره وأعلامه للأستاذ قمر الكيلانى ص ٣ — ١٤ .

الفريق الأول يقول بزهده وعدم تصوفه :

وفي مقدمة هذا الفريق فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود حيث يقول : " واذا انتقلنا الى البيئة الاسلامية ، فاننا نجد الحسن البصري — رحمه الله — من أروع وأجمل الشخصيات الأخلاقية العالية ، لقد كان مثلا صادقا للشمور الأخلاقي في طهره وصفائه وكان ينشر الفضيلة بوعظه المؤثر ،ومنطقة القوى ، وسلوكه المثالي ، ومع ذلك فلم يكن الحسن البصري صوفيا بالمعنى الدقيق لكلمة " صوفى " على أنه من الطبيعي أن تكون الأخلاق الكريمة أساسا من أسس التصوف ،وأن تكون الأخلاق في أسمى صورة من صورها ، ثمرة التصوف ..(١) .

كذلك يعتبر من هذا الفريق الدكتور أحمد ناجي القيسي ، والدكتور محمد مصطفى حلمي حيث ذكر أن دريج أمثال الحسن البصري ، وأويس القرني ضمن تراجم الصوفية — كما في كتاب تذكرة الأولياء للعطار — انما كانت بسبب مشابهة أعمالهم وسلوكهم للصوفية ، والا فلم يكن قد ظهر في زمانهم أي مفهوم لكلمة " صوفى " ، " متصوف " ، " عارف " ولم تكن هناك فرق خاصة تعرف بهذا الاسم ..(٢) .

ومما يؤيد هؤلاء العلماء أيضا القشيري في رسالته . فلم يضع الحسن البصري ضمن مشايخ التصوف في هذه الرسالة وانما ذكر القشيري الحسن البصري عرضا في رسالته خمس مرات فقط ..

الفريق الثاني يقول بزهده وتصوفه :

وفي مقدمة هذا الفريق من العلماء الدكتور محمد غلاب القائل : " ..بل ان بعض مؤسسي الطرق الصوفية فيما بعد قد أرجعوا اليه — عن طريق الاسناد — أسس طريقهم وأعلنوا رجوعها الى مبادئه التنسكية الرفيعة وصرحوا بأنه — أي الحسن البصري — كان قطب الغوث ..(٣)

---

(١) العارف بالله أبو العباس المرسي للدكتور عبد الحليم محمود ص ١٧ — مطبعة دار الشعب بالقاهرة ، وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار لمحررها نيكلسون — طبعة أوربا ج ١ ص ٥٧ يبين صاحب هذا الكتاب أن الحسن البصري لم يكن صوفيا كل الصوفى ..

(٢) تاريخ التصوف في الاسلام للدكتور قاسم غني ترجمه عن الفارسية صادق نشأت — وراجعه الدكتور أحمد ناجي القيسي — ص ٣٩ بالحاشية — نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠م .

(٣) التنسك الاسلامي . نشوؤه وتطوره ومذاهبه ورجاله للدكتور محمد غلاب ص ٨٧ نشر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

ومنهم أيضا الدكتور قاسم غنى القائل : " .. وينبغى أن نعدّ الحسن البصرى وأضرابه أمثلة لمتعبدى العهد الأموى المعدودين وزهاده ، من رواد الصوفية وعرفاء القرن التالى له ، ويظهر من تحقيق أحوالهم أنهم كانوا من المسلمين المتعبدين المؤمنين المتمسكين بالشريعة فى ذلك العهد .(١)

ومنهم كذلك : تاج الاسلام أبو بكر محمد الكلاباذى فى كتاب : " التعرف لمذهب أهل التصوف " يعرضه اسمه ضمن الباب الثانى تحت عنوان " فى رجال الصوفية ".

ومنهم : الدكتور على سامى النشار القائل : " .. وقد قلت ان الحسن البصرى كان عابدا ، بل انتهى اليه كل صور العبادة قبله ، فأحياها فى نفسه وفى رجاله . وقد دعا هذا الصوفية من بعده الى اعتباره مرحلة اتصال فى السلسلة الصوفية التى وضع فيها بين الرسول وصحابته وبين أجيال المسلمين . وقد تتبع العالم الكبير الدكتور احسان عباس السلاسل الصوفية التى احتل الحسن البصرى مكانة فيها ، وانتهى الى أنه أصبح للحسن البصرى فى شجرة التصوف ثلاثة فروع على الأقل (٢) .. وقد عرفناها فيما مضى ..

ومنهم الدكتور سليمان دنيا حيث اعتبر الحسن البصرى ضمن المتصوفة ثم نقل عنه قوله : " " من نافسك فى دينك فنافسه ، ومن نافسك دنياك فألقها فى نحره(٣) .

ومنهم الدكتور ابراهيم بسيونى القائل : " .. والحسن البصرى كان صوفيا بسلوكه لا بثيابه .. "(٤)

ومنهم الأستاذ نيكلسون القائل : " وسرعان ما تحول الزهد الى التصوف ، فان الحسن البصرى وهو أشهر ممثلى حركة الزهد يعدّ فى نظر الصوفية واحدا منهم . وهم محقون فى ذلك ، لأن الحسن البصرى كان ينزع الى حياة روحية خالصة فى عبادته ، غير قانع بمجرد الصورة الشكلية فى أدائها . ويروى القشيرى عنه أنه قال : " مثقال ذرة من الورع السالم خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة "(٥) .

---

(١) تاريخ التصوف فى الاسلام للدكتور قاسم غنى ص ٣٩ .
(٢) نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام للدكتور النشار ج ٣ ص ١٦٠ .
(٣) مفهوم التصوف بحث للدكتور سليمان دنيا ص ٧ سلسلة الثقافة الاسلامية .
(٤) نشأة التصوف الاسلامى للدكتور ابراهيم بسيونى ج ١ ص ١٤ .
(٥) فى التصوف الاسلامى وتاريخه للأستاذ نيكلسون ص ٣ .

وروى الدكتور عبد الرحمن زكى فى بعض كتبه عن أشهر الطرق الصوفية فى العالم الاسلامى ، وقد أوصل هذه الطرق ٩٩ طريقة . وعدّ منها طريقة تسمى : البصرية . نسبة الى الحسن البصرى .(١)

وغير هؤلاء كثير مثل ما ذكره الشعرانى فى الطبقات الكبرى ،والغزالى فى احياء علوم الدين ، والهجويرى فى كشف المحجوب الخ ..

وانى أرى أن القول بأنه كان صوفيا أرجح الى الصواب فانه — رحمه الله — كان صوفيا على معنى السلوك السوىّ الموصل الى الله عز وجل ، والاخلاص لله تبارك وتعالى ، والاستعانة به دون سواه .

لا على معنى المظاهر الخادعة وذلك كالثياب التى يدل ظاهرها على أن مرتديها انسان تجرد لله جلت قدرته ، والشطحات التى تخرج الانسان عن جوهر الاسلام والقصد الذى من أجله بعث محمد عليه الصلاة والسلام .

---

(١) المسلمون فى العالم اليوم — افريقية الاسلامية للدكتور عبد الرحمن زكى — الملحق الثالث .

صلة الحسن البصري برابعة العدوية

عرفنا فيما سبق أن الحسن البصري — رحمه الله — طبع الحياة الروحية الاسلامية في القرن الاول الهجري بطابع الزهد مع الخوف والحزن • وحينما نلتفت الى رابعة العدوية — المتوفاه سنة ١٨٠ هـ أو سنة ١٨٥ هـ على المشهور — نجدها ايضا طبعت بهذا الطابع •

يقول الشعراني في الطبقات الكبرى (١) : " كانت رضي الله عنها كثيرة البكاء والحزن وكانت اذا سمعت ذكر النار غشي عليها زمانا وكانت تقول : استغفارنا يحتاج الى استغفار ••• وكان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها ••• ثم تطور امرها حتى وصلت بعد ذلك ما اطلق عليه بالحب الالهي ••• معنى هذا ان الانسان يحب مولاه حبا كبيرا حتى يصل بهذا الى نسيان كل شيء ماعدا الله سبحانه وتعالى •

وهكذا كانت رابعة العدوية ومما يدل على ذلك ماقاله الاستاذ مصطفى عبد الرازق " ••• وعندما كان التصوف في سذاجته لعهد رابعة لم يكن الحديث في امر المحبة الصوفية طريقا معبدا • وقد تكون رابعة العدوية اول من هتف في رياض الصوفية بنغمات الحب شعرا ونثرا • وجدير بمولاه آل عتيك التي كانت من فضلاء عصرها وازكاهم فطرة واسماهم نفسا واشدهم عزوفا عن الدنيا وزخارفها ان يكون انقطاعها الى الله قد وجه نفسها الشاعرة وجهة حب الهي فنسب اناشيده " (٢)

ومن اقوالها المشهورة في هذا المجال المتسع :

احبك حبين حب الهوى ∴ وحبا لانك اهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ∴ فشغلي بذكرك عمن سواكا
واما الذى انت اهل له ∴ فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ∴ ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وحول هذا الشعر يعلق صاحب تفسير المنار (٣) بقوله " والذى نفهمه من هذا الشعران الحب الاول هو حب العبودية والثانى حب المعرفة وغايتها رفع الحجب الكثيرة المانعة من كمالها الى ان تكمل بكرامة الرؤية في الاخرة ••• " الى آخر ماقال والكلام

---

١) الطبقات الكبرى للشعراني حـ ١ ص ٥٦

٢) دائرة المعارف الاسلامية — تعليق مصطفى عبد الرازق باشا على مادة " تصوف " المجلد الخامس ص ٢٩٦ — ٢٩٧

٣) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا حـ ١٠ ص ٢٢٨

عن هذا وغيره فى رابعة العدوية يطول ولكن الذى يعنينا صلتها بالحسن البصرى ..

هذه الصلة بين الحسن ورابعة فيها خلاف بين العلماء والباحثين وحتى يتبين لنا وجه الحقيقة نذكر الروايات التى تثبت هذه الصلة ، ثم نتعرض لها بالبحث والتمحيص لننظر ما اذا كانت هذه الروايات صحيحة وتثبت الصلة ام لا والله التوفيق .

بعض الروايات التى تثبت صلة الحسن برابعة :

١) رواية فريد الدين العطار فى كتابه " تذكرة الاولياء " تقول : " يحكى ان مالك ابن دينار ، والحسن البصرى ، وشقيقا البلخى غدوا لزيارة رابعة . فسألتهم عن معنى الصدق ، فقال الحسن : ليس بصادق فى دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه . فقالت رابعه : هذا غرور ، وقال شقيق البلخى : ليس بصادق فى دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه . فقالت : هناك من هو خير من هذا فقال مالك بن دينار : ليس بصادق فى دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه . فصاحت رابعة بل ثمة افضل من هذا كله . فقالوا لها : تكلمى انت اذن فقالت : ليس بصادق فى دعواه من لم ينس الضرب فى مشاهدة مولاه مثل : نسوة مصر اللائى نسين آلام ايديهن كما رأين وجه يوسف (١)

٢) ورواية اخرى كذلك للعطار فى كتابه " الهى نامه " تصحيح هريتر .....

" خرج الحسن البصرى ذات يوم من البصرة ، واقبل على رابعة العدوية فى الفلاة وكان قد اصطف من حولها سرب من الحيوان غزلان وغير غزلان ، مما كادت هذه الحيوانات تبصر الحسن قادما من بعيد يسلك الدرب حتى فرت جميعا من امام رابعة . شهد هذا الحسن فاستوقد الهم صدره ، ودبت له فى النفس عقارب الغيرة . هنالك التفت الى رابعه وسألها ان تنهئه بصدق لماذا فرت هذه الظباء السائدة على الطريق هنالك لما ابصرتني ، ولم تفر منك ؟ أتراني لا ترانى اهلا لها مثلك ؟ فاجابته رابعة سائلة اياه سوا : اى شىء اكلت ؟ فقال : " اكلت جذور بصل . لقد كان عندى ايتها الطيبة الخاطر ، بصل وقليل من الشحم ... "

سمعت رابعة منه هذا السر فصاحت : عجبا : " انك اكلت من شحم هذا القطيع المسكين " فكيف لاتريد منها ان تفر منك ؟ الى آخر هذه القصة العجيبة التى تربط الحسن برابعة ...

---

١) تذكرة الاولياء للعطار المجلد الاول ص ٧١ — ٧٢

٣) ويقول الشيخ الحريفيش في كتابه " الروض الفائق في المواعظ والرقائق " وقيل : انه لما مات زوج رابعة العدوية استأذن الحسن البصرى في الدخول عليها هو واصحابه ، فاذنت لهم وارختستوا ، وجلست وراءه فقال لها اصحابه : انه قد مات بعلك ولابد لك من زوج وقد انقضت عدتك ، فاختارى من هؤلاء الزهاد من شئت منهم فقالت : حبا وكرامة ، من هو أعلمكم حتى ازوجه نفسى ؟ قالوا : الحسن البصرى ، فقالت له : ان اجبتنى عن اربع مسائل فانا لك اهل فقال لها : سلى فانا اجيب ان وفقنى الله تعالى فقالت : مايقول الفقيه العالم اذا انامت هل خرجت من الدنيا مسلمة ام كافرة ؟ فقال : هذا غيب والغيب لايعلمه الا الله تعالى ، قالت فمايقول ان وضعت فى القبر وسألنى منكر ونكير أفاقدر على جوابهما ام لا ؟ قال : وهذا غيب ، قالت : فاذا حشر الناس فى القيامة وتطايرت الكتب فيعطى بعضهم كتابه بيمينه و يعطى بعضهم كتابه بشماله افاأعطى كتابى بيمينى ام بشمالى ؟ قال : وهذا ايضا غيب ، قالت : فاذا نودى فى الخلائق فريق فى الجنة وفريق فى السعير فمن اى الفريقين اكون ؟ قال لها : وهذا ايضا غيب ولايعلم الغيب الا الله عز وجل ، فقالت له : فاذا كان الامر كذلك وانا فى قلق وكرب من هذه الاربعة فكيف احتاج الى الزوج ،

واتفرغ له ثم انشدت :

راحتى يااخوتى فى خلوتى	وحبيبى دائما فى حضرتى
لم اجد لى عن هواه عوضا	وهواه فى الهدايا محنتى
حيثما كنت اشاهد حسنه	فهو محرابى اليه قبلتى
ان امت وجدا وثم رضا	واعنائى فى الورى واشقوتى
ياطبيب القلب ياكل المنى	جد بوصل منك يشفى مهجتى
ياسرورى وحياتى دائما	نشأتى منك واين نشوتى
قد هجرت الخلق جمعا ارتجى	منك وصلا فهو اقصى منيتى (١)

٤) ويقول العطار فى تذكرة الاولياء : ويروى ان الحسن البصرى قال : "بقيت ليلة ويوما عند رابعه نتحدث عن الطريق الروحى واسرار الحق بحرارة بلغت حدا نسينا معه اننى رجل وانها امرأة ، فلما انتهينا من هذه المناقشة ، شعرت باننى لم اكن الا فقيرا ، بينما هى غنية بالاخلاص .

---

١) الروض الفائق فى المواعظ والرقائق للشيخ شعيب الحريفيش ص ١٣٧ــ ١٣٨ ــ مطبعة مصطفى الحلبى : ١٣٦٨ هـ ــ ١٩٤٩ م .

٤) ومما حكاه فريد الدين العطار في كتابه " تذكرة الاولياء " كذلك عن صلة الحسن برابعة قوله : ويحكى ان الحسن البصري رأى رابعة جالسة على شاطىء الفرات ، فألقى على الماء سجادته ووقف عليها وقال : تعالي لنصلي ركعتين على الماء - فقالت : سيدى : اهي امور هذه الدنيا ما تريد ان تظهره لاهل الاخرة ؟ اظهر لنا شيئا لايستطيع جمهور الناس ان يفعلوه "؟ قالت هذا والقت سجادتها في الهواء وصعدت عليها وصاحت : " تعال يا حسن : نحن هنا في مكان آمن وأبعد عن عيون الناس " وقالت معزية الحسن : " سيدى مافعلت انت يستطيع السمك ان يفعله ، ومافعلت انا يستطيع الذباب أن يفعله " المهم ان نبلغ درجة اعلى من هاتين الدرجتين اللتين بلغناهما " الى آخر هذه الروايات المتعددة التي تسير على هذا المنوال ... " كلها تدل على وجود صلة مابين الحسن ورابعة " .

وقبل أن نتعرض لهذه الروايات بالنقد والتمحيص نبين ان هذه الروايات - التي يراد بها وجود ربط الصلة بين الحسن ورابعة - انما هي مبنية على ان رابعة توفيت عام ١٣٥ هـ . وبالطبع هذا التاريخ يمكن معه اللقاء لان الحسن - رحمه الله - توفي بالاجماع سنة ١١٠ هـ - ومن هؤلاء الذين يثبتون هذا التاريخ .

ابن خلكان في " وفيات الاعيان ، وابن شاكر الكتبي في عيون التواريخ " وابن تغري بردي في " النجوم الزاهرة " وابن العماد في " شذرات الذهب ... (١)

نقد الروايات وتمحيصها :

بالنظر الى هذه الروايات وغيرها التي تثبت صلة الحسن برابعة نجدها واهية امام البحث والتمحيص . وفيمايلي نوضح الادلة على ذلك :

أ) رواية الروض الفائق في المواعظ والرقائق التي ذكرناها تفيد ان رابعة قد تزوجت ، والقول بانها تزوجت لم يثبت . لان رابعة لم تتزوج مطلقا .

والذى ذكر في بعض المصادر من انها تزوجت انما هو وهم وفي الحقيقة انها قد عرض الزواج عليها من اثنين :

احدهما : عبدالواحد بن زيد خطبها لنفسه فحجبته اياما فلما دخل عليها

---

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان حـ ١ ص ٢٥٦ وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبي - مخطوط بدمشق نقلا عن كتاب شهيدة العشق الالهي للدكتور عبدالرحمن بدوي ص ١٠ ، ١٠ وشذرات الذهب لابن العماد حـ ١ ص ١٩٣

بعد ذلك قالت له : ياشهواني : الب شهوانية مثلك — اي شيء رأيت فى من آلة الشهوة ,

والثاني : محمد بن سليمان الهاشمي امير البصرة وكان على ثراء كبير فرفضته رفضا شديدا وهذا يدل على عدم تفكيرها مطلقاً فى هذه الناحية (١)

وسئلت رابعة — كماروى العطار ايضا — هل تتزوجين ؟ فاجابت السائل بقولها : الزواج ضروري لمن له الخيار، أما انا فلا خيار لى ، انى لربى وفى ظل اوامره .

والذى ادى الى هذا الوهم هو : خلط بعض الكتاب بين رابعة العدوية البصرية ، ورابعة اسماعيل الشامية . فالاولى لم تتزوج مطلقا . أما الثانية فهي التى تزوجت احمد بن ابى الحوارى ، وقد عاشت فى الشام وتوفيت سنة تسع وعشرين ومائتين ودفنت برأس زنها ببيت المقدس . ورابعة الشامية كانت مثل رابعة البصرية فى حسن صلتها بالله تعالى يقول زوجها احمد بن ابى الحوارى عنها : كانت — رابعة — مختلفة الاحوال . يغلب عليها العشق والمحبة ، مرة انس ، ومرة خوف ، وكانت هى تقول لزوجها : لست احبك حب الازواج ، وانما احبك حب الاخوان الى آخر هذه الاقوال الدالة على قوة صلتها بالله تعالى (٢) .

امر اخر فى رواية الروض الفائق وهو ان الشيخ الحريفيش حينما ذكر هذه الرواية ذكرها بصيغة التمريض وهى : وقيل بينما معظم الاقوال التى يذكرها ليست بهذه الصيغة .

على هذا فزواج رابعة العدوية لم يثبت فى اى مصدر من المصادر المعتمدة . وقد عرفنا ان الرواية التى تثبت ذلك فيها مافيها من الاضطراب خاصة وان الحسن البصرى نفسه لايرى الزواج بالنسبة الى الزاهد بله الى العبد الصالح وقال فى هذا كلاما يثبت به رأيه : اذا اراد الله بعبد خيرا فى الدنيا لم يشغله باهل ولا ولد .(٣)

---

١) اتحاف السادة المتقين للمرتضى الزبيدى ج ٩ ص ٧٥ والكواكب الدرية فى طبقات السادة الصوفية للمناوى ج ١

٢) نفحات الانس من حضرة القدس لعبد الرحمن جامى — مخطوط بباريس ومرآة الزمان لابى المظفر يوسف المعروف بسبط ابن الجوزى — مخطوط بباريس ، وكتاب سير السالكات المومنات الخيرات لابى بكر الحصنى ومخطوط بباريس ايضا وهذه كلها نقلا عن كتاب شهيدة العشق الالهى للدكتور عبد الرحمن بدوى

٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ج ١ ص ٤٠

ومن اجل هذا نجد ان بعض الكتاب المعاصرين الذين ترجموا لرابعة العدوية كانوا يقولون عنها انها العذراء البتول ٠٠٠٠٠ (١)

بعد أن بينا خطأ القول بزواجها وان التي تزوجت هى رابعة الشامية وكل ماحدث بالنسبة لرابعة العدوية هو عرض الزواج عليها فقط •

بعد هذا نبين خطأ هذه الرواية من حيث اضطراب الروايات فنقول : ليس صاحب الروض الفائق هو فقط الذى ذكر هذه الرواية وانما نجد العطار في تذكرة الاولياء ذكر الرواية ايضا ولكن باضطراب ظاهر وهو ان العطار ذكر الرواية ولكن بدل ان يذكر الحسن البصرى ذكر سفيان الثورى هذا من ناحية ومن ناحية اخرى ان العطار ذكر ان المسائل التى طلبت رابعة الاجابة عليها ثلاثة وليس اربعة كما ذكر صاحب الروض الفائق (٢)

واضطراب الرواية بهذه الحالة دليل على عدم صحتها •

ب) ورواية نفور الغزلان من الحسن البصرى حينما ذهب يوما الى رابعة العدوية وكانت واقفة بجوارها ثم افهمته ان سبب النفور هو ما اكل من شحمها هذه الرواية لا يمكن الاعتقاد بصحتها لان اكل الحيوانات او النبات لا يؤثر فى الصلة بالله تبارك وتعالى ذلك ان تاريخ الرجال يؤيد هذا المعنى فمنهم من كان يتناول الاطعمة المختلفة من الحيوانات وغيرها ومع هذا فهو على صلة بالله عز وجل • ومنهم من كان يمتنع عن كثير من الاطعمة ومع هذا نجده لا يركع لله ركعة فالعبرة دائما بمصدر الرزق وهو ان يكون حلالا مع العبادة لله رب العالمين •

حـ) ورواية دعوة الحسن لرابعة لتجلس معه على سجادة فرشا على الماء ٠٠٠٠٠ فالصنعة فيها ظاهرة ولا يمكن لأى عاقل ان يصدق هذا الخبر فهو من نسج الخيال •

د) ورواية ذهاب الحسن اليها ومكثه يوما وليلة الخ ٠٠٠ لا أساس لها من الصحة لانها بعيدة عن جوهر الاسلام ولا يمكن للحسن ان يفعل ذلك لانه يعلم من تعاليم الاسلام الحنيف ان الرجل هو الرجل والمرأة هى المرأة وانه ماخلا

---

١) رابعة العدوية لطه عبد الباقى سرور ورابعة العدوية لمحمود الشرقاوى

٢) الروض الفائق فى المواعظ والرقائق للشيخ الحريفيش ص ١٣٧ ـ ١٣٨ ورابعة العدوية للاستاذ محمود الشرقاوى

بامرأة الا كان الشيطان ثالثهما • وقداد ى القول بهذه الروايات الباطلة الى ظهور فرق من الناس يدعون التصوف وهم خليط من الرجال والنساء يجيزون ان يعيش الانسان مع اخته فى الطريق وينام معها على سرير واحد دون ان يمسها •

الى آخر ماعرف عن هذه الاوهام والضلالات البعيدة عن الاسلام وهكذا نجد ان هذه الروايات التى تربط الحسن البصرى برابعة العدوية لا اساس لها من الصحة لانها لم تثبت تحت البحث العلمى كما ذكرنا •

على ان تاريخ الوفاة الذى تقدم ذكره فى بعض المصادر وهو ١٣٥ هـ لم يتفق عليه الرواة حتى الذين ذكروه منهم • فقد اضطربوا عند ذكر تاريخ وفاتها •

فنرى — مثلا — ان ابن خلكان فى وفيات الاعيان " وابن شاكر الكتبى فى " عيون التواريخ " يقولان بتاريخ الوفاة سنة ١٨٥ هـ وابن تغرى بردى فى " النجوم الزاهرة " ذكر تاريخا اخر نسبة الى الحافظ الذهبى هو ١٨٠ هـ •

وممن وافقوا الذهبى على هذا التاريخ عبد الرؤوف المناوى فى الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية الجزء الاول حيث قال : " ماتت رابعة سنة ثمانين ومائة ، وقيل : غير ذلك "

هذه الاضطراب فى تاريخ الوفاة فى مصادره المختلفة مما يضعف القول بوجود صلة بين رابعة العدوية وامامنا الحسن البصرى حيث كانت وفاة امامنا الحسن البصرى باتفاق الرواة سنة ١١٠ هـ وستبعد مثل هذه الصلة بينه وبينها نحو سبعين عاما •

نذكر هذا بينما الكثير ممن كتب عن رابعة لا يؤكد لها تاريخا للوفاة كابن الجوزى فى صفة الصفوة ، ولو ان ابن شاكر الكتبى فى عيون التواريخ ذكر ان القائل بالوفاة عام ١٨٠ هـ هو ابن الجوزى فى كتاب له عن رابعة •••

كذلك ممن كتبوا عن رابعة ولم يذكروا تاريخا للوفاة الشعرانى فى كتابه " الطبقات الكبرى " وابن الحسين السراج القارى فى " مصارع العشاق " الى آخر هؤلاء الذين لم يذكروا لها تاريخا للوفاة كذلك لم يذكروا صلة بينها وبين الحسن البصرى • وعلى هذا فتاريخ الوفاة وهو ١٣٥ هـ لم يثبت امام البحث العلمى لان كتب التاريخ والطبقات والتراجم اضطربت فى ذلك فتارة تذكر ١٣٥ هـ ، وتارة اخرى ١٨٠ هـ وتارة ثالثة ١٨٥ هـ

ومما يثبت هذا الاضطراب ماذكره الاستاذ ماسينيون — الذى يعد من كبار الباحثين الذين تعمقوا فى الدراسات الصوفية — وهو يبرهن على ان تاريخ وفاة رابعة العدوية ليس هو ١٣٥ هـ وانما هو ١٨٥ هـ قوله :—

أ) التقاؤها بسفيان الثورى بعد سنة ١٥٥ هـ

ب) حكاية خطبة الوالى العباسى للبصرة ، محمد ابن سليمان الهاشمى ، لها ، وهو قد كان واليا على البصرة سنة ١٤٥ هـ وتوفى سنة ١٧٠ هـ .

ويضيف الدكتور عبد الرحمن بدوى الى ماذكر صلتها الوثيقة بعبد الواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧ هـ (= ٧٩٣ م) (١)

بعد هذا التحقيق فى نقد الروايات والتاريخ نخرج برأى وهو : ان الحسن البصرى لم يكن بينه وبين رابعة العدوية اية صلة . .

التصوف والصوفية فى الميزان :—

فى نهاية هذا الفصل الذى عالج موضوعا يتصل بالزهد فى تراث الحسن البصرى — قولا وفعلا — كذلك تحدث عن التصوف ومايتصل به على سبيل الاجمال . يقتضينا هذا ان نضع التصوف والصوفية فى الميزان الصحيح قدر الاستطاعة دون النظر الى المتغالين من المؤيدين او المعارضين . وبالله التوفيق .

لاينكر مسلم يفهم دينه فى ان تهذيب النفس وتصفية الروح ومراقبة الله عز وجل وخشيته " هى مفتاح الخير فى كل انسان ، ولا شك فى ان الصحابه رضوان الله عليهم والتابعين لهم باحسان وسلف هذه الامة كانوا على قدر كبير من الفضائل الروحية والنفسية تمكنوا بها من نشر هداية الاسلام فى العالم .. ولما ضعفت تلك الروح الاسلامية بادر كثير من ائمة المسلمين فى العلم والعمل الى تذكير المسلمين باخلاق الاسلام وروحانيته فنشأ من حركتهم " التصوف " كما قال الدكتور مصطفى السباعى (٢) وفى ضوء التصوف الذى لم يخرج عن الكتاب والسنة . رأينا الدعاة من المسلمين ينتشرون فى انحاء العالم الاسلامى من النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى مما ادى الى انتشار الطرق الصوفية والفكر التصوفى . وقد صادفت هذه الافكار نجاحا كبيرا اذ انهافى قليل اوكثير

---

١) بحث فى اصول المصطلح الفنى للتصوف الاسلامى للاستاذ ماسينيون — طبع باريس ١٩٢٢ نقلا عن كتاب شهيدة العشق الالهى رابعة العدوية للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ١٠٣ — ١٠٤ الطبعة الثانية .

٢) حول التصوف والصوفية للدكتور مصطفى السباعى — مجلة حضارة الاسلام العدد التاسع رمضان سنة ١٣٨٠ هـ .

لم تكن ببعيدة عن معتقدات السكان القديمة الامر الذى اتاح سهولة تغلغل الدعـوة الاسلامية خاصة حينما نجح الدعاة بفضل استخدامهم لبعض العناصر الثقافية المحلية القديمة ـ بعد وضعها فى اطار اسلامى ـ ان يحفظوا ـ مثلا ـ الماضى المايزى ... والملاحظ ان الدعاة الصوفيين اخلوا مركزا هاما فى الحياة الاجتماعية ... وبسببهم وجدنا السلطان محمود شاه ـ آخر حاكم مسلم لملقا ـ يرفض التسليم للبرتغاليين الذين يريدون السيطرة على البلاد . وهذا راجع الى نشاط الدعاة واستجابة المدعوين لهم (١)

ولو كان التصوف قد سار فى طريقه على هذا الضوء من الكتاب والسنة لما حدث النزاع الطويل بينهم وبين غيرهم من الفقهاء والمحدثين ... ولكن للاسف دخلت بعض الفلسفات الخارجة عن الاطار الاسلامى وكما قال الاستاذ العقاد : .. ولم يسلم التصوف من تلك الاخلاط فاقترن فى اقوال الناس من المنتسبين الى الاسلام بما يجوز وما لا يجوز . وعلى الجملة يمكن ان يقال : ان الاسلام ينكر تلك المذاهب مذهبين منتشرين فى الصوفية على عمومها ... ينكر مذهب الحلول كما ينكر المذهب القائل بوحدة الوجود الى ان قال : وظل المتصوفة والمنتسبون الى الطرق الصوفية من المتأخرين يبرأون من القول بالحلول ووحدة الوجود واسقاط التكليف ويحتزلون من يقول بها على وجوهها المنقولة من الديانات الوثنية ، ولوحظ ذلك فى القانون الذى استشيد فيه شيوخهم وصدر فى الديار المصرية بلائحة الطرق (سنة ١٣٢٠ هـ سنة ١٩٠٣ م) وتقرر المادة الثانية من بابه الخامس " ان كل من يقول بالحلول او الاتحاد او سقوط التكليف يطرد من الطرق الصوفية كافة (٢)

هذه الامور التى ادخلت على التصوف جعلت الغيورين على الدين يحملون التصوف والمتصوفة النزاع الطويل الذى عاق انتشار الدعوة الاسلامية كما يجب ان يكون . مثل ما حدث للاستاذ ابو الحسن الندوى فقد اعتقد بان مصطلح التصوف كان سببا فى حجب الحقيقة الدينية الناصعة . ولذا نراه يدعو الى مصطلح القرآن الكريم مثل التزكية والاحسان .. ومن قوله فى ذلك " ثم جنى على هذه الحقيقة الدينية شىء آخر ـ بعد المصطلح المأخوذ من غير القرآن ـ وهو انه دخل فيها دجالون ومحترفون ، وباطنيون وملحدون ، اتخذوها وسيلة لتحريف الدين واضلال المسلمين وافساد المجتمع ونشر

---

١) انتشار الاسلام فى جزر الشرق الاقصى . الملايو . جزر الهند الشرقية ـ الفلبين . للدكتور جمال زكريا قاسم ـ مجلة العربى العدد ١٤٨ .

٢) التفكير فريضة اسلامية للاستاذ عباس محمود العقاد ص ١٦٩ وما بعدها .

الاباحية ،وتزعموا هذا الفن وحملو لواءه فكان ذلك ضغثا على ابالة ، وزهد فيه ونفر منه اهل الغيرة الدينية والمحافظين على الشريعة الاسلامية ... واخذ الندوى فى سرد جميع المساوئ التى يتعرض لها المجتمع الاسلامى من جراء هذا الفهم السيئ للاسلام وتطاول اصحاب الاغراض والاهواء على مختلف اشكالهم والوانهم وليس معنى هذا انه يبعث اليأس فى النفوس بل اخذ بعد هذا يبين ظهور جماعة من المصلحين فى كل زمان يحتاج الناس اليهم . مع بيان السالك لما عليه . حال المجتمع الاسلامى ويتركز فى قوله : ولا علاج لكل ذلك الا فى " التزكية النبوية " التى نطق بها القرآن وبعث لها الرسول وفى " الربانية " التى طولب بها العلماء : " ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وما كنتم تدرسون " .. ثم دعا ايضا الى ملء الفراغ الواقع فى حياتنا ومجتمعنا على حد قوله : " ولنسد هذا المكان الذى كان يشغله الدعاة الى الله والربانيون والمشتغلون بتربية النفوس وتزكيتها وتجديد ايمانها وصلتها بالله والدعوة الى اصلاح الباطن والعناية بالفرد قبل المجتمع .... (١) وما قاله ايضا الشيخ الغزالى .. : " .. غير اننا لاحظنا آسفين ان الفقهاء والمفتين قديما اشتبكوا فى منازعات حادة مع المتصوفة والعبارة وان كلا الفريقين تجهم للاخر — ولم يستفد مما عنده . وكانت نهاية القطيعة بين الفريقين ان وجدنا فقها لا روح فيه ، وان وجدنا تصوفا لا دراية له ، ومتعبدين تحفل سيرتهم بالخرافات والهدع ... (٢) ومما يؤيد كلام الندوى ، والغزالى ، ما ذكر فى التحقيق الصحفى بمجلة العصور العربية (٣) تحت عنوان " رأى الصوفيين فى انفسهم ورأى الدين فى الصوفيين " ومما جاء فى هذا التحقيق مانصه : " ... هل بقى من التصوف الان شئ .. غير المواكب وحلقات الذكر والثياب المزركشة والدايات والبيادر الملونة وعشرات الطرق والطوائف والهمهمات الغامضة والحركات الهستيرية والعزلة عن الحياة العامة والغذاء الوهمى للملايين من البسطاء من ابناء شعبنا الذين يتطلعون الى غذاء حقيقى ... الى آخر ماجاء فى هذا التحقيق وقد طالب فيه البعض بتوحيد جميع الطرق والبعض الاخر بالغاء كلمة " الصوفية " وتحويلها الى الدينية ... مما جعل الاستاذ عبد العزيز العلى يعلن فى قوله " لماذا نقبل ذلك وخاصة ان هناك اطباء ومحامين ومهندسين بدأوا ينخرطون تحت لواء هذه الطرق بعد ان تغيرت صورتها

---

١) ربانية لا رهبانية الاستاذ ابو الحسن الندوى — دار الفتح ببيروت وله ايضا بحث قيم تحت عنوان : فراغ يجب ان يملأ بمجلة حضارة الاسلام — العدد ٩ رمضان سنة ١٣٨٠ هـ

٢) التصوف الذى نريده للشيخ محمد الغزالى بمجلة الوعى الاسلامى السنة ٣ العدد ٢٨

٣) مجلة العصور العربية بتاريخ ٦ محرم سنة ١٣٨٥ هـ العدد ٢١١٧

التخاذلية ، وان هناك بعض الدجالين الذين يندسون بين صفوف مشايخ الطرق بملابسهم القذرة المهلهلة التي يظنون انها دليل على تصوفهم ، هؤلاء استطاعوا ان يسيئوا الى الصوفية لفترة طويلة وساعد على انتشار هذه الصورة المشوهة عن الصوفية في اذهان الناس ما سمعناه من قصص تاريخية عن بعض المارقين والمشعوذين الذين كانوا يتظاهرون بالدين في سبيل الحصول على المناصب والامتيازات .... (١)

بعد هذه النظرة السريعة عن التصوف والمتصوفة نستطيع ان نخرج - في حدود هذه النظرة - بما يلي :-

أولا : لا ننكر ابدا كثرة المنتسبين الى التصوف سواء كانوا صادقين ام كاذبين كما لا نغفل تأثيرهم على غيرهم في المجتمع الذي يعيشون فيه .

ثانيا : هذه الكثرة تقودها فئة من الناس تأتمر بامرها وتسير في ركابها حسبما تريد . والبعض منها - اي من القادة - قد لا يسجد لله سجدة واحدة . هذا عدا ارتكابه لكثير من المنكرات . حينئذ يحاول بكل الوسائل تثبيت سلطانه على النفوس - الضعيفة - ويبعدها عن كل مايؤدي الى ضياع سيطرته ...

ثالثا : ان اي اصلاح خارجي على الطرق الصوفية مثل : الغاء مصطلح " التصوف " او ما شاكل ذلك سيجد معارضة داخلية من المنتفعين وغيرهم حينئذ تروج الاشاعات بينهم على ان هذا الاصلاح هو الغاء للطرق الصوفية .

رابعا : اذا كان هناك من يعمل على اصلاح الطرق الصوفية حقا . فليس في الغائها وانما بادخال تعديلات بها تصل الى هدفنا المنشود مثل :=

أ) جعل مشايخ الطرق الصوفية في البلاد هم علماء الازهر الشريف - وليكن - مثلا - امام المسجد او الواعظ .. هو شيخ الطريقة .

ب) وضع منهج للتربية والتعاليم في ضوء الكتاب والسنة يسير على منواله المريدون .

ح) تكون مركز اللقاءات دائما بيوت الله تعالى (المساجد)

د) التعاون الكامل بين المجلس الاعلى للطرق الصوفية والهيئات المعنية بنشر الدعوة الاسلامية للاستفادة من كل الطاقات البشرية والمادية .

خامسا : بالطريقة السابقة سنحصل باذن الله تعالى على فئات متعددة من الناس على دراية بدينها وواجبها (ان اريد الا الاصلاح ما استطعت وماتوفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب)

---

١) التصوف : للاستاذ عبد العزيز العلي - بحث بمجلة الوعي الاسلامي السنة الاولى بالعدد السادس .

الفصل الثالث

دعوته الى الله تعالى

تمهيد :

هذا الفصل يعتبر من أهم موضوعات الرسالة . ذلك أن عصر الحسن كان بمثابة التمهيد — الذى لابد منه — لهذه الشخصية التى نحن بصددها . وهذا ما تكفل به الباب الأول منها . أما عن حياته وتكوين شخصيته فقد رسم الباب الثانى تلك الصورة التحليلية لهذا الداعية المخلص .

ثم يجيء بعد هذا الباب الثالث الذى يبين فكره وزهده ودعوته الى الله تعالى فنجد أن فكره كان عبارة عن الأفكار التى تفاعلت فى نفسه بسبب الأمور التى كونت شخصيته السوية ، وزهده كان كالتطبيق العملى فى نفسه قولا وفعلا .

أما دعوته الى الله تعالى — وهو الفصل الذى معنا — فبمثابة التطبيق العملى فى مجتمعه الذى عاش فيه .

ويكاد يكون هذا الفصل خلاصة لكل ما فى الرسالة لأن حياة الحسن البصرى — رحمه الله — كانت مركزة للدعوة الى الله عز وجل . وقد استغل — رحمه الله — معظم الوسائل فى عصره لأداء هذه المهمة التى حملها على عاتقه ..

فاذا اتجه — مثلا — الى تفسير القرآن الكريم ، وحديث النبى صلى الله عليه وسلم ، واستنباط الأحكام الفقهية منهما ، والكلام عن العقيدة وما يدور حولها .. الخ ..

لم يكن كل هذا الا لخدمة دعوته الى الله تعالى بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ..

وقبل الخوض فى هذا الموضوع يقتضينا المقام أن نذكر شيئا عن معنى الدعوة ، وأهميتها ، وأصولها ، وأهدافها . فنقول وبالله التوفيق .

معنى الدعوة فى اللغـــة :

الدعوة فى اللغة لها معان متعددة وكلها تدور حول الطلب والسؤال •

يقول صاحب المصباح : دعوت الله أدعو دعاء ، ابتهلت اليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير ، ودعوت زيدا ناديته وطلبت اقباله ،ودعا المؤذن الناس الـــى الصلاة فهو داعى الله • والجمع دعاة وداعون ، والنبى داعى الخلق الى التوحيد •

والدعوة الى الطعام تقول : دعوت الناس اذا طلبتهم ليأكلوا عندك اهـ[1] •

والذى يعنينا هو : الدعوة الى الله تعالى ومعناها طلب الناس أن يؤمنوا بالله عز وجل وبكل ما جاء به على لسان المصطفى صلى الله عليه وسلم • مع العمل بهذا الايمان •

قال عز من قائل : " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة •• "[2]
وقال : " قل هذه سبيلى ادعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى •• "[3] وقال :
" قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا ••[4] " •

وقال سبحانه مخاطبا نبيه عليه الصـلاة والسلام : يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا •• "[5] • • الى غـــير ذلك من الآيات •

معنى الدعوة الى الله فى الاصطـلاح :

اختلف العلماء فى تعريف الدعوة الى الله تعالى اصطلاحا فذكروا لذلـــك عدة تعريفات منها :

- هى قيام العلماء والمستنيرين فى الدين بتعليم الجمهور من العامة ما يبصرهم بأمور دينهم ودنياهم على قدر الطاقة •[6]
- حث الناس على الخير والهدى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل •[7]

---

(١) المصباح المنير مادة " دعا " •
(٢) سورة النحل آية رقم ٣٦ •
(٣) سورة يوسف آية رقم ١٠٨ •
(٤) سورة نوح آيـــة رقم ٥
(٥) سورة الأحزاب آية رقم ٤٥ •
(٦) الدعوة الى الاسلام للدكتور أبو بكر ذكرى ص ٨
(٧) هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ص ١٧ •

- نقل أمـــة من محيط الى محيـــط . (١)
- انقاذ الناس من ضلالة أو شر واقع ، وتحذيرهم من أمر يخشى عليهم الوقوع فى بأســه . (٢)
- برنامج كامل يضم فى أطوائه جميع المعارف التى يحتاج اليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم ، وليستكشفوا معالم الطريق التى تجمعهم راشدين . (٣)

هذه التعريفات للدعوة الى الله فى الاصطلاح كما ترى ليست من باب الحدود وانما هى رسوم لها . وهى كذلك تختلف شمولا وقصورا حسب نظر المعرف لها .

وأشمل هذه التعريفات — فى نظرى — هو ما ذكره الشيخ الخضر حسين فى قوله : هى انقاذ الناس من ضلالة أو شر واقع ، وتحذيرهم من أمر يخشى عليهم الوقوع فى بأسه .

ووجهتى فى ذلك أن الناس فى حياتهم لا يخلو حالهم من أحد أمرين :

أحدهما : أن يقعوا بالفعل فى ضلالة أو شر . حينئذ يحتاجون الى من يعظهم ويرشدهم الى الخلاص مما وقعوا فيه وهو الهدف الأول من أهداف الدعوة الـــى الله تعالى .

وثانيهما : أن بعض الناس قد يكون على وشك السقوط فى هاوية الحرام وحينئـــذ يحتاج الى من يعظه ويرشده حتى لا يقع فيما هو بصدد الوقوع فيه وهـــذا هـو الهدف الثانى من أهداف الدعوة الى الله تعالى . وعلى هذا فالدعوة الى اللـــه عز وجـل تعنى الخـلاص مما وقــع فيـــه الناس بالفعل وتحذيرهم مما يكونون علـى وشـك الوقـــوع فيه .

وتعريف الشيخ الخضر حسين هو الذى يؤدى هذا المعنى مع اختصـــــار فى اللفظ وايضاح للمعنى .

الى غير هذه التعريفات المتعددة التى يطول ذكرها وتدور حول الدعـــوة الى توحيده سبحانه والى ما جاء به القرآن الكريم من تشريعات تنظم صـلة النـاس

---

(١) تذكرة الدعاة للأستاذ البهى الخولى ص ٢٧ .
(٢) الدعوة الى الاصلاح للشيخ محمد الخضر حسين ص ١٧ .
(٣) مع الله دراسات فى الدعوة والدعاة للشيخ محمد الغزالى ص ١٤ .

بربهم وتنظم صلتهم ببعضهم .. الأمر الذى لا تحيا دنيا الناس الا به ولا يستقر لها وجوده الا اذا سارت على نهجه ومقتضاه (١) .

كما تدور حول الايمان بالله عز وجل وحده لا شريك له وامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

وعلى هذا فالرسل كلهم عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم دعاة الى الله سبحانه وتعالى قال جل ذكره : " ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت " (٢) .

أهمية الدعوة الى الله تعالى :

الحاجة الى الدعوة شديدة لأن العقول البشرية لا تستطيع وحدها أن تدرك مصالحها الحقيقية التى تكفل السعادة فى الدنيا والآخرة . كما أنها لا تهتدى وحدها الى تمييز الخير من الشر ، والمعروف من المنكر ، وليس من طبيعتها أن تقف على حقائق الأمور ، مهما وصلت الى الغاية القصوى من الادراك . فكثيرا ما يبدو لها الشر فى لباس الخير فتقع فيه ، وكثيرا ما ظهر لها الخير فى صورة الشر فأعرضت عنه (٣) . قال تعالى فى محكم تنزيله : " كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون " (٤)

ويؤيد هذا المعنى قول الشيخ الخضر حسين : " فى فطرة الانسان قوة يعقل بها طرق الصلاح والفساد ، ويفقه بها الحق والباطل . ولكن هذه القوة العاقلة لا تستقل وحدها بتمييز المعروف من المنكر ، وليس من شأنها أن تطلع على كل حقيقة ، ولا أن تدبر أعمال البشر على نظام لا عوج فيه ، فانها — وان بلغت فى الادراك أشدها — قد تنبو عن الحق ، ويعزب عنها وجه المصلحة ، ولا تهتدى الى عاقبة العمل ، وربما ألقت على الحسنة نظرة عجلى فتحسبها سيئة ، وقد يتراءى لها الشر فى شبه من الخير فتتلقاه بالقبول " (٥)

(١) موضوعات من الكتاب لفضيلة الشيخ سيد أحمد المسير ص ٣٨ .
(٢) سورة النحل آية رقم ٣٦ .
(٣) هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ص ١٨ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ٢١٦ .
(٥) الدعوة الى الاصلاح للشيخ محمد الخضر حسين ص ٥ .

من أجل هذا أرسل الله عز وجل الرسل الكرام الى البشر ليخرجوهم من الظلمات الى النور ، ومن الأوهام الى الحقائق . حتى لا يكون لأحد منهم حجة على الله تعالى . قال عز من قائل : " رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما "(١) . وكان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين . فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة . الى أن نزل قول الله تعالى : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا "(٢) .

وهكذا انتشر الاسلام فى الشرق والغرب وأصبحت له القوة والمناعة بفضل هؤلاء الرجال الذين حملوه الى الانسانية ولكن للأسف الشديد يوم تخلى المسلمون عن تعاليم دينهم أصبحوا فى ذلة ، ومهانة ، وخسران . قال تعالى : " فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا "(٣)

واذا بحثنا عن أسباب الهوة السحيقة التى وصل اليها أكثر المسلمين اليوم نجدها بسبب تطلعهم الى زخارف الحياة ، وتعلقهم بأسباب النعيم الزائل ، وتهافتهم على الحطام الفانى ، وهم ينسون الدين أو يتناسونه . حتى أدى هذا الى قسوة قلوبهم وفساد نفوسهم .

وكان لتلك الحضارة الخاسرة التى طغى علينا سيلها ، والمدنية الكاذبة التى وصلت الينا سمومها .. الأثر الكبير فى هذا التحول عن رسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام . مما نتج عنه أن صارت الجرائم الأخلاقية والدينية ترتكب فى ضحوة النهار وعلى رؤوس الأشهاد باسم الحضارة والمدنية من غير مبالاة ولا حذر وكأن صاحبها يأتى أمرا عاديا لا لوم فيه ولا تقريع .(٤)

والواقع الذى يعيش فيه المجتمع الاسلامى يؤيد هذا القول . فباسم الفن تقام دور اللهو والفجور ، وتكشف المرأة عن عورتها دون حياء أو خجل ، وتصرف الأموال الضخمة فى هذا السبيل بينما الكثير من البشر فى حاجة الى لقمة العيش .

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٩ .
(٢) سورة المائدة آية رقم ٣ .
(٣) سورة مريم آية رقم ٥٩ .
(٤) لسان الضمير للأستاذ محمود ابراهيم طيرة ج ١ ص ١٢ — ١٣ .

وباسم الثقافة تستورد المبادئ والمذاهب الهدامة ، واذا ما أراد غيور على دينه الرد على المفتريات لا يستجاب له .

وباسم الحرية ترتكب المنكرات ما ظهر منها وما بطن .

وباسم الاقتصاد تفتح أماكن الخمر والميسر على مصراعيها وتكون معيشة الانسان على أساس التعامل بالربا ..

ومما زاد فى الأمر أن الوعاظ والمرشدين — فى وقت من الأوقات — فترت هممهم بطبيعة الحال ، وصار الكثير منهم يقتنع فى وعظه بالقاء خطبة منقولة من أحد الدواوين القديمة التى لا أثر لها فى عصرنا الحاضر . ويصور الحالة التى وصل اليها أكثر المسلمين اليوم أحد دعاة الاسلام فى القرن العشرين وهو أبو الأعلى المودودى فيقول : " فالحق أننا بلغنا الآن مرحلة من مراحل تاريخنا قد أوضحت التجارب فيها أن هذا المزيج من الاسلام والجاهلية الذى أظل نظام حياتنا الى الآن ، لا يمكن أن تطول به الحياة ، واذا طالت فلا بد أن يفضى بنا الى الهلاك الكامل فى الدنيا والآخرة ..." (١)

من هذا كله نعلم قيمة الوعظ والارشاد وأهمية ذلك فى حياتنا والسكوت عن هذه الدعوة الى الله تعالى يؤدى الى أن تأخذ المنكرات طريقها الى النفوس فتتمكن منها وبالتالى يؤدى هذا الى الدمار . قال تعالى : " واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا " (٢) .
ولذا يقول سبحانه وتعالى : " فذكر انما أنت مذكر " (٣)
ويقول أيضا : " وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين " (٤) .

واذا كان الوعظ والارشاد للمسلمين الذين ابتعدوا عن الطريق السوى أمرا ضروريا لا مفر منه ، فان غير المسلمين فى أشد حاجة الى الدعوة الى الله تعالى . ذلك أن المدنية الحديثة على قدر ما وصلت اليه من التقدم والعلم ، وما حققته من المتع وأسباب الرفاهية للانسان ، فان المناهج البشرية قد عجزت عن تحقيق انسانية الانسان أى انتصار فضائله وأخلاقه على نزواته وشهواته . (٥)

---

(١) تجديد الدين واحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم للأستاذ أبى الأعلى المودودى ص ١٩٩ .
(٢) سورة الاسراء (٣) سورة الغاشية (٤) سورة الذاريات
(٥) الدعوة الاسلامية دعوة عالمية للأستاذ محمد الراوى ص ٣١ .

ولذا أصبح الكثير من الناس تحكمهم المادة لا أن يتحكموا فيها • فكانــــوا بهــذا كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون •

واذا نظرنا الى رواد العلم والثقافة فى العالم نجد بعضهم يفهم هــذه الحقيقة بل ويقررها ومن هؤلاء • العالم الانجليزى الأستاذ جود الذى يصور لنا كيف أن العلم على تقدمه الواضح لم يستطع أن يهيئ السعادة الحقيقية للانسان الى آخر ما ورد فى هذا المعنى •

يقول : " ان العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديدة بالآلهة ، ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش " •

ويقول فى موضع آخر : " ان هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشة ، وطفولتنا الاجتماعية المخجلة ، نواجهه على كل منعطف ومنعرج ، نستطيع أن نتحدث من وراء القارات والبحار ونرسل الصور بالبرق وننصب اللاسلكية فى منازلنا ، ونستمع فى سيلان الى دقات (بجــــبن) ـ الساعة العظمى ـ تضرب فى لندن ، ونركب فوق الأرض والبحر وتحتهما ، والاطفال يتحدثون على الاسلاك البرقية ، والآلات الكاتبة صامتة ، وتملأ الأسنان من غير ايجــاع ، والزروع تنمو بالكهرباء ، والشوارع تفرش بالمطاط وأشعة (رونتجــــن) نوافذ نطل منها على داخل أبداننا ، والصور المتحركة تتكلم وتغنى ، ويكشف عن المجرمين والمغتالين باللاسلكية ، والغواصات تذهب الـى القطب الشمالى والطيارات تطير الى القطب الجنوبى ، ومع ذلك كله لا نقدر فى وسط مدننا الكبرى أن نخصص رحبة يلعب فيها أطفال الفقراء فى راحة وسلام ، ونتيجة ذلك أننا نقتل منهم ألفين (٢٠٠٠) ونجرح منهم تسعين ألفا (٩٠٠٠٠) سنويا • قال لى فيلسوف هندى فى انتقاده اللاذع لاطرائى لعجائب حضارتنا : وكان بعض سواق السيارات قد نجح فى قطع ثلاثمائة أو أربعمائة ميل فى ساعة على رمال (بنــــدن) ، وطارت طائرة من موسكو الى نيويورك فى عشرين أو خمسين (لا أذكر) ساعة ، قال الفيلسوف : نعم •• انكم تقدرون أن تطيروا فى الهـواء كالطيور وتسبحوا فى الماء كالسمك ، ولكنكم الى الآن لا تعرفون كيف تمشون علـى الأرض " (١) • الى آخر أقواله التى أوردها فى هذا المقام •

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن الندوى ص ٢١٨ •

وهذا هو المستر ايدن ـ الذى كان رئيسا لوزراء بريطانيا ـ
خطيبه واصفا الحالة التى سيكون عليها أهل الأرض فى نهاية القرن الـ
يقول : " ان أهل الأرض كادوا يرجعون فى أخريات هذا القرن الى عهد الـ
والوحشية ، ويعيشون عيشة سكان الكهوف والمغارات ، ومن الغريب المضحك أن الـ
والدول تنفق ملايين من الجنيهات على وقاية نفسها من آلة فتاكة تخافها ، ولكنها
لا تنفق على ضبطها ، وانى أتعجب فى بعض الأحيان وأقول : كيف لو زار العالم
الجديد زائر من كوكب آخر وهبط الينا فما عسى أن يشاهده ؟ سيجدنا نعد العدة
لاهلاك بعضنا ، ونتبادل الأنباء عنها ويخبر بعضنا بعضا كيف نستعمل هذه الآلات
الهمجية "(١) .. .. الى آخر هذه الأقوال الكثيرة فى هذا المجال من رجالات
العلم والسياسة فى العالم الغربى الذى افتتن الناس بتقدمه وحضارته .

أما ما قاله دعاة الاسلام فى القرن العشرين فيتمثل فى قول الداعية الى الله
تعالى أبى الحسن الندوى : " .. ثم ان هذه الأمم أفلست افلاسا شائنا فى الدين
والأخلاق ، وقد أشربت فى قلوبها حب المال والمادة ، وتسلط عليها شيطان الأثرة
والجشع حتى ضجت منها الحكومات وتعبت ، فقد ارتفعت الأسعار ارتفاعا فاحشا ،
فلما التجأت الحكومة الى التسعير اختفت السلع والأموال ، وأصبح الناس لا يجدون
كسوة ولا طعاما ولا حاجة الا بالسعر الذى يريده التاجر ، فنفقت السوق السوداء
وشاعت الجنايات والخيانات والارتشاء والتهريب ، وأصبحت الحكومة والتجار كفرسى
رهان .. كل يريد أن يغلب صاحبه وينتهز غرته ، وأصبح الناس حبة بين حجرى
الرحى لا يدرون كيف يفعلون وقد حاول رجال الاصلاح والديانة أن ينفخوا فى هذه
الأمم حياة جديدة ويبثوا فيها روح الاخلاق والفضيلة والأمانة والاقتصاد فأخفقوا اخفاقا
تاما ..

وهكذا أصبح العالم شرقا وغربا فى أزمة روحية وخلقية واجتماعية واقتصادية
تطلب حلا سريعا عادلا .

والحل الوحيد هو تحول القيادة العالمية التى تقودها المادية والجاهلية ،
الى العالم الاسلامى الذى يقوده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم برسالته الخالدة
ودينه الحكيم " .(٢)

---

(١) المرجع السابق ص ٢١١ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٦٢ .

وهكذا تكون حاجة البشر الى الدعوة الاسلامية التى تدعوهم الى الله ورسوله والايمان باليوم الآخر ، لاخراج الناس من الظلمات الى النور ،ومن عبادة الناس الى عبادة الله وحده ، والخروج من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام . وليس هناك سوى الدعوة الى الاسلام من سبيل يقول مستر جيب : " ولكن الاسلام مازال فى قدرته أن يقدم للانسان خدمة سامية جليلة ، فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح نجاحا باهرا فى تأليف الأجناس البشرية المتنافرة فى جبهة واحدة أساسها المساواة ، فالجامعة الاسلامية العظمى فى افريقية والهند واندونيسيا ، بل تلك الجامعة الصغيرة فى الصين وتلك الجامعة الضئيلة فى اليابان ،تبين كلها أن الاسلام مازالت له القدرة التى تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات ،فاذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس فلابد من الالتجاء الى الاسلام لحسم النزاع " (١) .

ومع هذه الحاجة الماسة الى الدعوة الاسلامية ، فاننا نجد للأسف بعض الفلاسفة ينكرون فضلها وعدم جدواها .. ومن هؤلاء : " شوبنهور " الألمانى الذى يقول : " يولد الناس أخيارا أو أشرارا كما يولد الحمل وديعا ، والنمر مفترسا . وليس لعلم الأخلاق الا أن يصف سيرة الناس وعوائدهم " . و " ليفى برول " الفيلسوف الفرنسى الذى يقول : " ان ميولنا الحسنة أو القبيحة التى نجىء بها الى هذا العالم عند ولادتنا هى طبيعتنا . فكيف نكون مسئولين عن طبيعة هى ليست من عملنا ، أو على الأقل ليست من عملنا الشعورى الاختيارى (٢) .

وهذه الآراء كما ترى غير سديدة ليس لها من الواقع ما يؤيدها بل الواقع يثبت غير ذلك فكم من آلاف تركوا أديانهم ومبادئهم ودخلوا فى دين الاسلام .. فلم لم يكن هناك أثر للدعوة ما حدث هذا التغيير من هؤلاء أو غيرهم . والتاريخ خير شاهد على ما نقول . ويقول فى هذا أحد المتخصصين فى الدعوة مبينا أثر الوعظ وفائدة الارشاد . " ان الأمراض والعلل تعرض للأجسام فتذهب بجمالها . وكثيرا ما تؤدى بحياتها اذا لم تسعف بالعلاج الناجح قبل استفحالها ، وعدم المبالاة بأنواع الفسق والفجور وسيئات البدع .

---

(١) العدالة الاجتماعية فى الاسلام للأستاذ سيد قطب .

(٢) الدعوة الى الاسلام للدكتور أبو بكر ذكرى ص ١٣ ، وكتاب : مبادئ علم الأخلاق للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٦ — ٧ .

فمن هذه الأفعال تكون أمراض القلوب والعلل ، ولا دواء لها الا مراهم الشريعة الغراء المركبة تركيبا علميا كيماويا دقيقا من أجزاء الخطب والمواعظ والارشادات والنصائح من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح .. "(١) .

ثم ان هذه الآراء التي تنكر على الوعظ أثره وعلى الارشاد فائدته قد سبقهم جماعة من بني اسرائيل حكى عنهم القرآن الكريم حيث قالوا للآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر ما فائدة ما تزاولونه مع هؤلاء العصاة ، وهم لا يرجعون عما هم آخذون فيه ؟ وقد كتب الله عليهم الهلاك والعذاب ؟ قال تعالى : " واذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا " . فلم تعد هناك جدوى من الوعظ لهم ، ولم تعد هناك جدوى لتحذيرهم . بعد ما كتب الله عليهم الهلاك أو العذاب الشديد ، بما اقترفوه من انتهاك لحرمات الله . "

حينئذ تولى الله تعالى الرد عليهم على لسان جماعة منهم فقال : " معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون " .

فهو واجب لله نؤديه . واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتخويف من انتهاك الحرمات ، لنبلغ الى الله عذرنا ، ويعلم أن قد أدينا واجبنا . ثم لعل النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية فيثير فيها وجدان التقوى .(٢)

وأما قول الله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم .. " فليس فيه حجة لهم على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ذلك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه — كما رواه ابن كثير في تفسيره — قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس انكم تقرؤون هذه الآية " يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم " ، وانكم تضعونها على غير موضعها واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ان الناس اذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه " .

---

(١) هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ ص ١٧

(٢) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ص ٩٢ — ٩٣ .

وعن الحسن البصرى أن ابن مسعود رضى الله عنه سأله رجل عن قول الله تعالى " عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم " فقال : ان هذا ليس بزمانها انها اليوم مقبولة ولكنه قد يوشك أن يأتى زمانها تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا أو قال : فلا يقبل منكم فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل • وقد تلا الحسن البصرى هذه الآية " •• عليكم أنفسكم •• " فقال الحسن : الحمد لله بها والحمد لله عليها ما كان مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقى الا والى جنبه منافق يكره عمله •
وقال سعيد بن المسيب : اذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فلا يضرك من ضل اذا اهتديت •

وهذه بعض الأدلة التى تدل على أهمية الدعوة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم •

منها : قوله تعالى : " ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون "(١)

اختلف علماء التفسير فى معنى " من " فى هذه الآية الكريمة ، فذهب بعضهم الى أنها هنا للتبعيض وعليه فالذين يتولون مهمة الدعوة الى الله تعالى بعض الأمة ويكون الوجوب عليها كفائى ، وهذا البعض هو من يصلح للدعوة من حيث العلم بها وحسن عرضها ، أما غيرهم فلا حرج عليهم وان كانوا فى نفس الوقت يلتزمون بمساعدة هذه الفئة الداعية الى الله عز وجل •

وذهب البعض الآخر الى أن " من " للتبيين ،على معنى فلتكونوا أمة تدعون الى الخير ، وعليه فكل انسان مطالب بالدعوة الى الله تعالى بالقدر الذى يستطيع أن يدعو به والوسيلة التى تمكنه من ذلك • ليكون طابع الأمة الدعوة الى الخير •

فالعامة من الناس يدعون الى الأمور الواضحة التى لا تعقيد فيها ولا جدال أو مناقشة ، والخاصة منهم يتصدرون لهذه الأمور التى تحتاج الى فكر وروية •

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٠٤ •

وعلى العامة والخاصة جميعا أن يحسنوا عرض الفكرة حتى تؤتى ثمارها [١] .

ومنها : قوله تعالى : " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن " [٢] .

ومنها : قوله تعالى : " ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين " [٣] .

ومنها : قوله تعالى : والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر " [٤] .

ومنها قوله تعالى : " لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم " [٥] .

ومنها قوله تعالى : " وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون [٦] " الى آخر الآيات الدالة على ذلك .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : " الدين النصيحة ، قاله ثلاثا ، قلنا لمن يا رسول الله قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " [٧] .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : " ما من نبى أمة بعثه الله فى أمة قبلى الا كان له من أمته حواريون ، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم انها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده ، فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل " [٨] .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان " [٩] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩٠ ، وتفسير الرازى ج ٧ ص ١٧٧ — ١٧٨ ، وتفسير القرطبى ج ٤ ص ١٦٥ ، وكتاب : موضوعات من الكتاب لفضيلة الدكتور سيد أحمد المسير ص ١٣ ، وكتاب : الدين العالمى ومنهج الدعوة اليه للشيخ عطيه صقر .

(٢) سورة النحل آية ١٢٥ (٣) سورة فصلت آية ٣٣ (٤) سورة التوبة آية ٧١

(٥) سورة الحج آية ٦٧ (٦) سورة الأنعام آية ١٥٣ (٧) رواه البخارى ومسلم عن تميم الدارى (٨) رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود .

(٩) رواه الامام مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : " بلغوا عني ولو آيـــة ، ومن كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار "(١) .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : " لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم "(٢) .

---

(١) رواه البخاري في صحيحـــه .

(٢) البزار (طس) عن أبي هريرة (ح) (الجامع الصغير للسيوطي) .

أصـــــول الدعــوة

أصول الدعوة الى الله تعالى فى الاسلام التى لا تتحقق بدونهـــا أمـــور أربعــــــة .

الأمر الأول : موضوع الدعوة :

وهو الدين الاسلامى الذى جاء به نبينا عليه الصلاة والسلام من عند الله تعالى ليخرج به الناس من الظلمات الى النور : " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهـدى به الله من اتبع رضوان سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهـم الى صراط مستقيم "(١) .

ولنعمل بمقتضاه ، فى جميع نظام حياتنا . هذا الدين الصالح لكل زمـــان ومكان ، ولكل عصر وجيل . ويشتمل على ما يحتاج اليه الانسان فى حياته من عقائــد ، وعبادات ، ومعاملات ، وأخلاق كريمة وغير ذلك . والى القارئ الكريم فكرة عن هـذه الأمـــــور .

أ - العقائد :

العقائـد جمع عقيدة والمراد بها الأمور التى يجب على الناس أن يؤمنـــوا بها ويذعنوا لها . وهى كما يلى :

منها : الايمان بأن الله تعالى موجود بلا موجد ، وهذا الاعتقاد بوجــوده تعالى من الأمور التى يدركها الانسان بفطرته السليمة ، كما حدث لهذا الأعرابـى الذى نظر فى ملكوت الله يوما فقال : البعرة تدل على البعير ، وأثر الأقدام يـدل على المسير ، سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير . قال تعالى : " وفى أنفسكم أفلا تبصـــرون "(٢) .

---

(١) سورة المائدة آية رقم ١٥ ، ١٦ .

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٢١ .

والايمان بأنه تعالى أوجد هذه العوالم المختلفة الظاهرة لنا ، والمغيبة عنا . وذلك كعالم الحيوان ، وعالم النبات وعالم الأفلاك .. قال تعالى : "الحمد لله رب العالمين " .

والايمان بأنه عز وجل يتصرف فى ملكه كيف شاء . قال تعالى : " انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون "(١) .

والايمان بأنه وحده هو الذى يتصرف فى ملكه دون أن يشاركه فيه أحد وهو ما يسمى بتوحيد الألوهية ... قال تعالى : "لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا "(٢) .

ومنها : الايمان باليوم الآخر وما يتعلق به من الساعة والبعث والحشر ، والحساب ، وسؤال القبر ، ونعيمه وعذابه .

ومنها الايمان بالغيب وما يتعلق به من الملائكة ، والجن و الجنة ، والنار ، وما جاء به القرآن الكريم كخلق السموات ، والأرض ، والانسان ، والصراط ، والميزان ..

ومنها الايمان بالرسل ما عرفناه منهم وما لم نعرف . وأنه يجب فى حقهم الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ، ويستحيل عليهم ضد ذلك .

ومنها : الايمان بالكتب وذلك كالزبور الذى أنزله الله على داود عليه السلام ، والتوراة التى أنزلت على سيدنا موسى عليه السلام ، والانجيل الذى أنزل على عيسى عليه السلام ، والقرآن الذى أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم .

قال عز من قائل : " آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير "(٣) . وقال تعالى : " فاعلم أنه لا اله الا الله "(٤) .

---

(١) سورة يس آية رقم ٨٢ (٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٢
(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ (٤) سورة محمد آية رقم ١٩

وقال تعالى : " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل المشهور : " قال : فأخبرنى عن الايمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره " (٢) .

ب — العبادات :

العبادات جمع عبادة . والعبادة هى السر الذى من أجله خلق الله تعالى الانس والجن . قال تعالى : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " (٣) .

هذه العبادة لا يعود نفعها على الله عز وجل لأنه تبارك وتعالى لا تنفعه طاعة كما لا تضره معصية . وانما هى لمصلحة المكلف الذى تحدث منه العبادة .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود : " وما كانت عبادة الانس والجن من أجل نفع يصل الى الله ، سبحانه وتعالى ، من وراء ذلك فهو سبحانه ، غنى عن العالمين ، لا ينفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وانما خلقهم من أجل عبادته ليكملهم بهذه العبادة ، وليصل بهم ، عن طريقها ، ليكونوا أهلا للقائه سبحانه ، وليتجلى عليهم اذا تزكوا — بأنواره ، وفيوضاته . وقد نوع لهم سبحانه العبادة فلم يجعلها على وتيرة واحدة . حتى لا يملوا ، وحتى يكون فى تنوعها تزكية لجوانب متعددة وزوايا مختلفة من الطبيعة البشرية وحتى تتناسب — على تفاوت فيما بينهما مع كل الفطر والاستعدادات " (٤) .

ومن هذه العبادات : " الصلاة " قال تعالى : ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا " (٥) ، وقال سبحانه : " ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر " (٦) .

ومنها : الزكاة . وهى العلاج الناجح لتقويم المجتمع الاسلامى وتنقيته من الحقد والحسد والضغينة .

---

(١) سورة الروم آية رقم ٣٠ (٢) رواه مسلم فى صحيحه عن عمر بن الخطاب
(٣) سورة الذاريات آية رقم ٥٦ (٤) أسرار العبادات فى الاسلام للدكتور عبد الحليم محمود ص ٣٢ (٥) سورة النساء آية رقم ١٠٣
(٦) سورة العنكبوت آية رقم ٤٥ .

قال تعالى : " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها "[1] .

ومنها : الصيام . قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون .. "[2] .

ومنها : حج بيت الله الحرام . قال تعالى : ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا "[3] ..

وفى هذه العبادات يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا "[4] .

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٣ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ١٨٣ ..
(٣) سورة آل عمران رقم ٩٧
(٤) رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر .

ج ــ المعامـــلات :

من العوامل التى أدت الى انتشار الاسلام وبقائه الى يومنا هذا والى أن يرث الله الأرض ومن عليها • ما سمى بالمعاملات التى قال عنها النبى صلى الله عليـــه وسلم " الدين المعاملة " (١) •

ذلك أنها وجه الدين الذى يتجلى أمام الناس ويحتكون به فى حاملية • من أجل هذا عملت الشريعة الاسلامية على اشباع الناس من هذه الناحية • فوضعـت الشريعة القواعد المعتدلة للمعاملات فى مجال الأسرة ، والحياة الزوجية ، والناحيـة المالية ، والسياسية ، والاقتصادية ، ووضحت للبشرية النظم الصالحة للبيوع والايجارة والرهن ، والشركة ، والتداين ، والمزارعة ، والتجارة ، واستخراج كنوز الأرض وركازها ، واحياء الموات ، والصدقات ، وغير ذلك من أنواع الصفقات ، والاتفاقات ، والعقـود .. الخ (٢) • وفى كل جزئية من هذه الجزئيات نرى النصوص الكثيرة بما لا يحتمله المقام وعلى سبيل المثال فى موضوع التداين نجد أن القرآن الكريم ذكر فى هـــذا الموضوع أكبر آية تدل عليه ، قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتـم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله ، واللـه بكل شىء عليم " (٣) •

فالاسلام على هذا دين يواجه أحوال الناس بالأقضية التى تقيم العـدل وتثبت المصلحة ، فهو ليس دراسة فنية للقانون ، ومبادئه ، وأغراضه • ولكنه تطبيـق

---

(١)

(٢) محاضرة عن " انتشار الدعوة الاسلامية والأسباب التى ساعدت على ذلك للأستاذ عبد المنعم خلاف ــ طبع مجمع البحوث الاسلامية •

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٢ •

على بيت فى شئون الناس بالأحكام التى يتأملها أولو الأبصار ، فيجدون فيها أرقى المبادئ وأفضل الشرائع ..[1] .

د ـ الأخلاق :

من العناصر الهامة التى اشتملت عليها " رسالة الاسلام " : " الأخلاق"
والأخلاق أمر لابد منه فى حياة الأمم . تصلح بصلاحه ، وتفسد بفساده . يقول شوقى : انما الأمم الأخلاق ما بقيت .:. فان هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا
ولما جاء الاسلام وجد الناس على أخلاق متعددة منها الحسن ، ومنها القبيح .
حينئذ أبقى على الحسن وزاد عليه وطرح القبيح حتى لا يكون سببا فى هلاك الأمة .
وأخلاق الاسلام التى جاء بها الاسلام كثيرة ومتنوعة نذكر بعضا منها :

١ ـ العدل : قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى "[2].
وقال صلى الله عليه وسلم : " اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة"[3] .

٢ ـ الأمانة : قال تعالى : " ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها[4] .
وقال صلى الله عليه وسلم : " لا ايمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له"[5]

٣ ـ الوفاء : قال تعالى : " وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا "[6] .
وفى حديث للمصطفى صلى الله عليه وسلم : " .. واذا عاهد غدر " .[7]

٤ ـ الصدق : قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين "[8]

٥ ـ الشجاعة : قال تعالى : " فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا للآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما "[9] .

(١) هذا ... دينننا للشيخ محمد الغزالى ص٢١٩ (٢) سورة المائدة آية ٨
(٣) حم ، طب ، هب ، عن ابن عمر (٤) سورة النساء آية ٥٨
(٥) رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الأوسط عن أنس (٦) سورة الاسراء آية ٣٤
(٧) رواه البخارى عن عبد الله بن عمرو (٨) سورة التوبة آية ١١٩
(٩) سورة النساء آية ٧٤ .

٦ ــ الكرم : قال تعالى : " وما تنفقوا من خير فان الله به عليم " (١) .

٧ ــ التعاون : قال تعالى : " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان " (٢) .

٨ ــ الايثار : قال تعالى : " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة " (٣) .

الى آخر هذه الأخلاق الاسلامية التى يطول ذكرها كالشكر ، والصبر ، واحتمال الأذى ، والعفو ، وقوة النفس والارادة ، والاخلاص .. الخ .

ومن الممكن أن نجمع كل هذه الأخلاق وغيرها فى بعض آيات من القرآن الكريم مثل : قوله تعالى : " وانك لعلى خلق عظيم " (٤) ، وقوله تعالى : " ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون " (٥) ، وقوله تعالى : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " (٦) .

هذه بعض العناصر التى اشتمل عليها موضوع الدعوة وهو الدين الاسلامى الذى جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله تبارك وتعالى لسعادة البشر فى الدنيا والآخرة . وقد تحدثنا فى هذه العناصر عن العقيدة ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ..

وليس معنى هذا أن هذه العناصر فقط هى التى اشتمل عليها هذا الدين الحنيف ولكن هناك الكثير من العناصر التى احتواها والصالحة لكل زمان ومكان كالثواب والعقاب ... الخ .

وما أردنا بهذا الا اعطاء فكرة موجزة عن موضوع الدعوة الذى يعتبر أصلا من أصولها .

وبعد الحديث عن هذا الأصل للدعوة الى الله تعالى يلى ذلك الحديث عن الأصل الثانى وهو : الداعى الى الله تعالى .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٣ (٢) سورة المائدة آية ٢
(٣) سورة الحشر آية رقم ٩ (٤) سورة القلم آية ٤
(٥) سورة النحل آية ٩٠ (٦) سورة الأعراف آية ١٩٩ .

الأصـــل الثانى : الداعية الى الله تعالى :

الداعية الى الله عز وجل ليس مجرد خطيب يخطب الناس فيلهب مشاعرهم وانما المراد به من يؤمن بفكرة ، يدعو اليها بالكتابة ، والخطابة ، والحديث الهادى والمحاضرة ، والعمل الجدى فى سيرته العامة والخاصة ، وبكل ما يستطيع من وسائل الدعاية . فهو كاتب ، وخطيب ، ومحدث ، وقدوة يؤثر فى الناس بعمله وشخصه .. والداعية أيضا طبيب اجتماعى يعالج أمراض النفوس ، ويصلح أوضاع المجتمع الفاسدة ، فهو ناقد بصير .. وهو كذلك يشعر بأن دعوته حية فى أعصابه ، متوهجة فى ضميره ، تصيح فى دمائه ، فتعجله عن الراحة والدعة الى الحركة والعمل ، وتشغله بها عن نفسه وولده وماله ...

وهذا هو الداعية الى الله تعالى ، الذى يحس ايمانه بدعوته فى النظر ، والحركة ، والاشارة ، وفى السمة التى تظهر على وجهه ، وهو الداعية الذى ينفذ كلامه الى قلوب الجماهير ، فيحرك عواطفهم الى ما يريد من أمر دعوته .

وليس معنى هذا " المهيج " الذى يصطنع الحماسة ليلعب بمشاعر الجماهير لأتفه الغايات .. (١) .

وعلى هذا فالداعية الى الله تعالى أو المرشد هو الذى اتصف بكثير من صفات الفضل والكمال التى منها :

.. أن يكون عالما بما يقول فاهما له على الوجه الصحيح . لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح . قال تعالى : " ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم " (٢) .

وقال الحسن البصرى : " العامل على غير علم كالسائر على غير طريق ، والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح " .

---

(١) تذكرة الدعاة للأستاذ البهى الخولى ص ٥ ، ٢٦ .
(٢) سورة النحل آية رقم ١١٥ — ١١٧ .

ومنها أن يكون عاملا بعلمه . وهذه ناحية هامة لا يغفل عنها الداعية الى الله تعالى . فكم من علماء جهابذة فى العالم لا ينتفع - غالبا - بكلامهم لأنهم فى ناحية ، وعلمهم فى ناحية أخرى . مما يكون عقبة فى سبيل الاصلاح . وهيهات أن ينتفع بعلمهم فانهم قد فقدوا الرشد فى أنفسهم فكيف يرشدون غيرهم . قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون " (١) ، وعن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من النار فقلت من هؤلاء يا جبريل فقال : الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون " (٢) . وقال الحسن البصرى : " الواعظ من وعظ الناس بعمله لا بقوله " .

ورحم من قال :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ∴ عار عليك اذا فعلت عظيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ∴ فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويشتفى ∴ بالقول منك وينفع التعليم

ومنها أن يكون خبيرا بما يدعو اليه لأن الدعوة الى الله تعالى تعليم وتربية .. لابد فيها من الدراية بأصول القواعد التربوية ، والأحوال النفسية ، والجاهل بهذه الطرق يخفق كثيرا فى مهمته ، فقد يضر من حيث يظن أو يعتقد أنه ينفع .. (٣)

معنى هذا أن الداعية يسير فى دعوته مسترشدا بهذه الآية الكريمة : " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن .

ومنها أن يكون الداعية عفيفا يائسا مما عند الناس . بهذا يكون سيدا فى قومه محبوبا لديهم . أما اذا تطلع الى دنياهم أدى هذا الى تحقيره وسقوطه فى نظرهم فعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن رجلا قال يا رسول الله أوصنى وأوجز فقال : " عليك باليأس مما فى أيدى الناس فانه الغنى ، واياك والطمع فانه الفقر الحاضر وصل صلاتك وأنت مودع واياك وما يعتذر منه " (٤) .

وقال الحسن البصرى : " لا يزال الرجل كريما على الناس حتى يطمع فى دنياهم

---

(١) سورة الصف آية رقم ٢-٣ (٢) رواه ابن حبان فى صحيحه .
(٣) الدين العالمى ومنهج الدعوة اليه للشيخ عطيه صقر ص ١٦٨ - ١٦٩ .
(٤) رواه الحاكم وصححه .

فاذا فعل ذلك استخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه .

وقال أعرابى لأهل البصرة : من سيدكم ؟ قالوا الحسن . قال : بم سادكم؟ قالوا احتاج الناس الى علمه واستغنى عن دينارهم . فقال : ما أحسن هذا .

ومنها أن يكون قويا فى بيانه ، فصيحا فى لسانه . ولذلك قال تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام : " وأحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى " (١) .
وقال تعالى : " وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى " (٢) .

ومنها أن يكون حليما واسع الصدر . قال تعالى لامام الداعين الى الله : " ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك " (٣) .

ومنها أن يكون الداعية شجاعا . يقول الحق ولو على نفسه فما بالك اذا كان على غيره مهما كانت قيمة هذا الغير . قال صلى الله عليه وسلم : " اذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم " (٤) .

وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : " أوصانى خليلى بخصال من الخير أوصانى أن لا أخاف فى الحق لومة لائم وأوصانى أن أقول الحق وان كان مرا " (٥) .

ومنها أن يكون واثقا بالله تعالى فيما وعد به عباده المخلصين الصادقين " يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم " (٦) .

ومنها أن يكون متواضعا ، بعيدا عن العجب . قال صلى الله عليه وسلم : " ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو الا عزا وما تواضع أحد لله الا رفعه الله " (٧) .

ومنها أن يكون وقورا ، كبير الهمة ، صابرا ، ورعا بعيدا عن الشبهات ، مخلصا فى دعوته لله تعالى ، عالما بأحوال من يدعوهم اليه عز وجل الى آخر هذه الصفات المتعددة التى ترجع كلها الى ما ذكرنا . (٨) .

---

(١) سورة طه آية رقم ٢٧ ، ٢٨ (٢) سورة القصص آية رقم ٣٤
(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٥٩ (٤) رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد عن عبدالله ابن عمر رضى الله عنهما .
(٥) رواه ابن حبان فى صحيحه .
(٦) سورة محمد (٧) رواه مسلم عن أبى هريرة
(٨) هداية المرشدين للشيخ على محفوظ .

الأصل الثالث : اختلاف أساليب الدعاة الى الله حسب اختلاف المدعوين :

ان الداعية ينبغى أن يكون أسلوبه فى دعوته الى الله عز وجل يختلف باختلاف هؤلاء الذين يدعوهم الى الله تعالى .

فان كانوا حكاما أو أمراء يدعوهم بالقول اللين الذى لا خشونة فيه . قال تعالى لموسى وهارون : " اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى " (١) ، ولقد أصاب ابن السماك لما قال له هارون الرشيد : عظنى وبيده شربة من ماء . فقال : يا أمير المؤمنين أرأيت لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفتديها بملكك قال : نعم ، قال : يا أمير المؤمنين فلو حبس عنك خروجها أكنت تفتديها بملكك قال : نعم قال : فلا خير فى ملك لا يساوى شربة ولا بولة (٢) .

ومن موعظة الحسن البصرى للنضر بن عمرو — وكان واليا على البصرة — قوله : " فاتق الله يا أيها الرجل فى نفسك . وأيم الله لقد رأيت أقواما كانوا قبلك فى مكانك يعلون المنابر ، وتهتز لهم المراكب ، ويجرون الذيول بطرا ورئاء الناس ، ينسون الصدر ويؤثرون الأثر ، ويتنافسون فى الثياب ، اخرجوا من سلطانهم ، وسلبوا ما جمعوا من دنياهم ، وقدموا على ربهم ونزلوا على أعمالهم ، فالويل لهم يوم التغابن ، ويا ويحهم يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . (٣)

وان كان المدعوون من العلماء النابهين الذين يطلبون معرفة الأشياء على حقائقها فيكون ذلك بالدلائل القطعية اليقينية وبالبرهان الساطع حتى يعلموا الأشياء بحقائقها وينفعوا الناس .

وان كانوا من أوساط الناس تكون دعوتهم بالأسلوب الواضح والعبارة المفهومة المتداولة بينهم ، والموعظة الحسنة وان كانوا من أهل الكتاب ، فان دعوتهم تكون بالتى هى أحسن (٤) . وذلك ببيان محاسن الاسلام وبيان شدة حاجة الناس اليه فى كل زمان ومكان .

---

(١) سورة طه (٢) سراج الملوك للطرطوشى المالكى ص ١٠ .

(٣) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥١ .

(٤) التفسير الكبير للفخر الرازى ج ٢٠ ص ٣٨ — ١٣٩ — ط أولى عبد الرحمن [illegible]

قال تعالى : " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين " (١) .

أما اذا كان الداعية الى الله تعالى لم يوفق فى هذا المجال وهو : دعوة الناس بالأسلوب الذى يتلاءم مع فئاتهم . فان دعوته لا تؤتى ثمارها المرجوة مهما بذل من جهد وقدم من تضحيات .

ذلك أن الداعية أو الواعظ الذى يرى الألوف من العوام المتواكلين ، الذين سيطر عليهم الكسل والاسترخاء .. ثم يقول لهم : " أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة " (٢) . فهذا استشهاد لا مكان له هنا . وانما مقامه بين قوم أقبلوا على الدنيا بكل جوارحهم . وتمتعوا بمختلف الملذات حتى سكروا .. حينئذ يقال لهم هذا القول الكريم لينقذهم من الضلال الى الهدى .

كذلك الداعية أو الواعظ الذى يحفظ بعض الخطب ثم يلقيها على مستمعيه دون اكتراث بشئونهم لا يجد نجاحا فى دعوته . لأنه قد يدعو البائس الفقير الذى لا يملك قوت يومه الى أداء الزكاة ، وقد يخطب فى المدن عن جرائم القتل والأخذ بالثأر ، وقد يخطب فى القرى عن سوء تقليد الأجانب فى لبس الثياب والتوجه الى المصايف وهكذا . وقد أدى اخفاق بعض الدعاة أو الوعاظ فى دعوتهم الى وقوع الضرر بهم دون أن يشعروا بذلك . مثل ما روى فى البخارى عن قصة الرجل الذى قتل تسعا وتسعين نفسا وسأل عن أعلم أهل الأرض ليأخذ بيده الى الهداية واذا بهذا العالم يذكر له أنه ليس له من توبة فقتله وأكمل به المائة .

فالداعية الى الله تعالى هو هذا الرجل الحصيف الذى يشخص العلة التى أمامه ويهيئ لها أسباب الشفاء المناسب من كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وآثار السلف الصالح عليهم رضوان الله تعالى . وبذلك يجئ نصحه طبا للمريض ، ورحمة تذهب عناءه ، ونورا يهديه السبيل .. (٣) .

---

(١) سورة النحل آية رقم ١٢٥

(٢) سورة التوبة آية رقم ٣٨ .

(٣) مع الله ، دراسات فى الدعوة والدعاة للشيخ محمد الغزالى ص ١٨٥ .

الأصـــــل الرابع : وسائل الدعوة الى الله تعالى :

ان الدعوة الى عز وجل فى حاجة ماسة الى الوسائل المتعددة التى تناسب المدعوين فى كل زمان ومكان ، والتى تتجدد حسب تجدد الحوادث وظهـــور الاتجاهات والمذاهب المختلفة وابتداعها .

هذه الوسائل كثيرة ومتنوعة نذكر بعضها فيما يلى :

منها القدوة العملية :

وهذه وسيلة من أنجح الوسائـــل فى الدعوة الى الله تعالى . يقول الشيخ محمد الغزالى : " ان صلاح المؤمن هو أبلغ خطبة تدعو الناس الى الايمان . وخلقه الفاضل هو السحر الذى يجذب اليه الأفئدة ويجمع عليه القلوب " (١) .

وبالعكس فان انحراف المؤمن وسوء خلقه من أهم الوسائل التى تصد النـــاس عن الاسلام وتبعدهم عن طريـــقه القويم . ومن أجل هذا يقول تبارك وتعالى :
" ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم " (٢) .

وروى أن سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموى قدم المدينة للزيـــــارة . وبعث الى أبى حازم . فلما دخل عليه قال : تكلم يا أبا حازم قال : نعم أتكلم يا أمير المؤمنين . لا تأخذ الأشياء الا من محلها ولا تضعها الا فى أهلهــــا قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعيـــة ما قلـــدك قال : عظنى يا أبا حازم قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصـــل اليك الا بمـــوت من كان قبلك وهو خارج من يديك بمثل ما صار اليك قال : ما لك لا تجىء الينا ؟ قال : وما أصنع بالمجىء اليك يا أمير المؤمنين .. ان أدنيتنى فتنتنى وان أقصيتنى أخزيتنى وليس عندك يا أمير المؤمنين ما أرجوك له ولا عندى ما أخافـــك عليه ، قال : فارفع الينا حاجتك قال : قد رفعتها الى من هو أقدر منك عليهـــا ، فما أعطانى منها قبلت وما منعنى رضيت " (٣) .

---

(١) مع الله دراسات فى الدعوة والدعاة للشيخ محمد الغزالى ص ٢٨٢ .
(٢) سورة الممتحنة آية رقم ٥ .
(٣) دعوة الحق للشيخ يوسف عبد الرازق ص ١٠٦ .

ولقد ثبت أن مخالطة الداعية الى الله تعالى الذى يحقق المعانى الاسلامية فى تفكيره وخلقه ، ويحسن تمثيلها فى معاملته وسماحته وعدالته مع الناس ، هى أعظم أسباب انتشار الاسلام .. وهذه المعاشرة والمخالطة قد تمت ويسرت برحلات التجار والملاحين المسلمين الى افريقيا وبلاد الشرق الأقصى ، وقد قام بها عرب جنوب الجزيرة والخليج العربى بدون سلاح الا سلاح ايمانهم وأخلاقهم فى معاملة الناس ومعاشرتهم[(1)] .

هذه القدوة الحسنة كانت سببا فى اقامة الحجة على الأعداء قديما وحديثا كما كانت سببا فى تحقيق قول الله تعالى : " هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله "[(2)] ، وقوله تعالى : " كتب الله لأغلبن أنا ورسلى "[(3)] .

على هذا فالقدوة الصالحة سبب قوى فى انتشار الاسلام وعلو شأن أصحابه .

ومنها :

ترجمة تفسير القرآن الكريم ترجمة صحيحة على أن يكون هذا التفسير مبسطا لا يدعو الى اتجاهات معينة .

ومنها :

دعم الصحافة الاسلامية وتزويدها بالترجمات الهامة لمبادئ الدين الحنيف ، والرد على الشبه الموجهة له ، وتفسير حقائقه تفسيرا علميا عصريا ، وتعنى بأخبار العالم الاسلامى .. وتطبع بعدة لغات وترسل مجانا لكثير من الجهات ..

ومنها :

انعقاد مؤتمرات عامة لكبار المشتغلين فى حقل الدعوة الاسلامية . ورسم سياسة عليا لسير الدعوة فى الداخل والخارج ..

---

(١) انتشار الدعوة الاسلامية والأسباب التى ساعدت على ذلك . محاضرة للأستاذ عبد المنعم خلاف — مسابقة الأزهر ص ٢٠ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٣٣ .

(٣) سورة المجادلة آية رقم ٢١ .

ومنها :

انشاء مراكز اسلامية للدعوة فى أنحاء العالم ، تراقب عن كثب أفكار الناس عن الاسلام لتصحح الأخطاء ولتظهر محاسن الاسلام ...

ومنها :

التوسع فى ارسال البعوث الى كافة أرجاء الدنيا بعد اعدادهم على النحو الذى عرفناه ...

ومنها :

التوسع فى المنح وقبول الطلاب الوافدين من أطراف العالم لتلقى العلم فى المعاهد والجامعات الدينية فى البلاد الاسلامية ...

ومنها :

تكوين عدة لجان لتنظيم جهاز الدعوة الاسلامية حتى يؤدى دوره مثل : لجنة تفسير القرآن الكريم ، ولجنة الحج ، ولجنة الافتاء ، واللجنة الاجتماعية واللجنة المالية ، ولجنة الدعاية والنشر وتتكون هذه اللجنة من عدة فروع تكون مسئولة عن : الراديو ، والتليفزيون ودار النشر الاسلامية ووكالة الأنباء والمجلات الاسلامية ..(١) .

هذه بعض الوسائل التى يمكن بها نشر الدعوة الاسلامية على المستوى المحلى والمستوى العالمى متى حسنت النية وخلصت لله رب العالمين . وهناك وسائل أخرى مثل : الطرق الصوفية . والطرق الصوفية شأنها خطير فى المجتمع الذى نعيش فيه فلو أحسنا توجيهها وجعلنا لها قيادات صالحة عارفة بالدين متعمقة فيه لأمكن أن تؤدى رسالتها بحق .. الى آخر هذه الوسائل المتعددة .

---

(١) الدين العالمى ومنهج الدعوة اليه للشيخ عطية صقر ص ١٩١ — ١٩٥ ، وكتاب : مسلم الغد للدكتور احسان حقى ص ٦٩ وما بعدها ، وتقرير عن نشر الدعوة الاسلامية قدمه الى مؤتمر الدعوة بليبيا الأستاذ محمد المبارك ونشر فى مجلة الفكر الاسلامى العدد السابع السنة الثالثة التى تصدر فى بيروت بلبنان .

(أهداف الدعـوة الى الله تعالـى)

جاءت الدعوة الاسلامية واضحة جلية لا غموض فيها ولا ابهام وظهرت أصـول الدعوة فرآها الناس شاملة لكل فرع من فروع الحياة فأوضحت أصول الدين القـويم وقواعد العلم الصحيح وأسس الأخلاق الفاضلة ، وأركان النظم الاجتماعية الرشـيدة ، ومبادئ القوانين السديدة ، والتشريع الحكيم .

فتغلب الاسلام بأصوله على جميع الأصول التى كانت قائمة على عهده فآمـن الناس بأن القرآن " مثل كامل " فى كامل " فى كل شىء (وقواعده التى قام عليها هى أكبر شاهد على ما نقول) (١) .

هذه الدعوة الى الله تعالى تنحصر أهدافها فى أمرين أساسيين :

الأول : دعوة غير المسلمين الى الدخول فى الاسلام :

معنى هذا الأمر هو أن نعمل على نشر الدعوة الاسلامية بين أهل الكتـاب وغيرهم ممن لا دين لهم اللهم الا بعض التقاليد والعادات التى لا تمت الـى الدين بصلة . وهؤلاء هم أغلبية شعوب العالم .. وقد سن لنا النبى صلى الله عليه وسلم هذه السنة الحسنة وهى دعوة غير المسلمين الى الدخول فـى الاسلام عن طريق مكاتبة الملوك والأمراء وأمرهم أن يبلغوا أممهم . ومن هـذه الكتب كما ثبت فى الصحيحين كتابه صلى الله عليه وسلم الى هرقل عظـيم الروم : " بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى هرقـل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم : أسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فان توليت فان عليك اثم الاريسـيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكـم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " .

وهكذا أرسل النبى صلى الله عليه وسلم كتبه الى كسرى ملك الفرس ، والمقوقس عظيم القبط بمصر ، وملكى عمان ، وملك اليمامـة .. كذلك عـرض

---

(١) تدرج المذاهب فى التربية ونزعة سبنسر للدكتور عبد الكـريم أحمد السكرى ص(ب) الطبعة الأولى (١٣٤٧ هـ — ١٩٢٨ م)

الدعوة بالأسلوب الملائم على أولئك الذين لم يتعرفوا على الاسلام ، كما هو موجود فى أوربا وأمريكا من المسيحيين وغيرهم .

فان انتشار العلوم والمعارف بين أولئك القوم قد كشف مزايا الاسلام ، وتطور تشريعه .

والدليل على أن هذا الأمر من الممكن أن يصل الى مستوى أعلى فى نشر الدعوة لو صدقت النيات . ما نراه فى هذا العصر — مع ضعف المجهود الذى يبذل فى اشاعة الاسلام — من اقبال الكثير على هذه الرسالة الخالدة فى الداخل والخارج . فاذا ما اتجهنا الى مكتب الشئون الدينية بمديرية أمن القاهرة ، ومكتب شيخ الجامع الأزهر لوجدنا الأعداد الهائلة التى تعلن اسلامها لله تعالى . ومن حوالى سبع سنين توجهت بأحد القاصة الذى كان فى البلدة التى كنت أعمل فيها داعية الى الله تعالى الى مكتب الأمن ، ومكتب شيخ الأزهر لأجل أن يعلن اسلامه .

أما فى الخارج فكثيرا ما تطالعنا الصحف ، والمجلات والاذاعات وغير ذلك بالأخبار المتعددة عن اسلام الكثير من علية القوم فى تلك البلاد . وفى بعض المجلات الاسلامية كمجلة منبر الاسلام ، ومجلة الشبان المسلمين ينشر تحت باب " لماذا أسلمت " الكثير ممن تشرفوا برسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام . ومن الأسباب التى أخرت مسيرة الدعوة الاسلامية على غير ما نرجو لها من المضى الى كل قلب فى هذه الأرض . هو أن أوربا الى عهد الحروب الصليبية كانت تصور للعالم بأن هؤلاء العرب الذين حملوا راية الاسلام ما هم الا مجموعة من قطاع الطرق ورعاة الأغنام ، لا قيمة لها ، ولا حضارة ترفع من شأنها .

على هذا فان الدعوة الى الله تعالى لغير المسلمين تؤدى الى هدفين أساسيين .

أحدهما : محو الواجهة السيئة التى لصقها أعداء الاسلام من المبشرين والمستشرقين وغيرهم بالمسلمين ورسالتهم .

والأخر : الكشف عن محاسن الاسلام وكيف أن العالم كله لو أخذ به لوصل بتوفيق الله تعالى الى بر الأمان .

الثانى : من أهداف الدعوة ، دعوة المسلمين بعضهم بعضا الى الخير :

وهذا يكون فى ضوء قوله تعالى : " فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا

فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون " (١) .

وفى ضوء قوله تعالى : " والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر " (٢) .

معنى هذه الدعوة هو : ارجاع المسلمين الى جوهر الاسلام وتشريعه الحكيم وتحقيق ذلك فى نفوسهم ، ونفى ما علق بالاسلام من خرافات وأوهام (٣) مثل : ما يسمى بضرب الودع ، والطيرة ، والعيافة ، والطرق ، وزجر الطير وقراءة الكف ، وفتح الكتاب ، والمصحف ، وكتابة الحجب ، والتمائم ، وما يسمونه تحويطات ، والاخبار بالغيب ، وادعاء رفع الصلاة عن الانسان اذا بلغ الى قدر معين من الايمان .. الى غير ذلك من هذا السيل الجارف ، من الخرافات والأوهام التى علقت بهذا الدين الحنيف وهو منها براء .

ولو شئنا تقصيها من الأدلة التى وردت فى النهى عنها لكنا فى حاجة الى رسالة ولكن على سبيل المثال نذكر شيئا من أدلة النبى صلى الله عليه وسلم التى ترشدنا الى البعد عن هذا الضلال المبين .

منها : قوله صلى الله عليه وسلم : " العيافة ، والطيرة ، والطرق من الجبت " (٤) وقول ابن مسعود رضى الله عنه : " أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن ثمن الكلب ، ومهر البغى ، وحلوان الكاهن " (٥) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : " من أتى عرافا أو كاهنا فسأله عن شئ فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوما " (٦) . وقوله صلى الله عليه وسلم : " ان للشيطان لمة (٧) بابن آدم ، وان للملك لمة ، فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الآخرة فليستعذ بالله من الشيطان " (٨) .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٦٤ (٢) سورة العصر .

(٣) هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ص ١٧ — ١٨ ، والمؤتمر الاسلامى الأول لمجمع البحوث الاسلامية بحث للشيخ على عبد الرحمن أمين عن انتشار الاسلام ص ٣٧٩ .

(٤) العيافة : خط الرمل ، الطيرة : التشاؤم ، الطرق : هو زجر الطير ، الجبت : يقع على الصنم ، والكاهن ، والساحر . والحديث رواه أبو داود عن قبيصة بن المخارق .

(٥) رواه البخارى . (٦) رواه الامام مسلم فى صحيحه .

(٧) اللمة : الخطرة التى تخطر بذهن الانسان .

(٨) رواه الترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه .

ولقد وصل أمر الخرافات والأوهام لدرجة أن المنجمين كانوا يتدخلون في شئون الدولة في يوم من الأيام ولكن الخلفاء النابهين ما كانوا يستمعون اليهم بل كانوا يخالفونهم .

ومن ذلك حادثة الخليفة المعتصم بالله حينما قام بفتح عمورية ، فأخذوا يحذرونه بسوء العاقبة بأن الحساب الفلكى والطوالع النجومية قد اتفقت على سوء هذه النتيجة المشئومة ، فلم يعبأ بما قالوه ، وخرج من فوره وانتصر على أعدائه انتصارا عظيما وفى ذلك يقول أبو تمام من قصيدة سبعين بيتا حتى أخذ على كل بيت ألف درهم . والتى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ∴ فى حده الحد بين الجد واللعب

وفيها :

أين الرواية أم أين النجوم وما ∴ صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
يقضون بالأمر عنها وهى غافلة ∴ ما دار فى فلك أو كان فى قطب
لو أثبتت قط أمرا قبل موقعه ∴ لم يخف ما حل بالأوثان والصلب (١)

من كل هذا وغيره نعلم أن دعوة المسلمين بعضهم بعضا لابد منها لتطهيرهم من الخرافات والأوهام وربطهم بالله الملك الديان .

اهتمام الحسن بالدعوة الى الله تعالى وسبب ذلك :

بعد هذا العرض الموجز لمعنى الدعوة ، وأهميتها ، وأصولها ، وأهدافها .. نبحث عن السبب الذى من أجله اهتم الحسن كثيرا بهذه الدعوة المباركة وسخر لها كل امكانياته . حينئذ نجد أن السبب هو : فهمه العميق لقيمة الدعوة ، ومنزلة الداعية . وفى هذا المعنى يقول تبارك وتعالى : " ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين " (٢) .

ولذا لما تلا الحسن البصرى تلك الآية الكريمة قال : " هذا حبيب الله هذا ولى الله هذا صفوة الله هذا خيرة الله هذا أحب أهل الأرض الى الله أجاب الله فى دعوته ودعا الناس الى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحا

---

(١) البيان فى تصحيح الايمان للشيخ ابراهيم عبد الباقى ص ١٠٧ .
(٢) سورة فصلت آية رقم ٣٣ .

فى اجابته ، وقال اننى من المسلمين هذا خليفة الله " (١) .

ويعلق على كلام الحسن هذا الشيخ عبد العزيز بن باز بقوله : " ولا ريب أن الرسل — عليهم الصلاة والسلام — هم سادة الناس فى الدعوة وهم أولى الناس بهذه الصفات الجليلة التى ذكرها الحسن البصرى وأولاهم بذلك .. محمد صلى الله عليه وسلم الذى بلغ الرسالة وأدى الأمانة وصبر على الدعوة الى ربه .. ثم سار أصحابه الكرام بعده على هذا السبيل العظيم والصراط المستقيم . فصدقوا فى الدعوة ونشروا لواء الاسلام فى غالب المعمورة لكمال صدقهم .. فضربوا بذلك للناس بعد الرسل أروع الأمثال . وأصدقها فى الدعوة والجهاد والعلم النافع والعمل الصالح وبذلك انتصروا على أعدائهم .. وهم أولى الناس بعد الرسل بالثناء والصفات السالفة التى ذكرها الحسن البصرى وكل من سار على سبيلهم وصبر على الدعوة الى الله وبذل فيها وسعه فله نصيب من هذا الثناء الجزيل الذى دلت عليه الآية الكريمة — ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله ... — والصفات الحميدة التى وصف بها الحسن البصرى الدعاة الى الحق .. (٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٠١ قال عبد الرازق عن معمر عن الحسن البصرى أنه تلا هذه الآية ...

(٢) مجلة الوعى الاسلامى بالكويت — السنة السابعة العدد ٨٠ — موضوع : الدعوة الى الله وأثرها فى المجتمع للشيخ عبد العزيز الباز .

منهج الحسن البصري وطريقته في الدعوة الى الله تعالى :

حينما ننظر الى منهج الحسن البصري وطريقته في الدعوة الى الله تعالى نجده متسما لمنهج القرآن الكريم وطريقة النبي صلى الله عليه وسلم على ضوء قوله تعالى " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن "(١)

وقوله تعالى : " قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني "(٢)

وقد ذهب بعض العلماء الى أن المراد من الحكمة الحجة المفيدة لليقين ومن الموعظة الحسنة الامارات الظنية والدلائل الاقناعية ، ومن المجادلة بالتي هي أحسن الدليل المؤلف من مقدمات مسلمة عند المنازع .(٣)

وذهب البعض الآخر الى أن المراد من الحكمة هي معرفة الحق والعمل به : فالقلوب التي لها فهم وقصد تدعى بالحكمة ، فيبين لها الحق علما وعملا فتبلغه وتعمل به وآخرون يعترفون بالحق لكن لهم أهواء تصدهم عن اتباعه ، فهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب في الحق والترهيب من الباطل والدعوة بهذين الطريقين لمن قبل الحق . ومن لم يقبله فانه يجادل بالتي هي أحسن (٤) .. الى آخر هذه التعريفات للكلمات التي أشرنا اليها مما لا طائل تحته .

وعلى كل فانني أرجح التفسير الأول لمعنى الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن وهو للفخر الرازي لأن هؤلاء الذين ندعوهم بالحكمة هم من العلماء النابهين الذين يتعرفون على الحقائق فيناسبهم الدليل القاطع الذي لا ريب فيه ، وهؤلاء الذين ندعوهم بالموعظة الحسنة هم من أوساط الناس فيناسبهم الدلائل الاقناعية التي تدخل الى قلوبهم فيقتنعون ، وتملك عليهم مشاعرهم أما هؤلاء الذين ندعوهم بالتي هي أحسن فهم المعاندون الجاحدون فيناسبهم الدليل المؤلف من مقدمات تكون مسلمة عندهم لا يجدون طريقا الى انكارها .

---

(١) سورة النحل آية رقم
(٢) سورة يوسف آية رقم
(٣) تفسير الفخر الرازي جـ ٢٠ ص ١٣٨ - ١٣٩ .
(٤) رسالة معراج الوصول لابن تيمية ص ٨ - نشر المطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة سنة ١٣٨٧ هـ .

في ضوء ما ذكرناه عن الحكمة نجد ان الحسن البصري في مقدمة الحكماء بعد الرسل والانبياء والصحابة • وكان حكيما ينطق بالقول الفصل قال ـ رحمه الله ـ ليس العجب لمن هلك كيف هلك ولكن العجب لمن نجى كيف نجى • فسمع هذا محمد بن الحسن بن علي بن الحسين فقال سبحان الله هذا كلام صديق •

وسمع الحجاج بن يوسف الثقفي الحسن البصري وهو يتحدث في الناس قال له : ما أمدك يا حسن ؟ قال الحسن : سنتان من خلافة عمر فقال الحجاج : (لعقلك أكبر من أمدك) •

وبلغ من حكمة الحسن التي اشتهر بها انه كان يجلس مع كبار الدعاة من المسلمين أمثال : مجاهد ، وعطاء ، وطاووس وغيرهم • وقالوا حين سمعوه (لم نر مثل هذا قط) •

ونظر الحسن بفطنته الى المجتمع الذي عاش فيه فوجد ان الدينار له أثر عظيم في النفوس • والقليل من الناس هم الذين يسلمون من فتنته فقال رحمه الله (لا يزال الرجل كريما على الناس حتى يطمع في دينارهم فاذا فعل ذلك استخفوا به ، وكرهوا حديثه ، وابغضوه ...) ولم يكن هذا منه مجرد قول بل طبقه على نفسه مما حبب اليه الناس وجعلهم يستفيدون من حكمه ومواعظه واصبح بهذا سيدا على البصرة • روي ان اعرابيا سأل اهل البصرة : من سيدكم ؟ قالوا : الحسن قال : بم سادكم ؟ قالوا : احتاج الناس الى علمه واستغنى هو عن دينارهم • فقال الاعرابي : ما احسن هذا •

ولقد بلغ الحسن البصري في نطقه بالحكمة مبلغا كبيرا جعل الدكتور احسان عباس يقول عنه " وقد ارتفع الحسن ـ البصري ـ الى مرتبة المتفنن الصحيح في تلك الاقوال التصويرية التي كانت عصارة منتزعة من تجربته ومن الدماجه في موضوعه وهي اقوال تتصف بالبراعة والابتكار وقال ايضا : وصل الحسن البصري لدرجة كان تلاميذه واهل عصره يحاكونه في كتابته ، ورسائله ، وخطبه ... [(١)] والامثلة على ذلك كثيرة منها قول الحسن : "فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحا " وقوله : " ان امرءا ليس بينه وبين آدم الا اب قد مات لمعرق في الموت " وقال رجل للحسن : الفقهاء يقولون كذا • فقال : هل رأيت فقيها قط ؟ انما الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بدينه • المداوم على عبادة ربه "

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٢١ ، ١٥٥ والكواكب الدرية للمناوي ج ١ ص ١٠٢

هذه الحكمة التي اشتهر بها الحسن البصري كانت اساسا من اسس دعوته الى الله تعالى .

ذلك ان الحسن — رحمه الله — كان منهاجه وطريقته في الدعوة هو منهج القرآن الكريم الذي يتضمنه قوله تعالى : " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن " كما عرفنا وفي ضوء هذا المنهج كان — رحمه الله — يخاطب كل فريق من الناس بما يلائمه حسب مقتضى الحال .

فاذا ما كان المخاطبون من العلماء النابهين الذين يودون معرفة الحقائق ويعملون جادين على الوصول اليها . كانت مخاطبته لهم بالحجة المفيدة لليقين .

ومن أمثلة ذلك ما قاله الحسن البصري لبعض القراء : " انكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل ، وجعلتم الليل جملا تركبونه فتقطعون به المراحل ، وان من كان قبلكم رأوه رسائل اليهم من ربهم ، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار "(١)

وعن فضيل بن جعفر قال : خرج الحسن من عند ابن هبيرة فاذا هو بالقراء على الباب ، فقال : " ما يجلسكم هنا تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء اما والله ما مجالستهم بمجالسة الابرار ، تفرقوا فرق الله بين ارواحكم واجسادكم ، فقد لقحتم نعالكم وشمرتم ثيابكم وجززتم شعوركم فضحتم القراء فضحكم الله ، اما والله لو زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم لكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيما عندكم أبعد الله من أبعد (٢) .

وكتب الحسن يوما الى احد العلماء الباحثين عن الحقيقة يقول : " اعلم ان التفكر يدعو الى الخير والعمل به ، والندم على الشيء يدعو الى تركه ، وليس ما يفنى وان كان كثيرا يعدل ما يبقى وان كان طلبه عزيزا ، واحتمال المؤونة المنقطعة التي تعقب الراحة الطويلة خير من تعجيل راحة منقطعة تعقب مؤونة باقية (٣) .

وان كان المخاطبون من أوساط الناس .. كانت مخاطبة الحسن لهم بالامارات

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن — وهما مقدمة كتاب المباني ، ومقدمة ابن عطية ، نشرهما من المخطوطات المحفوظة بدار الكتب ببرلين ، ودار الكتب المصرية المستشرق الدكتور آرثر جفري — مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٥٤ م

(٢) حلية الاولياء لابي نعيم — ترجمة الحسن البصري .

(٣) المرجع السابق

الثانية ،والدلائل الاقناعية . أى بالموعظة الحسنة التى تعتبر اساسا من اسس الدعوة الى الله تعالى .

هذه الموعظة الحسنة (١) كذلك عبارة عن الكلمة الطيبة التى تخرج من القلب لانها من طبيب يداوى حبيبه سواء كانت عن طريق الكتابة أم الخطابة أم الدرس أم غير ذلك .

ومن امثلة الحسن البصرى فى موعظته الحسنة مايلى :—

قال ــ رحمه الله ــ : " ايها الناس ان الله عز وجل بسط لكم صحيفة ، ووكل بكل رجل منكم ملكين كريمين أحدهما عن اليمين والآخر عن اليسار ، وهو يملى

---

(١) فى مجال الموعظة الحسنة نسمع هذه الكلمات : وعظ ، ارشاد ،تربية ،تذكير ، قصص الخ ... فما نصيب هذه الكلمات فى الدعوة الى الله تعالى ؟ فالاصفهانى يقول الوعظ : زجر مقترن بتخويف ، وقال الخليل هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب والعظة والموعظة الاسم (يعظكم لعلكم تذكرون) . والارشاد هو نظام تعليمى أو عملية تعليمية تهدف الى تعديل سلوك الافراد فى مجال معين ، وهو أيضا : الهداية الى الطريق الموصل الى المطلوب (اولئك هم الراشدون) والتربية : هى عملية اجتماعية تهدف الى مساعدة الافراد على النمو الشامل لشخصياتهم بحيث يستطيعون القيام بأدوارهم الاجتماعية والعيش فى المجتمع والمشاركة فى خبراته ومنه الرب (ربكم ورب آبائكم الاولين ...) . والتذكير : تعريف الخلق بنعم الله تعالى عليهم وحثهم على شكره ، وتحذيرهم من مخالفته ،والتذكر يقال على الالفاظ منه (وما يتذكر الا من ينيب ، سيذكر من يخشى ،فما لهم عن التذكرة معرضين ، ومثله الادكار (فهل من مذكر) .والقصص : تتبع القصة الماضية بالحكاية عنها والذى لها .... والقصاص من يفصل ذلك قال تعالى (لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب ماكان حديثا يفترى ...) ومن أجل هذا سمى : قسم الدعوة والارشاد بكلية اصول الدين ، وادارة الوعظ والارشاد بالازهر ، ووزارة التربية والتعليم الى غير ذلك من المسميات التى يقصد معظمها ــ غالبا ــ الدعوة الى الله تعالى (هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ،والمفردات فى غريب القرآن للاصفهانى ، فى التربية والارشاد (للاستاذ محمد محمد عطية ، مع الله دراسات فى الدعوة والدعاة للشيخ محمد الغزالى ، النشرة التوجيهية رقم ٢٢ اخراج المكتب الفنى بقسم الوعظ والارشاد بالازهر ، وسبيل الحكمة فى الوعظ والخطابة للشيخ على محفوظ ... ونحوه المراجع وغيرها بعد القرآن والسنة) .

فان شاء قلل ، وان شاء كثر ، انما يملى كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا ولقد روى انه لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . قال أبوبكر الصديق رضى الله عنه : نزلت والله قاصمة الظهور فاذا كان ذلك ابو بكر وقد شهد له بالجنة فكيف يجب ان يكون قول من سواه ؟ فاعتبروا معشر المؤمنين وكونوا على حذر لعلكم تأمنون من عذاب يوم عظيم "(١)

وقال الحسن : " ان لله عبادا قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وانفسهم عفيفة ، وحوائجهم خفيفة ، صبروا الايام القلائل لما رجوه فى الدهور الاطاول . أما الليل فقائمون على أقدامهم يتضرعون الى ربهم ، ويسعون فى فكاك رقابهم ، تجرى الخشية دموعهم ، وتخفق من الخوف قلوبهم وأما النهار فحلماء علماء أتقياء أخفياء يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف ، تخالهم من الخشية مرضى وما بهم من مرض ، ولكنهم خشعوا بذكر النار واهوالها لهم . والله كانوا فيما احل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم ، وكانوا ابصر بقلوبهم لدينهم منكم لدنياكم بأبصاركم ، ولهم كانوا احسنا تهم أن ترد عليهم اخوف منكم ان تعذبوا على سيئاتكم ، اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون (٢)

وقال رحمه الله ـ " أيها الناس : ان احدكم يحذره صاحبه فيتقيه ويحذره . فكيف بمن حذره ربه نفسه وخوفه عقوبته . يقول الله سبحانه : " افأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون "(٣)

وقال رحمه الله : " ايها الناس : انى اعظكم ولست بخيركم ولا اصلحكم وانى لكثير الاسراف على نفسى ، غير محكم لها ، ولا حاملها على الواجب فى طاعة ربها ، ولو كان المؤمن لا يعظ اخاه الا بعد احكام أمر نفسه لعدم الواعظون ، وقل المذكرون ولما وجد من يدعو الى الله جل ثناؤه ، ويرغب فى طاعته ، وينهى عن معصيته ، وانتفى اجتماع اهل البصائر ، ومذاكرة المؤمنين بعضهم بعضا حياة لقلوب المتقين ، وادكار من الغفلة ، وأمن من النسيان ، فالزموا عافاكم الله مجالس

---

(١) ، (٢) ، (٣) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٦٠ ـ ٦٢

الذكر فرب كلمة مسموعة ، ومحتقر نافع «اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمـــون

وقال : " ايها الناس : انما لاحدكم نفس واحدة ، ان نجت من عذاب الله لم يضرها من هلك ، وان هلكت لم ينفعها من نجا ، فاحذروا عافاكم الله التسويف فانه اهلك من كان قبلكم ، وانكم لا تدرون متى تسيرون ؟ ولا الى اى شيء تصيرون ؟ فرحم اللـــه عبدا عمل معاده قبل نفاد زاده "

وقال : " أيها الناس : ان لله عبادا هم كمن رأوا اهل الجنة فى الجنـــة منعمين ، واهل النار معذبين ، فهم يسلون لما رأى وينتهون عما يخافون من العـذاب الاليم "(١) الى آخر ماقال فى هذا المقام •

وان كان المخاطبون من اهل الجحود والعناد كانت مخاطبة الحسن لهم بالتى هى أحسن كما قال تعالى : " وجادلهم بالتى احســـن " أى بالطريق التى هـى أحسن الطرق فى المجادلة من الرفق واللين كما فعل الخليل ابراهيم عليه الســـلام بما يوقظ القلوب ، ويعظ النفوس حتى ينقادوا الى الحق ويرجعوا اليه لينالوا السعادة فى الدنيا والاخرة ومن الامثلة على ذلك مايلى :ـ

كان الحسن البصرى يقول : " ابن ادم : انك تموت وحدك ، وتبعث وحدك ، وتحاسب وحدك •

ابن آدم : لو أن الناس كلهم اطاعوا الله وعصيت انت لم تنفعك طاعتهم ، ولو عصوا الله واطعت انت لم تضرك معصيتهم ، ابن ادم : ذنبك ذنبك فانما هو لحمــك ودمك فان سلمت من ذنبك سلم لك لحمك ودمك ، وان تكن الاخرى وأستعيذ باللــه منها ـ فانما هى نار لا تطفى وجسم لا يبلى ونفس لا تموت •

وكان يقول : " ابن آدم ـ انما انت ضيف والضيف مرتحل ومستعار والعارية مؤداه ومردودة ، فما عسى مقام ضيف وبقاء عارية لله در اقوام نظروا بعين الحقيقــة وتقدموا الى دار المستقر •

وكان يقول : " ابن آدم ـ اياك والاغترار فانك لم يأتك من الله امان ، وان الهول الاعظم والامر الاكبر امامك وانك لابد ان تتوسد فى قبرك ما قدمت •

ان خيرا فخيرا وان شرا فشرا ، فاغتنم المبادرة فى المهل واياك والتسويف بالعمل فانك مسئول ، فاعد للمسألة جوابا (٢)

---

(١) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٦٠ ومابعدها •

(٢) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٦٠ ــ ٦٥

موقف الحسن من الحكـــام :ـ

اما موقف الحسن البصري من حكام الدولة ، فقد كان واضحا من عمله على تجنب الفتن خوفا من تفريق كلمة المسلمين ، وشدة حفظه على تماسك الدولة حتى قال الشيخ على محفوظ في هذا " لولا لسان الحسن وسيف الحجاج لوئدت الدولة المروانية في مهدهـــا "

ولذا كان ـ رحمه الله ـ لا يرى التعرض لسب الولاة بل كان يزرع هيبتهـــم في قلوب الرعية والرها بحكمهم ذاكرا للمدعوين الاثار الواردة عن الرسول صلى اللـــه عليه وسلم مثل قوله " لا تسبوا الولاة فانهم ان احسنوا كان لهم الاجر وعليكم الشكــر وان اساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر ، وانما هم نقمة ينتقم الله بهم ممن يشاء فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية والغضب ، واستقبلوها بالاستكانة والتضرع "(١)

معنى هذا ان الحسن البصري لا يرغب في قيام ثورة ضد حاكم الدولة لان ضـرر هذا ـ في اعتقاده ـ يكون اكثر من نفعـــه .

ولكنه يرى العودة الى التعاليم والاخلاق الاسلامية حتى يلتئم الشمل وتنمحي الفرقة ، وعند ئذ يكون النصر السياسي امرا محققا .

وفي هذا المعنى يقول تعالى في الحديث القدسي : " انا الله لا اله الا انــا مالك الملك وملك الملوك قلوب الملوك في يدي وان العباد اذا اطاعوني حولت قلـــوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة وان العباد اذا عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة فساموهم سوء العذاب فلا تشغلوا انفسكم بالدعاء على الملوك ولكن اشغلوهـا بالذكر والتقرب اكفكم ملوككم "(٢)

وفي ازمة مالية اشتد كرب الناس لها وذهبوا الى الحسن البصري يستفتون فـي حلها ، فقال لهم : " غلا السعر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الناس: يارسول الله: ألا تسعر لنا ؟ فقال : ان الله هو المسعر ان الله هو القابض ، ان الله هو الباسط ، واني والله ما اعطيكم شيئا ولا أمنعكموه بهذا وغيره كان الحسن ـ رحمه الله ـ يعمل على استتباب الامن في الدولة لكن هذا الموقف من الحسن لاول وهلـــة يؤخذ عليه في الظاهر ، الرضا بالذلة ، والمسكنة ، وعدم الشعور بالظلم مهما كان .

---

(١) هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ، والدعوة الى الاسلام للدكتور ابو بكر ذكري
(٢) رواه الطبراني في الاوسط عن ابي الدرداء

والخضوع لطاعة بني مروان واين هذا من قول عمر بن الخطاب : " ايها الناس : اقرأوا القرآن تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من اهله . انه لن يبلغ ذو حق في حقه أن يطاع في معصية الله . الا انه لن يبعد من رزق الله ولن يتوب من اجل الله ان يقول المرء حقا ، وان يذكر بعظيم .

ألا واني ما وجدت صلاح ما ولاني الله الا بثلاث : اداء الامانة والاخذ بالقوة والحكم بما انزل الله .... الى آخر ما قال عمر .... ومع هذا فلو نظرنا بعمق وروية الى تصرف الحسن وموقفه لوجدناه لم يصدر منه ذلك الا عن حكمة ونور قذفه الله في قلبه .

ذلك ان الحسن ـ رحمه الله ـ جاء في اعقاب احداث جسام كانت سببا في تقسيم الامة الى شيع واحزاب ـ ولولا ان الاسلام متين في قلوبهم لما قامت لهم قيامة بعد هذه الفتن ابدا .

وكما قال الشيخ محمد الغزالي مايدل على حكمة الحسن في ذلك : وان هذه الفتوق في كيان الدولة الاسلامية يخشى ـ لو بقيت ـ ان تطيح بالاسلام حكومة وشعبا وان انصراف الناس الى حديثها ومرائها[1] ينسيهم روح الايمان، وشعائر التقوى " لذلك اتجه الرجل الى جمع العامة على صلاح القلوب ورقابة الاخرة ، مؤثرا ان يطمئن الحاكم من ناحيته بترك الكلام في سيرته وترك التعرض لسياسته ... راجيا ـ بذلك ـ ان يدعه الحاكم يعلم الناس الدين ويبصرهم بشرائعه واحكامه ..

كذلك يقول الشيخ الغزالي : ونحن ـ من التجارب التي أفدناها ـ نعرف موقف الحسن البصري على حقيقته ، ونعجب أن ننصف الرجل . فقد جاء في اعقاب الفتنه الكبرى ، وبدأ نشاطه الديني في ظروف صعبة جاء بعد هزيمة علي بن أبي طالب المؤيد من جمهرة الامة ، وحامل لواء الحق في ذلكم الصراع الاسيف .

ولم تكن هزيمة أمير المؤمنين محدودة النتائج ـ اذ آل بعده الامر الى قلة ليست له بأهل ، كما اصيبت القيم الدينية نفسها اصابة جسيمة ،وبدأ للناس أن المثل العليا لا مكان لها في ميادين الحياة وان الالتحاق بالركب السائر لن يستطيعه الا من يفر من مقتضيات الايمان والخلق .

---

(١) مرائها : جدالها .

وعلاج هذه الحالة المنكرة وقع عبئه على أمثال الحسن البصرى من العلماء الذين حرصوا على صبغ المجامع العام بالتعاليم الاسلامية وتمسيك الامة بمثلها كلها ، وغرس الوفاء للحق فى حاضرها ومستقبلها ... على ان يتحروا نهجا من التربية المحايدة الدقيقة لا يعرضهم لصدام مع الحكام المتغلبين على الامر ، ولا يدفع هؤلاء المتسلطين على الامة الى فض تلك المجامع وتعطيل هذه الدروس .

وهنا يبدو ما كان يعانيه الحسن وأمثاله من حرج وما بصروا كلا مهم حينا من اضطراب ، فرغبتهم فى خدمة الاسلام وصيانة تراثه يوجب عليهم الكلام الكثير ، ومحاولة طمأنة ذوى السلطة – ليتركوهم وما فرغوا أنفسهم له – توجب عليهم الاغضاء ، أو التجاوز ، أو الاحتيال ، لا حرصا على حياتهم الخاصة بل حرصا على منار الاسلام الذى رفعوه .

فمن يدرى ربما يعم الظلام لو ذهبوا وذهب معهم ... فان تاريخ الرجل فى ميدان الوعظ والارشاد والنصح العام حافل بالخير ، ملىء بالصالحات[1]

ولم يكن موقف الحسن البصرى من الثورات مجرد رأى يعتنقه بل كان ايجابيا فى موقفه عاملا على جمع الشمل . ويظهر ذلك بوضوح فى موقفه من ثورتى ابن الاشعث وابن المهلب .

الحسن البصرى وثورة ابن الاشعث :–

سبق ان عرفنا موقف الحسن من الحجاج بن يوسف الثقفى وانه مع شدة الحجاج وبطشه وخوف الناس منه لم يتقاعس عن اداء الواجب الذى يفرضه عليه دينه كما أن الحسن كان يرجع ظلم الحجاج الى تغيير النفوس وكأنه بذلك يشير الى قوله تعالى " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " ونزيد هنا أن الحسن لو أراد الفتوى صراحة ضد الحجاج لشبت ثورة عارمة فى البصرة لا يعلم مداها الا الله عز وجل .

ولكن الحسن بمنهجه القويم فى الدعوة الى الله تعالى استطاع ان يصل بالمجتمع الى الطريق المستقيم – الى حد ما – دون اراقة للدماء ، وازهاق للأرواح .

فقد جمع ابن الاشعث جيوشا وخرج متمردا بها على حكم الامويين وخاصة الحجاج فاجتمع عليه كثير من الناس وابتعد عنه آخرون – فهم ينظرون الى القضية من جانبها – الحجاج وابن الاشعث فايهما يتبعون ، والناس فى كل زمان اتباع القوى .

---

(١) مع الله دراسات فى الدعوة والدعاة للشيخ محمد الغزالى ص ١٧١ – ١٧٦ الطبعة الثانية ١٩٦١ م – ١٣٨٠ هـ مطبعة السعادة بالقاهرة .

ويقع الحسن البصرى فى الامر فيستفتيه الناس فيصمت ويلحون وما كان يحب ان يخوض فى الموضوع وكان الحسن جالسا فى المسجد ينهى الناس عن الخروج على الدولة ويحض على جمع كلمة المسلمين فقال بعض هؤلاء : ياأبا سعيد ، ما تقول فى قتال هذا الطاغية (يعنى الحجاج) الذى سفك الدماء واخذ المال الحرام ، وفعل وفعل ، فقال الحسن : ارى ان لاتقاتلوه ، فانها اما ان تكون عقوبة من الله فما انتم براد ى عقوبته ، ثم قال كلمته المشهورة " ياأيها الناس والله ما سلط الله عليكم الحجاج الا عقوبة ، فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف ولكن عليكم بالسكينة والتضرع "

وسمع الحسن رجلا يدعو على الحجاج فقال : لاتفعل رحمك الله انكم من انفسكم اوتيتم ، انا نخاف ان عزل الحجاج او مات ان تليكم القردة والخنازير ، فقد روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : (عمالكم كأعمالكم وكما تكونون يولى عليكم) (١)

وسئل الحسن يوما عن الولاة فقال للسائل بعد ان سكت مليا : (وما عسى أن اقول فيهم وهم يلون من امورنا خمسا : الجمعة والجماعة والفيء والثغور والحدود ، والله لايستقيم الدين الابهم وان جاروا وان ظلموا ، والله لما يصلح الله بهم اكثر مما يفسدون ، والله ان طاعتهم لغبطة ، وان فرقتهم لكفر ، فقال السائل : ياأباسعيد والله انى لذو مال كثير ومايسرنى ان يكون لى امثاله وانى لم اسمع منك الذى سمعت لجزاك الله عن الدين واهله خيرا (٢)

الحسن وثورة يزيد بن المهلب :

توفى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذى كانت حياته حلما على المجتمع الاسلامى فى وقته ، وذلك بسبب اخماد الفتنه وتحقيق العدل الاجتماعى الذى كان يتمناه افلاطون فى جمهوريته ، لكن سرعان بعد وفاة هذا الخليفة التقى ان اطلت الفتنة برأسها من جديد ، واخذت البصرة تستعد بسبب الغليان والفوران الذى لحق بها لاستقبال ثورة جديدة تشبه ثورة ابن الاشعث .

والسبب فى هذه الثورة الجديدة ان يزيد بن المهلب استطاع الهروب من السجن الذى كان يمضى فيه مدة العقوبة بسبب ما ارتكبه وذلك بامر من الخليفة الراحل حينئذ هرب يزيد من السجن خوفا من قسوة الخليفة الجديد (يزيد بن عبد الملك)

---

(١) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٧ .

(٢) الحسن البصرى لابن الجوزى ص٥٧ـ٥٨ والبيان والتبيين للجاحظ ج٢ ص١٤٧ والطبقات الكبرى لابن ... ج٧ ص١١٤ـ١١٦ ، ومروج الذهب للمسعودى

الحســـن وثورة يزيد بن المهلب :

توفى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذى كانت حياته حلما على المجتمع الاسلامى فى وقته ، وذلك بسبب انخماد الفتنة وتحقيق العدل الاجتماعى الذى كان يتمناه أفلاطون فى جمهوريتـــه ، لكن سرعان بعد وفاة هذا الخليفة التقى أن طلـــت الفتنة برأسها من جديد ، وأخذت البصرة تستعد بسبب الغليان والفوران الذى لحق بها لاستقبال ثورة جديدة ، تشبه ثورة ابن الأشعث .

والسبب فى هذه الثورة الجديدة أن يزيد بن المهلب استطاع الهروب من السجن الذى كان يمضى فيه مدة العقوبة بسبب ما ارتكبه وذلك بأمر من الخليفـــة الراحل حينئذ هرب يزيد من السجن خوفا من قسوة الخليفة الجديد " يزيد بن عبد الملك" ووصل المهلب الى البصرة والتجأ عند قومه الأزد وأعلـــن الثورة على الدولة الأموية . على أثر ذلك اتجه وفد الى المهالبة برياسة الوالى " عدى بن أرطأة " وفى مقدمة الوفد " الحسن البصرى " لاقناعهم بالعدول عن الثورة .

وفى هذه المناسبة تكلم الحسن بكلام بليغ قال عنه أحد أعضاء الوفد : ما تمنيت كلاما قط أحفظه الا كلام الحسن يومئذ . كيف لا .. ونحن نعرف فيما ذكرنا رأى الحسن فى " الثورة على الحاكم " وأنها كثيرا ما يكون ضررها أكثر من نفعها .

خاطب عبد الملك بن المهلب الوفد قائلا : " انكم وطأتم عديا على هلاكنـــا وليست طاعته بواجبة علينا . فانبرى له الحسن ردا عليه : " كذبت " وعندئذ غضـب ابن المهلب وقال سابا الحسن : أتكذبنى يا ابن اللخنـــاء ؟ ، وأخذ بقائـــم سيفه وقال : والله لولا أن أعير بقتلك فى منزلك لضربت عنقك ، فانك عبد غـــررت أهل المصر يتخاشعك ، وقد حمقت نفسك ، وعدوت طورك وقدرك . ومضى فى ثورتــه لولا أن هداه المفضل بن المهلب والحسن ساكت .

ولعل الحسن كان ينظر الى ثورة ابن المهلب بقلق شديد خصوصا وأن الخليفة التقى عمر بن عبد العزيز كان قد حبس يزيد بن المهلب لفساده ولأنه ان تولى أموال المسلمين فسينفقها فى ملذاته ومرضاته . لم يكتف الحسن بذلك بل ذهب الى المجتمع الذى جمعه يزيد ليخطب فيهم ويدعوهم الى الثورة على الحاكم حينئذ قال الحسن ليزيد وهو يخطب : " والله لقد رأيناك واليا وموليا عليك فما ينبغى لك ذلك " .

وشب من حوله تلاميذه يأخذون بيده وفمه وأجلسوه .

وكان من خطبة يزيد . الدعوة الى سنة العمرين مدعيا أنه يعمل بها ورد عليه الحسن أيضا على ذلك : " رجوعا الى سنة العمرين أن يقاد المهلب الى السجن ويوضع فى جبه " . (١) .

وكان قصد ابن عم يزيد أن يقتل الحسن لأن الحسن رد عليه ما دعاه الى قوله للحسن : يا ابن اللخناء . وثار هذا المهلبى ليقتل الحسن لولا أن يزيد منعه وكانا قد ذهبا لتقريب الحسن فخافا من أن يجر هذا القتل انصراف الانصار من حولهم نظرا لمكانة الحسن بينهم .

وكان الحسن يخطب أهل البصرة أيام هذه الفتنة أو الثورة قائلا : " أيها الناس ، الزموا حالكم وكفوا أيديكم واتقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم بعضا على دنيا زائلة ، وطمع فيها يسير ليس لأهلها بباق وليس الله عنهم فيما اكتسبوا براحم . انه ليكن فتنة الا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التيه والخيلاء . وليس يسلم منها الا المجهول الخفى والمعروف التقى " ..

وبعد ذلك كف الحسن البصرى عن الحديث ضد ثورة ابن الأشعث وابن المهلب وطالب الناس بمبدأ السكينة والتضرع . والحق أنه استمد ذلك من روح القرآن الكريم وسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام .

ويرى الحسن كما عرفنا سابقا أن وجود الحاكم أمر ضرورى ومادام يقيم هذه الأمور الأربعة فمعالم الثورة . ألا وهى : الحكم ، والفىء ، والجمعة ، والجهاد . وبعد هذا يطلب منه أن يعدل فى الرعية ويترفق بهم . وعلى الرعية أن تقابل ذلك بالصبر لأن أثرا الظلم — فى نظره — أقل خطرا من تفريق كلمة المسلمين وتمزيق وحدتهم مما يجعل الغير يطمع فيهم ويستعمرهم . (٢)

فعل الحسن هذا لعدة اعتبارات منها : أخذه العبرة والعظة من مقتل سيدنا عثمان وتفريق كلمة المسلمين بعده فخشى أن تعود هذه الروح الملتهبة مرة أخرى فعمل على تهدئتها والعمل على الأخذ بيد الأمة من الحديث عن الأشخاص الى الحديث عن المبادئ ، كما أن القائمين على الثورة — فى نظر الحسن — لم يكونوا على دين قويم وليست بثورتهم لله (٣) ، الى غير هذا من الاعتبارات الكثيرة المعقولة ..

---

(١) ، (٢) ، (٣) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٥ ص ٣٢٥ وما بعدها ، وتفسير القرآن للطبرى ج ٦ ص ٢ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ص ٢٨٠ وما بعدها ، والطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٦٣ — ١٦٦ ، ١٧٢ ، والحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٧ ، والبيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٢٧٧ ، والحسن البصرى للدكتور احسان عباس ، وبحث عن الحسن البصرى للشيخ باشا أعيان بمجلة العربى العدد ١٤٧ ، وتاريخ الذهبى ج ٤ ص ١١٩ ..

موعظة الحسن للحكام :

بعد أن عرفنا موقف الحسن من الثورات الداخلية ضد حكام الدولة نذكر طرفا من موعظة الحسن لهؤلاء الحكام لئلا يتبادر الى الأذهان أنه كان ينافق الأحداث جنوحا الى السلامة كما يفعل الكثير من العلماء فى كل زمان .

ومن هذه المواعظ التى كان لها فعل السحر فى القلوب لأنها تصدر عن قلب مفعم بالحب والاخلاص لدينه ومجتمعه ما يلى :

لما تولى خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز أمر الخلافة أرسل الى الداعية المخلص الحسن البصرى يطلب منه أن يصف له الامام العادل حتى يسير عليها فكتب اليه الحسن يقول :

صفة الامام العادل : " اعلم يا أمير المؤمنين : أن الله تعالى جعل الامام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف . والامام العادل يا أمير المؤمنين : كالراعى الشفيق على ابله ، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ويكتنفها من أذى الحر والقر . والامام العادل يا أمير المؤمنين : كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته .

والامام العادل يا أمير المؤمنين : كالأم الشفيقة ، البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرها ووضعته كرها ، وربته طفلا ، تسهر بسهره وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته . والامام العادل يا أمير المؤمنين : وصى اليتامى ، وخازن المساكين يربى صغارهم ، ويمون كبيرهم .

والامام العادل يا أمير المؤمنين : كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده .

والامام العادل يا أمير المؤمنين : هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلامه ويسمعهم وينظر الى الله ويريهم ، وينقاد الى الله ويقودهم .

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال وشرد العيال ، فأفقر أهله وفرق عياله . واذكر يا أمير المؤمنين : الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين : أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك فى قعره فريدا وحيدا ، فتزود له ما يصحبك : " يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه " . واذكر يا أمير المؤمنين : اذا بعثر من فى القبور ، وحصل ما فى الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها .

فالآن يا أمير المؤمنين : وأنت فى مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم فى عباد الله بحكم الجاهلية ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فانهم لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك . وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين ينعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم باذهاب طيباتك فى آخرتك . لا تنظر الى قدرتك اليوم ، ولكن انظر الى قدرتك غدا ، وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم . انى يا أمير المؤمنين ، وان لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولو النهى من قبلى ، فلم آلك شفقة ونصحا ، فأنزل كتابى اليك كمداوى حبيبه . يسقيه الأدوية الكريهة . لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته " (١) .

فهذه الرسالة من قلب الحسن لا شك أنها تصل فورا وبدون استئذان الى قلب الخليفة التقى عمر بن عبد العزيز والى كل قلب مؤمن . ولم تكن مجرد موعظة ألقيت للاستهلاك المحلى كشأن آلاف المواعظ التى تلقى وينتهى مفعولها عقب الانتهاء من سماعها . ولكن رسم الحسن — رحمه الله — فى هذه الموعظة الخطوط العريضة لما يجب أن يكون عليه حاكم الدولة نحو الرعية . بما جعل الموعظة باقية الى اليوم والى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٣٩ ، والحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٦ .

وكما يقول الدكتور عبد الرازق حميده فى وصف هذه الرسالة أو الموعظة .

(ولو أن فيلسوفا أخلاقيا تخير حاكما لمدينة فاضلة ما اختار الا ما وصفه الحسن البصرى حاكما ، يصلح حياتها ويجعلها نعيما) .(١)

من أجل هذا يقتضينا المقام أن نلقى نظرة عابرة على أهم محتويات هذه الرسالة وحينما نفعل ذلك نجد أنها بينت فكرة فى الخلافة لم تألفها منذ عهد الخلفاء الراشدين . فالخليفة ملجأ للناس ، وقد مثله الحسن البصرى فى هذه الرسالة بأنه الراعى الشفيق أو الأب الحانى ، أو الأم الرفيقة ، وهو أيضا وصى اليتامى والخازن للمساكين ، ويبين بأنه فيهم بمنزلة القلب من الجسد يصلح بصلاحه ويفسد بفساده . وهو أولى الناس باتباع أوامر الله وحمل غيره عليها ، على هذا فليكن أحرص الناس على الحدود ، وعلى تذكر الموت قبل حلول الأجل ، وليعمل عملا صالحا يرجو به ثواب الله فى الدار الآخرة . معنى هذا أن الخليفة خادم للأمة متحمل لأعبائها حتى أن الشعراء فى عهد عمر بن عبد العزيز لم يستطيعوا بسبب نصيحة العالم للراعى واستجابة الأخير للنصيحة أن يخرجوا عن هذا الاطار ... والدليل على هذا ما يقوله أحدهم وهو كثير :

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف ∴ تبريا ، ولم تقبل اشارة مجرم
وصدقت بالفعل المقال مع الذى ∴ أتيت ، فأمسى راضيا كل مسلم

ويقول جرير :

أنت المبارك والمهدى سيرته ∴ تعصى الهوى وتقوم الليل بالسور(٢)

وبلغ من تأثر الخليفة التقى — عمر بن عبد العزيز — بمواعظ الداعية الى الله الحسن البصرى أنه أرسل ذات يوم الى عامله بالبصرة عدى بن أرطاة هذه الرسالة يقول فيها : (وأيم الله لحسبك بالحسن " البصرى " فاذا أتاك كتابى هذا فسل الحسن لى ولك وللمسلمين .. فرحم الله الحسن ، فانه من الاسلام بمنزل ومكان ، ولا تقرئنه كتابى هذا ..) .(٣)

وليست رسائل الحسن الى الخليفة على وتيرة واحدة بل من رسائله أو مواعظه ما هو متوسط كالذى ذكرناها سابقا ومنها ما هو قصير كرسالته اليه يوما يقول :

---

(١) أدب الخلفاء الأمويين للدكتور عبد الرازق حميده ص ٢٣٠ ، مكتبة الانجلو المصرية — ١٩٤٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣١ .
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٠١ .

(أما بعد : فكأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل والسلام) ، وأخرى يقول فيها :
(ان فيما أمرك الله بـه شغلا عما نهاك عنه . والسلام ، وكتب اليه مرة يعزيه في ابنه عبد الملك ببيت من الشعر وهو :

وعوضت أمرا من فقيد فلم يكن ∴ فقيدك لا يأتي وأجرك يذهب .. (١)

ومن رسائله الى عمر ما هو طويل مثل هذه الرسالة التى سنجتزئ بعضا منها :
(اعلم أن التفكر يدعو الى الخير والعمل به ، والندم على الشر يدعو الى تركه ، وليس ما يفنى وان كان كثيرا يعدل ما يبقى وان كان طلبه عزيزا ، واحتمال المؤنة المنقطعة التى تعقب الراحة الطويلة خير من تعجيل راحة منقطعة تعقب مؤنة باقية ، فاحذر هذه الدار الصارعة الخادعة الخاتلة التى قد تزينت بخدعها ، وغرت بغرورها ، وقتلت أهلها بأملها ، وتشوقت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلوة . العيون اليها ناظرة ، والنفوس اليها عاشقة ، والقلوب اليها والهة ، ولألبابها دامغة ، وهى لأزواجهم كلهم قاتلة . فلا الباقى بالماضى معتبر ، ولا الآخر بما رأى من الأول مزدجر ، ولا اللبيب بكثرة التجارب منتفع ، ولا العارف بالله والمصدق له حين أخبر عنها مدكر . فأبت القلوب لها حبا ، وأبت النفوس لها الا ضنا ، الى آخر هذه الرسالة)(٢) . هذه هى الموعظة الحسنة كما يراها وعاشها الحسن البصرى فى دعوته الى الله تعالى وتبليغ رسالة نبيه عليه الصلاة والسلام .

أرسل اليه الحجاج بن يوسف الثقفى — وكان واليا على البصرة — يوما قائلا له : " ما تقول فى على وعثمان ، وهو يريد النيل من على ، فأجابه الحسن : " أقول قول من هو خير منى عند من هو شر منك " . قال فرعون لموسى : (ما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) وقد بلغ من تعريض الحسن بالحجاج مبلغا وصل من التلميح الى التصريح دون أن يخاف بطشه . فقال يوما — رحمه الله — والحجاج يبنى مدينة واسط التى مات فيها : " يعمد أحدهم الى قصر فيشيده ، والى فرش فينجده والى ملابس ومراكب فيحسنها ، ثم يحف به ذباب طمع ، وفراش نار ، وأصحاب سوء فيقول : " انظروا ماذا صنعت .. ؟ فقد رأيناك أيها المغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين . الى آخر ما قال .. (٣) .

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ص ٩٦ — ٩٨ ، وأمالى المرتضى — القسم الاول ص ١٦٢ وما بعدها .
(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبى نعيم الأصبهانى ج ٢ ص ١٣١ — ١٤٥ ، الطبعة الأولى : (١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م) .
(٣) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٣ وما بعدها .

وروى ابن خلكان فى وفيات الأعيان قال : " لما ولـــى عمر ابن هبيرة الفزارى العراق ، وأضيفت اليه خراسان ، وذلك فى أيام يزيد بن عبد الملك ، استدعى الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، والشعبى ، وذلك فى سنة ثلاثة ومائة فقال لهـــم : ان يزيد خليفة الله استخلفه على عباده ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولانى ما ترون ، فيكتب الى بالأمر من أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمـــر فما ترون ؟ قال ابن سيرين والشعبى قولا فيه تقية ، قال ابن هبيرة : ما تقول يا حسن ؟ فقال : يا ابن هبيرة خف الله فى يزيد ولا تخـــف يزيد فى الله ، ان الله يمنعك مـــن يزيد ، وان يزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث اليك ملكا فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك الى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك الا عملك . يا ابن هبيرة .. ان تعص الله فانما جعل الله هذا السلطان ناصرا لدين الله وعباده ، فلا تركبن دين الله وعباده لسلطان الله ، فان لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق " . فأجازهم ابن هبيرة ، وأضعـــف جائزة الحسن ، فقال الشعبى لابن ســيرين سفسفنا له فسفسف لنا " .

هذا هو المنهج الذى سار عليه الحسن البصرى فى دعوته الى الله تعالـى ، فى ضوء ما جاء به القرآن الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وكان — رحمه الله — فوق كل هذا قدوة طيبة لغيره لأن القدوة لها أثر كبـــير فى نشر رسالة الاســلام .

قال تعالى فى محكم تنزيله : " لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة .. (١) " وقال أيضا : " وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكـم عنه .. (٢) " .

معنى هذا أن يكون القدوة الطيبة للداعية المخلص الرسول صلى الله عليه وسلم . وأن يتفق سلوك الداعى الى الله سبحانه وتعالى الداخلى مع سلوكه الخارجى . اذ أنه تربى والتربية بالفعل أجدى وأنفع على الانسان من التربية بالأقوال وصدق الامـــام الغزالى فى قوله : " على رجل فى ألف رجل خير من كلام ألف رجل فى رجـــل "

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢١ .
(٢) سورة هود آية رقم ٨٨ .

والحسن البصرى رحمه الله كان قدوته دائما المصطفى صلى الله عليه وسلم . يظهر لنا هذا بوضوح حينما تحدثنا عن حياته وتكوين شخصيته فى الباب الثانى من الرسالة وعلى سبيل المثال : قيل ليونس بن عبيد : " هل رأيت رجلا يعمل بعمل الحسن البصرى — قال : رحم الله الحسن والله ما أعلم أحدا يقول بقوله فكيف يعمل بعمله كان والله اذا ذكرت النار عنده كأنها لم تخلق الا له . واذا ذكرت عنده الجنة كأنها لم تخلق الا لغيره " . لهذا كان دائما قلبه حيا ولم يكن ميتا . قال مالك بن دينار : قلت للحسن ما عقوبة العالم اذا أحب الدنيا ؟ قال : موت القلب ، فاذا أحب الدنيا طلبها بعمل الآخرة ، فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم ويبقى عليه رسمه (1) .

وكتب اليه مرة الخليفة التقى عمر بن عبد العزيز : كيف حبك الدنيا والدرهم قال : لا أحبهما . فكتب اليه : تول فانك تعدل (٢) .

وهكذا كان الحسن دائما بعيدا عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها . ولذا كان أيضا قدوة لغيره من الدعاة الى الله تعالى كما كان الحسن البصرى دائم المقارنة بين عصر الراشدين ، وما آل اليه أمر المسلمين . ولا شك أن هذه المقارنة لها تأثير كبير فى النفوس . وكان — رحمه الله — اذا تكلم فى هذا الموضوع أثار الأشجان وأعاد الى الأذهان حياة الخلافة الراشدة .

فبعد أن يذكر الناس بأحوالهم التى وصلوا اليها يقودهم بعد هذا الى عهد الصحابة عليهم رضوان الله تعالى فيقول : " انما دين أحدكم لمعة على لسانه اذا سئل أمؤمن أنت بيوم الحساب ؟ قال : نعم كذب ومالك يوم الدين . ان من أخلاق المؤمن قوة فى دين وايمانا فى يقين وعلما فى حلم وحلما فى علم وكيسا فى رفق وتحملا فى فاقة ، وقصدا فى غنى ، وشفقة ، ورحمة لمجهود ، وعطاء فى الحقوق ، وانصافا فى الاستقامة لا يحيف على من يبغض ولا يأثم فى مساعدة من يحب ، ولا يهمز ولا يغمز ، ولا يلمز ، ولا يلهو ، ولا يلغو ، ولا يتجاوز فى القدر ، ولا يسر بالمعصية اذا نزلت بسواه . المؤمن فى الصلاة خاشع والى الركوع سارع قوله شفاء وصبره تقى وسكونه فكره ونظره عبرة . يخالط العلماء ليعلم ويسكت بينهم ليسلم ، ويتكلم ليغنم . ان أحسن استبشر ، وان أساء استغفر ، وان عتب استعتب وان سفه عليه حلم وان ظلم صبر وان جير عليه عدل ، ولا يعوذ بغير الله ، ولا يستعين الا بالله ... ، وقال الحسن :

(١) البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير ج ٩ ص ٢٦٨ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ٢٧٥ .

أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف لو رأيتموهم قلتم مجانين ولو رأوا أخياركم قالوا : ما لهؤلاء من خلاق • ولو رأوا أشراركم قالوا : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب •• [1] • وقال الحسن : والله لقد أدركت أقواما ما طوى لأحدهم فى بيته ثوب قط ، ولا أمر فى أهله بصنعة طعام قط ، وما جعل بينه وبين الأرض شيئا قط ، وان كان أحدهم ليقول : لوددت أنى أكلت أكلة فى جو فى مثل الآجرة • [2] ويقول : بلغنا أن الآجرة تبقى فى الماء ثلاثمائة سنة • ولقد أدركت أقواما ان كان أحدهم ليرث المال العظيم قال : وانه لمجهود شديد الجهد ، قال : فيقول لأخيه : يا أخى انى قد علمت أن ذا ميراث وهو حلال ولكنى أخاف أن يفسد علىّ قلبى وعملى فهو لك لا حاجة لى فيه ، قال فلا يرزأ منه شيئا أبدا وانه مجهود شديد الجهد •••

أسلوب الحسن فى الدعوة الى الله تعالى :

أسلوب الحسن البصرى فى الدعوة الى الله تعالى • له مظاهر معينة نجملها فيما يلى :

يتميز أسلوب الحسن فى خطبه ، ومواعظه ، ورسائله •• بكثرة الحذف والاكتفاء بأقل قدر ممكن من الكلام ، وكثرة الصيغ الاستفهامية ، وقصر الفقرات ، والمزاوجة بين الأسلوب الخبرى والانشائى ، ووفرة أدوات التوكيد والتكرار اللفظى ، وعدم الربط بين الفقرات غالبا فتبدو كل فقرة موعظة مستقلة بذاتها ، هذا الى كثرة ورود التحذير والاغراء فيه ، والقسم • ويتمثل هذا كله فى الموعظة التالية :

" يا ابن آدم ، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا • يا ابن آدم ، اذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، واذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم به • الثواء ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أمتكم آخر الأمم وأنتم آخر أمتكم • وقد أسرع بخياركم ، فماذا تنتظرون ؟ المعاينة ؟ فكأن قد • هيهات ، هيهات ، ذهبت الدنيا بحاليها ، وبقيت الأعمال قلائد فى أعناق بنى آدم فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة • أما أنه والله لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبى بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم ، وانما ينتظر بأولكم أن يلحق آخركم • من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا رائحا ،

---

(١) الكواكب الدرية للمناوى — ترجمة الحسن البصرى ، والحسن البصرى لابن الجوزى ص ١٩ •

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ ٢ ترجمة الحسن البصرى •

لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة . رفع له علم فشمر اليه . فالوحاء الوحاء ، والنجاء النجاء . علام تعرجون ؟ أتيتم ورب الكعبة قد أسرع بخياركم وأنتم كل يـــوم ترذلون ، فماذا تنتظرون ؟ "(١) .

كما يتميز أسلوب الحسن أيضا : بكثرة الالتفات الجرى " الحاد الفاجـــئ السريع . ويظهر هذا بوضوح فى كلمـته بعد زيارته لقصر الحجاج بن يوسف الثقفى . وهذه الكلمة عرضناها سابقا فى نماذج نجـــــتزئ منها ما يلى : " ان الملوك ليرون لأنفسهم ، وانا لنرى كل يوم فيهم عبرا ، يعمد أحدهم الى قصر فيشـيده ، والى فرش فينجده ، والى ملابس ومراكب فيحسنها ، ثم يحف به ذباب طمع ، وفـراش نار ، وأصحاب سوء فيقول : انظروا ما صـــنعت ؟ فقد رأيناك أيها المغرور ، فكـان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ .. (٢) .

وما يتميز به أسلوب الحسن كذلك فى كلامه . كثرة الاقتباس من القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وفى بعض الأحيان يتمثل الحسن ببعض الحكم وبأقوال الصالحين ، خاصة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . قال الحسن البصرى لثابت البنانى فى مرضـه مرضها : أوصنى ، فقال : أوصيك بيوم " ترجعون فيه الى اللـــــه ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلـمون "(٣) . قال : فقال الحسن : " انا للــه وانا اليه راجعون "(٤) آيـة من كتاب الله جل وعز ، كأنى ما سمعت بها الا الساعة يسترجع على غفلته ونسيانه .(٥) وقال الحسن : " لا يزال العبد بخير ما علم ما الذى يفسد عليه عملـــه "(٦) . وقال : " ان المنافق أساء وتمنى ، وان المؤمن أحســـن وأشفق ، ثـــم قرأ " ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى "(٧) . وقـــال الحسن البصرى فى موعظة له : " .. لو تكاشفتم ما تدافنتم ، تهاديـــتم الأطبـــا ق ولم تتهادوا النصائح . قال ابن الخطاب : رحم الله مرءا أهدى الينا مساوينـــا . أعــــدوا الجواب فانكم مسئولون . المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه ولكنه أخــذه من قبل ربه ، ان هذا الحق قد جهد أهله وحال بينهم وبين شهواتهم ، وما يصـــبر عليه الا من عرف فضله ، ورجا عاقبته ، فمن حمد الدنيا ذم الآخرة ، وليس يكره لقاء اللــه الا مقيم على سخطه .. "(٨)

(١) البيان والتبيين للجاحظ - تحقيق الأستاذ حسن السندوبي ج ٣ ص ٧٦ .

(٢) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٣ . (٣) سورة البقرة آية ٢٨١ (٤) سورة البقرة آية ١٥٦

(٥) ، (٦) ، (٧) الرعاية لحقوق الله للمحاسبى ص ٦١ ، ١٨٥ - الطبعة الثالثة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م . والآية من سورة فصلت رقم ٥٠ .

(٨) البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ٧٧ .

ويظهر من أسلوب الحسن اهتمامه بالأفكار والمعاني لأنها هي التي تدخل في القلوب دون استئذان . وهذا لا يجعله يهتم كثيرا بالزخرف اللفظي ، ولذا كان الحسن لا يتكلف السجع أبدا . ومع هذا فبسبب مقدرته على الكلام أو الكتابة فقد كان اللفظ يجيء في صورة بديعة كأنه تكلف ذلك .

قال الحسن البصري : " أيها الناس انكم لا تنالون ما تحبون الا بترك ما تشتهون ولا تدركون ما تأملون ، الا بالصبر على ما تكرهون .. الصبر كنز من كنوز الجنة ، وانما يدرك الانسان الخير كله بصبر ساعة .. "(١) .

وكان الحسن البصري متؤثرا بالسور المكية التي تبرز موقف الناس يوم القيامة . وقد عرفنا كمثال لذلك فيما سبق كيف ألقى الحسن الضوء " الهاكم التكاثر " . وهكذا في معظم السور المكية .

ومما يتميز به أسلوب الحسن الحدة في اللفظ ، والاندفاع في التعبير ، ويجنح أحيانا الى ألفاظ التصنيف والذم مثل : لكع وفاسق ، ومغرور ونحو ، كالذى وجدناه في الأمثلة السابقة . خاصة حينما دخل قصر الحجاج ... وكقوله أيضا من كلام له : " مؤمن متهم ، وعلج مغتم ، وأعرابي لا فقه له ، ومنافق مكذب ، ودنياوى مترف نعق بهم ناعق فاتبعوه ، فراش نار ، وذبان طمع "(٢) .

ومثل خطبته الرائعة التي كان يثبط بها همم أهل البصرة في عدم المشاركة لقتال أهل الشام مع يزيد بن المهلب حتى تمنى الخطيب المشهور وهو عبد الله بن عبد الله بن الأهتم أن يحفظ كلامه ومن هذه الخطبة : " والله لقد رأيناك واليا ومولى عليك فما ينبغي لك ذلك " ، ومنها : " انما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يسرح بها الى بني مروان يريد بهلاك هؤلاء رضاهم ، فلما غضب غضبة نصب قصبا ثم وضع عليها خرقا ثم قال : انى خالفتهم فخالفوهم . قال هؤلاء : نعم . وقال : انى أدعوكم الى سنة العمرين ، وان من سنة العمرين أن يوضع قيد في رجله ثم يرد الى محبس عمر الذى فيه حبسه . الى آخر ما قال ..

---

(١) الحسن البصري لابن الجوزي ص ٢٣ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ١٣٦ ، الخطابة العربية في عصرها الذهبي للدكتور احسان النص ص ٢٧٢ ، تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

وهذا انعكاس لطبيعة الحسن الحادة المنيفة بسبب العصر الذى عاش فيـــه وقد عرفنا فى الباب الأول من الرسالة ماذا كانت طبيعة هذا العصر . ويذكر الدكتـور النص أن الحسن البصرى استطاع من طريق الأفكار التى كانت تشتمل عليها مواعظـــه ، ومن طريق الأسلوب الشيق الذى كان يتخذه أداة لعرض أفكاره هذه ، وبفضل طريقتـه الحماسية الخاصة فى القاء مواعظه وسمته المهيب ، استطاع من طريق هذا كله أن ينفذ الى قلوب سامعيه وأن يبلغ من نفوسهم كل مبلغ ، فما كانوا ينصرفون من حلقته الا بقلوب واجفة وعيون دامعة .

وكانت مواعظه تبعث فى نفوسهم النفرة من الدنيـــا ، والزهد فى حطامها فيخرجون من مجلسه ولا يعدون الدنيا شيئا . ولم يكن أثر هذه المواعظ مقصورا على عامة النـاس وحدهم ، بل كان يشاركهم فى ذلك كبار الفقهاء والعلماء والوعاظ .

وقد أقر فقهاء مكة حين سمعوا كلامه أنهم لم يروا مثل الحسن قط . وكان اذا ذكر عند محمد بن على بن الحسين قال : " ذاك الذى يشبه كلامه كلام الأنبيـاء " (١)

الموضوعات التى تناولها الحسن فى دعوته الى اللــه :

بعد أن عرفنا منهج الحسن البصرى فى دعوته الى الله تعالى . نتعرف علـى الموضوعات التى كان يتناولها فى تبليغ هذه الرسالة العالمية وهذه الموضوعـــات كثيرة ومتنوعة . لأن الحسن — رحمه الله — كما أوضحنا سابقا كان يسخر كل امكانياتـه لأجل هذه الدعوة المباركة ولكننا مع تشعب هذه الموضوعات المختلفة نضع بين يـدى الباحثـــين نماذج من هذه الموضوعات حتى يتضح لنا اهتمام الحسن فى أداء هذه الأمانة التى حملها على عاتقــه .

منها : تركيزه على حقيقة الموت والتزود للآخـرة :

جعل الحسن البصرى بؤرة دعوته تقوم على تذكير الناس بحقيقة الموت الرهيـــب وتجليتـــه أمام الأنظـــار . ولهذا كانت دعوته كثيرا ما تجنح الى ذم الدنيـــا ومتعها الزائلة وما فعل الحسن ذلك الا ليحول بين الفرد والانحراف فى تيـــار متع الحياة كما جعل الحسن الآخرة بؤرة دعوته والتى يوصل اليها الموت .

(١) الخطابة العربية فى عصرها الذهبى للدكتور احسان النص ٣٧٣ ، حلية الأوليـاء لأبى نعيم ج ٢ ص ١٥٨ ، ١٤٧ ، طبقات ابن سعد ج ٧ — ترجمة الحسن البصرى .

ومما قاله فى ذلك فى رسالة طويلة أرسلها الى عمر بن عبد العزيز : (.. والله لو كانت الدنيا من أراد منها شيئا وجده الى جنبه من غير طلب ولا نصب غير أنه اذا أخذ منها شيئا لزمته حقوق الله فيه وسأله عنه ووقفه على حسابه لكان ينبغى للعاقل أن لا يأخذ منها الا قدر قوته وما يلقى ، حذر السؤال وكراهية لشدة الحساب . وانما الدنيا اذا فكرت فيها ثلاثة أيام ، يوم مضى لا ترجوه ، ويوم أنت فيه ينبغى لك أن تغتنمه ، ويوم يأتى لا تدرى أنت من أهله أم لا ؟ ولا تدرى لعلك تموت قبله . فأما أمس فحكيم مؤدب ، وان كنت قد أضعته فقد جاءك خلف منه وقد كان عنك طويل المغيبة وهو الآن عنك سريع الرحلة ، وغدا أيضا فى يديك منه أمله . فخذ الثقة بالعمل ، واترك الغرور بالأمل قبل حلول الأجل ، واياك أن تدخل على اليوم هم غد أو هم ما بعده — زدت فى حزنك وتعبك وأردت أن تجمع فى يومك ما يكفيك أيامك ، هيهات كثر الشغل وزاد الحزن وعظم التعب وأضاع العبد العمل بالأمل . ولو أن الأمل فى غدك خرج من قلبك أحسنت اليوم فى عملك ، واقتصرت لهم يومك ، غير أن الأمل منك فى الغد دعاك الى التفريط ، ودعاك الى المزيد فى الطلب ولئن شئت واقتصرت لأصفن لك الدنيا ساعة بين ساعتين ساعة ماضية ، وساعة آتية ، وساعة أنت فيها . فأما الساعة الماضية والباقية فليس تجد لراحتهما لذة ، ولا لبلائهما ألما . وانما الدنيا ساعة أنت فيها فخدعتك تلك الساعة عن الجنة وصيرتك الى النار ، وانما اليوم ان عقلت ضيف نزل بك وهو مرتحل عنك فان أحسنت نزله وقراه سهر لك وأثنى عليك بذلك وصدق فيك ، وان أساءت ضيافته ولم تحسن قراه جال فى عينيك ..) (١) .

هذه هى حقيقة الدنيا فى نظر الحسن البصرى — رحمه الله — وأن الموت آت لا ريب فيه .. ولذلك كان يقول : " ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من يقيننا بالموت وعملنا لغيره " . من أجل هذا كان الحسن — رحمه الله — يركز على عدم الاغترار بالدنيا كما يركز على التزود بالآخرة .. " وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون " . وفى هذا المعنى يقول الحسن البصرى : " يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا ، يا ابن آدم . اذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، واذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم عليه " (٢) .

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ج ٢ ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٢) الغبطة : حسن الحال ومعناه أن تتمنى ما لغيرك دون أن ترد زواله وفى الحديث : أقوم مقاما يغبطنى فيه الأولون والآخرون .

الثواء[1] هنا قليل ،والبقاء هناك طويل ، ذهبت الدنيا بحا ليها[2] وبقيت الأعمال قلائد فى أعناق بنى آدم ، فيالها[3] موعظة لو وافقت من القلوب حياة .. أتيتم ، ورب الكعبة ، قد أسرع بخياركم ، وأنتم كل يوم ترذلون[4] . فماذا تنتظرون ؟ يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فانها عما قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك .

لقد صحبت أقواما ما كانت صحبتهم الا قرة العين[5] ، وجلاء الصدر ، ولقد رأيت أقواما كانوا من حسناتهم أشفق من أن ترد عليهم ، منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم عليكم منها . لو تكاشفتم[6] ما تدافنتم ، تهاديتم الأطباق ولم تتهادوا النصائح " .

فى هذا النص للحسن البصرى الذى دعا فيه الى التزود للآخرة نلمح ما يأتى :
حض الحسن — رحمه الله — على ايثار الآخرة على الأولى — الدنيا — فان من ترك الأولى رغبته فى الآخرة ، فاز بالأولى والآخرة ، ومن أكل بدينه وجعله مطية لنيل الدنيا خسر الدين لأنه تعدى حدوده ، وخسر الدنيا لأنها فانية لا بقاء لها . وحض على التنافس فى الخير ، فعلى المؤمن اذا رأى أحدا يعمل الخير أن يتخذه أسوة وينافسه فيه ، كما نهى عن الانزلاق فى الشر مهما كان أصحابه فى سعادة ، ورفاهية عيش ، لأن عاقبة الشر وخيمة .

ولم يترك الحسن هذا الكلام على علاته . بل علل ذلك بأن الدنيا دار ممر ، والآخرة دار مقر وأن كل ما فى هذه الحياة الفانية التى لا بقاء لها سواء كان خيرا أم شرا ذاهب ،ولا يبقى للانسان الا عمله الصالح يطوقه يوم القيامة فيكون له قلادة جميلة أو غلا قاتلا والمعاذ بالله . ثم نظر الحسن الى الناس نظرة فاحصة . ونبههم الى أن الشر جاءهم ،فقد ذهب الخيار ، وهم كل يوم فى نقصان ،واذا كان الأمر كذلك ، فعلى الانسان أن يكد ويكدح للوصول الى السعادة الحقيقية فى الآخرة ، وعليه أيضا أن يسرع بذلك لأنه لم يبق وقت للانتظار والتمهل ،كذلك لم يبق شىء للانسان ينتظر منه السرور .

---

(١) الثواء : الاقامة . ويريد " بهنا " الدنيا ، و " بهناك " الآخرة . وفى معنى الثواء يقول تعالى : " وما كنت ثاويا فى أهل مدين " .

(٢) أى حال الخير والشر (٣) يا لها : كلمة تعجب .

(٤) ترذلون : هذه المادة تدل على الردىء من كل شىء .

(٥) قرة العين : يريد بهذه الكلمة أنهم كانوا يسرون النفوس . وفى الحديث : وجعلت قرة عينى فى الصلاة . (٦) تكاشفتم : أى علم بعضكم سريرة بعض .

ولما كان فكر الانسان دائما فى الآخرة فانه يرى أن هذه الأرض التى يمشى عليها ستكون له قبرا بعد مدة وجيزة ، وكل ساعة تمر ، بل كل لحظة تمضى هى جزء من عمر الانسان يذهب ، فالانسان دائب فى هدم عمره ..

وهذا يوافق ما قاله الحسن أيضا : " ابن آدم انما أنت عدد فاذا مضى يوم فقد مضى بعضك .

ثم يبدأ الحسن فى مقارنته بين السلف الصالح وبين غيرهم ، فقال : ان الناس الذين صحبهم فيما مضى كانوا قرة العين ، وشفاء لما فى الصدور ، وكانوا يخافون أن ترد عليهم حسناتهم فلا تقبل منهم أكثر مما يخاف هؤلاء الذين يعيشون بيننا أن يعذبوا على سيئاتهم . فهؤلاء يلحون فى الرجاء أن تغفر لهم السيئات . وأولئك يخشون ألا تقبل منهم الحسنات . وشتان ما بين الصنفين . كما كان السلف والخلف من شدة ورعهم أنهم كانوا يزهدون فيما أحل الله لهم من طيبات الحياة الدنيا أكثر مما يزهد الذين يعيشون فى عصره فيما حرم عليهم من الخبائث وفى أواخر النص الذى نحن بصدده أطلق الحسن — رحمه الله — جملة بليغة . لو نظر الانسان فيها بتدبر لعجب من حكمته وبلاغته ، وهى : لوتكاشفتم ما تدافنتم .

حقا انها لجملة بليغة .. فكل منا يستطيع أن يفهم فيها فهما جديدا ومن هذه المعانى التى وردت فى فهم هذه الجملة ما يلى :

منها : " لو علم كل منكم بما يضمره الآخرون له لا ستثقل كل واحد منكم أن يسعى لتشييع جنازة أخيه أو أحد معارفه .

ومنها : لو تكاشف كل منكم عما فى نفسه لأخيه ما تدافنتم الأحقاد والأغلال ونتيجة لذلك يصبح كل منكم سليم الصدر فى حياته .

ومنها : معنى ثالث وهو للأستاذ الدكتور مصطفى التازى : لو علم كل منكم مصير أخيه وما يلقاه فى قبره من السؤال والأهوال لما رضى أن يدفنه شفقة عليه .

ثم تأتى الجملة الأخيرة فى كلام الحسن يتعجب بها من هؤلاء الذين بلغ بهم التفانى فى الحب للدنيا وزخرفها أن يتهادوا فيما بينهم الطيبات من الحياة

فرحين مسرورين • وبلغ بهم البعد عن الآخرة والزهد فيها ألا يتهادوا النصائح التى تنبههم اليها "تهاديتم الأطباق ولم تتهادوا النصائح "(١).

وهكذا نرى فى هذا النص للحسن من الصور البلاغية والاتقان فى الأسلوب حتى يمكننا أن نسميه بالسهل الممتنع •

ومنها : — أى من الموضوعات التى تناولها الحسن فى دعوته — تقوية الوازع الدينى فى الفرد :

هذا الوازع الدينى الذى يقول به الحسن البصرى • هو كذلك الذى يقول به علماء فلاسفة الأخلاق فى عصر العلوم والمعارف المختلفة • ويطلقون عليه "الضمير" • واضطروا الى المناداة به بعد أن أفلست علومهم ومعارفهم أن تهيئ السعادة للانسان • هذا الضمير — الذى يشبه الى حد بعيد ما قاله الحسن — يكون له من السلطان مما يجعل منه مصدرا للمسئولية ورقيبا على الفعل ، ثم مثيبا أو معاقبا عليه •• ونظرة فاحصة فى فعل الانسان نجده يمر بمراحل أو أدوار ثلاثة :

(١) دور تشريع الفعل •

(٢) دور تنفيـــــذه •

(٣) دور المحاسبة للاثابة أو العقاب عليه •

وكل دور من هذه الأدوار له سلطة ترعاه •• وجميعها تتمركز فى هذه القوة الكامنة فى الانسان ألا وهى "الضمير" (٢) فى تسميتهم •

ويوضح هذا المعنى ما روى عن وابصة بن معبد أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أريد الا أدع شيئا من البر والاثم الا سألت عنه ، فقال لى : ادن يا وابصة • فدنوت منه حتى مست ركبتى ركبته فقال : يا وابصة ، أخبرك ما جئت تسأل عنه ؟ قلت يا رسول الله أخبرنى قال : جئت تسأل عن البر والاثم • قلت : نعم • فجمع أصابعه الثلاثة ينكت بها فى صدرى ويقول : يا وابصة ، استفت قلبك ، البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليه القلب ، والاثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ٧٦ ، الأدب وتاريخه فى العصرين الأموى والعباسى للدكتور على العماري ، والأستاذ زكى سويلم •

(٢) العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع للدكتور محمد عبد الرحمن بيصار ص ٢٠٦ — ٢٠٤ •

وان أفتاك الناس وأفتوك • (١)

وقال صلى الله عليه وسلم : " من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن " (٢)
هذا الوازع الدينى أو الضمير كما يقولون لابد وأن يتربى فى ضوء الكتاب والسنة والا فسيضل صاحبه مهما بلغ من الأخلاق • لأن القائلين بالضمير انما يريدون أن يستعيضوا به عن الدين • حقدا منهم وحسدا • وهيهات هيهات لما يمكرون • نعود الى الحسن فنرى الفرد فى دعوته هو الأساس لتغيير كل الأوضاع والمفاسد نظرا لسوء الحكام وتغير الأحوال ومع هذا كان الحسن يؤمن بأن القوة الفاسدة يمكنها أن تغير الأفراد الصالحين الى الفساد (٣) •

ومن أجل هذا نرى الحسن — رحمه الله — كان يركز دائما على الفرد وتربية الوازع الدينى فيه حتى يكون سويا • فبصلاحه تصلح الأسرة وبفساده تفسد الأسرة • كذلك الأسرة بصلاحها يصلح المجتمع وبفسادها يفسد المجتمع •

وعلى سبيل المثال يقول — رحمه الله — فى تربية الفرد : رحم الله امرءا عرف ثم صبر ، ثم أبصر فبصر ، فان أقواما عرفوا فانتزع أبصارهم • فلاهم أدركوا ما طلبوا ، ولاهم رجعوا الى ما تركوا • اتقوا هذه الأهواء المضلة البعيدة من الله التى جماعها الضلالة وميعادها النار لهم محنة ، من أصابها أضلته ، ومن أصابته قتلته • يا ابن آدم دينك دينك فانه هو لحمك ودمك (ان يسلم لك دينك يسلم لك لحمك ودمك) وان تكن الأخرى فتعوذ بالله فانها نار لا تطفى ، وجرح لا يبرأ وعذاب لا ينفد أبدا ، ونفس لا تموت •

يا ابن آدم انك موقوف بين يدى ربك ومرتهن بعملك ، فخذ مما فى يديك (لما بين يديك) • عند الموت يأتيك الخبر ، انك مسئول ولا تجد جوابا ، ان العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همه (٤) •

كذلك بين الحسن البصرى الفرق بين المؤمن الذى يحاسب نفسه ويلومها وبين الفاجر الذى لا يهتم بذلك • فيقول عند تفسير قوله تعالى : " •• ولا أقسم بالنفس اللوامة •• "

---

(١) رواه الامامان أحمد بن حنبل والدارمى فى مسنديهما بإسناد حسن •(جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ص ٢١٩) •مطبعة مصطفى الحلبى •
(٢) حديث حسن عن أبى موسى (طب) • من الجامع الصغير للسيوطى •
(٣) مذكرة الحسن البصرى للأستاذ البهى الخولى •
(٤) حلية الأولياء لأبى نعيم ج ٢ ترجمة الحسن البصرى •

ان المؤمن والله ما نراه الا يلوم نفسه ما أردت بكلمتى ، ما أردت بأكلتى ، ما أردت بحديث نفسى ، وان الفاجر يمضى قدما قدما ما يعاتب نفسه .

وقال جويبر : بلغنا عن الحسن ـ البصرى ـ أنه قال فى قوله : " ولا أقسم بالنفس اللوامة " قال : ليس أحد من أهل السموات والأرضين الا يلوم نفسه يوم القيامة .. الى آخر ما قيل فى ذلك ..(1) .

وكان رضى الله عنه يضرب المثل للمؤمن الذى يربى ويحاسب نفسه . ويقول : روى أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه كان يوقد النار ثم يدنى منها يده ويقول : أنظر يا ابن الخطاب كيف صبرك على النار ؟ وهل لك قدرة على سخط الجبار ؟ ثم يستعيذ بالله من النار ومن عمل أهل النار . ثم يقول الحسن : اذا كان هذا خوف عمر رضوان الله عليه ، وهو ممن شهد له بالجنة ، فكيف أيها الناس تأمنون(2) ، وقد روى المختار بن فلفل عن الحسن ـ البصرى ـ فى تفسير المحاسبة ـ وتربية الوازع الدينى ـ فى مستقبل الأعمال ومستدبرها أنه قال : " ان المؤمن قوام على نفسه يحاسبها الله عز وجل ، وانما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وانما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة . ثم فسر المحاسبة فقال : ان المؤمن يفجؤه الشئ يعجبه ، فيقول : والله انك لتعجبنى ، وانك لمن حاجتى ، ولكن هيهات هيهات ، جمل بينى وبينك . فهذا فى مستقبل العمل .

ثم قال : ويفرط منه الشئ ، فيرجع الى نفسه ، فيقول لها : ماذا أردت بهذا ؟ والله لا أعذر بهذا ، والله لا أعود لهذا ان شاء الله أبدا فهذا فى مستدبر الأعمال ..

ومنها : الحث على مكارم الأخلاق :

من المواضيع التى تناولها الحسن البصرى فى دعوته الى الله تعالى " الحث على مكارم الأخلاق " وفى هذا المعنى يقول رحمه الله : " قضاء حاجة

(1) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٨ .
(2) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٦٣ ، الرعاية لحقوق الله للمحاسبى المتوفى سنة ٢٤٣ هـ ص ٥٨ ـ ٥٩ ـ الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ .

أخ مسلم أحب الى من اعتكاف شهر " . وسأله رجل عن حسن الخلق فقال : " البذل والعفو والاحتمال " . ويقول : " مروءة الرجل صدق لسانه ، واحتمال مؤونة اخوانه ، وبذل المعروف لأهل زمانه ، وكفه الأذى عن جيرانه " . ويقول : " لو شاء الله عز وجل لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم ، ولو شاء لجعلكم فقراء لا غنى فيكم ، ولكن ابتلى بعضكم ببعض لينظر كيف تعملون . ثم دل عباده على مكارم الأخلاق فقال سبحانه وتعالى : " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون "(1) .

ويقول : " عدة الكريم . فعل وتعجيل ، وعدة اللئيم . تسويف وتطويل " .

ويقول : " كنا نعد البخيل فينا الذى يقرض أخاه الدراهم . اذ كنا نتعامل بالمشاركة والايثار . والله لقد كان أحد من رأيت وصحبت يشق ازاره فيؤثر أخاه بنصفه ويبقى له ما بقى ، ولقد كان الرجل ممن كان قبلكم يصوم فاذا كان عند فطره مر على بعض اخوانه فيقول : انى صمت هذا اليوم لله وأردت ان تقبله الله منى أن يكون لك فيه حظ فهلم شيئا من عشائك فيأتيه الآخر بما تيسر من ماء وتمر . فيفطر عنده . يبتغى أن يكسبه أجرا وان كان غنيا عن الذى عنده . ويقول : " احذر من نقل اليك حديث غيرك ، فانه سينقل الى غيرك حديثك " .

ويقول : " ان لأهل الخير علامة يعرفون بها . صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وقلة الفخر والخيلاء ، وصلة الرحم ، ورحمة الضعفاء ، وبذل المعروف ، وحسن الخلق ، وسعة الحلم ، وبث العلم ، وقلة مثافنة النساء(2) "(3) .

ويقول : " ابن آدم عف عن محارم الله تكن عابدا ، وارض بما قسم الله تكن غنيا ، وأحسن جوار من جاورك تكن مؤمنا ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن عدلا ، وأقل الضحك فانه يميت القلب . كما يموت البدن " .

ويقول : " ابن آدم انك لن تجمع ايمانا وخيانة ، كيف تكون مؤمنا ولا يأمنك جارك ؟ أو تكون مسلما ولا يسلم الناس منك ، أليس قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة الحشر آية رقم ٩

(٢) مثافنة النساء : مجالستهن .

(٣) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٢٢ — ٢٣ .

أنه قال (لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له) . وكان صلى الله عليه وسلم يقول : (ليس يؤمن من خاف جاره بوائقه) .

ابن آدم انك لا تستحق حقيقة الايمان ، حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك ، فأصلح عيب نفسك قبل نظرك فى عيوب الناس ، فانك لن تصلح من نفسك عيبا ، الا وجدت عيبا آخر أنت أولى باصلاحه ، ابن آدم ان تكن عدلا فاجعل لك من عيوب الناس شغلا ، فان أحب العباد الى الله من كان كذلك .

ابن آدم ما أوهنك وأكثر غفلتك ، تعيب الناس بالذنوب ، وتنساها من نفسك ، وتبصر القذى فى عين أخيك وتعمى عن الجذع معترضا فى عينك ، ما أقل انصافك ، وأكثر حيفك " .

ويقول رحمه الله : " العلم خير تراث ، والأدب أزين خدين ، والتقوى خير زاد ، والعبادة أربح بضاعة ، والعقل خير وافد ، وحسن الخلق خير قرين ، والحلم خير وزير ، والقناعة أفضل غنى ، والتوفيق خير معين ، وذكر الموت أوعظ واعظ " .

ويقول : " أيها الناس ما بالنا نتقارب فى العافية واذا نزل البلاء تباينا ، ما هكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نعوذ بالله من خلاف عليهم " .

وقيل له يا أبا سعيد : " ان قوما يحضرون مجلسك يحفظون سقطات كلامك ليعيبوك بذلك . فقال : ياابن أخى لا يكن فى ذلك عليك شىء فانى طمعت نفسى فى دخول الجنان ، ومجاورة الرحمن ، ومرافقة الأنبياء عليهم السلام ، ولم أطمعها فى السلامة من الناس (١) .

ومنها : الحض على التمسك بكتاب الله والعمل به :

قال الحسن البصرى — رحمه الله — : " رحم الله رجلا خلا بكتاب الله وعرض عليه نفسه ، فان وافقه حمد ربه وسأله المزيد من فضله ، وان خالفه تاب وأناب ورجع من قريب " .

---

(١) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٢٤ — ٢٩ ، والبداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير ج ٩ ص ٢٦٨ — ٢٧٤ .

وقال : " أيها الناس ان هذا القرآن شفاء للمؤمنين وإمام للمتقين فمن اهتدى به هدى ، ومن صرف عنه شقى وابتلى . ان من شر الناس أقواما قرأوا هذا القرآن لا يعملون بسنته ولا يتبعون لطريقته ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون .

لقد كان من تقدم يقرأ القرآن ويقوم بالسورة منه طول ليلته فاذا أصبح عرف ذلك فى وجهه ، وان أحدكم يقرأ اليوم القرآن لا يتجاوز لهواته وأنه سبحانه وتعالى يقول : " كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته " أما والله ما هو حفظ حروفه واضاعة حدوده ، وان أحدكم ليقول : قرأت القرآن كله ما أسقطت فيه حرفا ، كذب لعمر الله لقد أسقط كله ، والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ؟ متى كانت القراء تقول مثل هذا ، أن الله سبحانه وتعالى يقول : " سنلقى عليك قولا ثقيلا "[1] يريد جل ثناؤه العمل به ، وقال تعالى : " فاذا قرأناه فاتبع قرآنه[2] " أى حلل حلاله وحرم حرامه .

لقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما استكمل حفظ القرآن من أصحابه رضوان الله تعالى عليهم الا النفر القليل استعظاما له ومتابعة أنفسهم كحفظ تأويله والعمل بمحكمه ومتشابهه .

وقال رحمه الله : " قراء القرآن ثلاثة نفر ، قوم اتخذوه بضاعة يطلبون به ما عند الناس ، وقوم أجادوا حروفه وضيعوا حدوده ، استدروا به أموال الولاة واستطالوا به على الناس — وقد كثر هذا الجنس من حملة القرآن — فلا كثر الله جمعهم ولا أبعد غيرهم ، وقوم قرأوا القرآن فتدبروا آياته وتداووا به " .

وكان — رحمه الله — اذا قرأ القرآن الكريم قرأه بتدبر وتمعن ووقف عند كل آية من آياته . ومن أمثلة ذلك . :

قرأ يوما قوله تعالى : " وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا "[3] ثم قال : سبحان الله ما أوسع رحمته وأعم فضله ، وألطف صنعته ، جعل لمن عجز فى النهار خلفا فى الليل ، ولمن قصر فى الليل خلفا فى النهار " .
وقرأ يوما قوله تعالى : " وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون " . ثم قال : يا عجبا لمن يخاف

(١) سورة المزمل آية ٥ (٢) سورة القيامة آية ١٨ (٣) سورة الفرقان آية ٦٢

ملكا ، أو يتقى ظالما بعد ايمانه بهذه الآية ؟ أما والله لو أن الناس اذا ابتلوا صبروا لأمر ربهم ، لفرج الله عنهم كربهم ولكنهم جزعوا من السيف فوكلوا الى الخوف ونعوذ بالله من شر البلاء " .

وقرأ قوله تعالى : " اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه " . ثم قال : ان العبد اذا قال قولا حسنا ، وعمل عملا صالحا ، رفع الله تعالى قوله بعمله ، وان قال قولا حسنا وعمل عملا سيئا ، رد الله سبحانه القول على العمل " .

وقرأ قوله تعالى : " والذين لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما " ثم قال : عبدا كسب من طيب ، وأنفق قصدا ، وقدم ليوم فقره وشدة حاجته فضلا ثم يقول : وجهوا — رحمكم الله — فضول أموالكم حيث وجهها الله ورسوله ، وضعوها حيث وضعها ، فان الذين كانوا من قبلكم كانوا يأخذون قليلا ويبتاعون من الله جل ثناؤه أنفسهم بالفضل .

وقرأ قوله تعالى : " يوم ينظر المرء ما قدمت يداه " . ثم قال : " ذلك المؤمن الحذر الفطن الكيس ، الذى علم أن له معادا فقدم اليه عملا صالحا ثم قدم عليه فسره وقرأ قوله تعالى : " والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة " . ثم قال : يعملون ما يعملون من بر ، ويقدمون ما يقدمون من خير وهم خائفون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله (1) . الى آخر هذه الموضوعات الكثيرة التى تحدث فيها الحسن البصرى رحمه الله فى دعوته الى الله تعالى والتى يطول المقام عن ذكرها مثل : أهمية العمل الصالح فى المجتمع ، وأثر القناعة فى حياة الفرد ، وكلامه عن السلف الصالح من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وحثه على الاهتمام بالعلم ، والحلم سيد الأخلاق ، وحديثه عن الحسد وأثره ... الخ .

---

(1) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٤٥ — ٤٩ ، والبيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ٧٦ وما بعدها تحقيق الأستاذ حسن السندوبى .

الخاتمـــــة

في ختام هذه الرسالة نستخلص النتائج التي انتهيت اليها ، مع بيـــان تأثيره في عصره والعصور التالية . وامكان الانتفاع بأفكاره وآرائـه في نهضتنا الحديثة :

شهد الحسن البصري في حياته عصرين متباينين . عصر الخلفاء الراشـدين بما فيه من التقرب الى الله سبحانه وتعالى وعدم الانغماس الكامل في دنيا الناس وزخـرف الحياة ، وعصر دولة بني أمية الذي كثرت فيه الفتوحات الاسلامية ، فأدى هذا الـى التحول الحضاري في المجتمع الاسلامي . ويظهر هذا التحول بوضـوح في الأحـــوال الاجتماعية ، والسياسية ، والفكرية . فمن الناحية الاجتماعية أخذ الكثير من المسلمين يقلدون أهل البلاد التي فتحوها . ومما ساعدهم على أخذ هذه العادات ـ كمـا عرفنا سابقا ـ اقتداء بعض خلفاء بني أمية بحـكام الفرس والروم من حيث الأخـــذ بمظاهر الحضارة الأجنبية ، والتمتع بمباهج الحياة والاقبال على ألوان اللهو والترف الى غير ذلك من زينة الدنيا ...

وعلى سبيل المثال كان المسكن ، والملبس ، والطعام ، والشراب .. في عهد الراشدين على حد البساطة ، وعدم التعقيد ولم يكن هذا عن فقر وشدة فقط كما يدعـي البعض وانما كان عن زهد وتقشف . عملا بقوله تعالى : لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم .. " وتأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن في عهد بني أمية أخذ الكثير يعني بهذه المظاهر المختلفة . خاصـة بعد الفتوحات الاسلامية التي تسبب عنها كثرة الأموال في البلاد ، وظهور كثير مـن العادات والتقاليد التي لم تكن موجودة من قبل ...

أما من الناحية السياسية فقد كان حكم الدولة في عهد الخلفاء الراشدين يسير في ضوء الكتاب والسنة . شبرا بشبر ، وذراعا بذراع .

والفتنة الكبرى التي اشتعلت نيرانها في عهد الراشدين لو لم يكن المجتمـع في هذا الوقت تأصلت فيه تعاليم الاسلام الحنيف . لما قام للاسلام قائمة بعدهـا أبدا . ولكن قوة الاسلام في النفوس جعلت الجميع يذعن للحق مهما صال الباطل وجال .

والعاقبة للمتقين ولا عدوان الا على الظالمين .. وحينما جاء العهد الأموى . شهد الناس لونا من الحكم لم يكن يرونه فى عهد الراشدين ذلك أن الحكم كان وراثيا . كما كانت مظاهر الحكم فى بنى أمية من حيث الحجابة والجلوس للناس للمظالم ... غيرما كان عليه الراشدون ..

وعلى سبيل المثال فان عبد الملك بن مروان وضح أن المسموح لهم بالدخول عليه فى أى وقت شاءوا ثلاثة : المؤذن للصلاة ، وصاحب البريد لأمر جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد (١) .

ولم يكن هذا التباين بين العصرين فى كل شئ والا لما نجحت دولة بنى أمية فى كثير من أمورها كما بينا فى الرسالة .

فاذا انتقلنا الى الحياة الفكرية فى هذا العصر نجد أن الطابع العام الذى يتميز به عن غيره هو " الجدل " بدليل الفرق المتعددة التى ضيعت الكثير من أوقات العلماء المخلصين والدعاة الى الله تعالى بسبب الدفاع عن رسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام .

وقد رأينا أن الحسن البصرى — رحمه الله — قد عاش عصره — كما بينا فى الباب الثانى من الرسالة — واستفاد بكل الأحداث التى عاشرها فى دعوته الى الله تعالى . فقد كان صالحا فى نفسه بالاقبال على طاعة الله عز وجل ، والابتعاد عما نهى الله عنه وعدم التعلق بزخرف الحياة الدنيا وزينتها . والأخذ منها ما يعينه على طاعته سبحانه .

ولم يكن صالحا فى نفسه فقط كشأن الكثير من العلماء الذين يركنون الى الراحة والهدوء . دون أن يتجشموا متاعب المجتمع الذى يعيشون فيه . وانما كان أيضا — رحمه الله — مصلحا لغيره . ويظهر هذا جليا فى تصوره لحلقات العلم والمعرفة فى مسجد البصرة الكبير ، والرد على كل الشبهات التى يعرضها الأعداء وغيرهم فى هذه الحلقات ، كذلك اشتراكه بنفسه فى الفتوحات الاسلامية كشأن أى جندى من جنود الجيش المرابطين .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٦ . ٢٠٧ .

هذا الى موقفه من الولاة ونصحهم وارشادهم الى ما فيه الخير للعباد والبلاد بالحكمة والموعظة الحسنة كالحجاج بن يوسف الثقفى وغيره • ولا ننسى موقفه من ثورتى ابن الأشعث ويزيد بن المهلب وهو بهذا يعمل على وحدة المسلمين وعدم تفريق كلمتهم ، والعمل على حقن دماء المسلمين وحفظها من الضياع لكى تكون على استعداد دائم للدفاع عن الاسلام ، وازالة القوى المعادية من أمامه حتى يدخل الى القلوب فى أمن واطمئنان •

كما نجد أن المؤهلات المختلفة التى كونت منه هذه الشخصية السوية من صفات حميدة ، وشيوخ أجلاء •• جديرة حقا بأن تخلق لنا هذا الداعية الموفق •

وقد ظهر لنا فكره الناضج الذى تغذى بالكتاب والسنة وآثار السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم ، فى الباب الثالث من الرسالة ، سواء كان هذا الفكر فى القراءات • فقد أعتبره العلماء من القراء الأربعة عشر • كما أن من تلاميذه مثل : أبو عمرو بن العلاء من السبعة • وصدق فيه قول الامام الشافعى : " لو أشاء أن أقول : ان القرآن نزل بلغة الحسن لقلت لفصاحته " (١) •

ومن هنا ناديت فى هذه الرسالة بالاهتمام بالقراءات ، وذلك بانشاء دراسات عليا حتى يحصل الطالب فيها على أرقى الشهادات بأبحاثه العميقة فى هذا الموضوع ، وحتى لا ندع أى فرصة للمبشرين والمستشرقين يهدمون فى الاسلام باسم المنهج العلمى الحديث ،

ولم يظهر فكر الحسن فى القراءات فقط ، بل ظهر فكره فى التفسير وقد عرفنا نماذج متعددة فيما سبق ،

وفكره فى السنة : عرفنا قيمة مروياته واهتمامه بذلك ، وأن ارساله وتدليسه لا يؤثران فى كونه من رواة أهل الحديث الذين يعتمد عليهم فى رواياتهم •

وفكره فى الفقه الاسلامى الذى يحتاج اليه الناس فى حياتهم الدنيوية ، ضربنا لذلك بعض الأمثال •

---

(١) طبقات القراء لابن الجزرى ترجمة ٧٤ •

وفكره فى العقيدة : تبين لنا كيف كانت نظرته الى الايمان ومرتكب الكبيرة كما حررنا موضوع القدر المنسوب اليه وغير ذلك .

وفكره فى الزهد : ظهر لنا أن زهده لم يكن كاعتقاد عامة الناس هو البعد عن الدنيا والجلوس فى " صومعة " للتعبد فقط . ولكن عرفنا أن زهد الحسن كان فى ضوء الآية الكريمة : " لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم .. "(1) وعرفنا صلة الحسن بالتصوف ، وأن ارتباطه برابعة العدوية لم يصح .

وفكره فى الدعوة الى الله تعالى : كان فى ضوء الآية الكريمة : " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن "(2) . كذلك فى ضوء أقوال وأفعال النبى عليه الصلاة والسلام ، وآثار السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم .

أما تأثيره فى عصره والعصور التالية فيظهر فى هذا التراث الذى تركه الحسن البصري والذى تناقلته الأجيال حتى وصل بعضه الينا ، وهذا البعض جزء منه فى هذا البحث وهو دليل واضح على مدى الاهتمام بهذه الشخصية الفذة التى كانت فى يوم من الأيام فى القرن الرابع الهجرى كأسطورة من شدة التنافس عليها . ذلك لأن الحسن — رحمه الله — كان يميل دائما الى اصلاح الفرد ، والأسرة ، والمجتمع . كما أنه كان يساهم كذلك فى الحفاظ على الدولة وكيانها (3) .. مما حبب فيه الجميع ويريد كل واحد منهم أن يخطب وده ..(4) وهكذا يكون الداعية المخلص لله تعالى يعمل على تجميع الكلمة لا على تفريقها . حتى نرى بعض العلويين لما سمعوا بهذه الآراء من الحسن البصري — التى عرفناها فى الرسالة — غضبوا منه لأنهم يريدون الثورة لتنتقل القيادة الى آل البيت ولقوة شخصيته وتأثيره فى المجتمع الذى يعيش فيه لم يستطيعوا أن يصلوا الى مرادهم . كما ارتفع شأن الحسن بسبب أحد قضاة الدولة العباسية فى عهد المعتصم لأن هذا القاضى كان من نسله ، وتمجيده أحمد بن أبى دؤاد (5) .

---

(1) سورة الحديد آية رقم ٢٣ .

(2) سورة النحل آية رقم ١٢٥ .

(3) شذرات الذهب لابن العماد ج ١ ص ١٣٧ ، والحسن البصرى للدكتور احسان عباس .

(4) تاريخ بغداد للخطيب ج ١٣ ص ٢١٤ .

(5) التنبيه والاشراف للمسعودى ص ٣٥٦ .

وأخذ تأثير الحسن البصري يمتد من حياته الى أن وصل الى المبرد ، والجاحظ وغيرهما ممن شهد لهم بالفضل والعرفان بعد وفاته .

وأصبح البصريون يضربون به الأمثلة . كما كانوا يستثنونه من كل تعميم وهـــذا يرجع الى لون العصبية التى كانت بين البصرة وغيرها [1] . وتفتخـــر البصرة بأنها تمتاز عن غيرها بفضائل أهمها ثلاث . :

(١) الحسن البصرى (٢) العثمانية (٣) الرطـــب

وبسبب تأثير الحسن فى العصور التالية لعصره ، نجد أن الجاحظ مثلا ألف كتابا تحت عنوان : " نوادر الحسن " [2] . ولم أعثر اليـــه .

كذلك اهتم به أيضا الحافظ بن عبد الواحد المقدسى . فقد جمع مصنفـــا فيمن لقيه الحسن من الصحابـــة ولم أعثر عليه أيضا ..

مع مواسلتى الكثيرة والاتصال فى كثير من المكتبات التى تعنى بهذه الناحيـة . ولعل الأيام القادمة — ان شاء الله — تساعدنى على مواصلة البحث والتنقيب للحصـول على مثل هذه المراجع الهامـــة للاستفادة منها .

وقد أعجبتنى كلمة للأستاذ الندوى لخص فيها تأثير الحسن وأسبابه فى المجتمع فقال : " وكان من أعظم أسباب تأثير الحسن البصرى فى المجتمع ، ونفوذه فى القلوب والعقول ، أنه ضرب على الوتر الحساس ، ونزل فى أعماق المجتمع . ووصف أمراضـــه وانتقده انتقاد الحكيم الرفيق . والناصح الشفيق . لقد كان عصره يغص بالدعـــاة والوعاظ ، ولكن المجتمع لم يخضع لأحد خضوعه للحسن ، لأنه كان يمس قلبه وينزل فـــى صميم الحياة . ويعارض التيار . انه كان يذم النفاق والمنافقين . ويصفهم وصفا دقيقا . والمنافقون فى المجتمع كثير انه كان ينعى على المجتمع الاخـــلاد الى الحيـــاة والانهماك فى الشهوات .

وقد انتشـــر هذا المرض فى الحياة . انه كان يذكر بالموت . ويستحضـــ الآخرة . والمترفون يتناسون ذلك ويعللون نفوسهم بالأمانى الكاذبة والأحلام اللذيذة

---

(١) طبقات الشعراء لابن قتيبة ص ٥٧ ، ٥٥٣ (ط) أوربية .
(٢) أدب الجاحظ للأستاذ حسن السندوبى ص ١٤٤ ، معجم الأدباء لياقوت ج ١٦ ص ...

ويتضايقون بذكر ما يكدر عليهم الحياة ويعكر صفو عيشهم ، فكان دائما فى صراع مع الجاهلية . والجاهلية لا تخضع الا لمن صارعها . ولا تعترف الا بوجود الرجل الذى يحاربها . وكان الحسن البصرى هو ذلك الرجل . فعظم تأثيره وكثر التائبون والمقلعون عن المعاصى والحياة الجاهلية التى كانوا يعيشونها . وانطلقت موجة الاصلاح قوية مؤثرة ، لأن الحسن لم يقتصر على مواعظ وخطب كان يلقيها ، بل كان يعنى بتربية من يتصل به ويجالسه . فكان جامعا بين الدعوة والارشاد . وبين التربية العملية والتزكية الخلقية والروحية . فاهتدى به خلائق لا يحصيهم الا الله . وذاقوا حلاوة الايمان وتحلوا بحقيقة الاسلام " (١) .

ويؤيد كلام الندوى هذا عن تأثير الحسن فى المجتمع وأسبابه ما قاله عوام ابن حوشب فى الحسن : " ما أشبه الحسن الا بنبى أقام فى قومه ستين سنة يدعوهم الى الله تعالى " (٢) .

والحق أقول : ان الحسن البصرى شغل الأمة بأفكاره وآثاره فى مختلف العصور والأجيال سواء كان ذلك فى الجامعات والمعاهد العلمية أم فى القرى والبلاد غاية ما فى الأمر أنه كان يحتاج الى جمع لهذه الآثار والأفكار حتى تبرز شخصيته كاملة أمام كل الأنظار . وقد كان لى شرف المساهمة فى هذا العمل الكبير راجيا من المولى سبحانه أن يوفقنا لاتمامه ، انه سميع مجيب .

ومن هنا يجئ هذا السؤال : هل من الممكن أن ننتفع بأفكار وآراء الحسن البصرى فى نهضتنا الحديثة ؟ والجواب على ذلك نقول :

تمتاز الأمة الاسلامية عن غيرها من الأمم بوجود عدد غير قليل من رجال الدين والاصلاح فيها . يعملون على تجديد هذا الدين ، وتنقيته من الشوائب والخرافات والبدع ، فى صورة صادقة مهذبة تشجع على النظر فى هذا الدين واعتناقه والعمل بما فيه . كما تريه هذه الصورة الصادقة — أيضا — الشاردين عنه بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن . ومن هؤلاء الأعلام البارزين المصلحين صاحب هذه الترجمة " الحسن البصرى " .

---

(١) رجال الفكر والدعوة فى الاسلام لأبى الحسن على الحسنى الندوى ص ٦٥ — ٦٦ .
(٢) دائرة المعارف للبستانى ج ٧ ص ٤٤ .

وقد وجدنا الكثير من أفكار الحسن وآرائه فى هذه الرسالة المتواضعة ، تصلح للمشاركة فى نهضتنا الحديثة . خاصة فى هذه الظروف الحاسمة من تاريخ أمتنا العربية والاسلامية .

ونذكر فيما يلى أهم هذه الأفكار والآراء التى تسهم فى الحفاظ على تماسك الكلمة فى أمتنا ، كما أنها تعمل على صد المعتدين ماديا ومعنويا :

أولا : العمل على تقوية الوازع الدينى فى الفرد :

مما ابتليت به أمتنا العربية والاسلامية . فقدان الوازع الدينى — أو كما يسمى فقدان الضمير — عند كثير من أفراد هذه الأمة . ويظهر هذا بجلاء ووضوح فى كثير من المصالح المختلفة . فالكل يشكو — مثلا — من الجمعيات التجارية المختلفة ومشقة المواصلات ، وتعثر انجاز أى عمل من الأعمال فى جهاز الدولة الا بالتفاهم باللغة المعروفة بين الناس الى غير هذا من الأمور المتعددة . فاذا ما بحثنا عن السر وجدناه فقدان الوازع الدينى فى نفوس الأفراد .

لذا يركز الحسن البصرى جل اهتمامه على تربية الفرد وتقوية الوازع الدينى فيه . فبصلاح الفرد يصلح المجتمع كله وبفساده يفسد المجتمع كله .

ومما قاله فى هذا المعنى : " رحم الله امرءا عرف ثم صبر ، ثم أبصر فبصر ، فان أقواما عرفوا فانتزع أبصارهم ، فلاهم أدركوا ما طلبوا ، ولا هم رجعوا الى ما تركوا ...

وقال أيضا : " يا ابن آدم دينك دينك فانه لحمك ودمك (ان يسلم لك دينك يسلم لك لحمك ودمك) وان تكن الأخرى فتعوذ بالله فانها نار لا تطفى ، وجرح لا يبرأ ، وعذاب لا ينفد أبدا ، ونفس لا تموت[1] .. الخ الى غير هذا مما هو مبسوط فى الرسالة .

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ج ٢ ترجمة الحسن البصرى .

ثانيا : العمل على تقوية وحدة الأمـة :

مما ابتليت به أمتنا وجود بعض الشروخ فى جدار بنيانها . وكلما التأم شرخ وتماسك رأينا شرخا آخر يظهر على السطح . وهذا شأن الأمـم التى يقف فى طريق نهضتها العدو فى الداخل والخارج . وذلك مثـل ما حدث فى أمتنا بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ من ثورات لبعض طلاب الجامعات ، واحياء للنعرات الطائفية التى كاد العدو بسببها يعتقد بقرب نهايـة هذه الأمـة ..

حينئذ نجد أن الحسن البصرى بأفكاره وآرائه الطيبة يقضى على كـل هذه الفتن حتى قيل : " لولا الحسن ـ البصرى ـ وسيف الحجـاج لوئدت الدولة المروانيـة فى مهدها " . ومن أجل هـذه الأفكار والآراء للحسن نجد أن المسلم والمسيحى يجلس فى حلقته ليستفيد وقد يسلم الكافر قلبه لله تعالى .

كذلك لم يعطف رحمه الله على أى ثورة من الثورات التى تعمل علـى تمزيق الأمة(١) وتصدع كيانها . وقد عرفنا فيما مضى كيف كان موقفه من ثورتـى ابن الأشعث ، ويزيـد بن المهلب .

ومن أفكاره حينما سئل عن الولاة قوله : " وماذا عسى أن أقول فيهـم وهم يلون من أمورنا خمسا : الجمعة ، والجماعة ، والفىء ، والثغـور والحدود . والله لا يستقيم الدين الا بهم وان جاروا وظلموا ، والله لمـا يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون ، والله ان طاعتهم لغبطة ، وان فرقتهـم لكفر . فقال السائل : يا أبا سعيد والله انى لذو مال كثير وما يسرنـى أن يكون فى أمثاله وانى لم أسمع منك الذى سمعت فجـزاك الله عـن الدين وأهله خيرا " .

---

(١) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٧ ـ ٥٨ ، والطبقات الكبرى لابن سعـد ج ٧ ص ١١٣ ـ ١١٤ ، والبيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ١٤٣ ، ومروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ١٥٠ ـ ١٥٣ .

ثالثا : العمل على النصح للحاكم حتى يستقيم الأمر :

نسمع فى الحكم : " الناس على دين ملوكهم " . ولا شك أن الحاكم أو المسئول كبر أم صغر اذا كان قدوة طيبة لبقية أفراد المجتمع كان ذلك سببا فى اصلاح الكثير من أفراد الأمة .

على هذا فالحاكم أو المسئول فى حاجة ماسة الى من يوجه اليه النصح ، والارشاد لذا كان الحسن البصرى مثالا لهذا الناصح والمرشد . والدليل على هذا موقفه من الحجاج بن يوسف الثقفى ، والخليفة عمر بن عبد العزيز ، وابن أبى هبيرة وغيرهم . وقد ضربنا لهذا أمثلة متعددة فيما مضى ولو شئنا الحصر لما وسعتنا هذه الرسالة .

رابعا : العمل على الاعتقاد باليوم الآخر :

ان ما نراه فى أمتنا من الانهماك فى طلب الدنيا بشتى الطرق والوسائل وبصورة غير كريمة دليل على ضعف الاعتقاد باليوم الآخر . هذا اليوم العظيم الذى لو وضعه الانسان أمام عينيه وقلبه لما ضل الطريق أبدا .

لذا كان الحسن البصرى رحمه الله يركز الكثير من اهتمامه فى الدعوة لتزود الناس بأهمية هذا اليوم الخطير " يوم يقوم الناس لرب العالمين " وقد عرضنا فيما مضى نصوصا للحسن البصرى الدالة على هذا مع تحليل لبعض هذه النصوص .

وعلى سبيل المثال : " هيهات هيهات .. أهلك الناس الأمانى : قول بلا عمل ، ومعرفة بغير صبر ، وايمان بلا يقين ، مالى أرى رجالا ولا أرى عقولا .. .. وأسمع حسيسا ولا أرى أنيسا .. دخل القوم والله ثم خرجوا وعرفوا ثم أنكروا ، وحرموا ثم استحلوا ، انما دين أحدكم لقمة على لسانه ، اذا سئل أمؤمن أنت بيوم الحساب ؟ قال .. نعم : كذب ومالك يوم الدين ، ان من أخلاق المؤمن قوة فى دين ، وايمانا فى يقين ، وعلما فى حلم ، وحلما بعلم الخ .. [1]

---

(١) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٦٩ .

خامسا : دلالة الحسن البصري على النفاق والمنافقين :

من أخطر ما تصاب به أمة من الأمم وجود المنافقين فيها . ذلك لأن المنافق كما عرفنا سابقا يعلن خلاف ما يبطن . ويطلق على أمثال هؤلاء في العصر الحديث ما يسمى بالطابور الخامس . وكم ابتليت أمتنا بأمثال هؤلاء المفسدين الذين صوروا الحق باطلا والباطل حقا . مما كان سببا في ضياع الكثير من مصالح هذا المجتمع . فمن الممكن أن نتعرف على هؤلاء بصفاتهم التى ذكرها القرآن الكريم وكذلك السنة النبوية الشريفة مثل : الكذب ، والخيانة ، والخلف في الوعد ، والغدر ...

كما أنه من الممكن أيضا أن نستفيد من نظرة الحسن البصري اليهم حتى نحذرهم . قال رجل للحسن البصري : يا أبا سعيد .. أليوم نفاق ؟ قال : لو خرجوا من أزقة البصرة لاستوحشتم فيها . وهو بهذا يبين وجود النفاق والمنافقين في الأمة . ثم يعمل بطريقته الخاصة على فضح أسلوبهم ، وفساد خططهم . فلو عملنا بتخطيط الحسن في اصلاح الأمة لنجحنا كثيرا بعون الله تعالى .

وهكذا نجد الكثير من أفكار الحسن وآرائه في الفرد والأسرة والمجتمع ما لو عملنا به لا نضل أبدا . لأن ما قام به كان في ضوء الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح عليهم رضوان الله تعالى . فما أحوجنا اليه وما أحرانا أن نتأسى به في عصر تكالبت علينا فيه قوى الشر والبغى " يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون " . فاذا أردنا حظ الاستفادة من أفكار الحسن البصري وآرائه فعلينا أن نبحث وننقب عن كل ما قاله الحسن أو عمله فيما يتعلق بالدين والحياة . ثم نطبق هذه التعاليم الفاضلة على أنفسنا ومجتمعنا الذى نعيش فيه حتى نصل الى سعادة الدارين .

وهذا ما وهبنا له حياتنا — ان شاء الله — من البحث والتنقيب في آثار الحسن العلمية والعملية " ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب " .

أهـم المراجـع والمصـادر

(أ)

١ — القرآن الكريـم .

٢ — أنساب الأشراف . تصنيف أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذرى — الجزء الأول — تحقيق الدكتور محمد حميد الله . يخرجه معهد المخطوطـات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف سنة ١٩٦٠ م

٣ — الأدب المفرد لأبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ — تحقيق الأستاذ محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفيـة بالقاهرة سنة ١٣٧٩ هـ .

٤ — الأخبار الطوال . لأبى حنيفة الدينـورى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ ، اخـراج وزارة الثقافـة .

٥ — أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير — تحقيق الدكتور محمد البنا ، والأستاذ محمد عاشـور .
مطابع الشعب بالقاهرة (١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م) .

٦ — أمالى المرتضى — غرر الفوائد ودرر القلائـد . للشريف المرتضى علـى ابن الحسين الموسى العلوى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ — تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل .
القسم الأول — طبعة عيسى الحلبى ، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤ .

٧ — الاصابة فى تمييز الصحابة لشهاب الدين ابن حجر العسقلانى المتوفـى سنة ٨٥٣ هـ — طبع بمصر سنة ١٣٢٣ هـ

٨ — اعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ — طبع شركة الطباعة الفنية عام ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م .

٩ — الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى الشافعى ، نشر المكتبة التجارية الكـــبرى بالقاهرة عام ١٣٦٨ هـ ٠

١٠ — الأعلام للزركلى — الطبعة الثانية ٠

١١ — أحوال البصرة — تأليف العلامة فصيح بن السيد صبغة الله بن الحيدرى البغدادى — سنة ١٢٨٦ هـ ٠
الناشر : منشورات البصرى (١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م) ٠

١٢ — الاسلام فى الواقع الايدولوجى المعاصر للدكتور محمد البهى — طبعة دار الفكر ببيروت ١٩٧٠ ٠

١٣ — أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ٠ للدكتور ابراهيم شعوط — الطبعة الثالثة ٠

١٤ — الأشعرى أبو الحسن ٠ للدكتور حموده غرابه — الطبعة الأولى سنة ١٩٥٣ م

١٥ — الأحكام السلطانية لأبى الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى ٠ مطبعة الوطن مصر ١٢٩٨ هـ ٠

١٦ — أساس البلاغة للزمخشرى — طبع دار الشعب بالقاهرة ٠

١٧ — أدب السياسة فى العصر الأموى للدكتور أحمد الحوفى — الطبعة الثالثة ٠

١٨ — الانسان والاسلام للشيخ محمد الطاهر الحامدى ٠

١٩ — أدب الخلفاء الأمويين للدكتور عبد الرازق حميده — الانجلو المصرية ٠

٢٠ — أثر القراءات فى الدراسات النحوية للدكتور عبد العال سالم ٠ طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ٠

٢١ — اتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر ، للدمياطى الشافعى المتوفى سنة ١١١٧ هـ .

٢٢ — أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان — بغداد سنة ١٣٨٨ هـ

٢٣ — احياء علوم الدين ، للغزالى — طبعة المكتبة التجارية .

(ب)

٢٤ — البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ . تحقيق وشرح الأستاذ حسن السندوبى .
الطبعة الثانية من مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٦١ م — نشر المكتبة التجارية الكبرى .

٢٥ — البداية والنهاية فى التاريخ للحافظ عماد الدين ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ مطبعة السعادة بمصر .

٢٦ — الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير .
تأليف الأستاذ أحمد شاكر .

(ت)

٢٧ — تاريخ الأمم والملوك ، لأبى جعفر بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ — المطبعة الحسينية بالقاهرة .

٢٨ — تفسير الطبرى — جامع البيان عن تأويل القرآن ، تحقيق وتعليق محمد محمد شاكر وخرج أحاديثه أحمد شاكر .
طبعة دار المعارف بالقاهرة .

٢٩ — تفسير القرآن الكريم لسفيان الثورى — رواية أبى جعفر محمد عن أبى حذيفة النهدى ، تصحيح وتعليق الأستاذ على عرشى مدير مكتبة رضا (رامبور) بالهند .

٣٠ — تفسير غريب القرآن لابن قتيبة — تحقيق الأستاذ السيد صقر .

٣١ — تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة — تصحيح وضبط الأستاذ محمد زهرى النجار
الناشر : مكتبة الكليات الأزهرية (١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦ م) .

٣٢ — تفسير القرآن العظيم لابن كثير — طبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة .

٣٣ — تذكرة الحفاظ ، للحافظ الذهبى — مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية
بحيدر أباد — الهند (١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥ م) .
تحقيق وتصحيح عبد الرحمن يحيى المعلى .

٣٤ — تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير للذهبى .
نشر مكتبة القدسى بدرب سعادة بالقاهرة ١٣٦٩ هـ .

٣٥ — تقريب التهذيب لابن حجر العسقلانى .
تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف .

٣٦ — تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى .
مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة فى الهند .
الطبعة الأولى ١٣٢٥ هـ .

٣٧ — التاريخ الكبير للحافظ ابن عساكر الشافعى على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله
ابن الحسين بن عساكر الشافعى —
مطبعة روضة الشام عام ١٣٢٩ هـ المجلد الثانى .

٣٨ — التعرف لمذهب أهل التصوف . لأبى بكر محمد الكلاباذى .
تحقيق الأستاذ محمود أمين النواوى — الطبعة الأولى (١٣٨٩ هـ —
١٩٦٩ م) دار الاتحاد العربى للطباعة والنشر .

٣٩ — تاريخ التصوف فى الاسلام — ترجمه عن الفارسية : صادق نشأت — مراجعة
الدكتور أحمد ناجى ، والدكتور محمد مصطفى حلمى .

٤٠ ـ التبصير فى الدين وتمييز الفرق الناجية عن الفرق الهالكين . لأبى المظفر الاسفراييني المتوفى سنة ٤٧١ هـ .
تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى .
الناشر : مكتبة الخانجى بمصر (١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م) .

٤١ ـ تاريخ الخلفاء لعبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ
ادارة المطبعة المنيرية بالقاهرة عام ١٣٥١ هـ

٤٢ ـ التفسير الكبير للامام الفخر الرازى .
الطبعة الأولى لعبد الرحمن محمد ، والطبعة الأزهرية .

٤٣ ـ تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث ،
للشيخ عبد الرحمن بن على بن الديبع الشيبانى الشافعى
الأثرى المتوفى سنة ٩٤٤ هـ ـ مطبعة صبيح بالقاهرة .

٤٤ ـ تاريخ الأدب العربى ـ تأليف بروكلمان ـ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ـ
مطبعة دار المعارف لحساب جامعة الدول العربية .

٤٥ ـ تذكرة الدعاة للأستاذ البهى الخولى .
الطبعة الثالثة ـ دار الكتاب العربى بمصر .

٤٦ ـ تاريخ الاسلام السياسى والثقافى والاجتماعى للدكتور حسن ابراهيم .
مكتبة النهضة المصرية .

٤٧ ـ تاريخ الفرق الاسلامية للدكتور على مصطفى الغرابى ، الطبعة الأولى
سنة ١٩٤٨ م ـ الناشر : المكتبة الحسينية بالقاهرة
مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر .

٤٨ ـ التنسك الاسلامى .. للدكتور محمد غلاب .
طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

٤٩ — تاريخ التراث العربى لفؤاد سزكين • المجلد الأول — مترجم الى العربية بالقاهرة عام ١٩٧١ م •

٥٠ — كتاب التاريخ الكبير للامام البخارى — الجزء الأول — القسم الثانى — الطبعة الأولى بالهند •

٥١ — تدوين الدستور الاسلامى لأبى الأعلى المودودى •

٥٢ — التفكير الفلسفى فى الاسلام للدكتور عبد الحليم محمود • مكتبة الانجلو المصرية — الطبعة الأولى

(ج)

٥٣ — جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله • لأبى عمر يوسف عبد البر النمرى القرطبى الأندلسى المتوفى عام ٤٦٣ هـ — تصحيح ومراجعة الأستاذ عبد الرحمن عثمان • الناشر : المكتبة السلفية لصاحبها محمد عبد المحسن الكتبى بالمدينة المنورة — باب الرحمة — الطبعة الثانية (١٣٨٨هـ — ١٩٦٨م) •

٥٤ — جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهرة ، للأستاذ أحمد زكى صفوت الجزء الثانى الطبعة الأولى : (١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م) •

٥٥ — جوانب التفكير فى العقيدة الاسلامية ، للأستاذ يحيى هاشم حسن فرغل • من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية — الكتاب الأول والثانى (١٣٩٢هـ — ١٩٧٢ م) •

٥٦ — كتاب الجرح والتعديل للحافظ أبى محمد عبد الرحمن بن حاتم الرازى المتوفى سنة ٣٢٧ هـ — القسم الثانى من المجلد الأول •• الطبعة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر آباد الركن بالهند (١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م) •

٥٧ — الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبى — طبع دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانيـــة •

٥٨ - الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى ، تأليف الحافظ أبى عبد الله محمد بن الشيخ المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ .
تصحيح وتعليق الأستاذ محمود عبد الوهاب فايد - مكتبة صبيح ١٣٧٧ هـ .

٥٩ - الجاحظ ، للدكتور أحمد كمال زكى ، سلسلة أعلام العرب .

(ح)

٦٠ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء .
للحافظ أبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .
الطبعة الأولى على نفقة مكتبة الخانجى ومطبعة السعادة (١٣٥١ هـ ١٩٣٣ م) .

٦١ - الحسن البصرى لابن الجوزى . تقديم الأستاذ حسن السندوبى -
الطبعة الأولى ، مكتبة الخانجى (١٣٥٠ - ١٩٣١ م) .
تحت عنوان : الرسائل النادرة .

٦٢ - الحسن البصرى ، للدكتور احسان عباس .
الطبعة الأولى - دار الفكر العربى سنة ١٩٥٢ م

٦٣ - من تاريخ الجدل حسن البصرى ، للشيخ محمد أبو زهرة
مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية بالقاهرة .

٦٤ - الحياة الأدبية فى البصرة الى نهاية القرن الثانى الهجرى
للدكتور أحمد كمال زكى - رسالة دكتوراه دار الفكر بدمشق .
الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ .

٦٥ - الحيوان للجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون .

٦٦ - الحديث المرسل - حجيته وأثره فى الفقه الاسلامى .
للأستاذ محمد حسن هيتو - دار الفكر بلبنان - الطبعة الأولى

٦٧ - الخراج - للامام أبى يوسف (يعقوب بن ابراهيم) .
الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٥٢ م ، المطبعة السلفية .

٦٨ — الخطابة العربية فى عصرها الذهبى ، للدكتور احسان النص .
الطبعة الثانية ١٩٦٣ م — طبع دار المعارف — القاهرة .

٦٩ — الخطابة فى صدر الاسلام ، للدكتور محمد طاهر درويش — الجزء الثانى
طبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٧ م .

٧٠ — خلاصة تذهيب الكمال للخزرجى .

(د)

٧١ — كتاب دول الاسلام للذهبى — الطبعة الثانية — جمعية دار المعارف
العثمانية بعاصمة الدول الآصفية حيدر أباد الركن سنة ١٣٦٤ هـ .

٧٢ — دائرة المعارف للبستانى — المجلد الخامس والسابع .

٧٣ — الدعوة الى الاسلام للمستشرق توماس أرنولد — ترجمة حسن ابراهيم وآخرين
الطبعة الثانية ١٩٥٧ م .

٧٤ — دائرة المعارف الاسلامية ، لمجموعة من المستشرقين .
ومترجمة من الانجليزية الى العربية .

٧٥ — الدين الخالص ، للشيخ محمود خطاب السبكى .

٧٦ — الدعوة الى الاسلام ، للدكتور أبو بكر ذكرى (١٣٨١ هـ — ١٩٦٢ م) .

٧٧ — الدين العالمى ومنهج الدعوة اليه للشيخ عطيه صقر .
سلسلة البحوث الاسلامية .

٧٨ — دراسات فى العربية وتاريخها للشيخ محمد الخضر حسين .
الناشر : المكتب الاسلامى بدمشق ، الطبعة الثانية
(١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م) .

٧٩ — الدعوة الى الاصلاح — للشيخ محمد الخضر حسين .

٨٠ — الدولة الأموية — للدكتور محمود زياده .

٨١ — الدولة الأموية — للدكتور محمد الطيب النجار .

٨٢ — الدولة العربية — للدكتور نظير احسان .

(ر)

٨٣ — الرسالة القشيرية لأبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى ٤٦٥ هـ
الطبعة الأولى (١٣٨٥ هـ — ١٩٦٦ م) .

٨٤ — الرعاية لحقوق الله لأبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى المتوفى
سنة ٢٤٣ هـ . تحقيق الأستاذ عبد القادر عطا وتقديم الدكتور
عبد الحليم محمود ، الطبعة الثالثة — مطبعة السعادة بالقاهرة
(١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م) .

٨٥ — رجال الفكر والدعوة فى الاسلام لأبى الحسن الندوى ، مكتبة الفتح بدمشق

٨٦ — رسائل العدل والتوحيد — تحقيق محمد عمارة — طبع دار الهلال بالقاهرة
الجزء الأول .

٨٧ — رسالة الحسن البصرى أجاب على رسالة أرسلها اليه أمير المؤمنين عبد الملك
ابن مروان يسأله عن رأيه فى القدر .
نسخة مصورة بدار الكتب المصرية (٥٢٢١ — ٣٠ ق ١٧×٢٥سم)
وهى مأخوذة عن مخطوطة أيا صوفيا المنسوخة فى القرن التاسع
الهجرى سنة ٨٨٢ هـ . ومنها نسخة بمكتبة جامعة الدول العربية
(ف ١٩٧ ، ٧٩٢) .

٨٨ — رسالة فى فضل مكة منسوبة الى الحسن البصرى بقسم المخطوطات
بدار الكتب تحت رقم (٣٦٠٢ ح) مكتوبة بخط الشيخ البتنونى .

٨٩ — الروض الفائق فى المواعظ والرقائق للشيخ شعيب الحريفيش .
مطبعة مصطفى الحلبى (١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م) .

٩٠ — ربانية لا رهبانية لأبى الحسن الندوى — دار الفتح ببيروت .

(ز)

٩٢ — زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزية .
طبع ابن الخطيب بالمطبعة المصرية ومكتبتها .

(س)

٩٣ — سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى
تحقيق محب الدين الخطيب — مطبعة المؤيد بالقاهرة ١٣٣١ هـ

٩٤ - السنة قبل التدوين للأستاذ محمد عجاج الخطيب .
مكتبة وهبة بالقاهرة - الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ .

٩٥ - السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة . للدكتور محمد أبو شهبة
طبع دار الأنوار بالقاهرة .

٩٦ - السبيل الى دعوة الحق والقائم بأمرها ، للدكتور محمد البهي
سلسلة البحوث الاسلامية

٩٧ - سيرة عمر بن عبد العزيز لأبي عبد الله بن عبد الحكم تحقيق أحمد عبيد
الطبعة الخامسة - دار العلم للملايين ببيروت ١٩٦٧ م

٩٨ - سير أعلام النبلاء للذهبي .

(ش)

٩٩ - شرح الأصول الخمسة لقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد .
تعليق الامام أحمد بن الحسين بن أبي هاشم
تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان - الناشر مكتبة وهبة بالقاهرة .

١٠٠ - شرح مطالع الأنظار لأبي عبد الرحمن الأصفهاني المتوفى سنة ٧٤٩ هـ -
على متن طوالع الأنوار للبيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥ هـ -
الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٣ هـ .

١٠١ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي .

١٠٢ - شهيدة العشق الالهي رابعة العدوية للدكتور عبد الرحمن بدوي -
الطبعة الثانية ١٩٦٢ م - مكتبة النهضة المصرية

١٠٣ - شرح عيون المسائل للامام الحاكم أبو سعد المحسن بن كرامة الجشمي البيهقي
(٤٣١ - ٤٩٤ هـ) . الجزء الأول .
اللوحات ٧٢ - ٧٤ من مصورة دار الكتب المصرية (٢٧٦٢٣ب) .

١٠٤ - الشخصية ، للأستاذ محمد عطيه الابراشي . الطبعة الثالثة ١٩٣٨ م

١٠٥ — صفة الصفوة لابن الجوزى . جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن على ابن محمد بن الجوزى ، أربعة أجزاء حيدر آباد ، دائرة المعارف العثمانية بالهند (١٣٥٥ هـ — ١٣٥٦ هـ)

١٠٦ — الصلة بين التشيع والتصوف ، للدكتور مصطفى الشيبى — الجزء الأول الطبعة الثانية — مراجعة ومزيدة — طبعة دار المعارف بالقاهرة

(ط)

١٠٧ — الطبقات للامام المحدث أبى عمرو خليفة بن خياط شباب العصفورى المتوفى سنة ٢٤٠ هـ — رواية أبى عمران موسى بن زكريا التسترى . حققه وقدم له (أكرم ضياء الدين العمرى)

١٠٨ — الطبقات الكبرى لعبد الوهاب الشعرانى ، المسماه بلواقح الأنوار فى طبقات الأخيار . المطبوع سنة ١٣٠٥ هـ أواخر شهر جمادى الآخرة — المطبعة العثمانية — الجزء الأول .

١٠٩ — الطبقات الكبرى لابن سعد (محمد بن سعد كاتب الواقدى) . ثمانية أجزاء — بيروت ١٩٥٧ م .

١١٠ — طبقات الفقهاء لأبى اسحاق ابراهيم بن على الشيرازى المتوفى ببغداد سنة ١٣٥٦ هـ . تحقيق الدكتور احسان عباس .

١١١ — طبقات المفسرين لابن أحمد الداودى المتوفى سنة ٩٤٥ هـ الجزء الأول مكتبة وهبة بالقاهرة .

(ع)

١١٢ — عيون الأخبار لابن قتيبة — طبع دار الكتب وبيروت .

١١٣ — العقد الفريد لابن عبد ربه . تحقيق محمد سعيد العريان — ثمانية أجزاء .

١١٤ — العقيدة والأخلاق وأثرها فى الفرد والمجتمع للدكتور محمد بيصار . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨ م .

(غ)

١١٥ — غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى المتوفى سنة ٨٣٣ هـ .
عنى بنشره (براجستراير) — مكتبة الخانجى — الطبعة الأولى
الجزء الأول (١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م) .

(ف)

١١٦ — فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى — تقديم السيد صقر
مطابع جريدة الأهرام ، الجزء الأول .

١١٧ — الفرق بين الفرق لعبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى الاسفراييني
التميمى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ .
تحقيق وتعليق محمد محيى الدين عبد الحميد
مكتبة ومطبعة صبيح بالأزهر .

١١٨ — الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن طباطبا — محمد
ابن على المعروف بابن الطقطقى — القاهرة ١٣١٩ هـ .

١١٩ — فى التصوف الاسلامى وتاريخه — للمستشرق نيكلسون — ترجمة الدكتور أبو العلا
عفيفى — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة
(١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م) .

١٢٠ — فى الثورة للدكتور محمد عبد المعز نصر ، طبعة جامعة الاسكندرية ١٩٦٤ م

١٢١ — فجر الاسلام للدكتور أحمد أمين — الطبعة السابعة ١٩٥٩ م .

١٢٢ — الفقه الاسلامى . مدخل لدراسته ونظام المعاملات فيه ،
للدكتور محمد يوسف موسى .

١٢٣ — فتوح البلدان لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى ، تحقيق صلاح الدين المنجد
مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٥٦ م

١٢٤ — الفهرست لابن النديم — طبعة بيروت .

١٢٥ — الفتنة الكبرى — عثمان ، للدكتور طه حسين ، طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م

١٢٦ — فن الخطابة وتطوره عند العرب ، للأستاذ ايليا حاوى — دار الثقافة ببيروت .

١٢٧ — فقه السنة — للشيخ السيد سابق ، طبع دار الكتاب العربى .

١٢٨ — فقه الزكاة ، للأستاذ يوسف القرضاوى — مجلدان / طبع بيروت لبنان

(ق)

١٢٩ — قوت القلوب فى معاملة المحبوب ، لأبى طالب المكى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ .
طبعة مصطفى الحلبى (١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م) .

١٣٠ — قانون الرواية عند المحدثين للدكتور سيد ندا ، والدكتور السيد الحكيم — الطبعة الأولى .

١٣١ — القراءة الشاذة وتوجيهها عند العرب ، للشيخ عبد الفتاح القاضى

١٣٢ — القراءات القرآنية فى علم اللغة الحديث ، للدكتور عبد الصبور شاهين ، دار القلم عام ١٩٦٦ م .

١٣٣ — القراءات فى نظر المستشرقين والملحدين ، للشيخ عبد الفتاح القاضى
مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية (١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م) .

١٣٤ — القاموس المحيط لفيروزآباد — طبعة مصطفى الحلبى

١٣٥ — ابن القيم وموقفه من التفكير الاسلامى للدكتور عوض الله حجازى .
من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية (١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م) .

(ك)

١٣٦ — كتاب الوزراء والكتاب — تصنيف أبى عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى المتوفى سنة ٣٣١ هـ . الطبعة الأولى — مطبعة مصطفى الحلبى بالقاهرة (١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م) .

١٣٧ — الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية ، تأليف الشيخ عبد الرؤوف المناوى
الطبعة الأولى ، تصحيح وتعليق الشيخ محمود حسن ربيع .

١٣٨ — الكامل فى التاريخ لابن الأثير على بن أحمد بن أبى الكرم المتوفى سنة ٦٣٠ هـ
طبعة بولاق ١٢٧٤ هـ .

(ل)

١٣٩ — لسان العرب لابن منظور — طبعة بيروت .

١٤٠ — لطائف الاشارات لفنون القراءات للامام شهاب الدين القسطلانى المتوفى ٩٢٣ هـ
الجزء الأول — تحقيق وتعليق الشيخ عامر السيد عثمان
والدكتور عبد الصبور شاهين . طبع المجلس الأعلى للشئون
الاسلامية بالقاهرة (١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م)

١٤١ — اللمع لأبى نصر السراج الطوسى — تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود
والأستاذ طه عبد الباقى سرور — مطبعة السعادة سنة ١٩٦٠ م
الطبعة الأولى .

(م)

١٤٢ — المراسيل لأبى داود سليمان بن أشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٤٣ هـ .

١٤٣ — المعارف لابن قتيبة أبى محمد عبد الله بن مسلم المتوفى سنة ٢٧٦ هـ .
تحقيق وتقديم ثروت عكاشة — مطبعة دار الكتب ١٩٦٠ م .

١٤٤ — مروج الذهب ومعادن الجوهر . لأبى الحسن على بن الحسين بن على
المسعودى — الطبعة الثانية ١٩٤٨ م ،
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

١٤٥ — معجم البلدان لياقوت الحموى الرومى البغدادى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ —
بيروت (١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م) .

١٤٦ — ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ، للذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ .
تحقيق على محمد البجاوى — الطبعة الأولى سنة ١٩٦٣ م ،
مطبعة عيسى البابى الحلبى .

١٤٧ — معجم الأدباء لياقوت — الطبعة الأخيرة .

١٤٨ — مشاهير علماء الأمصار لمحمد بن حبان البستى ، عنى بتصحيحه م . فلايشهمر
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة (١٣٧٩ هـ — ١٩٥٩ م)

١٤٩ — المنقذ من الضلال لحجة الاسلام أبى حامد الغزالى ، مع أبحاث فى التصوف
للدكتور عبد الحليم محمود — الطبعة السادسة (١٣٨٨ هـ —
١٩٦٨ م) . دار النصر للطباعة بالقاهرة .

١٥٠ — مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى ، تحقيق الأستاذ مصطفى عمـــاره
الطبعة الأولى (١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م)
دار احياء الكتب العربية بالقاهرة .

١٥١ — الملل والنحل للشهرستانى — طبعة الانجلو — تخريج الدكتور محمـــد
ابن فتح الله بدران — وطبعة الحلبى تخريج الدكتـــور
محمد سيد الكيلانى .

١٥٢ — مذاهب الاسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوى — الجزء الأول —
نشر دار العلم للملايين — بيروت .

١٥٣ — مقدمة كتاب الانتصار لأبى الحسين الخياط تحقيق الدكتور نيبرج .
طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ م

١٥٤ — مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين الهيثمى .
طبع القدسى بالقاهرة سنة ١٩٥٣ هـ

١٥٥ — كتاب المصاحف للحافظ أبى بكر عبد الله بن أبى داود سليمان بن الأشعـــث
السجستانى المتوفى سنة ٣١٦ هـ .
صححه ووقف على طبعه الدكتور آثر جفرى — الطبعة الأولـــى
(١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م) ، المطبعة الرحمانية بمصر .

١٥٦ — المختار من صحيح مسلم — المقدمة .
شرح وتحقيق الدكتور مصطفى أمين التازى ، طبع بالقاهرة ١٩٦١ م

١٥٧ — منجد المقرئين ومرشد الطالبين لابن الجزرى .

١٥٨ — مقدمتان فى علوم القرآن ، وهما مقدمة المبانى ومقدمة ابن عطيه .
نشر وتصحيح المستشرق الدكتور آثر جفـــرى .
مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٥٢ م

١٥٩ — المفردات فى غريب القرآن ، للراغب الأصفهانى .
مطبعة مصطفى الحلبى بالقاهـــــرة .

١٦٠ — المصباح المنـــــير ، للفيـــومى .

١٦١ — محاضرات فى علوم الحديث للدكتور مصطفى أمين التازى ، الطبعة الثانية مطبعة التأليف (١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م) الجزء الأول

١٦٢ — مسجد جامع البصرة الكبير للشيخ عبد القادر باش أعيان العباسى . منشورات البصرى (١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م) .

١٦٣ — مذكرة عن الحسن البصرى للأستاذ البهى الخولى .

١٦٤ — مع الله . دراسات فى الدعوة والدعاة ، للشيخ محمد الغزالى ، الطبعة الثانية ، طبعة دار السعادة بمصر ١٣٨٠ هـ .

١٦٥ — محاضرات فى الفرق والدعوة الاسلامية ، للشيخ محمد عبد التواب .

١٦٦ — ملامح الانقلاب الاسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز للدكتور عماد الدين خليل طبع بيروت .

١٦٧ — موضوعات من القرآن الكريم للدكتور سيد أحمد المسير .

١٦٨ — مدخل الى القرآن الكريم . عرض تاريخى وتحليل مقارن للدكتور محمد عبد الله دراز — ترجمه لأول مرة عن الفرنسية الأستاذ محمد عبد العظيم على وراجعه الدكتور السيد محمد بدوى — طبع دار القرآن بالكويت الطبعة الأولى (١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م) .

١٦٩ — مبادئ علم الأخلاق للدكتور محمد عبد الله دراز .

١٧٠ — المؤتمر الأول لمجمع البحوث الاسلامية — بحث للشيخ على عبد الرحمن ، عن انتشار الاسلام .

١٧١ — المعتزلة للأستاذ زهدى حسن جاد الله .
منشورات النادى العربى ، بيافا سنة ١٩٤٧ م .

١٧٢ — محاضرات البحوث الاجتماعية للشيخ عطية صقر ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٩ هـ نشر مكتبة الكليات الأزهرية .

١٧٣ — المختار من التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ، لزين الدين الزبيدى المتوفى سنة ٨٩٣ هـ ، وشرحه المسمى فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى للشرقاوى المتوفى سنة ١٢٢٦ هـ
تحقيق وتعليق الدكتور مصطفى أمين التازى .

١٧٤ — الموالى فى العصر الأموى للدكتور محمد الطيب النجار .
الطبعة الأولى — دار النيل للطباعة .

١٧٥ — المنية والأمل للمرتضى — صورة دار الكتب المصرية (٢٧٧٩٨ ب)
اللوحة (٤٧ ، ٤٨) .

١٧٦ — مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان
تأليف الامام أبو محمد عبد الله بن سعد بن على بن سليمان
اليافعى اليمنى المكى المتوفى ٧٦٨ هـ — الجزء الأول
الطبعة الثانية — منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات/بيروت

١٧٧ — مالك . حياته وعصره — آراؤه وفقهه ، للشيخ محمد أبو زهره
الطبعة الثانية ، طبع ونشر دار الفكر العربى ١٩٦٣—١٩٦٤م

١٧٨ — منهاج السنة لابن تيمية الجزء الثانى .

(ن)

١٧٩ — نزهة الألبا فى طبقات الأدباء ، لابن الانبارى .

١٨٠ — نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ، للدكتور على سامى النشار .
الجزء الأول : الطبعة الرابعة عام ١٩٦٦ م
الجزء الثالث : الطبعة الأولى عام ١٩٦٩ م
طبع دار المعارف بالقاهرة

١٨١ — نشأة التصوف الاسلامى ، للدكتور ابراهيم بسيونى .
الجزء الأول — دار المعارف بالقاهرة .

١٨٢ — النفاق والمنافقون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
للأستاذ ابراهيم على سالم .

١٨٣ — نشأة الفقه الاجتهادى وأطواره ، للشيخ محمد على السايس .
طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

(هـ)

١٨٤ – هداية المرشـدين الى طرق الوعظ والخطابة ، للشيخ على محفـوظ
الطبعة الخامسة – طبعة دار السعادة بمصر ١٣٨٠ هـ

(و)

١٨٥ – ولاة البصرة ومتسلموها لابن الغملاس – دار منشورات البصرى .

١٨٦ – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمـان لابن خلكان ،
تحقيـق الشيخ محيى الدين عبد الحميـد .
مكتبة النهضة المصريـة .

(ى)

١٨٧ – ينابيع الفكر الاسلامى وعوامل تطـوره . بدكتور محمد غـلاب .
طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلاميـة .

((((الفهرست))))

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحة
المقدمة	أ
الباب الأول : عصر الحسن البصري ـ تمهيد :	٣
الفصل الأول : الأحوال الاجتماعية في عهـــــد	
الخلفاء الراشدين	٥
اهتمام الاسلام بالفرد	٧
الأسرة في ضوء الاسلام	٨
نظرة الاسلام الى الرقيـــق	٩
تهذيب الاسلام للسلوك الاجتماعي	١٠
التحول الحضاري في المجتمع الاسلامـــــي	
بعد عصر الراشدين	١١
بعض مظاهر الحياة الاجتماعية	١٢
تطور هذه المظاهر في العهد الأموي ...	١٤
الفصل الثاني : الحالة السياسية ـ معنى السياسة ...	١٩
سياسة الحكم في الاسلام	٢٠
نشأة الخلافة الاسلامية	٢١
الحكم في عهد الخلفاء الراشدين	٢٢
نماذج من الحكم في عهد الراشديـــن	٢٥
فترة الفتنة الكـــبرى	٢٩
أسباب قيام دولة بني أميـــة	٣٣
الحكم في عهد بني أميـــة	٣٥
خلفاء بني أمية الذين عاصروا الحسن	٤٠
الفصل الثالـــث : الحياة الفكرية ـ تمهيد :	٤٤
الفتوحات ودخول الموالي في الاسلام	٤٧
أسباب ظهور الأحزاب والفرق الدينية	٤٧
نشأة الأحزاب والفرق الدينيـــــة	٤٧

(((تابع الفهرست)))

الموضوع	رقم الصفحة
الشيعة - نشأة الشيعة	٥٠
أهم مركز لانتشار المذهب الشيعي وأسباب ذلك	٥٢
الثورات الشيعية	٥٢
أشهر فرق الشيعة	٥٣
المبادئ العامة لفرق الشيعة	٥٤
الخوارج - نشأة الخوارج	٥٦
بين الامام علي والخوارج	٥٧
أهم فرق الخوارج :	٥٩
أ - الأزارقة	٥٩
ب - النجدات	٦٠
ج - الصفرية	٦١
د - الاباضية - بين الشيعة والخوارج	٦٢
المرجئة	٦٣
مبادئ المرجئة	٦٤
فرق المرجئة	٦٥
كلمة أخيرة عن المرجئة	٦٦
المعتزلة - تمهيد	٦٧
تسمية المعتزلة والسبب فيها	٧١
أشهر مبادئ المعتزلة	٧٢
الصبغة العامة لعصر الحسن الفكري	٧٤
الباب الثاني : الحسن البصري - حياته .. تكوين شخصيته	٧٦
تمهيد - أضواء على المدينة المنورة	٧٧
البصرة	٨٠
الفصل الأول : حياته	٨٩
بيئته	٩١

((تابع الفهرست))

الموضـــــوع	رقم الصفحة
بيئته الخاصة وتأثيرها فيه	٩٢
بيئته العامة وتأثيرها فيه	٩٣
انتقال الحسن وأسرته الى البصرة	٩٦
حياته الأسرية واليومية	٩٨
اشتراكه فى الفتوحات ورجوعه الى البصـرة ...	١٠٣
موقف الحسن من اشتراكه فى الفتوحـــــات	
والعودة الى حلقة المسجد	١٠٤
موقف الحسن من الحجاج	١٠٩
علاقة الحسن بالخليفة العادل عمـــــر	
ابن عبد العزيز	١١١
رحلته الى بيت الله الحرام	١١٦
موقفه من ثورتى ابن الأشعث ، ويزيد ابـــــن	
المهلب	١١٧
الأيام الأخيرة فى حيات الحسن ووفاته ...	١١٨
الفصل الثانـــى : مؤهلات الحسن البصـــــرى	
وتكوين شخصيته ، صفاته الظاهرية	١٢٢
صفاته المعنويـــــة	١٢٥
شيوخه	١٣٥
أنس بن مالك	١٣٥
عبد الله بن عباس	١٣٧
عامر بن عبد القيس	١٣٨
صلة بن أشـيم	١٤٠
هرم بن حيان العبدى	١٤١
حطان الرقاشى وأبو العاليـــة	١٤٢
قرناء الحسن من العلماء ـ ابن سيرين ...	١٤٦
موازنة بين الحسن وابن سيرين ـ عامر الشعبى	١٤٨

(((تابع الفهرست)))

الموضوع	رقم الصفحة
الباب الثالث : فكره .. وزهده .. ودعوته الى الله	
تمالى	١٥٢
الفصل الأول : فكره – معنى الفكر	١٥٣
أهمية الفكر في الاسلام	١٥٤
مدرسة الحسن أو تلاميذه	١٥٥
واصل بن عطاء	١٥٧
عمرو بن عبيد	١٥٩
أبو عمرو بن العلاء	١٦٣
عيسى الثقفي	١٦٤
فرقد السبخي	١٦٥
حبيب العجمي	١٦٧
مالك بن دينار	١٦٩
شعبة بن الحجاج	١٧٠
أيوب السختياني	١٧١
خلاصة الحديث عن تلاميذ الحسن ومدرسته ...	١٧٢
أنماط من الفكر عند الحسن البصري	١٧٤
أ – في القراءات – تمهيد	١٧٤
مصدر القراءات	١٧٧
القراءة الصحيحة والشاذة	١٨٠
قراءة الحسن	١٨١
أهمية القراءات	١٧٤
ب – في التفسير – تمهيد	١٨٥
تفسير الحسن البصري	١٨٦
تدبره للقرآن الكريم	١٩٥

((تابع الفهرست))

الموضـــوع	رقم الصفحة
جـ ـ فى السنة ـ تمهيد	١٩٧
علاقة الحسن بالسنة	١٩٩
أشهر المذاهب فى حجية المرسل ...	٢٠١
المدلس	٢٠٥
التدليس لغة واصطلاحا	٢٠٦
د ـ فى الفقه ـ تمهيد	٢٠٨
دور النشأة ـ دور الشباب	٢١٠
فقه التابعين	٢١٢
الحرية الدينية فى فكر الحسن	٢١٣
هل الكلام يبطل الصلاة ؟	٢١٥
حكم من مات بدون حج مع القدرة عليه ...	٢١٦
حكم الزكاة فى مال الصبى والمجنون	
ومن فى حكمهما	٢١٨
خلاصة لفكر الحسن فى الفقه والتشريع	
الاسلامى	٢٢١
هـ ـ فى العقيدة ـ تمهيد	٢٢٣
القدر ورأى الحسن فيه	٢٢٦
كتاب عبد الملك بن مروان الى الحسن	
البصرى	٢٣٠
تعليق على هذا الكتاب	٢٣١
رسالة الحسن الى عبد الملك	٢٣١
تحقيق الرسالة والتعليق عليها	٢٣٥
خلاصة المعانى التى تهدف اليها	
الرسالة	٢٤٠
الايمان فى نظر الحسن	٢٤٢
مرتكب الكبيرة ورأى الحسن فيه	٢٤٤
و ـ فى الزهد والدعوة الى الله تعالى ...	٢٤٥

(((تابع الفهرست)))

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحة
الفصل الثاني : زهده - تمهيد	٢٤٦
معنى الزهـد ودليلـه	٢٤٧
علامات الزهـد	٢٥٠
زهد الحسـن	٢٥١
تحليل ما سبق من أقوال الحسن	٢٥٣
مظاهر الزهد عند الحسـن	٢٥٧
التصوف والاسلام - أصل كلمة التصوف	٢٥٩
تعريف التصـوف	٢٦١
التصوف في صدر الاسلام	٢٦٣
الفرق بين الزهد والتصوف	٢٦٤
هل كان الحسن متصوفا	٢٦٥
صلة الحسن البصري برابعة العدوية	٢٦٩
بعض الروايات التي تثبت صلة الحسن برابعة ..	٢٧٠
نقد الروايات وتمحيصها	٢٧٢
التصوف والصوفية في الميزان	٢٧٦
الفصل الثالث : دعوته الى الله تعالى	٢٨٠
تمهيـد	٢٨٠
معنى الدعوة في اللغة ، وفي الاصلاح ...	٢٨١
أهمية الدعوة الى الله تعالى	٢٨٣
أصول الدعوة - موضوع الدعوة الى الله ...	٢٩٣
الداعية الى الله تعالـى	٣٠٠
اختلاف أساليب الدعاة الى الله حسب اختلاف المدعوين	٣٠٣
وسائل الدعوة الى الله تعالى	٣٠٥
أهداف الدعوة الى الله تعالى	٣٠٨

(((تابع الفهرست)))

الموضـــــوع	رقم الصفحة
اهتمام الحسن بالدعوة الى الله تعالى وسبب ذلك	٣١١
منهج الحسن البصري وطريقته فى الدعوة الى الله تعالى	٣١٣
موقف الحسن من الحكام	٣١٩
الحسن البصري وثورة ابن الأشعث	٣٢١
الحسن البصري وثورة يزيد بن المهلب	٣٢٢
موعظة الحسن للحكام	٣٢٥
أسلوب الحسن فى الدعوة الى الله تعالى ...	٣٣١
الموضوعات التى تناولها الحسن فى دعوته الى الله	٣٣٤
تركيزه على حقيقة الموت والتزود للآخرة ...	٣٣٤
تقوية الوازع الدينى فى الفرد	٣٣٨
الحث على مكارم الأخلاق	٣٤٠
الحض على التمسك بكتاب الله والعمل به ..	٣٤٢
الخاتمة	٣٤٥
أهم المراجع والمصادر	٣٥٥